www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

إعجاز القرآن

ومنهج البحث عن التميز

د. محمد محمد أبو موسى

بسم الله الرحمن الرحيم

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز

كاتب:

محمد ابراهيم شادى

نشرت فى الطباعة:

مكتبة جزيرة الورد

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز ----- ۱۳
اشارة ----- ۱۳
تقديم ----- ۱۳
تمهيد ----- ۱۴
[الفصل الأول بذور الموازنة عند القدماء] ----- ۱۶
المبحث الأول بذور الموازنة عند الرماني ----- ۱۶
اشارة ----- ۱۶
مراحل الموازنة و شروطها: ----- ۱۷
الموازنة التطبيقية: ----- ۱۷
اشارة ----- ۱۷
أسس الموازنة التطبيقية: ----- ۱۸
اشارة ----- ۱۸
الأول: كيفية التصوير الحسى للمعانى. ----- ۱۹
الثانى: التأثير النفسى لذلک التصوير. ----- ۱۹
فروق الموازنات التطبيقية: ----- ۱۹
التميز الناشئ عن الموازنة: ----- ۲۰
اشارة ----- ۲۰
ففى باب التصريف: ----- ۲۰
و فى باب التضمين: ----- ۲۱
و فى باب البيان: ----- ۲۱
إعجاز الإيقاع عند الرماني: ----- ۲۲
المبحث الثانى جذور البحث عن التميز عند الخطابى ----- ۲۲

۱- بین الرمانی و الخطابی: ۲۲
۲- أفکار الخطابی فی منهج البحث عن التمیز: ۲۵
الموازنة عند الخطابی: ۲۶
وجه أخیر للإعجاز: ۲۷
المبحث الثالث جهات تمیز القرآن عند الباقلانی ۲۸
اشارة ۲۸
۵- مدخل ضروب البلاغة فی الإعجاز: ۳۰
الموازنة عند الباقلانی: ۳۰
بین منهج الرمانی و الباقلانی: ۳۱
تقویم منهج الباقلانی: ۳۲
المبحث الرابع البحث عن التمیز عند عبد القاهر ۳۳
اشارة ۳۳
أدوات البحث عن الإعجاز: ۳۳
النص علی الموازنة: ۳۴
منهج عبد القاهر فی الکشف عن الإعجاز: ۳۵
الموازنة عند ابن ناقیا البغدادی: ۳۶
المبحث الخامس منهج البحث عن التمیز عند ابن أبی الإصبع ۳۸
اشارة ۳۸
التنظیر: (الموازنة بین المعانی و الموازنة بین المبانی): ۴۰
الاستقصاء: (أو الموازنة فی ترقی المعانی) ۴۴
اشارة ۴۴
الأولی: خصوصیات المعانی. ۴۵
الثانیة: طریقة الاستقصاء فیها. ۴۵
الموازنة فی باب (صحة التقسیم): ۴۶

موازنات غير صريحة: ۴۸
اشارة ۴۸
۱- فی باب النزاهة: ۴۹
۲- و فی باب الافتنان: ۵۰
۳- باب الإبداع: ۵۰
الفصل الثانی ثمرات الموازنات عند المحدثين فی الإعجاز ۵۲
المبحث الأول [اعجاز القرآن للرافعی] ۵۲
اشارة ۵۲
إعجاز النظم عند الرافعی: ۵۳
[اعجاز النظام الصوتی] ۵۴
إثبات التميز بالموازنة: ۵۸
۲- إعجاز الكلمة: ۵۹
روم التراكيب: ۵۹
غرابة الأوضاع التركيبية: ۶۰
المبحث الثانی الإعجاز و منهج البحث عن التميز عند الشيخ عبد اللّه دراز ۶۱
اشارة ۶۱
خصائص الإعجاز عند عبد اللّه دراز: ۶۲
اشارة ۶۲
۱- فالميزة الأولى: ۶۲
۲- و الميزة الثانية: خطاب العامة و الخاصة: ۶۳
۳- إقناع العقل و إمتاع الوجدان: ۶۳
۴- البيان و الإجمال: ۶۴
المبحث الثالث منهج سيد قطب فی البحث عن التميز و نظرية التصوير الفنی ۶۵
اشارة ۶۵

مکانة التصویر فی الإعجاز عند سید قطب: ۶۶
وقفات نقدیة مع موارد التصویر القرآنی و ضروبه: ۶۷
عناصر التصویر: ۶۹
التناسق الفنی: ۷۰
المبحث الرابع الموازنة بین الشیخ محمود شاکر و مالک بن نبی ۷۲
اشارة ۷۲
البحث عن التمیز عند مالک بن نبی: ۷۴
المبحث الخامس الإعجاز و منهج البحث عن التمیز عند أحمد دیدات ۷۶
اشارة ۷۶
منهج البحث عن الإعجاز عند دیدات: ۷۸
بین النص القرآنی و النص النبوی: ۷۹
الفصل الثالث موازنات تطبیقیة للفصل فی قضایا شائکة ۸۱
اشارة ۸۱
المبحث الأول موازنات فی ضوء إشارات ابن ناقیا ۸۱
اشارة ۸۱
(۱) الموازنة بین صور المعانی: ۸۱
۲- موقع المعنی و تشکیله فی إطار الصورة: ۸۴
۳- خصوصیة المعنی و أثره علی کیفیات التصویر: ۸۵
۴- خصوصیة المعنی و تأثیره علی کیفیات الصیاغة: ۸۸
۲- وجه دلالة الاقتباس علی الإعجاز: ۹۰
۳- من أوجه تصرف الشعر فی الصورة القرآنیة: ۹۱
الوجه الأول: اقتباس المشبه به: ۹۱
الوجه الثانی: التحول من الاستعارة إلی التشبیه: ۹۲
المبحث الثانی موازنات بین القرآن و الشعر ۹۳

اشارة ----- ۹۳
تصویر الخیل العادیات فی القرآن و الشعر الجاهلی: ----- ۹۳
الموازنة (فی التصویر و الصیاغة و سیاق الفکرة): ----- ۹۵
أولا: فی التصویر: ----- ۹۵
اشارة ----- ۹۵
(أ) تصویر السرعة تصویرا یعتمد علی التشبیه بالریاح: ----- ۹۶
(ب) تصویر قوة الاندفاع و ما یترتب علیه: ----- ۹۷
(ج) تصویر إثارة النقع: ----- ۹۷
ثانیا: الموازنة فی النظم: ----- ۹۸
ثالثا: خصوصیة الأداء الصوتی: ----- ۱۰۰
المبحث الثالث بین القرآن الکریم و البیان النبوی ----- ۱۰۰
المبحث الرابع قصة یوسف بین القرآن الکریم و الکتاب المقدس ----- ۱۰۵
اشارة ----- ۱۰۵
۱- ----- ۱۰۶
۲- الرؤیا و قصتها: ----- ۱۰۷
۳- ذهاب یوسف مع إخوته: ----- ۱۰۷
۴- العودة بقمیص یوسف: ----- ۱۰۸
۵- جواب یعقوب: ----- ۱۰۸
۶- إخراج یوسف من البئر و بیعه: ----- ۱۰۸
۷- قصة المراودة: ----- ۱۰۹
۸- و دخل معه السجن فتیان: ----- ۱۱۱
المبحث الخامس دور الموازنة فی الکشف عن محاولات التحریف فی القرآن ----- ۱۱۲
اشارة ----- ۱۱۲
أولا: التحریف عند بعض الفرق الإسلامیة: ----- ۱۱۳

ثانیا: الأسلوب و الطریقة: ---- ۱۱۵
ثانیا: معارضات القرآن فی العصر الحدیث: ---- ۱۱۶
اشارة ---- ۱۱۶
۱- سیرة المسیح بلسان عربی فصیح: ---- ۱۱۶
۲- حسن الإیجاز فی إبطال الإعجاز: ---- ۱۱۷
۳- الفرقان الحق: ---- ۱۱۹
السمات الأسلوبیة للفرقان: ---- ۱۲۱
اشارة ---- ۱۲۱
۱- التفکیک و التلفیق و التولیف: ---- ۱۲۲
۲- الانتزاع: ---- ۱۲۲
۴- إجهاض الفواصل: ---- ۱۲۲
الفصل الرابع أهم أسباب الإعجاز ---- ۱۲۳
اشارة ---- ۱۲۳
أولا: خصوصیة المعانی القرآنیة: ---- ۱۲۳
ثانیا: خصوصیة المعنی القرآنی سبب خصوصیة النظم و التصویر: ---- ۱۲۵
اشارة ---- ۱۲۵
إعجاز المعانی مقدم علی إعجاز النظوم و الألفاظ: ---- ۱۲۶
تکاثر المعانی القرآنیة: ---- ۱۲۶
ثالثا: نظم المعانی القرآنیة و النمط العالی: ---- ۱۲۷
اشارة ---- ۱۲۷
الأولی: اتحاد أجزاء النظم و دقة صنعه حتی یدخل فی النمط العالی و الأعلی. ---- ۱۲۷
الثانیة: غزارة مزایا النظم لتعدد متصرفات عناصر النظم. ---- ۱۲۸
رابعا: خصوصیة حلقات الوصل فی القرآن: ---- ۱۳۴
خامسا: خصوصیة الفواصل القرآنیة: ---- ۱۳۸

اشارة ----- ۱۳۸
۱- تحقیق التوازن بین الغایة الصوتیة و الغایة المعنویة: ----- ۱۳۸
۲- إطراد التناسب المعنوی بین الفاصلة القرآنیة و بین آیتها: ----- ۱۳۹
سادسا: خصوصیة بناء السورة القرآنیة: ----- ۱۴۱
اشارة ----- ۱۴۱
۱- فواتح السور: ----- ۱۴۲
۲- مدی التناسب بین الابتداء و سائر البناء: ----- ۱۴۳
۳- عناصر البناء المکملة: ----- ۱۴۳
اشارة ----- ۱۴۳
أ- حلقات اتصال المعانی فی سورة طه: ----- ۱۴۴
اشارة ----- ۱۴۴
- استمرار الخطاب: ----- ۱۴۴
۲- إعادة فعل سابق مع استئناف کلام جدید: ----- ۱۴۵
۳- الاستطراد بواسطة الإبدال: ----- ۱۴۵
۴- الاستطراد داخل الاستطراد: ----- ۱۴۵
۵- الانتقال بواسطة "کذلک:" ----- ۱۴۶
ب- من عوامل تماسک البناء فی السورة القرآنیة: ----- ۱۴۷
اشارة ----- ۱۴۷
۱- الإنذار بقرب الساعة: ----- ۱۴۸
۲- الوحدانیة جوهر الرسالات: ----- ۱۴۸
۳- امتدادات القصص و فحواه: ----- ۱۴۸
۴- غلبة أسلوب الملاینة و الإقناع بالبراهین: ----- ۱۴۸
ج- درجات الصلات بین معانی السورة القرآنیة: ----- ۱۴۹
ظواهر الصیاغة و الإیقاع اللافتة فی سورة (المؤمنون): ----- ۱۵۱

اشارة ----- ۱۵۱
أ- التبعیة بالجمل المتعددة ----- ۱۵۲
ب- تکثیف العطف بثم و الفاء ----- ۱۵۳
ج- تکثیف الاستفهام الإنکاری: ----- ۱۵۴
ه: توالی تقدیم المسند إلیه: ----- ۱۵۵
(و): توحد صیاغة المعنی: ----- ۱۵۶
سابعا: خصوصیة الطابع الإلهی: ----- ۱۵۶
المصادر و المراجع بعد القرآن الکریم ----- ۱۵۸
فهرس الموضوعات ----- ۱۵۹
تعریف المرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۶۰

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز

اشارة

نام كتاب: إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز نويسنده: محمد ابراهيم شادى موضوع: اعجاز تاريخ وفات مؤلف: معاصر زبان: عربى تعداد جلد: ۱ ناشر: مكتبة جزيرة الورد مكان چاپ: القاهرة سال چاپ: بى‌تا نوبت چاپ: بى‌نا

تقديم

تقديم بسم اللّه الرّحمن الرّحيم هذه سطور تتصل بإعجاز القرآن بمنهج نبه القدماء إليه و لم يطبقوه إلا فى النادر، و أحجم عنه المحدثون، و هو البحث عما يميز القرآن بالموازنة بين أسلوبه و أساليب العرب، و لقد دارت الفكرة فى رأسى سنوات، و ظللت أقدم و أحجم حتى شاء اللّه جلت نعمته أن أقيم فترة من الزمن بجوار بيته الحرام، فعادت الفكرة تطل بإلحاح، و حينئذ استلهمت التوفيق من اللّه سبحانه، و عقدت العزم على المضى فى هذا الموضوع الذى يتتبع بذور الموازنة عند العلماء قديما، و ثمارها حديثا، و كيفية الإفادة بهذه البذور و الثمار على- قلتها- فى تطبيق بعض الموازنات باعتبارها أفضل المناهج العلمية التى تقنع الآخر بفكرة الإعجاز و أن القرآن ليس فى طاقة بشر. لقد راج الإعجاز العلمى فى هذا العصر و ضرب بسهم وافر لمناسبته روح العصر العلمية، فصار هو الأقدر على مخاطبة الآخرين، و لفتهم إلى إعجاز القرآن، و أن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من كلام البشر و أنه تنزيل رب العالمين. و تأخر الإعجاز البيانى قليلا بل كاد يتوارى مع أن دواعى تقدمه فى هذا العصر كثيرة، و الحاجة إليه ملحة فى قضايا عصرية تفرض نفسها، منها ما ظهر أخيرا من مؤلفات أشبه بالمعارضات تحاول أن تجارى فصاحة القرآن، مثل الإنجيل الجديد بلسان عربى فصيح، و الفرقان الحق، و لسان حالها ينطق بأهداف مؤلفيها، و التى تتبلور فى مواجهة تحدى القرآن لسائر الناس أن يأتوا بمثله ..، فإذا سقط هذا التحدى من وجهة نظرهم الواهمة لم يعد القرآن معجزا، فكان لا بد من دخول إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، المقدمة، ص: ۲ البحث البيانى هذه الساحة بواسطة منهج الموازنة ليثبت بالدليل العلمى تهافت أساليب تلك المؤلفات بالقياس إلى أسلوب القرآن المعجز. و من القضايا التى تلح على منهج الموازنة دعوى الغلاة من بعض الفرق الدينية أن سورا من القرآن حذفت عمدا فى زمن جمع القرآن، و فى عهد عثمان رضى اللّه عنه لأغراض سياسية، و ذكروا نماذج لتلك السور فى مؤلفاتهم، و هى منشورة و قد تؤدى إلى التشكيك و البلبلة لدى عامة الناس و أنصاف المثقفين، فكان لا بدّ من دخول منهج الموازنة هذه الساحة، ليثبت بالدليل القاطع أن طريقة تلك السور التى يزعمونها غير طريقة القرآن فكرا و نظما و تعبيرا، و أنها لا يمكن أن تكون من القرآن. ناهيك عن قضايا أخرى تمس أساسا رسالة الإسلام، و هو ادعاء بعض المؤلفين الأجانب أن القرآن من تأليف محمد، و الرد على هذه الدعوى بكلام نظرى لا يفيد كثيرا، بل لا مفر من الموازنة بين القرآن الكريم و أحاديث الرسول صلى اللّه عليه و سلم للوقوف على الفروق الواضحة بين البيان القرآنى و البيان النبوى، بين الطابع الإلهى و الطابع البشرى مهما سما فى أفكاره و معانيه؛ ليثبت بالدليل القاطع أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من عند محمد صلى اللّه عليه و سلم، و أنه وحى اللّه إليه. و ثمة موازنات بين القرآن الكريم و نصوص من الكتاب المقدس ليتبين لكل عاقل منصف أى الكلامين أشبه بالخطاب الإلهى، و أيهما أشبه بالكلام العادى، أيهما أجدر بكونه هو الوحى المنزل من عند اللّه، و أيهما أقرب إلى التبديل و التحريف. و موازنات أخرى بين القرآن و الشعر العربى القديم لتتبين خصوصية الأسلوب القرآنى فى معانيه و فى بناء تلك المعانى و هذا مهم جدا فى تخطيئ من قال من المعتزلة بأن العرب كانت لهم قدرة على المجيء بمثل القرآن و لكن اللّه إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، المقدمة، ص: ۳ صرفهم، فهذا القول لا يكفى بطلانه بالكلام النظرى بل لا بد من الموازنة التطبيقية التى تثبت تهافته بالدليل العملى. و هكذا يسعى هذا البحث إلى إقناع الآخرين بتميز القرآن عن أساليب سائر البشر بواسطة منهج لا يملكون عند التعقل إنكاره، و بالتالى لا يستطيعون فى منطق العقل إنكار النتائج

المترتبة عليه، و التى تتبلور فى أن القرآن ليس فى طاقة البشر، و أنه لا يمكن أن يكون إلا وحيا منزلا من عند اللّه عز و جل، و حينئذ لا يملك أى عاقل سوى التسليم بصدق هذه الرسالة، و صدق رسولها صلى اللّه عليه و سلم. و قد اقتضت الأفكار الأساسية لهذا الموضوع أن يأتى فى فصول أربعة:- الأول: جذور الموازنة عند القدماء. الثانى: ثمارها عند المحدثين. الثالث: موازنات تطبيقية للفصل فى قضايا شائكة. الرابع: أهم أسباب الإعجاز المفتقدة أو المبهمة عند القدماء. (و تحت كل فصل من هذه الفصول مباحث عدة) أسأل اللّه سبحانه و تعالى أن يلهمنى الصواب و الرشاد و أن يغفر لى ما كان من زلاتى، و أن يجعل ما أصبت فى ميزان حسناتى يوم لا- ينفع مال و لا- بنون إلا- من أتى اللّه بقلب سليم، و و صلّ اللهم على محمد و على آله و صحبه و سلم. المؤلف أ. د/ محمد إبراهيم عبد العزيز شادى مكة المكرمة فى ربيع آخر ۱۴۲۶ ه مايو ۲۰۰۵ م إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، المقدمة، ص: ۴

تمهيد

تمهيد لكل رسالة معجزة تؤيدها و تكون دليل صدق الرسول فيما يبلغ عن ربه. و تتنوع المعجزة بحسب المدى الزمنى و المكانى لأى رسالة فحيث كانت الرسالة محدودة الزمن و المكان كانت معجزاتها حسية تعتمد على المشاهدة التى ينقطع أثرها بمضى المدى الزمنى المحدد للرسالة كقلب العصا حية و انفلاق البحر لموسى عليه السلام و إبراء الأكمه و الأبرص و إحياء الموتى لعيسى عليه السلام، أما إذا كانت الرسالة ممتدة المدى ليس لها حدود مكانية و لا زمانية كرسالة الإسلام فإنها فى حاجة إلى معجزة دائمة بدوام الرسالة إلى أن تقوم الساعة، تلك المعجزة هى القرآن. لقد تحدى اللّه سبحانه و تعالى العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فى أنه من تأليف البشر، فهم بشر و لا تنقصهم الفصاحة، و لا نقول إن اللّه أعجزهم و إنما تحداهم فعجزوا عن الإتيان بمثله أو بمثل أقصر سورة فيه، و كانوا يشعرون فى دواخلهم أو فيما بينهم أن هذا الأسلوب نمط فريد لا- طاقة لبشر به، بل إن بعض المعاندين لم يستطع الكتمان فجرى على لسانه ما يخفيه ضميره من الاعتراف الصريح بخصوصية القرآن و تميزه عن أساليبهم، و أنه لا يكون إلا من عند اللّه «۱». و هذا التحدى قائم إلى أن تقوم الساعة، و كان من أظهر الأدلة على صدق التحدى أن أحدا لم يظهر منذ نزل القرآن حتى الآن فيدعى الإتيان بمثل هذا القرآن أو بمثل شىء منه يثبت صدقه. و التحدى ليس للعرب وحدهم، لأن القرآن لم ينزل لهم وحدهم، و لكن التحدى للناس جميعا، أما كونه معجزا للعرب فظاهر واضح، و أما كونه معجزا لغيرهم فبالقياس و البرهان المنطقى، لأنه إذا كان معجزا للعرب و هم فصحاء فى

(۱) راجع أقوال لهم كثيرة تدل على ذلك فى الرسالة الشافية لعبد القاهر ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف اللّه و محمد سلام ۱۲۲. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، المقدمة، ص: ۵ اللغة التى نزل بها القرآن، فهو لغيرهم أشد فى الإعجاز، بحيث لو افترضنا أن رجلا غير عربى تعلم العربية، و تمكن منها، و عاشر العرب، و نظم شعرا بالعربية، و أصبح من أدباء هذه اللغة فلن يستطيع أن يأتى بمثل سورة الكوثر، و ذلك بقياس حاله على أحوال العرب الخلص الذين حاولوا أن يأتوا بمثل القرآن فأتوا بكلام مضحك. و من حقنا أن نسأل كما سأل السابقون عن الجهات التى ميزت أسلوب القرآن حتى صار معجزا، ما ذا فى القرآن لا يوجد فى كلام العرب؟ كان القدماء يشعرون بتميز أسلوب القرآن شعورا قويا، و كان هذا الإحساس يرضيهم، حتى إن بعضهم كان يراه فى البدايات كافيا، فلا يرى دافعا قويا للبحث عن الجهات التى يتميز بها أسلوب القرآن لكن العلماء الذين يؤرقهم البحث عن الحقيقة- و لا سيما بعد الضعف الذى أصاب السليقة العربية، فنال من التذوق و الإحساس بالفروق بين الأساليب- اندفعوا يفتشون عن أسباب الإعجاز، بيد أن هيبة القرآن كانت تمنعهم من الوصول إلى كل ما يريدون، فيكتفون بالأقوال المجملة. و لعل أفضل قول يلخص أسباب الإعجاز البيانى هو قول الخطابى ":إنما صار القرآن معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى «"۱»، لأنك لا تجد وجها من وجوه الإعجاز البيانى إلا و هو يعود إلى شىء مما تناولته هذه العبارة، و قد حاول الخطابى تفصيلها على نحو يقنعه و يرضيه لكنه

ربما لا يقنعنا إقناعا كاملا فى عصر يتحرى النتائج الكلية و يتطلب النظريات، و لقد سبق عبد القاهر عصره فى التنبيه إلى نحو هذا المنهج الذى يراعى استقصاء الظواهر. و بمراجعة كلام العلماء الذين كتبوا فى الإعجاز يتبين أن ما يدخل عندهم فى صميم الإعجاز قليل بالقياس إلى جملة كلامهم، و مثلهم فى ذلك كمن يغوص كثيرا و يتعب كثيرا ثم لا يخرج من اللؤلؤ إلا بالقليل. و المشكلة إنما تكمن فى منهج البحث عن الإعجاز فإذا استقام المنهج و صحت المقدمات جاءت النتائج على حسب هذا.

(_____ ۱) ثلاث رسائل ۲۷ من بيان إعجاز القرآن للخطابى. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، المقدمة، ص: ۶ و كان العلماء على يقين من أن الإعجاز فى القرآن إنما تبدو ملامحه بالنسبة إلى أساليب البشر، و إمكانات بلاغتهم و حدود طاقتهم الفكرية و التعبيرية، إنه الفرق بين أثر من آثار رحمة اللّه و قدرته و بين نتاج بشرى، ذلك الفرق يظل مجرد إحساس أو اجتهاد شخصى ما لم تنشأ الدراسة الموضوعية التى تستقصى النظر فى الأسلوبين لتحسس الملامح و المعالم حتى تبدو الفروق محددة ظاهرة. لقد كان العلماء على يقين من أن جهات الإعجاز هى جهات التميز و التفوق و التفرد، فهل يظهر التميز و التفوق و التفرد إلا- بالموازنة الموضوعية؟ لكن هؤلاء العلماء أو كثيرا منهم تهيبوا الطرق على ذلك الباب، و لعل ذلك لشدة التفاوت بين النص القرآنى و النص البشرى، فكانوا يستبعدون الموازنة بين كلام اللّه و كلام البشر، لأنهم رأوا فى الموازنة بين الأسلوبين موازنة بين مصدر الأسلوبين، أى بين الخالق و المخلوق، لأن الأسلوب أثر من آثار صاحبه. لكن هذا لم يمنع علماء آخرين من التصدى لهذا النهج ناظرين إلى الغاية الشريفة التى يحققها و هو الوقوف على الخصائص المميزة للأسلوب القرآنى، و تقديم الدليل العلمى على أن القرآن الكريم فوق طاقة البشر، و أنه قطعا من عند اللّه عز و جل و لا تقتضى الموازنة بين كلامين موازنة بين مصدرى هذين الكلامين، و كان أول من طرق باب الموازنة هو الرمانى (ت ۳۸۶ ه) لكنه الطرق الخفيف المتهيب حين وازن بين قوله تعالى: (وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ) [البقرة: من الآية ۱۷۹] و بين قول العرب "القتل أنفى للقتل" و خرج من هذه الموازنة بأن الجملة القرآنية أسلس نظما، و أكثر فائدة، و له فى ذلك كلام دقيق ردده العلماء من بعده و لم يتجاوزوه، إلا ما كان من الباقلانى (ت ۴۰۳ ه) الذى لا يدخل صنيعه فى صميم الموازنة الموضوعية «۱». و كان عبد القاهر (ت ۴۷۱ ه) على ثقة بمنهج الموازنة كأفضل السبل لمعرفة وجوه الإعجاز، و قد ألمح إلى هذا كثيرا و سماه بالمفاضلة و نجح فى وضع تصور لمنهج سليم يسعى إلى تقديم القواعد الكلية الناشئة من التتبع و الاستقراء

(_____ ۱) سيأتى تفصيل هذا فى أثناء البحث. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، المقدمة، ص: ۷ لكنه مجرد تصور نظرى مدعم بالأدوات، اللازمة و الوسائل الواجبة، لقد قدم عبد القاهر المنهج و الوسائل و الأدوات و ترك لنا الكشف عن الإعجاز كمن يشير إلى مكان الخبىء ليطلب، و هذا هو نفس ما نعاه عبد القاهر على سابقيه، لكنه تميز عنهم على كل حال بوضع المنهج الصحيح و تحديد الوسائل الجديرة بتحقيق ذلك المنهج، و يبدو أن الزمن لم يسمح لعبد القاهر بالتحول من التنظير إلى التطبيق. و عقد له ابن أبى الإصبع بابا سماه (الموازنة) و إن تعجله تعجلا شديدا فلم يستشهد له بغير شاهد واحد، و إن عاد إلى الموازنة التطبيقية فى أبواب أخرى من كتابه (بديع القرآن). و لابن الأثير مثل ما لابن أبى الإصبع ما نجده فى كتابه (المثل السائر) من بعض الموازنات التطبيقية من شواهد من القرآن و شواهد من الكلام العربى. و يلفتنا فى تلك الموازنات أنها ضرب من النقد التطبيقى الذى لا يستطيعه إلا ناقد متمرس، لهذا نجد أن العلماء الذين ألمحوا إلى هذا المنهج فى البحث عن الإعجاز كانوا من النقاد، و كان لهم فى النقد الأدبى باع طويل و خبرة عميقة. و العز بن عبد السلام كان مقتنعا بمنهج الموازنة، و لكنه طبقه بمفهوم خاص هو الموازنة بين التعبير القرآنى و التعبير البديل عن المعنى القرآنى ليصل إلى أن التعبير القرآنى هو الأحكم و هو المعجز و ذلك فى كتابه (الإشارة إلى الإيجاز) و كان فى هذا كالرمانى فى تحليله شواهد التشبيه و الاستعارة. و فى عصرنا كثرت المؤلفات فى إعجاز القرآن كثرة قد تصرف من يفكر فى الكتابة عن هذا الموضوع، لكن من يقرأ هذه المؤلفات يجدها عالة على أفكار السابقين، فهى إما تأريخا لفكرة الإعجاز أو انشغالا بالحديث عن أدوات البحث فى الإعجاز و ترديدا

لمقولات السابقين مع تفصيلها أحيانا، إلا ما كان من بعض البحوث التى أفادت من الوسائل العلمية و تتعلق بنظام القرآن و هندسة بنائه «۱ (_____»). ۱) مثل الأبحاث التى قام بها الدكتور حلمى موسى و الدكتور عبد الرازق نوفل، انظر تفاصيل هذا فى كتاب (إعجاز النظام القرآنى) أحمد عبد الوهاب ۹۷، ۸۹، ۱۰۰ مكتبة غريب ط ۱ ۱۴۰۰ ه. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، المقدمة، ص: ۸ لقد خطا البحث عن الإعجاز العلمى فى هذا العصر خطوات موفقة لم يجاريها الباحثون فى الإعجاز البيانى، و لقد افتقدت فى مؤلفات هؤلاء جانبا يلح على الفكر و هو البحث التطبيقى الذى يضع اليد على خصائص مميزة لأسلوب القرآن عما سواه، و مع أن فى كتب القدماء بذورا جيدة كان يمكن أن تشكل أساسا لمنهج مكتمل، و لا سيما ما كان عند عبد القاهر إلا أن اللاحقين لم يتعهدوها بالتنمية و التطوير و التطبيق إلا فيما ندر. و هناك سؤال قائم هو: أ لا يمكن أن يدرك الإعجاز من غير موازنة؟ و الحق أن هذا لا يمكن إلا فى حالتين: الأولى: وجود السليقة العربية التى تمكّن صاحبها من إدراك الفروق بين الأساليب: الفصيح منها و الأفصح و المتفرد الذى ليس له نظير كما أحس العرب عند ما نزل عليهم القرآن بتفرده و أنه ليس من كلام الإنس و لا من كلام الجن، و أنه ليس بالذى عرفوه من شعر أو نثر. الثانية: عند ما مضى عصر السليقة و الفطرة اللغوية النقية لجأ العلماء إلى الوسيلة البديلة و هى الدراسة و التعلم و المعرفة بأشعار العرب و لغتها و كيفية المفاضلة بين كلام و كلام، على أن ذلك كله لا يغنى من غير ذوق موروث قادر على الإحساس بالجمال و ضروبه، و يتبلور هذا كله فى الذوق المدرب المثقف الذى كان عليه علماء البحث فى الإعجاز كالرمانى و الخطابى و الباقلانى و عبد القاهر و غيرهم و كلهم من نقاد الشعر، أما عند افتقاد السليقة و التعلم كما نجد فى كثير من الناس من هذه الأمة، و عند متعلمى العربية من الأمم و الملل الأخرى فلا مفر من خطاب هؤلاء جميعا عن الإعجاز بالمنهج الذى يعتمد على البرهان و الحجة الدالة على أن هذا القرآن من عند اللّه و أنه كتاب رسالة الإسلام و أنه ليس فى طاقة بشر و لا يمكن أن يبدعه بشر، ذلك المنهج الذى يثبت هذا هو منهج الموازنة بين نصوص القرآن و نصوص أفصح الخلق و أفصح الشعراء و أفصح الأدباء، فإذا ثبت أن كتاب اللّه يتفوق إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، المقدمة، ص: ۹ على هؤلاء جميعا و أنه يمتلك الخصوصيات الأسلوبية «۱» التى لا توجد فى كلام بشر كان هذا دليلا على أنه من عند اللّه. و فى عصر القنوات المفتوحة و ذوبان الحواجز بين الأمم أصبح لا بد من أن يكون للمسلمين صوت منافح عن رسالتهم حتى لا تنجرف هويتهم و ثقافتهم و خصوصياتهم أمام طوفان العولمة و الحداثة الجديدة و ذلك بالمنهج التطبيقى الذى يثبت صدق القرآن و أنه كتاب هذه الرسالة المنزل من عند اللّه سبحانه و المحفوظ من أى تبديل أو تحريف و المعجز بتفوقه و تفرده عن أى كلام آخر. الفصل الأول بذور الموازنة عند القدماء المبحث الأول: عند الرمانى المبحث الثانى: عند الخطابى المبحث الثالث: عند الباقلانى المبحث الرابع: عند عبد القاهر المبحث الخامس: عند بن أبى الأصبع (_____۱) الأسلوب يتناول الفكرة و العبارة و كيفية أداء هذه لتلك، لهذا قصدت الخصوصيات الفكرية و التعبيرية فى القرآن و خصوصيات نظمه. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱

[الفصل الأول بذور الموازنة عند القدماء]

المبحث الأول بذور الموازنة عند الرمانى

اشارة

المبحث الأول بذور الموازنة عند الرمانى ذكر الرمانى أن وجوه الإعجاز تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعى، و شدة الحاجة، و التحدى للكافة، و الصرفة، و البلاغة، و الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، و نقض العادة، و قياسه بكل معجزة. بدأ

بالبلاغة و حلل فيها و فصل تفصيلا ينسف قوله بالصرفة، و يدل على أنه إنما قال بها قولا مجملا على وجهة خاصة ليست هى التى تفسر الصرفة بها و الذى يهمنا أنه حاول أن يمس جوهر الإعجاز بالبحث عما يتميز به القرآن، و ما يتفوق به فى أقسام البلاغة العشرة، و أشار إشارة موجزة إلى المنهج الجدير بالكشف عن الإعجاز و هو الموازنة الإيجابية، هى الموازنة التى لا تهدف إلى إبراز العيوب و إنما تسعى إلى إثبات ما يتميز به كلام عن كلام، و ما يفضل به نص عن نص، و ذلك لا يتحقق إلا بعد معرفة خصائص النص الأول و معرفة خصائص النص الثانى، ثم الخروج من هذا بما يفضل به نص على آخر، يقول مشيرا إلى هذا فى سياق حديثه عن الإيجاز ":و إذ قد عرفت الإيجاز و مراتبه [فى كلام الناس] و تأملت ما جاء منه فى القرآن عرفت فضيلته على سائر الكلام «"۱».

مراحل الموازنة و شروطها:

مراحل الموازنة و شروطها: فى هذه العبارة الموجزة تكمن مراحل ثلاث للموازنة الإيجابية: ۱) معرفة خصائص النص الأول كمراتب الإيجاز فى كلام الناس. ۲) تأمل ما جاء منه فى القرآن. ۳) استخلاص ما يتميز به القرآن و ما يفضل به. هذا هو لب الإعجاز، و هو منهج دقيق يمكن تطبيقه على جهات البلاغة المحققة للإعجاز، ففى البحث عن إعجاز الجناس فى القرآن مثلا نمر بهذه المراحل:- الأولى: التعرف على خصائص الجناس فى مجال معين من مجالات الإبداع البشرى.

(_____ ۱) النكت ضمن ثلاث رسائل ۹۰، و ما بين القوسين المركنين زيادة منى مفهومة من كلام الرمانى. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲ الثانية: تأمل ما جاء من جناس فى القرآن الكريم و استقصاء ظواهره. الثالثة: استخلاص ما يفضل به القرآن و ما يميزه، فهذا هو منهج الرمانى للكشف عن الإعجاز و الذى أشار إليه فى باب الإيجاز و يمكن تطبيقه على سائر أبواب البلاغة للكشف عن الإعجاز. و الشرط فيمن يطبق هذا المنهج- عند الرمانى- أن يكون صاحب ذوق حساس و قد عبر عنه الرمانى بقوله ":جيد الطبع. "و الشرط الثانى أن يكون قادرا على التميز بين درجات الكلام، و قد عبر عنه الرمانى بقوله ":بصيرا بجواهر الكلام "و انظر إلى عبارته فى سياق حديثه عن التلاؤم، يقول ":و التلاؤم فى التعديل [بين الحروف] من غير بعد شديد أو قرب شديد، و ذلك يظهر بسهولته على اللسان و حسنه فى الأسماع و تقبله فى الطباع، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الإعجاز الجيد للطباع البصير بجواهر الكلام «"۱». و هذه الأفكار القيمة نمت إلى حد ما عند الباقلانى لكنها لم تتطور تطورا ملموسا إلا عند عبد القاهر الذى وعاها و نماها و بنى عليها منهجه كما سيتبين بعد.

الموازنة التطبيقية:

اشارة

الموازنة التطبيقية: إن الموازنة التى تؤدى إلى إبراز جهات التميز لم تكن فكرة عابرة عند الرمانى و لكنها كانت راسخة فى نفسه و تتردد فى تطبيقاته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. أما الموازنة المباشرة المشهورة فكانت فى باب الإيجاز يقول ": و قد استحسن الناس من الإيجاز قولهم ":القتل أنفى للقتل "و بينه و بين لفظ القرآن تفاوت فى البلاغة و الإيجاز، و ذلك يظهر من أربعة أوجه: أنه أكثر فى الفائدة و أوجز فى العبارة و أبعد من الكلفة بتكرير الجملة، و أحسن تأليفا بالحروف المتلائمة، أما الكثرة فى الفائدة ففيه- أى اللفظ القرآنى- كل ما فى قولهم ": القتل أنفى للقتل "و زيادة حسنة منها إبانة العدل لذكر القصاص، و منها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكر الحياة، و منها الاستدعاء بالرغبة و الرهبة لحكم اللّه

(_____ ۱) النكت ضمن ثلاث رسائل ۹۶.

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳ به ... و أما بعده عن الكلفة بالتكرير الذى فيه على النفس مشقة، فإن فى قولهم "القتل أنفى للقتل "تكريرا غيره أبلغ منه ... و أما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس و موجود فى اللفظ؛ فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام، و كذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام، فباجتماع هذه الأمور التى ذكرناها صار أبلغ منه و أحسن و إن كان الأول بليغا حسنا «"۱».

أسس الموازنة التطبيقية:

اشارة

أسس الموازنة التطبيقية: و من هذه الموازنة الموضوعية يمكن استخلاص أسس الموازنة التى يراها الرمانى و التى لا يختلف معه عليها عاقل، فمن هذه الأسس: (۱) وحدة الموضوع و الغرض العام الذى تدور حوله النصوص التى نوازن بينها، فالآية و المثل العربى اللذان وازن بينهما يدوران فى الأصل حول معنى عام واحد هو أن عقاب القاتل بالقتل يؤدى إلى حفظ النفوس و استقامة الحياة، و هنا يمكن للموازن أن يقف على الفروق فى كيفيات الصياغة و كيفيات تأليف الحروف و أثر هذه الفروق فى سلاسة النظم و زيادة الفائدة الدلالية، و قد برع الرمانى فى بيان هذا المعنى، و هذا المبدأ النقدى فى الموازنة مستلهم من جذور ضاربة فى البيئة العربية، و لعلنا نذكر موازنة أم جندب بين زوجها امرئ القيس و بين علقمة عند ما طلبت منهما أن يقولا شعرا يصفان فيه فرسيهما، كأنها اشترطت للموازنة وحدة الموضوع الذى ينشدان فيه و هو وصف الفرس. (۲) أن يكون النص المختار للموازنة من كلام الناس مما استحسنوه لبلاغته و حسنه إذ لا يثبت إعجاز القرآن إلا بأن يكون النص المختار من أبلغ كلامهم، فإذا ثبت تفوق القرآن عليه كان هذا دليلا على إعجازه بالدليل القاطع، يقول الرمانى: (و قد استحسن الناس من الإيجاز قولهم "القتل أنفى للقتل) "و يقول فى

(_____ ۱) النكت ضمن ثلاث رسائل ۷۸.

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۴ نهاية الموازنة: (فباجتماع هذه الأمور التى ذكرناها صار أبلغ و أحسن، و إن كان المثل بليغا حسنا) (۳) عدم التعويل فى الموازنة على إحساس النفس بل لا بدّ من تسجيل الأمور التى يتفوق بها القرآن و التى تدل عليها كيفيات معينة و قد التزم بهذا الرمانى نظريا بقوله ":و أما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس و موجود فى اللفظ، "و تطبيقا كما تبين فى تعليله لذلك الحسن تعليلا يعتمد على الطبيعة الصوتية للحروف التى تقع فى نهاية كلمة و بداية الكلمة المجاورة فهى حلقات الوصل بين الكلمات. (۴) ثم إن الرمانى ينبه إلى أن الميزات الدلالية التى يتفوق بها النص القرآنى يصب فى غايات دينية و إصلاحية كما فى نصه على ":زيادة فائدة حسنة فى الآية منها إبانة العدل لذكره القصاص و منها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكر الحياة و منها الاستدعاء بالرغبة و الرهبة لحكم اللّه به. "و اللافت هنا أن أكثر أفكار الرمانى عن الموازنة، و شاهده الذى ضمن تحليله أسس الموازنة، كل هذا نجده فى باب الإيجاز الذى تقدم عنده كل أقسام البلاغة، فلعل ذلك لأن الإيجاز من أظهر الجوانب التى يتميز بها الأسلوب القرآنى عن أساليب العرب، فمن الأسلم و الأيسر لمن يقتحم مجال الموازنة بين القرآن و كلام العرب أن يكون ذلك من باب الإيجاز كما فعل الرمانى. إننا لا نجد مثل هذه الموازنة المباشرة فى باب التشبيه أو باب الاستعارة على الرغم من كونهما من أكثر الأبواب استشهادا و أعظمها تحليلا، لكن المتأمل لا يخفى عليه أن الرمانى مارس ما يشبه الموازنة التطبيقية فى كل الشواهد القرآنية التى ساقها للتشبيه و الاستعارة و ربما كان ذلك أوضح فى الاستعارة إذ كان يعقب بأصل المعنى و حقيقته ثم يقول ":و الاستعارة أبلغ "و يعلل ذلك تعليلا يبرز تميز الاستعارة القرآنية و أن الحقيقة لا تسد مسدها و لا تؤدى المعنى الذى تؤديه، و هذا يشير إلى اعتماد الرمانى نوعا من المفاضلة أو الموازنة بين صورة المعنى فى القرآن و حقيقة ذلك المعنى كما يراه، و

يخرج من هذا إلى تفوق الأسلوب التصويرى فى القرآن لسببين: إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۵

الأول: كيفية التصوير الحسى للمعانى.

الثانى: التأثير النفسى لذلك التصوير.

الثانى: التأثير النفسى لذلك التصوير. ففى قوله تعالى: (أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ) [يونس: ۲۴]، يقول: أصل الحصيد للنبات، و حقيقته مهلكة، و الاستعارة أبلغ لما فيه من الإحالة على إدراك البصر، و فى قوله عز و جل: (الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [إبراهيم: ۱]، يقول ":كل ما جاء فى القرآن من ذكر (الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ) فهو مستعار، و حقيقته من الجهل إلى العلم، و الاستعارة أبلغ لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يدرك الأبصار «"۱». و هو يقصد مردود الاستعارة على المعنى قوة و بيانا لما فيها من تصوير و مشاهدة بالبصر، و لذلك كانت أبلغ من الحقيقة ثم نجد إشارته للأثر النفسى الناشئ من ذلك التصوير فى بعض الاستعارات كقوله تعالى: (وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ) [التكوير: ۱۸]، يقول ":تنفس هاهنا مستعار و حقيقته إذا بدأ انتشاره و تنفس أبلغ لما فيه من الترويح عن النفس «"۲». و يفهم من جملة تعقيباته على تلك الاستعارات أن التعبير القرآنى يرتقى بالدلالة ارتقاء لا يصل إليه التعبير البشرى المفسر لتلك الاستعارات و هذا من صميم الإعجاز. و هناك ميزة أخرى تؤدى إليها استعارات و تشبيهات القرآن الكريم هى تحقيق غايات دينية و أهداف تربوية يشير إليها الرمانى فى تعقيبه على كثير من الشواهد، ففى قوله تعالى: (إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ) ..- الآية ۲۴ من سورة يونس- يقول ":و هذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به و قد اجتمع المشبه و المشبه به فى الزينة

(_____ ۱) النكت ضمن ثلاث رسائل ۹۲.

(۲) النكت ضمن ثلاث رسائل ۹۰. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۶ و البهجة ثم الهلاك بعده و فى ذلك العبرة لمن اعتبر و الموعظة لمن تفكر فى أن كل فان حقير و إن طالت مدته، و صغير و إن كبر قدره «"۱». و هذه ميزة لكل وسائل البلاغة فى القرآن فهى لا تقف عند كونها ألوان و ضروب تعبيرية راقية و لكن تشترك تلك الوسائل و تتآزر فى التحدى و الإعجاز و فى تحديد الغايات الدينية و الأخلاقية و العقائدية، و كان الرمانى ينبه إلى هذا كلما لاحت له فرصة، ففى باب التلاؤم يذكر ان تلاؤم الحروف فى القرآن لا يؤدى إلى سهولة الكلام على اللسان و حسنه فى الأسماع و تقبله فى الطباع حسب، لأن ذلك قد يوجد فى المتلائم من كلام الناس، و إنما يتميز القرآن بأنه يزيد على هذا حسن البيان فى صحة البرهان، و عبارته ":فإذا انضاف إلى ذلك- ما سبق من مزايا- حسن البيان فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام «"۲» فحسن البيان ثمرة تعبيرية للتلاوم، و صحة البرهان ثمرة دلالية، و بينهما ارتباط و التباس، و لهذا جعل حسن البيان فى صحة البرهان و لم يجعله معه و هو يشير إلى ما يحققه التلاؤم من غايات دينية فى أدوات ناصعة مقنعة بالأسلوب المعجز.

فروق الموازنات التطبيقية:

فروق الموازنات التطبيقية: و من هذه الزاوية وازن الرمانى- فى باب التجانس- بين قوله تعالى: (فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ) [البقرة: ۱۹۴]، و قوله تعالى: (يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ) النساء: ۱۴۲، و نحوه مما وقعت فيه مزاوجة- أى مشاكلة- فى الجزاء، و بين قول عمرو بن كلثوم:- ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا يقول ":فهذا حسن فى البلاغة لكنه دون بلاغة القرآن لأنه لا يؤذن بالعدل كما آذنت بلاغة القرآن، و إنما فيه الإيذان براجع الوبال فقط «"۳».

(_____ ۱) نفسه ۸۳. (۲) نفسه ۹۶. (۳)

النکت ضمن ثلاث رسائل ۱۰۰. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۷ فقد وقف الرمانی هنا علی الغایة الدينية و الأخلاقية التی تتميز بها بلاغة النص القرآنی، و هی إشاعة روح العدل بخلاف ما فی بيت الشعر من الإيذان بروح الانتقام و الوبال. و الرمانی لم يقف فی هذه الموازنة علی الفروق الدقيقة فی الصياغة و التشكيل كما وقف عليها فی الموازنة السابقة بين قوله تعالی: (وَ لَكُمْ فِی الْقِصاصِ حَياةٌ) و بين قول العرب "القتل أنفی للقتل، "فربما سكت عن هذا لأنه لاحظ أن الشرط الذی يراه فی المزاوجة- المشاكلة- «۱» يتحقق فی البيت "فنجهل فوق جهل الجاهلينا "كما تحقق مثلا فی قوله تعالی: (فَمَنِ اعْتَدی عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ) و هو أن "المزاوجة تقع فی الجزاء "أی فی الطرف الثانی للمشاكلة و هو الفرع المترتب علی أصل الاعتداء فاكتفی بما تؤذن به الآية من روح العدل و بما يؤذن به البيت من روح الانتقام و الوبال معتمدا فی هذا علی ما يقترن بالمشاكلة من كيفيات أخری كقوله سبحانه و تعالی فی الآية: (بِمِثْلِ مَا اعْتَدی عَلَيْكُمْ) و قوله فی البيت "فوق جهل الجاهلينا. "أما عند ما وجد شرطه للمشاكلة قد اختل، فحينئذ نجده يقف و يدقق فی موازنة أخری بين بين الآية السابقة و قول العرب "الجزاء بالجزاء "فقد وقعت المشاكلة فی هذا القول علی عكس ما يراه، إذ وقعت فی أصل الاعتداء، فسمی جزاء علی سبيل الاستعارة، لأن أصله الجزاء بسبب الاعتداء فلما قالوا "الجزاء بالجزاء "شاكلوا فسموا الاعتداء جزاء بواسطة الاستعارة- حسب رؤيته للمجاز- و كان الأولی أن تقع المشاكلة و الاستعارة فی الجزاء لأنه فرع مرتب علی أصل الاعتداء فيقال مثلا: الاعتداء بالاعتداء، لهذا كان قولهم دون بلاغة القرآن الذی روعی فيه وقوع المزاوجة- كما يسميها- فی الجزاء. و هذه ملاحظة دقيقة وضعت أساسا لكيفية المشاكلة و موقعها عند المتأخرين و لكن عبارته جاءت كزة فالتبست علی الكثيرين فانصرف الناس عنها، و لم يقفوا عند تلك الموازنة مع أهميتها و عبارته "و الاستعارة للثانی «۲» أولی من الاستعارة (_____ ۱) و هو أن "المزاوجة تقع فی الجزاء "۹۹ أی فی الطرف الثانی للمشاكلة. (۲) يقصد بالثانی: الجزاء، و بالأول، الاعتداء. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۸ للأول، لأن الثانی يحتذی فيه علی مثال الأول فی الاستحقاق، فالأول بمنزلة الأصل و الثانی بمنزلة الفرع الذی يحتذی فيه علی الأصل، فلذلك نقصت منزلة قولهم "الجزاء بالجزاء "عن الاستعارة بمزاوجة الكلام فی القرآن «"۱».

التميز الناشئ عن الموازنة:

اشارة

التميز الناشئ عن الموازنة: إذا كان الرمانی قد اقتحم مجال الموازنة مرة فی باب الإيجاز و مرتين فی باب التجانس، و إذا كان قد أقام ما يشبه الموازنة فی أثناء تعقيباته علی شواهد التشبيه و الاستعارة، فإننا عند مراجعة كلامه فی أبواب أخری كالتصريف و التضمين و البيان لا نجد موازنات صريحة، و إنما توجد إشارات و ملاحظات تدور حول تميز النص القرآنی فی تلك الأبواب بخصوصيات لا نظير لها فی كلام الناس، و هذا يدل دلالة قاطعة علی أنه كانت هناك موازنات أقامها فی نفسه، و كانت نتيجتها تلك الخصوصيات المميزة و هی تتصل بطرق تصريف المعنی الواحد فی دلالات مختلفة، و بالمعانی الخلفية المفهومة من وراء الكلمات، ثم بالأغراض المقصودة من تراكيب القرآن الكريم و التی تشبه مستتبعات التراكيب.

ففی باب التصريف:

ففی باب التصریف: یؤکد علی تمیز القرآن الکریم فی بیانه بتصریف المعنی الواحد فی دلالات متعددة، و یضرب مثلا لهذا بظاهرة ینفرد بها القرآن فی قصصه کقصة موسی علیه لسلام ذکرت فی سورة الأعراف و فی طه و فی الشعراء و غیرها «۲»، فهذه خصوصیة للقرآن باعتباره کیانا کلیا أو باعتباره بناء کبیرا توزعت أجزاؤه بحکمة و مقدار، حتی تری المعنی الواحد قد توزع فی سور عدة فی دلالات مختلفة، کل دلالة تناسب سورتها، و لکل سورة مقام، و لیس لهذا نظیر فی کلام العرب، ناهیک عن القصص القرآنی الذی یثبت إعجازه من غیر موازنة لانعدام الجنس الأدبی الذی یمکن أن تتوزع فیه القصة الواحدة فی سیاقات متعددة کما نجد فی سور القرآن الکریم، و لهذا نجد الرمانی ینوه بظهور هذا الجانب من الإعجاز الذی

(_____ ۱) النکت ضمن ثلاث رسائل ۱۰۰.

(۲) نفسه ۱۰۲. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۹ یحتج به علی من لم یؤمن بالقرآن و ذلک فی قوله "فظهور الحجاج علی الکفار بأن أتی فی المعنی الواحد بالدلالات المختلفة فیما هو من البلاغة فی أعلی طبقة «"۱».

و فی باب التضمین:

و فی باب التضمین: یشیر إلی تمیز القرآن بأن کل آیة فیه تتضمن وجوها من المعانی الخلفیة التی لا یدل علیها من لفظ بعینه فهی لا تؤخذ من متن اللفظ و لا- هی نفس المعانی الثوانی، و إنما هی ما یوحی به الکلام و ما یخلعه السیاق علی الجملة و الآیة، و عبارة الرمانی الدالة علی هذا "و کل آیة لا تخلو من تضمین لم یذکر باسم أو صفة «"۲» یعنی تضمین معان غیر مدلول علیها باسم أو صفة، ثم یذکر مثالا- یکشف عن مراده بجلاء قائلا "فمن ذلک (بسم اللّه الرحمن الرحیم) قد تضمن التعلیم لاستفتاح الأمور علی التبرک به، و التعظیم للّه بذکره، و انه أدب من آداب الدین، و شعار للمسلمین، و أنه إقرار بالعبودیة، و اعتراف بالنعمة التی هی من أجل نعمة، و أنه ملجأ للخائف و معتمد للمستنجع «"۳» و هذا رائع لکنه ضائع فی تفسیره الذی لا نعرفه و إن کان قد أشار إلیه فی رسالة النکت فی قوله "و قد بینا ذلک بعد انقضاء کل آیة فی کتاب- الجامع لعلم القرآن، "-و المهم هنا أن اطراد هذا فی کل آیة من آی القرآن کما هو موضح من کلامه من خصوصیات القرآن و مما لا تجده أبدا فی أدب ما.

و فی باب البیان:

و فی باب البیان: یتتبع الرمانی الأغراض المقصودة من التراکیب القرآنیة: خبریة کانت أم إنشائیة، کالوعد المفهوم من قوله سبحانه: (إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی مَقامٍ أَمِینٍ) [الدخان: ۵۱]، و الوعید من قوله تعالی: (إِنَّ یَوْمَ الْفَصْلِ مِیقاتُهُمْ أَجْمَعِینَ) [الدخان: ۴۰]، و التقریع من قوله تعالی: (أَ فَنَضْرِبُ عَنْکُمُ الذِّکْرَ صَفْحاً أَنْ کُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِینَ) [الزخرف: ۵]، و الإذلال فی قوله تعالی: (یُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ

(_____ ۱) النکت ضمن ثلاث رسائل ۱۰۲.

(۲) نفسه ۱۰۳. (۳) نفسه ۱۰۴. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۱۰ بِسِیماهُمْ فَیُؤْخَذُ بِالنَّواصِی وَ الْأَقْدامِ) [الرحمن: ۴۱] و الحجاج من قوله تعالی: (لَوْ کانَ فِیهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا) و هکذا. لکنا لا نستطیع أن ندعی خلو کلام العرب و أدبهم من جمل و تراکیب ترمی لأغراض مثل ما رأینا، و الموازنة حینئذ لا تکون فی التراکیب ذاتها و لکن فی إمکان أن نستنبط من کلام العرب أغراضا کهذه الأغراض المستنبطة من الآیات السابقة، من أجل هذا کان الرمانی بارعا عند ما نظر إلی التمیز من جهة أخری هی الشمول و الاطراد، فالبیان علی هذا المستوی فی القرآن کله، و ما من آیة من آیاته إلا وراءها غرض، لکنه غیر مطرد فی کلام الناس، یقول الرمانی فی تلخیص هذا "و القرآن کله فی نهایة حسن البیان «"۱».

إعجاز الإيقاع عند الرمانى:

إعجاز الإيقاع عند الرمانى: ذكر الرمانى ما يشير إلى تفوق القرآن على الشعر من ناحية الإيقاع، فإن ما جاء بغير وزن يفوق الموزون فهو معجز، يقول ":من جاء بغير الوزن المعروف فى الطباع الذى من شأنه أن يحسن الكلام بما يفوق الموزون فهو معجز «"۲»، و هذا حجاج مبنى على النتيجة التى انتهى إليها قبل و هى تفوق القرآن على الشعر، فكونه كذلك رغم خلوه من الوزن الذى يعتمد عليه الشعر دليل على انه معجز، و الرمانى ينظر فى هذا إلى جانب لم يصرح به و هو الإعجاز من جهة الإيقاع المؤثر و التوازن الصوتى المستحوذ و المسيطر، فكون القرآن كذلك من غير وزن دليل على أنه معجز. و لم يفصّل الرمانى مصادر الإيقاع المعجز و أسبابه فى القرآن، لا هو و لا غيره من العلماء السابقين مع إحساسهم بذلك الجانب إحساسا قويا، بيد انه لا يفوتنا أن الرمانى لفت من غير قصد إلى مصدر من مصادر الإيقاع فى باب الإيجاز و ذلك عند حديثه عما يميز تأليف الحروف فى قوله تعالى: (وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ) عن قول العرب ":القول أنفى للقتل، "يقول ":و أما الحسن بتأليف الحروف

(_____ ۱) النكت ضمن ثلاث رسائل ۱۰۷.

(۲) النكت ضمن ثلاث رسائل ۱۱۱. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۱ المتلائمة فهو مدرك بالحس و موجود فى اللفظ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام، و كذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام «"..۱» و هو يعنى حلقات الوصل بين الكلمات، فالانتقال من كلمة إلى كلمة فى الآية ألين و أعدل منه فى المثل العربى، و قد أشار فى تعليل هذا إشارة تعنى انه يرد ذلك لأسباب صوتية تعود إلى قرب أو بعد الحرفين المتجاورين فى نهاية كلمة و بداية كلمة أخرى تجاورها، و لا أعلم أن أحدا من العلماء لفت إلى هذه الميزة التى تعود فى النهاية إلى التأليف الذى يترتب عليه حسن الأداء الصوتى و يسره و سهولته و تلاؤمه، علما بأن الرمانى كان يرد قيمة التلاؤم إلى الصوت و المعنى معا و إلى حدوث الارتياح النفسى، يقول ":و الفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع و سهولته فى اللفظ و تقبل المعنى له فى النفس «"۲». ثم يضيف الرمانى فى باب الفواصل تميز الفواصل عن قوافى الشعر بأن القرآن يمكن إن يترك التماثل بين الفواصل «۳» بلا- أى تأثير على المعنى لما يكتنف الآية من البيان الدال على المراد و الذى يومئ للفاصلة قبل الوصول إليها بخلاف الشعر الذى لا يستغنى أبدا عن القوافى المتماثلة فلو أبطلت القوافى لاختل بناء الشعر، أما موازنة الرمانى بين الفاصلة القرآنية و بين الأسجاع فى النثر فإن من يتابع كلامه يشعر بنقصان الفكرة و اضطراب العرض، و هو باب واسع للموازنة الشاملة التى تخرج بالميزات المميزة للفاصلة القرآنية عن السجع المطبوع فى أدب الناس.

(_____ ۱) النكت ضمن ثلاث رسائل ۷۸.

(۲) النكت ضمن ثلاث رسائل ۹۶. (۳) كما فى صدر سورة ق مثلا فالفواصل متقاربة و ليست متماثلة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۲

المبحث الثانى جذور البحث عن التميز عند الخطابى

۱- بين الرمانى و الخطابى:

۱- بين الرمانى و الخطابى: إذا كان الرمانى حاول أن يكشف عن إعجاز القرآن من جهة البحث عما يتميز به و يتفوق، فإن نبرة البحث عن التميز و التفوق كانت أعلى عند الخطابى. كل منهما كان يسعى إلى تسجيل جهات التفوق و التفرد لكن إلحاح الخطابى فى البحث عن الإعجاز من هذه الزاوية كان أشد، و هذا طبيعى عند من ينفى القولة بالصرفة و يرى أن الإعجاز من جهة ما يتفوق به القرآن عن كلام العرب شعرهم و نثرهم، و لا يعنى هذا أن قول الرمانى بالصرفة قد منعه من البحث عن بلاغة القرآن من جهة ما يتميز

به عن كلام العرب، بل لقد كانت هذه قضيته، و لقد كانت له ومضات و إضاءات فى هذا المجال، و لقد فتح أبوابا من العلم سار فيها الباحثون عن الإعجاز و البلاغة من بعده. لكن الخطابى كان ينفى القول بالصرفة و يستدل على بطلانه مما جعل ميزانه يرجح فى البحث عن جهات التميز التى ينفرد القرآن بها أو يتفوق من جهتها، و إن كانت الموازنة التى سلكها الرمانى «۱» قد جعلت له وزنا و ذكرا حسنا، فضلا عن تحليلاته و تعقيباته الدقيقة فى التشبيه و الاستعارة. و إذا كان الرمانى قد عوّل على البلاغة و عدّها من أهم وجوه الإعجاز، فإن الخطابى لا ينفى هذا كما شاع عند الدارسين، و إنما كان ينشد وجه دلالة البلاغة على الإعجاز، و على طريقة العلماء الأفذاذ فإنه تجاوز المعرفة البلاغية فلم يسجلها و لم يشغل نفسه بإحصائها و حصر أقسامها و تعريفها و لكنه اهتم بما وراء المعرفة البلاغية، إنه لا يقف عند شجيرات البلاغة و إنما أراد أن يقطف ثمارها فى حقل البحث عن الإعجاز، إنه لا يقف عند المعارف البلاغية عموما، و لكن رغب فى الوقوف على ما يميز القرآن من جهتها، و وجه دلالتها على الإعجاز،

(_____ ۱) بين قوله تعالى: (وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ) و بين قول العرب: (القتل أنقى للقتل) كما سيأتى. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۳ يقول فى الرد على من يكتفى بالقول المجمل فى مدخل البلاغة فى الإعجاز ": صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التى اختص بها القرآن، الفائقة فى وصفها سائر البلاغات، و عن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قال ":إنه لا يمكننا تصويره و لا تحديده بأمر ظاهر نعلم مباينة القرآن غيره من الكلام، و إنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده «"۱». فالخطابى لا ينفى أن تكون البلاغة وجها من وجوه الإعجاز كما فهم كثير من الدارسين المحدثين و إنما يعترض على منهج القائلين بهذا الوجه لأنهم لا يحددون البلاغة التى يختص بها القرآن و التى تميزه عن بلاغة سائر أنواع الكلام البليغ .. ما ذا يميز القرآن فى تشبيهاته و استعاراته مثلا عن تشبيهات و استعارات الشعراء و الخطباء، و ما ذا يميز جناس القرآن و فواصله و إيجازه عن جناس الأدباء و قوافى الشعراء و إيجازهم عموما، هذا ما كان ينشده الخطابى و يعيب على سابقية أنهم لم يقدموا فيه قولا فصلا و إنما جروا على أساس من المعرفة المبهمة، و قد يذكرون تميز القرآن لكنهم لا يذكرون علة التميز "قالوا: و قد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع، و هشاشة فى النفس لا توجد مثلها لغيره منه و الكلامان معا فصيحان ثم لا يوقف لشىء من ذلك على علة، .. و هذا لا يقنع فى مثل هذا العلم «"۲». و يبدو أن الخطابى قال هذا الكلام قبل أن يصل إليه ما كتبه الرمانى (معاصره) عن أقسام البلاغة التى تشكل أهم وجوه الإعجاز عنده، و ربما كان كلام الخطابى ذاك هو الذى دفع الرمانى إلى تأليف رسالته فى الإعجاز و التى شغلت البلاغة أهم أركانها. هذا أو ذاك محتمل ثم إننا نجد أنفاس الخطابى تسرى فى أفكار عبد القاهر، و لا سيما حديثه عما يجب فى الإعجاز من تفصيل القول و تعليله، و وضع اليد على الخصائص المميزة لأسلوب القرآن.

(_____ ۱) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ۲۴. (۲) نفسه ۲۴ إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۴ لقد قسم الرمانى البلاغة إلى طبقات، ثم يرى أن الطبقة العليا منها لا توجد إلا فى القرآن و هى الطبقة المعجزة، أما ما دونها أى الطبقة المتوسطة و الدنيا فتوجد فى كلام الناس، لكن الخطابى يرى أن طبقات الكلام الثلاث تجتمع فى القرآن الكريم فى امتزاج عجيب أدى إلى نمط فريد من الكلام يجمع بين الفخامة و العذوبة، مع أنهما على الانفراد كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة، و الفخامة و الجزالة تعالجان نوعا من الوعورة فكان اجتماع الأمرين ممتزجين فى نظم القرآن فضيلة خص بها القرآن ليكون آية معجزة لنبيه صلّى اللّه عليه و سلّم. فالرمانى يرى القرآن الكريم من الطبقة العليا حسب، و الخطابى يرى أن القرآن قد جمع بين طبقات الكلام فى امتزاج فريد، و لكل منهما وجهته التى تصحح رأيه، فالرمانى لما نظر لبلاغة القرآن من جهة أقسامها العشرة التى ذكرها وجد القرآن فى أعلى طبقة من البلاغة، لكن الخطابى نظر نظرة تحليلية إلى عناصر النظم فوجد تداخل و امتزاج ما يدل على الفخامة مع ما يدل على السهولة و العذوبة، و اتجاه الرمانى يعنى أن إعجاز القرآن كان لأسباب عدة على رأسها تلك الخصوصيات البلاغية التى تدخل فى باب التفرد، لكن الخطابى يرى أن طبقات

الكلام الثلاث ربما وجدت فى كلام الناس متفرقة لا مجتمعة، لكنها وجدت فى القرآن على اجتماع و امتزاج فى الموطن الواحد و هذا مما يسره اللّه سبحانه بلطيف قدرته ليكون فى الآية الواحدة ما يناسب كل الناس. و لا شك أن نظرة الخطابى كانت أعمق فى هذه الناحية و هى مبتيّة على التحليل و التفكيك و التعمق فى عناصر التركيب القرآنى، و كان هذا هو منهجه فى رؤيته للإعجاز من جهة ثانية يبلورها قوله ":إنما صار القرآن معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى «"۱» فيرى أن هذه الفضائل الثلاث قد توجد فى كلام الناس على التفرق، لكنها لا توجد فى القرآن إلا على اجتماع و اطراد.

(_____ ۱) بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ۲۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۵ و هذا منهج من لا يسلب من كلام العرب فصاحة اللفظ و المعنى و حسن النظم لكنه يرى تميز القرآن فيها و تفوقه كما يبدو من صيغ التفضيل "أفصح و أحسن و أصح، "فضلا عن وجود تلك الفضائل فى القرآن على اجتماع و اطراد كما سبق. و على طريقة التحليل و التفكيك راح يبحث عن إعجاز اللفظ القرآن منفردا عن معناه و عن نظمه، ففى المعانى القرآنية «۱» يرى أنها معجزة من جهة الجمع بين شتاتها فى انتظام و اتساق يعجز عن مثله البشر. و فى الألفاظ القرآنية يرى أنها معجزة من جهة وضع كل لفظ فى موضعه الأخص الأشكل به و الذى إذا أبدل مكانه غيره نتج عنه تبدل المعنى أو ذهاب الجمال و الرونق و يرى أن هذا هو عمود البلاغة «۲». أما النظم فلم يكشف الخطابى عن وجه الإعجاز فيه تفصيليا مكتفيا بالتنبيه إلى حاجة رسومه إلى مزيد من الثقافة و الحذق، لأنها لجام الألفاظ و زمام المعانى، و به تنتظم أجزاء الكلام و يلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها البيان "۳۶ ثلاث رسائل. لكن حديثه عن دقة اللفظ القرآن فى موقعه الأخص به يعد حديثا فى الوقت ذاته عن النظم؛ لاعتماده فى الدلالة لهذا على حاجة المعنى و موقع الكلمة فى النظم بحسب تلك الحاجة، إنه البحث عن التخير الذى يرتبط بنظم المعانى و دلالة السياق.

(_____ ۱) كتوحيد اللّه سبحانه، و الدعاء إلى طاعته و بيان منهاج عبادته من تحليل و تحريم و حظر و إباحة و وعظ و تقويم، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و الإرشاد إلى محاسن الأخلاق، و الزجر عن مساوئها مع وضح كل شىء من ذلك موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه الخ ... ۲۷. (۲) و قد ذكر أمثلة لهذا منها قوله تعالى: (وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) [الزخرف: ۳۶] فأشار إلى دقة استعمال الحرف فى القرآن إذا قال (يعشو عن) و لم يقل يعشو إلى لأن يعشوا إلى الشىء بمعنى ينظر إليه، و يعشوا عنه بمعنى يعرض و نقل عن العرب ما يدل على هذا، ثم كانت ردوده على الشبهات المثارة حول بعض الألفاظ القرآنية دالة على دقة استعمال اللفظ القرآن من ۲۹: ۳۶ بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۶ و لا شك أن الخطابى بهذا و برؤيته السابقة إلى تميز القرآن باجتماع طبقات الكلام فيه ممتزجة متداخلة فى الموضع الواحد يدلنا على طول التأمل فى عناصر النظم حتى استنتج من الآية معنى فى وقت ما، ثم عاود الآية نفسها فاستنتج منها معنى ثانيا، ثم عاودها مرة ثالثة، فاستنتج معنى ثالثا و لكل من هذه المعانى رصيد من النظم يدل عليه أو يشير إليه، ثم لعله لاحظ فى تعدد تلك المعانى و فى تفاوت مستويات حظوظها تبعا لتفاوت درجات التأمل فى استنباطها .. لعله لاحظ أن فى هذا دليلا على أن طبقات الكلام تجتمع ممتزجة فى الموضع الواحد من القرآن الكريم. و الخطابى بهذا يسبق نقاد العصر فى منهج التفكيك و التركيب، و لا تعنى نظرته لكل من المعانى و الألفاظ نظرة مستقلة أنه يفرق بينهما أو يتناول كلا منهما بالنظرة الجزئية المحدودة و لكن هذا من ضرورات المنهج التحليلى الذى يفكك الكل إلى أجزائه لفحصها ثم يعود إلى الدلالات التركيبية المرتبطة بالنظم و الذى يرى "أنه لجام الألفاظ و زمام المعانى و به تنتظم أجزاء الكلام و يلتئم بعضه ببعض، فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها البيان. "و مع أن الرمانى قد فطن إلى ذلك الارتباط بين المعانى و الألفاظ فى البلاغة العالية عند ما قال ":و ليست البلاغة إفهام المعانى .. و لا البلاغة بتحقيق اللفظ على المعنى .. و إنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ "إلا أننا لا نشعر عنده بعمق ذلك المنهج التحليلى الذى رأيناه عند الخطابى. و مع ذلك فإن

لكل من هـذين العالمين ميزة لا توجد عند الآخر، فميزة الخطابى هى ما سبق و لقد كان أديبا حسن العبارة قادرا على توصيل ما يريد بأيسر لفظ و أحلاه، أما الرمانى فلقد كان متكلما كز العبارة يحوجنا إلى قراءة أفكاره أكثر من مرة لكنه يتميز بإصابة الرمية و تحديد الخصوصية التى يتميز بها القرآن فى أكثر أقسام البلاغة التى عرضها و لا سيما تلك الموازنات الدقيقة بين جمل من القرآن و جمل من فصيح كلام العرب و التى تعد دليلا قاطعا و منهجا موضوعيا سديدا للإعجاز القرآنى. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۷ و حاصل هذا أن أفكار الخطابى فى منهج البحث عن التميز كانت أفضل من تطبيقه، و أن الرمانى قد توازت و تعادلت أفكاره مع تطبيقاته و موازناته التى تسير فى الطريق الصحيح للبحث عما يتميز به القرآن الكريم.

۲- أفكار الخطابى فى منهج البحث عن التميز:

۲- أفكار الخطابى فى منهج البحث عن التميز: بالعودة إلى تلك الأفكار نجده يقول "و زعمنا أنها أمور لا تجتمع لأحد من البشر، و لا يجوز أن تأتى عليها قدرته، و إن كان أفصح الناس و أعرفهم بطرق الكلام و أساليب فنون البيان، و ذكرنا العلة فى ذلك و بيّنا المعنى فيه، و لم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التى منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التى هى معانيه و ملابسه التى هى نظوم تأليفه «"۱». و لعله يقصد بعلة التفوق تلك ما سبق من حديثه عن امتزاج طبقات الكلام و وجودها فى القرآن مجتمعة و على اطراد بخلاف وجودها فى كلام الناس فإنه يكون على التفرقة و التوزع، ثم إن القرآن جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى، و أن هذه الفضائل توجد مجتمعة و مطردة فى القرآن بينما تفتقد فى كلام الناس هذه السمة المميزة «۲». و ربما لو لم يشغل الخطابى نفسه بالرد على شبهات تتصل بألفاظ القرآن و معانيه لكان قد وفّى بما كنا ننشده من خصوصيات النظم القرآنى، لكنه على كل حال قدم لنا من خلال تلك الردود خصوصيات متفرقة تتعلق تارة بدقة اللفظ القرآنى و أن غيره لا يسد مسده كقوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف:

(_____ ۱) راجع بيان إعجاز القرآن ۲۷ و قد مهّد الخطابى لذلك بترسيخ أصل من أصول هذا العلم و هو صلة اللفظ بالمعنى و صلة النظم بهما فيقول "و إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل و معنى به قائم و رباط لهما ناظم "و هذا رائع لأن كون اللفظ حاملا للمعنى يعنى أنه لا يتحدث عن اللفظ مفرغا من معناه، و "معنى قائم به "يعنى أنه يقدر عدم قيام معنى من غير لفظ ثم إنهما لا يظهر لهما أثر من غير النظم الرابط، و كان الخطابى يريد أن يصل إلى أن هذه الأمور فى القرآن جاءت فى غاية الشرف و الفضيلة لكنه عقب ذلك بعبارة لم تكن موفقة هى قوله ":حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح و لا أجزل و لا أعذب من ألفاظه، و لا ترى نظما أحسن تأليفا و أشد تلاؤما و تشاكلا من نظمه .. الخ "۲۷ فإن نفى أفضلية كلام البشر عن القرآن فى ألفاظه و نظومه لا ينفى المساواة .. و هاذ ما تعنيه عبارته و إن لم يقصده.

(۲) راجع بيان إعجاز القرآن من ثلاث رسائل ۳۵. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۸ (فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) بدلا من افترسه لأن الافتراس لا يستلزم الأكل و قد قصدوا أن الذئب لم يترك منه شيئا حتى لا يطلب أبوهم دليلا من بقية منه. و كما فى التعبير بقوله (امْشُوا) بدل امضوا فى قوله تعالى (وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ) [ص: ۶] لأن المشى فى هذا الموقع أولى و أشبه بالمعنى؛ لأنه إنما قصد الاستمرار على العادة الجارية و لزوم السجية المعهودة فى غير انزعاج منهم ..، و ذلك أشبه بالثبات و الصبر المأمور به فى (وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ)، و لو قال: امضوا لكان فيه زيادة انزعاج ليس فى قوله "امشوا" ۴۳ ثلاث رسائل. و حاصله أن اللفظ القرآنى أنسب للموقف و أشبه بالمعنى و السياق المجاور، و قد علّل الخطابى لهذه الدقة تعليلا ناشئا من إدراكه الفروق اللغوية بين الأدوات و الكلمات و استبطان السياق القرآنى للوقوف على المقصود الذى يتطلب لفظا بعينه. و تارة تتعلق بالصلات بين المعانى التى قد تدق و تخفى على غير أولى الألباب كصلة قوله تعالى (كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ) بما قبلها فى سورة الأنفال «۱». و تارة تتعلق ببناء السورة و التخلص من غرض إلى غرض و ذلك فى سياق الرد على من أدعى

أفضلية أن يكون لكل سورة موضوع واحد «۲». و تارة أخرى تتعلق ببناء القرآن كله و ما فى سوره من تكرار، و يبدو أن الخطابى كان واعيا بالتدرج فى هذه الشبهات التى تنتقل من اللفظ إلى التركيب ثم بناء السورة و ما يليه من بناء القرآن و قد أحسن الرد على تلك الشبهات، و كان من ردوده ما يدخل فى باب التميز، لأن الحكم على القرآن ليس كالحكم على أساليبهم، و من الخطأ قياس كلام رب العالمين على كلامهم (_____. ۱) راجع ثلاث رسائل ۴۹. (۲) راجع المصدر نفسه ۵۴. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۹ و من ذلك تفسيره تكرار المعانى و القصص القرآنية أو ما ظاهره التكرار بما فسر به القرآن نفسه هذه الظاهرة إذ يقول سبحانه (وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) [القصص: ۵۱] و قوله سبحانه (وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً) [طه: ۱۱۳] ثم يعلل الخطابى ذلك تحليلا موجزا و شاملا إذ يقول ":و مواقع البلاغة معتبرة لمواضعها من الحاجة "۵۳ ثلاث رسائل. و من ذلك أيضا تفسيره اجتماع الأغراض المتعددة فى السورة الواحدة "بأن السورة لو دارت حول موضوع واحد ما قامت الحجة على المعاندين المنكرين إلا فى النوع الواحد الذى تضمنته السورة ... فكان اجتماع المعانى الكثيرة فى السورة الواحدة أوفر حظا و أجدى نفعا. "و لا شك أن بناء السورة القرآنية على ما جاءت عليه من تعدد الأغراض مع وحدة البناء و وحدة الإيقاع، و روح التراكيب الواحدة من الإعجاز الذى لا طاقة لأحد بمثله، إذ لا يوجد فى إبداع البشر عمل تتعدد موضوعاته ثم يكون بهذا المستوى من التناسب و التماسك، و لا شك أن هذا و إن كان ظاهرا لكل عاقل فإنه ثبوته علميا لا يكون إلا بالموازنة بين سورة قرآنية و بين قصيدة متعددة الأغراض، على أن يكون مجال الموازنة هو كيفيات البناء و كيفيات التخلص بين الأغراض و مدى الوحدة و التماسك.

الموازنة عند الخطابى:

الموازنة عند الخطابى: على أن الخطابى فى سياق حديثه عن المعارضات أثبت سقوطها عن مرتبة الحد الأدنى من البلاغة لما فيها من تكلف و سخف، و قد أتاح له ذلك قدرا من الموازنة و إن جاءت بين القرآن و بين أسخف كلام لكنها لم تكن مقصودة أصلا، و إنما جاءت عرضا عند ما عرض لقول أحدهم "الفيل ما الفيل و ما أدراك ما الفيل له مشفر طويل و ذنب أثيل و ما ذاك من خلق ربنا بقليل "فقد سعى الخطّابى لكشف درجة السقوط التى هوى فيها صاحب هذا الكلام و بعد ما بينه و بين القرآن و حاصل كلامه أن هذه المقدمة إنما تكون مقدمة أمر عظيم الشأن فائت الوصف إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۰ متناهى الغاية فى معناه كقوله تعالى: (الْحَاقَّةُ* مَا الْحَاقَّةُ* وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ) و قوله سبحانه (الْقارِعَةُ* مَا الْقارِعَةُ* وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ) فذكر يوم القيام و أتبعها بذكر أوصافها و عظيم أهوالها، أما ذاك المعارض فقد علق هذا القول على دابة يدركها البصر فى مدى اللحظة، ثم اقتصر على ذكر المشفر و الذنب حتى أشبه قول القائل: و إنى و إنى ثم إنى و أننى إذا انقطعت نعلى جعلت لها شسعا ثم يقول له: أى صغير ما أتيت به فى عجز كلامك من عظيم ما أحميته فى صدره، و يسير ما رضيت به فى آخره «"۱» و هذا يعنى التفاوت الشديد بين صدر الكلام و عجزه فى تلك المعارضة بخلاف ما جاء عليه هذا النظم القرآنى (فى صدر سورة الحاقة و سورة القارعة) من التناسب بين التهويل فى الصدر و الأهوال فيما تلاه. و الذى نفيده فى هذا السياق أن الخطابى لمّا رأى كلاما على طريقة النظم القرآنى أو يحاول أن يكون كذلك وازن و لم يمنعه من الموازنة هبوط مستوى ذلك الكلام، لأنه أدرك أن تلك الموازنة هى الوسيلة الوحيدة لإبراز تميز القرآن و تفرده أو سقوط ذلك النص الذى قاله المعارض. و هذا ينبهنا إلى أهمية الموازنة و أنها السبيل الوحيد لمعرفة جهات التميز و التفوق فى القرآن الكريم سواء كانت الموازنة بين نصين يلتقيان فى الصياغة و الطريقة و القالب فيكون الهدف من الموازنة بيان الفروق المعنوية كما فعل الخطابى أم كانت الموازنة بين نصين يلتقيان فى المعنى أو فى قدر من الأفكار فتكون الغاية من الموازنة بيان الفروق الأدائية و الخصوصيات التعبيرية و أثرها على الفروق الدلالية. و ربما كانت الموازنة فى طريقة البناء و كيفيات التخلص و الانتقال عند ما تكون الموازنة بين سورة كاملة و قصيدة كاملة لبيان الفروق فى كيفيات البناء و مدى

التماسک و الوحدة (_____. ۱) بیان إعجاز القرآن من ثلاث رسائل ۶۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۱ فهذه فيما أرى جهات الموازنة بين النص القرآنی و غيره من كلام الناس للوقوف على جهات التميز و التفوق التی يثبت بها الإعجاز.

وجه أخير للإعجاز:

وجه أخير للإعجاز: ذكر الخطابی وجها أخيرا للإعجاز يصعب تعليله و لكن الإحساس به قوی و نحن نشعر به الآن كما كان القدماء يشعرون به بما يدل على أن رب بالعزة سبحانه قصد إلى أن يكون، و لا تجد نظيره فی كلام ما، فهو ثابت قائم يتميز به القرآن من غير حاجة إلى موازنة، ذلک هو "صنيعه بالقلوب و تأثيره فی النفوس، فإنک لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما و لا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة و الحلاوة فی حال و من الروعة و المهابة فی أخری ما يخلص منه إليک «۱». و لهذا الوجه الذی ذكره هنا ارتباط شديد بوجه آخر سبق إليه و هو ما يترتب على امتزاج طبقات الكلام فی الموضوع الواحد فی القرآن من ظهور نمط من الكلام يجمع بين صفتی الفخامة و العذوبة و هما أصلان لا يجتمعان فی كلام آخر لأن العذوبة نتاج السهولة و الجزالة تعالج نوعا من الوعورة. فإن الجزالة تؤدی إلى الروعة و المهابة، و العذوبة تؤدی إلى اللذة و الحلاوة «۲» و الإعجاز يكمن فی أن هاتين السمتين تجتمعان فی الموضوع الواحد على ما بينها من تضاد؛ و تفسيره هو تلطف العليم الخبير بنفوس عباده عند ما تشتد بها الوحشة و الفرق. ثم يستدل الخطابی على هذا مع كونه وجها واضحا فی غير حاجة إلى دليل لكن لما كان الدليل قائما من أحوال الإنس و الجن ذكره، و حسبنا ما نعرفه من قصة إسلام عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه و كيف حوله القرآن عند ما استمع إليه من عدو متربص إلى محب للإسلام و المسلمين و قصة عتبة الذی راح يساوم

(_____ ۱) بيان إعجاز القرآن و نص عبارته الأخيرة "ما يخلص منه إليه "و مرجع الضمير فی (إليه) غير معلوم فالظاهر ان الأصل (إليک) و الضمير يعود إلى المخاطب بهذا الكلام و الذی بدأ به الخطابی فی قوله "فإنک لا تسمع كلاما (۲) تنبه إلى هذا الارتباط د. مصطفی مسلم فی كتابه "مباحث فی إعجاز القرآن- دار القلم- دمشق إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۲ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم للتخلی عن تلک الرسالة فأسمعه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سورة فصّلت فعاد إلى قومه يسجل أعظم شهادة قالها مشرک و تدل على تفرد القرآن "ما هو من كلام الإنس و لا من كلام الجن " ..أما الجن فعند ما استمعوا للقرآن قالوا: (إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِی إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ..) و حسبنا قول ربنا يسجل هذه الخصوصية (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ..) [الزمر: ۲۳]. بيد أن الحقيقة العلمية تقتضی الاعتراف بأن القدماء كانوا أكثر إحساسا بهذه الخصوصية التی يتميز بها القرآن؛ لأنهم كانوا قريبی عهد بسليقة اللغة و كانوا أصغى ذوقا و أقدر على التذوق، و فوق ذلک كانوا أرق إحساسا، و أكثر وقوعا تحت تأثيرات القرآن الوجدانية و النفسية و المعروف لكل صاحب خبرة بالأساليب أن القرآن الكريم يخاطب العقل و الوجدان معا و تجد فی كل مواطن الخطاب فيه عناصر الإقناع العقلی تسير فی خط متواز مع عناصر التأثير الوجدانی، فمن غلب عقله على عاطفته تسطع الحقيقة فی فكره أولا ثم تستولی عليه بعد ذلک عناصر التأثير، و من غلبت عاطفته على تفكيره تتفتح نوافذ الوجدان عنده أولا فلا يملک العقل بعد ذلک سوی التسليم. لكنا مع ذلک نشعر فی آيات القرآن بالاستحواذ و السيطرة و القوة و الهيبة فلا يملک المنصف أمامه سوی أن ينحنی إجلالا و توقيرا، و تفسير هذا أن القرآن كلام اللّه فهو أثر من آثاره، و اللّه سبحانه هو القوی العزيز القاهر القادر المقتدر المهيمن الجبار المتكبر، فلا مفر من أن يكتسب كلامه أثرا من أسماء اللّه و صفاته، فهذا هو سبب ما نشعر به فی القرآن من استحواذ و سيطرة و هيبة و جلال، ثم إننا إذا تتبعنا سور القرآن و آياته فلن نعدم أساليب أوضح من غيرها فی هذا و يمكن الوقوف عليها و عدها و إحصاء عناصر التأثير فيها فلعل اللّه يقيض من طلاب العلم من يقوم بهذه المهمة.

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۳

المبحث الثالث جهات تميز القرآن عند الباقلانى

اشارة

المبحث الثالث جهات تميز القرآن عند الباقلانى يبدو أن الباقلانى (ت ۴۰۳ ه) التقى م الرمانى (ت ۳۸۶ ه) و الخطابى (ت ۳۸۸) فى جزء من الزمن، لكن حبل العمر امتد للباقلانى بعدهما بما يقرب من خمس عشرة سنة، و يغلب على الظن أن الرمانى و الخطابى سبقا إلى كتابة ما كتباه عن الإعجاز، و أن الباقلانى أتيح له أن يقرأ ما تركاه قراءة جيدة و كان لهذا الرجل قدرة على أن يستوعب و يتمثل و أن يضيف الجديد، لكن ليس بالدرجة التى تجعله كعبد القاهر، إذ أن قارئ إعجاز القرآن للباقلانى لا يصعب عليه أن يرد أكثر أفكاره إلى الرمانى و الخطابى و إن اجتهد الباقلانى فى التفصيل الكاشف الذى يزيل الغموض عن كثير من أفكار سابقيه. على أن مما يذكر للباقلانى فى مجال البحث عن الإعجاز هو شدة إيمانه بمنهج البحث عن التميز و علو نبرته فى كل فكرة من الأفكار التى عرضها إذ كان يقابل كل وجه من وجوه الإعجاز التى ذكرها بنظيره فى كلام العرب حتى يتبين مدى التفاوت بينهما، ثم تبلور ذلك عنده فى تلك الموازنة التى اشتهر بها و تميز فيها بالنظرة الشاملة من خلال الاستشهاد بالنص الكامل. و الباقلانى و إن ذكر الأمور الغيبية من وجوه الإعجاز فى القرآن فإنه أبدى تحفظه على القول بذلك قولا- مطلقا «۱»؛ لأن القرآن ليس مما ينفرد بالمغيبات ففى الكتب السابقة إخبار عما مضى و ما سيأتى بدليل القرآن ذاته فى قوله تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ..) [الأعراف: ۱۵۷]. كأن الباقلانى لا يعوّل على الأمور الغيبية فى الإعجاز و إن عدها من وجوهه، لكنه بفكره الدقيق يرى أن الغيوب و قصص الأولين يمكن القطع بكونها من الإعجاز عند النظر إليها من زاويتين (_____: ۱) لعل الباقلانى يقف بهذا موقف وسطا بين الرمانى الذى عد المغيبات من الإعجاز. و توقف الخطابى لعدم وجود المغيبات فى كل سورة مع أن كل سورة معجزة بنفسها. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۴ الأولى: الأسلوب القرآنى الذى جاءت عليه و الذى يتميز باستحضار مشاهد الغيب و كأن المستمع يشاهدها، فهذه من خصوصيات القرآن يقول الباقلانى "و قد حكى القرآن تلك الأمور حكاية من شهدها و حضرها «"۱». الثانية: أن فى حكاية قصص الأولين فى القرآن مع أمية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم دليل على صدق رسالته، فلا هو شاهد تلك الوقائع لقوله تعالى: (وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) [القصص: ۴۴]، و لا- هو قرأها فعلمها، لأنه أمىّ لا يقرأ و لا يكتب، فلا مفر من التسليم بصدق النبى فيما أخبر من الوحى (تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) [هود: ۴۹]. و لا شك أن هذا التدقيق الذى يجعل المغيّبات إن لم تكن معجزة بنفسها فهى معجزة بأسلوب القرآن المعجز .. هذا لا يكون إلا من باحث متأمل فيما ينفرد به القرآن و يتميز عن غيره، و هذا هو المنهج السديد للبحث عن الإعجاز. ثم توجه اهتمام الباقلانى إلى إعجاز القرآن من جهة نظمه، فشقّق هذه الجهة على وجوه متعددة يعد أكثرها تفصيلا لما سبق إليه الخطابى من النظم، و ما سبق إليه الرمانى عند حديثه عن نقص العادة، و كان يقصد النظم الذى انفرد القرآن فيه بطريقة خارجة عن العادة و لها منزلة من الحسن تفوق به كل طريقة «۲». و من الوجوه التى ذكرها الباقلانى فى إطار النظم و يدخل فى باب التفرد و التميز ۱ "-إنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة و الغرابة و المعانى اللطيفة و الفوائد الغزيرة و الحكم الكثيرة و التناسب فى البلاغة و التشابه فى البراعة على هذا الطول «" ..۳». (_____۱) إعجاز القرآن للباقلانى ۴۹. (۲) النكت ضمن ثلاث رسائل ۱۱۱. (۳) إعجاز القرآن ۳۵. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۵ فإن مبادرة الباقلانى

إلى نفى هذه الميزات عن كلام العرب يعنى تميز القرآن بها، و تتخلص فى: استواء الأسلوب القرآنى و بعده عن الاختلاف مع طوله عن الكلام المعهود طولا ظاهرا، و هذه النتيجة لا تنشأ إلا بعد مقارنة و طول نظر، و يؤيده قوله مفصّلا "إنه تنسب لحكيمهم كلمات معدودة و إلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبّينه من الاختلال و الاختلاف. "و هو يقصد النهج الذى سلكه بعد ذلك حين وازن موازنة تطبيقية تثبت ما يقع فى كلامهم و أشعارهم من اختلاف و اختلال و أن القرآن الكريم على طوله برئ من ذلك الاختلاف و أنه أشد ما يكون انتظاما و استواء، و ربما أخذ عليه أنه دخل تلك الموازنة بالنتيجة مقدما مما دفعة للمبالغة فى التحامل و التنقيص من الشعر، و لو أنه ترك الحكم لنهاية الموازنة لوصل إلى النتيجة التى يريدها و هى أن القرآن معجز من غير ذلك التعسف؛ لأن القرآن فى القمة و لن يزيد من قدره النقيص من كلام العرب الفصيح، و إنما يثبت الإعجاز بالبحث عما فى القرآن من خصوصيات و ميزات لا- بالبحث فى كلام الآخرين عن الهفوات و السقطات. و اللافت هنا أن الباقلانى استدل على ما سبق بقوله تعالى: (وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) [النساء: ۸۲]. ثم يستنتج منها "أن كلام الآدمى إن طال و امتد وقع فيه التفاوت «"۱» كأنه يفسر الآية على معنى: و لو كان القرآن على طوله من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا، و ظاهر هذا الفهم لا يخدم فكرة الباقلانى السابقة و التى تتلخص فى أن الاختلال و الاختلاف يقع فى كلام العرب طال أم قصر. ۲- و من تلك الوجوه المعجزة عدم تفاوت النظم القرآنى مع ما يتصرف إليه من الوجوه الكثيرة من قصص و مواعظ و احتجاج و حكم و أحكام و أعذار و إنذار و وعد و وعيد و أخلاق كريم، و قد يبدو فى الظاهر أن هذا هو عين الوجه السابق، و ليس هو فى الحقيقة لأن الأول يتعلق باستواء الأسلوب على مستوى القرآن كله (على طوله) لكنه ينظر هنا فى الوجه الثانى إلى استواء نظم السورة و عدم تفاوته على

(_____ ۱) إعجاز القرآن ۳۶. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۶ تعدد أغراضها و ربما قصد ما أراده الرمانى من تصريف الغرض الواحد فى دلالات مختلفة، و قد اتضحت فكرة الباقلانى و هو يقابل ما فى القرآن بما عند الشعراء، فإن الشاعر لا يمكن أن يجوّد فى جميع أغراض الشعر "و متى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت فى شعره بحسب الأحوال التى يتصرف فيها، فيأتى بالغاية فى البراعة فى معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه و وقف دونه ... و كذلك يتفاوت الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة، و نظرنا فى القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف و لا متفاوت «"۱» إن هذا كلام رجل مجرب بعد طول نظر، و بعد ترديد التأمل بين القرآن الكريم و كلام الناس. ۳- ثم نجد هذا التأمل واضحا فى حديثه عن وجه آخر للإعجاز يتعلق ببناء السورة القرآنية و الروابط بين تراكيبها و حسن التخلص بين معانيها و أغراضها و قد صاغ هذا الوجه صياغة تدل دلالة قاطعة على إحساسه القوى بالتفاوت الشديد بين بناء المعانى فى القرآن و بناء معانى الفصحاء يقول "و معنى رابع هو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بينا فى الفصل و الوصل و العلو و النزول، أ لا ترى أن كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره، و الخروج من باب إلى سواه حتى إن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحترى- مع جودة نظمه و حسن وصفه- فى الخروج من النسيب إلى المديح، و أطبقوا على أنه لا يحسنه .. و إنما اتفق له فى مواضع معدودة خروج يرتضى و تنقل يستحسن، و كذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شىء إلى شىء و التحول من باب إلى باب، لكن القرآن على اختلاف فنونه، و ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة و الطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف و المتباين كالمتناسب، و هذا أمر عجيب تبين به الفصاحة، و تظهر به البلاغة، و يخرج معه الكلام على حد العادة «۲». و من الوجهين السابقين نجد الباقلانى يحسن استغلال التميز الظاهر للسورة القرآنية باعتبارها وحده بناء و كيان نصى مكتمل ليس له نظير فى استواء نظمه (_____ ۱) إعجاز القرآن ۳۷. (۲) المرجع السابق ۳۸. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۷ على الرغم من تعدد الأغراض و تصريف المعانى، و ليس له نظير فى الربط بين معانيه و الانتقال بين أغراضه المتعددة، و هذا يدخل فى باب الموازنة و إن كان الباقلانى قد تعامل مع هذا المصطلح بحساسية شديدة. ۴- و من وجوه الإعجاز التى ذكرها الباقلانى و تدخل فى التميز و التفرد ما تضمنه القرآن من معان

جديدة فى أصل الشريعة و الأحكام و الاحتجاجات فى أصل الدين و الرد على الملحدين و ذلك بالألفاظ البديعة التى توافق تلك المعانى فى لطف و براعة مما يتعذر على البشر، و فى هذا الوجه ينبه الباقلانى إلى أنّ اختيار اللفظ للمعانى الدائرة المألوفة أسهل و أقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، فهنا يشير إلى أن هذا الوجه من الإعجاز يكمن فى تخير الألفاظ المناسبة للمعانى المبتكرة فى هذا الدين، و لا تجد لهذا نظيرا فى كلام الناس لا من جهة التخير و لا من جهة المعانى المبتكرة، و هذا فيما أرى من أهم وجوه الإعجاز لأن معانى القرآن التى لا عهد للعرب بها هى التى اقتضت نظما لا عهد لهم به.

۵- مدخل ضروب البلاغة فى الإعجاز:

۵- مدخل ضروب البلاغة فى الإعجاز: كانت للباقلانى وقفة عند ضروب البلاغة و مدخلها فى الإعجاز، و يبدو أنه على نهجه حاول أن يقف موقفا وسطا بين من ينفى مدخل الألوان البلاغية فى الإعجاز و من يثبت ذلك، و حاصل رأيه أن ضروب البديع و البلاغة منها ما لا يتحقق به الإعجاز و هو ما يمكن الوقوع عليه و التحمل له و إدراكه بالتعلم كالجناس و التشبيه الذى يقع فى الأشعار و حسنه لا يخفى، و فى شعر ابن المعتز من التشبيه البديع ما يشبه السحر «۱». و من وجوه البلاغة ما يتحقق به الإعجاز بحيث ينفرد به القرآن و هو ما لا سبيل إلى إدراكه بالتعمل أو التعلم كالفواصل و التلاؤم و الاستعارة البديعة. و الحق أن أدب العرب لا يخلو من كل هذه الألوان البلاغية و ما كان ينبغى أن تكون تلك الألوان فى ذاتها مجالا للحكم بكونها معجزة أو غير معجزة و إنما

(_____ ۱) نفسه ۲۷۵، ۲۷۶. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۸ يرجع فى هذا لاعتبارات أخرى كاطراد حسن تلك الألوان أو عدم اطراده مما يدخل فى إعجاز التفوق، و هذا ما عاد إليه الباقلانى فى قوله ":ثم إن ما يقذف به الطبع من ضروب البديع فى شعر شاعر أو نثر ناثر إنما يأتى فى النادر القليل، كالبيت البديع و القطعة الشريفة فى ديوان من الشعر و الفقرة من رسالة كاملة حتى يكون الشاعر ابن بيت أو بيتين، و الأديب شهير بكلمة أو كلمتين، و لا تجد شيئا من هذا مطردا عندهم حتى نقول إنه معجز «"۱». لقد كان حريا بالباقلانى أن يدخل ضروب البلاغة كلها فى إطار النظم المعجز بما يحمله من معان معجزة فكل استعارة و كل تشبيه و كل جناس أو طباق فى القرآن ليس قائما بذاته و ليس منفصلا عن سياق خاص و نظم خاص هو نظم الآية و السورة التى وردت فيها تلك الألوان، و ربما قصد إلى هذا فى قوله ":و قدر المعجز فى القرآن سورة طالت أو قصرت، و العرب عاجزون عن الإتيان بمثل سورة أو بمثل آية طويلة «"۲».

الموازنة عند الباقلانى:

الموازنة عند الباقلانى: اتضح مما سبق أن الباقلانى كان يلح و هو يعرض وجوه الإعجاز على إثبات تميز الأسلوب القرآنى و إثبات التفاوت الشديد بينه و بين أساليب الفصحاء، فكان يذكر الوجه المعجز فى القرآن و مقابله فى كلام العرب ليؤكد على الفرق الكبير بينهما، و مع أن الباقلانى استبعد كلمة الموازنة و تعامل معها بحساسية مفرطة فلقد كانت له أفكار كثيرة لا تنشأ إلا بعد موازنة و ترديد نظر بين القرآن و بين الفصيح من كلام العرب، و عند ما أراد أن يثبت التفاوت الشديد بين القرآن و أفصح كلامهم استبعد كلمة موازنة و اكتفى بالعرض النقدى التحليلى لقصيدة كاملة هى أفصح أشعار الجاهلية و قصيدة أخرى من أفصح أشعار الإسلامية و ذلك بعد تتبع بناء سورة قرآنية و كان يدفعه لهذا عوامل منها:

(_____ ۱) المرجع السابق ۲۸۶. (۲) نفسه ۲۸۶. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۹ ۱- انتقال الملاحدة فى عصره من التلميح إلى التصريح الذى يشكك فى أن القرآن وحى من عند اللّه سبحانه، و لم يكن سبيل لمواجهة أفكارهم إلا بالمنهج العلمى الذى يسعى لإثبات أن القرآن الكريم ليس له نظير من كلام الناس و أنه لا شك من عند اللّه عز و جل. ۲- توهم بعض النقاد أن من الشعر ما يرقى نظمه إلى مستوى نظم

القرآن «۱». ۳- و من الشعراء من لعبت برءوسهم الشياطين فتوهموا قدرتهم على مناظرة القرآن "فقد حكى عن المتبنى أنه كان ينظر فى المصحف فدخل عليه بعض أصحابه فأنكر نظره فيه لما كان يراه عليه من سوء اعتقاده، فقال له: هذا المكى على فصاحته كان مفحما. "يقول الباقلانى فى التعقيب عليه ": فإن صحت هذه الحكاية عنه فى إلحاده عرف بها أنه كان يعتقد أن الفصاحة فى قوله الشعر أمكن و أبلغ «"۲». ۴- ثم إن الباقلانى كان يسعى إلى إثبات تفوق القرآن و إعجازه بالدليل العلمى التطبيقى، و هذا واضح من قوله ":ليتبين أن نظم القرآن يزيد فى فصاحته عن كل نظم، و يتقدم فى بلاغته على كل قول، بما يتضح به الأمر اتضاح الشمس «"۳». لقد وقف الباقلانى مع كثير من الآيات محللا و مفصلا و كاشفا عن الأسرار فيها ثم اختار للتحليل من الشعر ما اتّفق على فصاحته و لا خلاف بين النقاد على بلاغته و لا سيما معلقة امرئ القيس، و لعله كان يقصد من هذا الاختيار إلى جانب إثبات الإعجاز البيانى شيئا آخر هو نفى القول بالصرفة بالدليل العملى؛ لأنه لو صح أن اللّه سبحانه صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن فى عصر النبوة، و كانت لهم قدرة قبلها لظهر ذلك فى أشعارهم و خطبهم، من أجل هذا جاء بأرقى مستوى من الشعر الجاهلى باتفاق النقاد ليثبت أنه دون مستوى القرآن الكريم (_____ ۱) السابق ۱۵۴. (۲) نفسه ۱۵۶. (۳) نفسه ۱۵۶ إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۰ بكثير، و قد أحسن الباقلانى عند ما استبعد كلمة الموازنة؛ لأن ما فعله لم يكن موازنة بالمعنى الدقيق الذى نفهمه الآن للموازنة و الذى يقتضى ترديد النظر بين نصين يلتقيان فى الموضوع و يتفاوتان فى طريقة التعبير و التصوير و فى طرق النظم، فتكون الموازنة هى السبيل حينئذ للمفاضلة بين النصين، و معرفة الخصوصيات المميزة لكل نص، ثم معرفة ما يفضل به نص على آخر و أسباب ذلك التفضيل فهناك تسامح كبير فى تسمية البعض ما فعله الباقلانى "موازنة؛ "لأن الذى فعله و نص عليه هو النظر إلى ما اختاره من شعر لا خلاف على قيمته ليثبت أنه يتفاوت فى مستواه و يطرأ عليه الضعف و التقصير، و أنه يقع مثله من كلام غيره بخلاف القرآن الذى لا يتفاوت أسلوبه مهما تعددت أغراضه و تعددت وجوه التصرف فيه، و أنك لا تجد له مثيلا يقول الدكتور الجوينى ":إن الباقلانى و معاصريه رأوا أنه فى الإمكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر و سورة من القرآن و إن لم يتحد الموضوع، و سبيل ذلك أن تبيّن محاسن القصيدة و مساويها و يشرح فيها المبتذل و الطريف و المقبول و المرذول ثم يقابل ما سلم فيها بالسورة التى توازيها فى الكمية ليظهر ما فى السورة من المحاسن التى لم يشبها ضعف و لا تهافت و لا فضول، و هذا النحو من النقد من المحاولات البارعة فى الأدب العربى و لا عيب فيه إلا التحامل و الإسراف «"۱» أ رأيت كيف عدها الجوينى و غيره موازنة مع أنها ليست كذلك؟ سوى أن ما يذكر للباقلانى فى هذا المجال أنه تخيّر من الشعر قصيدة كاملة ليتأتى له البحث عن مدى ثبات المستوى أو تفاوته بين سائر أبياتها و إلا فإن إثبات هذا بشكل موضوعى لا يتم من بيت واحد أو بيتين.

بين منهج الرمانى و الباقلانى:

بين منهج الرمانى و الباقلانى: - موازنة الرمانى كانت جزئية لكنها كانت أصوب و أمكن، لأنه وازن ين آية أو جزء من آية و بين مثل عربى يجمع بينهما غرض واحد أو يشتركان فى أصل المعنى و هذا من أهم شروط الموازنة، لأن التفاضل و التفوق لا يظهر (_____ ۱) جماليات الشك و المضمون. مصطفى الصاوى الجوينى منشأة المعارف ۱۳۸. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۱ إلا عند الموازنة بين كيفيات التعبير عن الغرض الواحد، و هذا غير متحقق عند الباقلانى، و إن كانت الموازنة تجوز من غير اتفاق فى الموضوع عند ما تكون فى طريقة البناء. - ثم إن الرمانى ذكر ميزات محددة تنفرد بها الآية و يفتقر المثل إليها، فقد أصاب صميم الإعجاز بذكر نواحى التفوق فيما تناوله. - على أنه لم ينتقص من المثل لمجرد خلوه من تلك الميزات لأنه يقدر أنه نتاج بشرى، و أن قيمة القرآن لا تزيد بالتحامل فى نقد كلام البشر فنراه يقول ":فباجتماع هذه الأمور التى ذكرناها صار أبلغ منه و أحسن و إن كان المثل بليغا حسنا «"۱». و

هذا عكس ما دأب عليه الباقلانى إذ راح يبحث فى الشعر عن نواحى الضعف ليثبت أنه يعتوره النقص.

تقويم منهج الباقلانى:

تقويم منهج الباقلانى: يعرض الباقلانى قصيدة امرئ القيس بيتا بيتا أو بيتين بعد بيتين و يكاد ينحصر نقده فى الألفاظ و المعانى و النظم و البناء و الترابط، لكنه النقد الذى لا يخلو من التعسف و التحامل و المصادرة بدايةً بالنتيجة، و كان الباقلانى يتعامل مع الشعر بفكره لا بذوقه، مع أن فى نقده لمحات تدل على أنه لا يفتقد إحساس المتذوقين، لكنه عطل هذه الملكة فيما يبدو سعيا إلى تحقيق هدفه الذى وضعه نصب عينه، و هو إثبات ما فى شعر امرئ القيس من اختلاف و اختلال، و ليست هذه هى الطريقة المثلى لاثبات الإعجاز؛ لأن منزلة القرآن تثبت و إعجازه يتأكد إذا كان من يتحداهم لهم فى البلاغة قدم راسخ، و لقد كانوا كما وصفهم القرآن ذوى ألسنة حداد و إن يقولوا تسمع لقولهم. و ربما كان عذر الباقلانى أنه عاش فى عصر يموج بتيارات غريبة حتى لقد وجد نفرا يفضّل الشعر على القرآن و هذا ما أهاجه على امرئ القيس «۲» حتى

(_____ ۱) النكت من ثلاث رسائل ۷۸. (۲)

انظر الإعجاز البلاغى ۲۹ للدكتور محمد أبو موسى عن الأستاذ محمود شاكر فى مقدمة الظاهرة القرآنية. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۲ لقد وصف شعره بالتعسف و الضعف و قلة الفائدة و التفكك، و كان يقلب المحاسن أحيانا، ففى قول امرئ القيس مثلا: ففاضت دموع العين منّى صبابة على النّحر حتى بلّ دمعى محملى يقول "قوله: ففاضت دموع العين "ثم استعانته بقوله "منى "استعانة ضعيفة عند المتأخرين فى الصنعة و هو حشو غير مليح و لا بديع، و قوله "على النحر "حشو آخر، لن قوله "بلّ دمعى محملى "يغنى عنه و يدل عليه .. ثم قوله "حتى بل دمعى محملى "إعادة ذكر الدمع حشو آخر، و كان يكفيه أن يقول "حتى بلت محملى "فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله «"۱». فالباقلانى بهذا النقد يجرد الشاعر من المشاعر الحارة التى تدل عليها كلمات عدّها الباقلانى حشوا و تكرارا، و أعجب من هذا اقتراحه قائلا "و لو كان أبدع لكان يقول "حتى بلّ دمعى مغانيهم و عراصهم "فأى اقتراح هذا الذى يدعو إلى الغلو الفاحش. و أقرب كلمات الباقلانى إلى الاعتدال و تكشف عن هدفه قوله "إن هذه القصيدة و نظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بيّنا فى الجودة و الرداءة و السلاسة و الانعقاد و السلامة و الانحلال .. و التوحش و الاستكراه و له شركاء فى نظائرها و منازعون فى محاسنها «"۲». و هو يسعى بهذا إلى أن لشعر أفصح شعرائهم نظيرا و ليس للقرآن نظير، و أنه يقع فيه التفاوت و الاختلاف و ليس فى القرآن تفاوت و لا اختلاف (وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً). كان حسب الباقلانى أن يثبت هذا أما أن يسعى إلى التنقيص و التهوين، فليس هذا هو الطريق الصحيح لإثبات الإعجاز، و ليس أدلّ على تحامله و تعسفه من أن الأبيات التى كانت موضع استحسان الناس جميعا من مثل:

(_____ ۱) إعجاز القرآن ۱۱۳ (۲) نفسه

۱۸۲. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۳ و ليل كموج البحر أرخى سدوله علىّ بأنواع الهموم ليبتلى فقلت له لما تمطّى بصلبه و أردف أعجازا و ناء بكلكل ألا أيها الليل الطويل أ لا انجلى بصبح و ما الإصباح منك بأمثل حتى هذه الأبيات لم تسلم من تحامل الباقلانى إذ ينهى حديثه عنها بقوله "و اعلم أن هذا صالح جميع و ليس من الباب الذى يقال: إنه متناه عجيب، و فيه إلمام بالتكلف و دخول فى التعمل «"۱». فكيف يكون هذا الشعر صالحا جميلا ثم يكون فيه إلمام بالتكلف و دخول فى التعمل مع العلم بأن الشعر إذا دخله التكلف لم يعد صالحا و لا جميلا. لقد هتك الستر عن معلقة امرئ القيس- كما يقول الشيخ محمود شاكر رحمه اللّه- ليكشف للناس عيبها و خللها لا ليستخرج منها خصائص بيانهم و كيف كانت هذه الخصائص مفارقة لخصائص القرآن "مقدمة الظاهرة القرآنية ۴۶ دار الفكر بيروت ط ۴. و لقد سلك الباقلانى طريقا متكلفا لإثبات الإعجاز مع أن المبدأ العام الذى اختاره و هو ترديد النظر بين القرآن و بين كلام العرب الفصيح هذا المبدأ صحيح و ضرورى للوقوف على ما يوجد فى القرآن من خصوصيات لا

توجد فى كلام البشر، فلئن سلم للباقلانى أساسه فإن طريقة البناء و المنهج الذى سار عليه بعد ذلك لا يسلّم له، و مع هذا يذكر للباقلانى محاولاته إثبات أن الشعر مهما ارتقى فله نظير، لكن القرآن ليس له نظير، و أن أى شاعر لا- تخلص له معانيه مع تفاوت الشعراء فى تصريف المعانى و صبغها صبغة جديدة «۲».

(۱) نفسه ۱۸۱. (۲) راجع المصدر نفسه ۱۸۳. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۴

المبحث الرابع البحث عن التميز عند عبد القاهر

اشارة

المبحث الرابع البحث عن التميز عند عبد القاهر عند ما نتناول فكر عبد القاهر نجدنا و كأننا نتناول قضية الإعجاز لأول مرة و لكنا لا نعدم ومضات من أفكار الآخرين بين حين و آخر، و لا شك أن عبد القاهر اطلع على ما كتبه الرمانى و الخطابى و الجاحظ و الباقلانى عن الإعجاز، لكن عبد القاهر لم يكن ذلك العالم الذى يحصر نفسه فى أفكار الآخرين أو يضع مصنفاتهم أمام عينيه لينتقى، و إنما كان يقرأ و يتمثل و يطرح ما قرأه ثم يجلس ليقدم طرحا جديدا يخصه و ينسب لعبقريته الفذة. و يبدو من مقدمة عبد القاهر فى كتابه "دلائل الإعجاز "أن البحث عن التميز كان هو الهدف الذى وضعه نصب عينيه للوصول إلى الإعجاز، فطريق الوصول إلى تلك الغاية هو البحث عما يتميز به نظم القرآن عن الوجوه المعروفة فى نظم الكلام العربى، لقد أبان عبد القاهر أن للنظم عند العرب وجوها من التعلق بين الاسم و الاسم أو بين الاسم و الفعل أو تعلق الحرف بهما معا .. على أن هذه الوجوه لا تتبدل و لا تختلف من كلام إلى آخر أى أنها رسوم تحكم تراكيب كل كلام فصيح فوقوع الاسم خبر لمبتدإ أو صفة لموصوف أو حالا يصاحبه أو فاعلا أو مفعولا نجده فى النثر و فى الشعر و فى القرآن فما الذى تجدد «۱» بالقرآن من عظيم المزية و باهر الفضل و العجيب من الرصف حتى أعجز الخلق قاطبة؟. كان عبد القاهر يطرح هذا السؤال على لسان محاور يفترض وجوده و هو يجادله للوصول إلى الحقيقة، و مع أن خصوم هذا الدين كثر إلا أن خصم عبد القاهر فى هذا الموقف كان من داخله، هو ذلك القلق الفكرى الذى يساوره، و الشاغل العقلى الذى يناوشه، فيطرح من نفسه أسئلة للوصول إلى الحقيقة، و هذا النوع من الأسئلة هو الذى يفتح أبواب العلم و المعرفة. إذا كان النظم هو العلاقات بين كلمات الجملة و الجمل، و إذا كانت هناك وجوه للعلاقات معروفة فى كل كلام مفهم تعتمد أساسا على رسوم النحو و مواقع (۱) راجع دلائل الإعجاز من ص ۴ إلى ۹ تحقيق محمود شاكر. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۵ الكلمات، فما الجديد فى نظم القرآن حتى جعله معجزا؟ لا شك أنه سؤال يبعث على الحيرة و يدفع للبحث عن الإجابة و كان كتاب "دلائل الإعجاز. "هو الإجابة عن هذا السؤال و إن كان قد قدم الوسائل و الدلائل و المفاتيح التى تهدى لكنه لم يقدم النتائج و الخصوصيات التى تدخل فى أسرار الإعجاز و أسبابه بشكل محدد و نهائى و لا نستطيع أن نتهم عبد القاهر بالعجز عن الوصول إلى تلك النتائج النهائية، و لكن المهمة كانت شاقة و العمر لا يمهله، فلقد كان يصنف هذا السفر العظيم فى أخريات حياته و توفى عام ۴۷۱ ه.

أدوات البحث عن الإعجاز:

أدوات البحث عن الإعجاز: لا نجد حديثا عن أدوات البحث عن الإعجاز قبل عبد القاهر، فذلك مما أعمل فكره فيه و أبدعته قريحته بعد التأمل العميق و التجربة الطويلة، و تتلخص تلك الأدوات فى العلم باللغة و العلم بالشعر، و يهمنا هنا أنه و هو يسعى إلى إقناع القارئ بأهمية تلك الأدوات يقدم حججا و براهين تدخل فى صميم الإحساس بتميز القرآن و أن هذا التميز هو النتيجة التى يريد أن

يصل إليها بالمنهج الذى لا منهج سواه و هو الموازنة، يقول ":ذلك أن الجهة التى منها قامت الحجة بالقرآن و ظهرت و بانت و بهرت هى أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر «۱» فمن المحال أن يعرف الإعجاز إلا من عرف الشعر الذى هو ديوان العرب و عنوان الأدب و الفصاحة عندهم، ثم بحث عن العلل و الأسباب التى يتفوق بها شعر على شعر كوسيلة لمعرفة العلل و الأسباب التى يتفوق بها القرآن على الشعر، لهذا كان الصاد عن معرفة الشعر و فهمه و تذوقه صادا عن معرفة حجة اللّه على عباده و كان صادّا للناس عن البحث فى الإعجاز، "و عبد القاهر ينبّه إلى أن العلم بالشعر من الدين طالما كانت العناية دينية «۲».

(_____ ۱) يقصد أن التحدى بالقرآن الذى أظهر عجز العرب كان حجة لهذا الدين و أن الجهة التى بسببها ظهر تفوق القرآن هى بلوغه فى الفصاحة حدّا لا يستطيعونه لأنه فوق قواهم و طاقاتهم. (۲) انظر دلائل الإعجاز ۸، ۹. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۶

النص على الموازنة:

النص على الموازنة: و فى زحمة الرد على من زهّدوا فى الشعر بزعم ما فيه من شبهة الغواية، يذكر عبد القاهر أن العبرة بالغاية، و أنه لم يطلب الشعر لما فيه من مكروه ثم يقول ":أردته لأعرف به مكان بلاغة و أجعله مثالا فى براعة أو احتج به فى تفسير كتاب و سنة، و أنظر إلى نظمه و نظم القرآن فأرى موضع الإعجاز و أقف على الجهة التى منها كان، و أتبيّن الفصل و الفرقان «"۱». فهذه العبارة التى تاهت فى زحمة الرد على من كره الشعر تصيب الهدف الذى أراده عبد القاهر و توجز المنهج الذى يريده فى البحث عن الإعجاز و يتلخص فى النظر إلى نظم الشعر ثم النظر فى نظم القرآن للوقوف على الفروق و جهات التميز فى القرآن فتلك هى مواضع الإعجاز، و لنسمّ هذا المنهج بما شئنا موازنة أو مفاضلة أو مقارنة، المهم أن بيان عبد القاهر عنها جاء فى غاية الوضوح. و عند حديثه عن العلم باللغة و أنها أداة لازمة للباحث عن الإعجاز، يعلل لهذا تعليلا يكشف عن غايته حتى يعرف الذى ينقب عن إعجاز القرآن المعانى عن طريق اللغة و الإعراب، فإن الفروق فى الدلالة و الأغراض و المزايا بين كلام و كلام لا تأتى إلا عند التصرف فى النظم بتقديم أو تأخير مثلا و ذلك إنما يدل عليه الإعراب المحدد لمواقع الكلمات، فهذا ما يشير إليه قول عبد القاهر ":إن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذى يفتحها، و أن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، و أنه المعيار الذى لا يتبين نقصان كلام أو رجحانه حتى يعرض عليه، و المقياس الذى لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه، لا ينكر ذلك إلا من ينكر حسّه و إلا من خالط فى الحقائق نفسه «"۲». فإذا كان العلم بالشعر لازما للتدريب على المفاضلة و الموازنة بين شعر و شعر كمقدمة ضرورية للموازنة بين الشعر و القرآن، فإن العلم باللغة مهم لأنها

(_____ ۱) نفسه ۲۶. (۲) دلائل الإعجاز ۲۸.

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۷ ميزان المفاضلة الذى يكشف درجات الكلام و أداة الكشف عن الفروق المميزة بين كلام و كلام. فعبد القاهر كان يضرب على وتر الموازنة و أنها سبيل الكشف عن الفروق و وسيلة إظهار نواحى التميز، و انظر إلى قوله فى الرد على من يدعون علما بالنحو و يكتفون بباب دون باب، يقول ":هل أحطتم بحقائقه؟ و هل وفّيتم كل باب منه حقه؟ و أحكمتموه إحكاما يؤمّنكم الخطأ فيه إذا أنتم خضتم فى التفسير و تعاطيتم علم التأويل و وازنتم بين بعض الأقوال و بعض؟ و أردتم أن تعرفوا الصحيح من السقيم و عدتم فى ذلك و بدأتم و زدتم و نقصتم «"۱». و هو يقصد بالجملة الأخيرة أن تكون الموازنة ملكة و طبيعة من طول التدريب و الممارسة عليها فى الشعر و الإعادة فى هذا و الزيادة، حتى إذا دخل الباحث مجال البحث عن الإعجاز كان قد خبر الوسيلة الجديرة بالكشف عن جهات التميز و هى الموازنة. ثم يشير عبد القاهر بعد هذا إلى أن العلم باللغة و الشعر ليسا كلّ شىء، و لا يدلّان بذاتهما على الإعجاز، و إنما هما من الوسائل و الأدوات التى تدخل فى ثقافة الباحث عن الإعجاز حتى تتكون لديه رؤية و فكر يقف بها على الأسرار و اللطائف يقول و هو يقصد الذى يقتحم مجال الإعجاز دون إعداد كاف "لا

يعلم أن هاهنا دقائق و أسرار معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها و دلّوا عليها و كشف لهم عنها و رفعت الحجب بينهم و بينها و أنها- أى تلك الأسرار و اللطائف- السبب فى أن عرضت المزية فى الكلام و وجب أن يفضل بعضه بعضا و أن يبعد الشأو فى ذلك و تمتد الغاية و يعلو المرتقى و يعز المطلب حتى ينتهى الأمر إلى الإعجاز و إلى أن يخرج عن طوق البشر «"۲». يقصد بهذا أن يكون العالم باللغة و نقد الشعر قد تكونت له من طول المعايشة رؤية و بصيرة يهتدى بها إلى اللطائف و الأسرار، على أن ذلك كله لا

(_____ ۱) المرجع نفسه ۳۰. (۲) نفسه ۷.

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۸ يكفى حتى يضم إليه الاستعداد النفسى و الصفاء الروحى مع استلهام التوفيق من اللّه سبحانه؛ لأن تلك اللطائف و الأسرار التى يكمن فيها الإعجاز لا تمنح مع الأخذ بأسباب المعرفة إلا لمن هداه اللّه إليها و دلّه عليها و كشف له الحجب عنها، و عد إلى عبارة عبد القاهر لتجد هذا واضحا.

منهج عبد القاهر فى الكشف عن الإعجاز:

منهج عبد القاهر فى الكشف عن الإعجاز: يمكن بلورة منهج عبد القاهر فى سبيل الكشف عن الإعجاز فى النقاط التالية: ۱- استقراء كلام العرب و أشعارها لاستخراج طرق نظمها يقول ":لا غنى بالعاقل عن معرفة هذه الأمور «۱» و الوقوف عليها و الإحاطة بها و أن الجهة التى منها يقف و السبب الذى به يعرف استقراء كلام العرب و تتبع أشعارها و النظر فيها «"۲». ۲- استقصاء النظر فى القرآن الكريم للوقوف على خصائص النظم فيه و قد ذكر هذا فى سياق استنهاض الهمم الشابة القادرة على القيام بأعباء هذه المهمة الشاقة" أىّ أشبه بالفتى فى عقله و دينه، و أزيد له فى علمه و يقينه؟ أن يقلد فى ذلك و يحفظ متن الدليل و لا يبحث عن تفسير المزايا و الخصائص ما هى؟ أم أن يبحث عن ذلك كله و يستقصى النظر فى جميعه و يتتبعه شيئا فشيئا و يستقصيه بابا فبابا حتى يعرف كلا منه بشاهده و دليله «"۳». و قد كانت لعبد القاهر محاولات فى هذا التتبع بحسب ما سمح به جهده و وقته و قد أزفت شمسه على المغيب فأثمرت تلك المحاولات خصوصيات وقف عليها و ذكرها إجمالا- لمن شاء أن يتناولها بالتحليل و هى قابلة للتفصيل، يقول" أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه، و خصائص صادفوها فى سياق لفظه «۴» و بدائع راعتهم

(_____ ۱) يقصد بها الخصوصيات المميزة

للقرآن و أن وسيلة ذلك البدء بالنظر فى كلام العرب و أشعارهم. (۲) دلائل الإعجاز ۴۱. (۳) نفسه ۴۰. (۴) خصائص السياق أو سياق لفظه: هو ما يترتب على النظم من روح المعانى و الأغراض التى يدل عليها سياق النظم و اللفظ. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۹ فى مبادئ آية و مقاطعها «۱» و مجارى ألفاظها و مواقعها «۲»، و فى مضرب كل مثل «۳» و مساق كل خبر «۴»، و صورة كل عظة و تنبيه، و إعلام و تذكير و ترغيب و ترهيب «۵»، و مع كل حجة و برهان «۶»، و صفة و تبيان «۷» و بهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، و عشرا عشرا، و آية آية فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها، و لفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى و أخلق، بل وجدوا اتساعا بهر العقول و أعجز الجمهور و نظاما و التئاما «۸» و اتقانا و إحكاما لم يدع فى نفس بليغ منهم موضع طمع حتى خرست الألسن «"۹». فهذه الوجوه المجملة يمكن أن تحيط بأطراف النواحى التى تميّز بها القرآن فى كيفيات نظمه، و بناء جمله و تراكيبه و فواصله و صوره و أمثاله و أغراضه و تعدد طرقها و مساقاتها و كيفيات تصويرها فى القرآن الكريم فضلا عن الحجج القرآنية و براهينه التى لا عهد للعرب بمثلها. ۳- الموازنة بين طرق النظم المستخلصة من القرآن الكريم و طرق النظم المستخلصة من الشعر للوقوف على ما يتفوق به القرآن أو يوجد فيه و لا

(_____ ۱) هذا يترتب على توسيع دائرة النظم

من نظم الجملة إلى نظم الآية ابتداء و انتهاء و الإعجاز فى المقاطع ظاهر فى الفواصل، أما إعجاز المبادئ فيكون فى ارتباطها بما سبقها ارتباطا عضويا لا يمكن انفصاله و فى دلالة البدايات على النهايات فيما يسمى بالتصدير، و عبر عنه بالبدائع؛ لأن كل ما يتعلق

بها بديع طريف له ليس نظير. (۲) مجارى الألفاظ و مواقعها: كيفيات النظم من تقديم و تأخير و تعريف و تنكير و حذف و ذكر الخ .. و كيفيات بناء الكلمات و الجمل .. و كل ما سبق يتعلق بالنظم على كل حال. (۳) ليس المقصود الإعجاز بمجرد الأمثال كلون تصويرى حسب و لكنها مشمولة بمعانيها التى ضربت لها "كأسلوب. ("۴) ليس المقصود بمجرد الأخبار و لكنها مشمولة بالأغراض التى سيقت فيها، و المقصود أخبار السابقين و مساقاتها و كيف توزعت فى القرآن حسب مقامات السور. (۵) يعنى كيفيات عرض الأعراض الدينية و كيفيات تصويرها و تخلق معانيها فى القرآن. (۶) خالف فى هذه الجملة، و لم يكتف بالعطف بالواو للإشارة إلى استقلال حجج القرآن و براهينه بشىء، فهى تشترك مع ما سبق فى كونها معجزة بصورها و كيفيات أدائها ثم تختص بشىء يدل عليه الحرف (مع) و لعله الإشارة إلى أن حجج القرآن كمعان كافية فى الإعجاز فما بالك إذا انضم إلى ذلك صورها و كيفيات تعبيرها، و لعل هذا هو ما دفع البلاغيين المتأخرين إلى جعل المذهب الكلامى لونا من ألوان البديع مع أن المقصود به الاحتجاج و البرهان فهو من هذه الناحية متصل بالمعنى. (۷) العطف بالواو يفيد التفسير و البيان. (۸) هو ما سبق من الحديث عن إعجاز النظم و دقة الموقع سوى أنه يرى أن هذا فى القرآن على الاطّراد. (۹) دلائل الإعجاز ۳۹. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۴۰ يوجد فى الشعر، يقول عبد القاهر و كان يعلل لدفاعه عن الشعر "أردته لأعرف به مكان بلاغة، و أجعله مثالا فى براعة، أو احتج به فى تفسير كتاب و سنة، و انظر إلى نظمه و نظم القرآن، فأرى موضع الإعجاز، و أقف على الجهة التى منها كان، و أتبين الفصل و الفرقان «"۱». فهل يكون النظر فى نظم الشعر ثم النظر إلى نظم القرآن لمعرفة مواضع الإعجاز إلا- عين الموازنة؟، و إنما تخير عبد القاهر الشعر فى هذا المجال لأنه النموذج الأفضل لأدب العرب فإذا تفوق القرآن على الشعر ذى الوزن و القافية فإن تفوقه على غيره من أجناس كلامهم من باب أولى. و لا شك أن المهمة عظيمة و شاقة لأن استخلاص طرق النظم القرآنية يحتاج إلى فريق متعاون من الباحثين، و استخراج طرق النظم عند عدد من شعراء الجاهلية يحتاج إلى فريق آخر، أما الموازنة التى تقابل طرقا بطرق لتقف على خصوصيات القرآن و طرقه التى ينفرد أو يتفوق بها فتحتاج إلى فريق ثالث أرسخ قدما و أقدر على معرفة الفروق، و لا شك أن تقدير هذا العمل الضخم يجعلنا نعذر عبد القاهر لإحجامه عن تنفيذه بشكل عملى و لا سيما و أنه كان فى أخريات حياته. على أنه رحمه اللّه قد وضع شروطا لا بدّ من مراعاتها عند إحصاء طرق النظم التى يتميز بها القرآن و تتلخص فى التفصيل الموضح الذى يزيل أى غموض مع التحليل لكل وجه من وجوه التفرد حتى يكون هذا خطابا مقنعا لكل الناس عند ما نقول لهم هذه هى أسرار الإعجاز، أو الوجوه التى يكمن فيها الإعجاز. و لعل هذه الزاوية هى التى دخل منها عبد القاهر إلى حديثه عن الإعجاز فى رسالته المعروفة بالشافية، فكل حديثه فى هذه الرسالة كان خطابا للعقل من خارج القرآن إذ يستدل من كلام العرب المشركين أنفسهم و يدل على عجزهم، ثم يستدل (_____ ۱) نفسه ۲۶.

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۴۱ على ذلك من أحوالهم و طباعهم لأن من طباع العرب التى لا تتبدل ألا يسلموا لخصومهم بالفضيلة و هم يجدون سبيلا إلى دفعها «۱». و لا شك أن المنهج الذى رسمه فى دلائل الإعجاز هو الأسلم و الأكثر إقناعا على الرغم من صعوبة تنفيذه إلا- عند ما يقوم به فريق من الباحثين تدفعهم غاية شريفة هى خدمة هذا الدين و الرد على المنكرين و إقناع الجاحدين فضلا عن مجال الدراسة الخصب الذى تتألق فيه اللغة و البلاغة.

الموازنة عند ابن ناقيا البغدادى:

الموازنة عند ابن ناقيا البغدادى: كان ابن ناقيا المتوفى سنة ۴۸۵ ه معاصرا لعبد القاهر و يبدو أنه كسائر علماء و نقاد القرن الخامس الهجرى أراد أن يكون له دور فى الرد على فريق من المارقين الذى لا يرون للقرآن تميزا عن الشعر و على الرغم من أن صخبهم كان قد توارى بفضل تصدى فريق من العلماء كما سبق عند الخطابى و الباقلانى، فإن رواسب تلك القضية كانت ما تزال عالقة ببعض النفوس، و ربما كان هذا مما دفع ابن ناقيا إلى الإسهام بكتابه "الجمان فى تشبيهات القرآن. "و كان اختياره تشبيهات القرآن خصوصا

لأنها هى الأوقع و الأنسب فى الرد على الانبهار بأبرز فنون الشعر التى يظهر فيها ضروب من البراعة و التصرف عند الشعراء و هو التشبيه، و قد تتبع كثيرا من تشبيهات القرآن بحسب ترتيب السور، إذ كان يذكر التشبيه القرآنى و يفسره ثم يعقب بشواهد من تشبيهات الشعراء التى يغلب على ظنه أنها تلتقى مع التشبيه القرآنى فى المعنى أو فى الصياغة، و كان يعول على ذوق القارئ فى استنباط تفوق الصورة القرآنية و أنها أوفى و أكمل و أتم. فالحق أن ابن ناقيا لم يسلك سبيل الموازنة الموضوعية التى تبرز خصائص هذا و ذاك و ما يتفوق به التشبيه القرآنى، و إنما كان يكتفى بالإشارة إلى أن الشعراء لم يستطيعوا أن يبلغوا مبلغ التنزيل أو يدانوه فى كمال الصورة (_____ ۱) راجع الرسالة الشافية من ثلاث رسائل من ۱۱۹: ۱۲۱. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۴۲ و إيجاز العبارة بما يدل على إعجاز القرآن و أنه من تنزيل حكيم حميد، و شتان ما بين هذا النهج المجمل فى الموازنة و بين ما كان يطمح إليه عبد القاهر أو ما سلكه الباقلانى، لكن حسب ابن ناقيا فى هذا المجال أنه قدم و فرة من الشواهد التى تأثر فيها الشعراء بتشبيهات القرآن و هى فرصة لمن شاء أن يوازن و أن يبرز خصوصيات الصورة القرآنية و نواحى التميز فيها و هذا ما حاولته فى بعض الشواهد التى قدمها. و اللافت أن ابن ناقيا عرض موقفا بين نقاد الشعر قبله يدل على وعيهم بمدى تأثر الشعر بالقرآن، لكنه لم يتأس بهم فى رؤيتهم العميقة، من ذلك": قال الأصمعى لخلف: أى الرجلين عندك أشعر: جرير أم الأخطل؟ فقال: قال الأخطل: و كم قتلت أروى بلا ترة لها و أروى لفرّاغ الرجال قتول أى أن قتلها إيانا لا دية له، و قال جرير فى مثل المعنى: إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيينا قتلانا «۱» فانظر كم بين الكلامين فى البلاغة و بين العبارتين فى الرشاقة، و إنما ذهب جرير إلى أن العيون قتلنه بلا قصاص، و لو اقتص منها بأخذ العوض لكان ذلك حياة له، فنظر فى هذا المعنى إلى قوله تعالى: (وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ). قال الأصمعى: فقلت: ففى بيت الأخطل زيادة بقوله ":و أروى لفرّاغ الرجال قتول، "قال خلف: أجل هى زيادة، و قول جرير على ذلك أحلى و أحسن إمتاعا فى الأسماع «۲». فهذه من الموازنات الجيدة التى نقلها ابن ناقيا عن الأصمعى فيما دار بينه و بين خلف، و لو أن ابن ناقيا تأسّى هذا النهج فيما أورده من تشبيهات قرآنية و تشبيهات شعرية لكان لكتابه وزن كبير لكنه كان يكتفى بصيغة التفضيل كما سبق. (_____ ۱) القتل مجازى، و يقصد به وقوعه فريسة لسهام تلك العيون، و لو وصلته لكان حياة له، لكن ذلك لم يحدث، و هذا معنى "ثم لم يحيينا قتلانا. ("۲) الجمان فى تشبيهات القرآن ۱۳۶ ت الدايهٔ و زرزور طبعهٔ الكويت ۱۳۸۷ ه- ۱۹۶۸ م. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۴۳ و يهمنا هنا الإشارة إلى ما فى بيت جرير من ملاحظة المعنى القرآنى الذى اختلسه فى خفاء بعد التغيير و التبديل، لأن القرآن يقول: (وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ) و هو يقول ":إن العيون قتلننا ثم لم يحيين قتلانا "على معنى أن العيون لم تكن عادلة إذ قتلتنا و تركتنا بلا قصاص لنا يشفى صدورنا و يحيينا، فهذا من الأخذ الذكى الذى يفيد بروح المعنى و لا يتقيّد بنصه، و قد أحسن خلف عند ما فطن إلى هذا الأخذ. على أن ابن ناقيا ربما أتى بتشبيه من القرآن و أعقبه بتشبيه من الشعر و ليس بينهما صلة معنوية و لا تشابه إلا فى بعض اللفظ بما لا يسوّغ الموازنة بينهما كقوله تعالى من سورة الأنعام (۷۱): (قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا وَ نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ) [الأنعام: ۷۱]. و بعد تفسير التشبيه فيها يقول ": و الشياطين غيلان الجن "ثم يأتى بأبيات لا صلة لها بالآية سوى ذكر الغول كقول العنبرى: و غولا قفرة ذكر و أنثى كأن عليها قطع النجاد و قول كعب بن زهير: فما تدوم على حال تكون بها كما تلوّن فى أثوابها الغول و عند قوله تعالى: (وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ) [البقرة: ۱۷۱] يقول ":المعنى و مثل الذين كفروا فيما يوعظون به كالبهائم التى لا تفقه ما يقول الداعى أكثر من الصوت، فالتقدير: و مثل واعظ الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع .. و تأويل (ينعق) يصوّت بالغنم، و منه قول الأخطل: فانعق بضأنك يا جرير فإنما منتك نفسك فى الخلاء ضلالا ثم يذكر قصة تدل على أن الضأن صم لا يسمعن، و لو أنه سار كما بدا فى تفسير الآية

على تمثيل الذين كفروا فيما يوعظون به كالبهائم عموما لكان أحرى إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۴۴ به لأن البهائم لا تفقه ما يقول الداعى أكثر من الصوت فهى تسمع دون تمييز بما يحقق قوله تعالى فى الآية بما لا يسمع إلا دعاء و نداء. فلا داعى إذن لتخصيص الممثل به بالغنم بعد ذلك ثم قوله: إنها لا تسمع أصلا بما يتعارض مع مقصود المثل فى الآية. و لو أن ابن ناقيا اتجه إلى التشبيهات فى أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و كلام الصحابة و التابعين: خطبهم و رسائلهم لوجد الاقتباس من القرآن و التأثر به فى هذه المجالات أوفر حظا من اقتباسات الشعراء، و لوجد مجالا خصبا للدراسة. فلندع هذا إلى الشواهد الجديرة بالنظر و التأمل، و هى كثيرة فى كتابه، و إن ندرت تعليقاته الدالة على المفاضلة و الموازنة، مع إيجازها إيجازا لا يشفى، و لكنا مع هذا يمكننا تحريك أفكار ابن ناقيا و إشاراته للخروج بظواهر معينة مستمدة من طبيعة الصور القرآنية و أوجه التأثر بها عند الشعراء، على أن يلحق هذا بالموازنات التطبيقية فى الفصل الثالث. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۴۵

المبحث الخامس منهج البحث عن التميز عند ابن أبى الإصبع

اشارة

المبحث الخامس منهج البحث عن التميز عند ابن أبى الإصبع من يقرأ كتاب (بديع القرآن) لابن لأبى الإصبع (ت ۶۵۴) يدرك أنه كان يسعى إلى تقرير حقيقة الإعجاز، و أن وسائل البلاغة و ضروبها عنده هى المدخل إلى معرفة ما يتميز به القرآن فهذا واضح فى كثير من تحليلاته و وقفاته مع أسرار الآيات القرآنية و ما فيها من خصوصيات بلاغية كثيرة غزيرة، فلقد كان يسعى إلى إثبات أن هذا مما يميز الأسلوب القرآنى، و أنه كلام رب العالمين فلا نظير له و لا طاقة لبشر بمثله، نجد هذا عند ما يقف كثيرا مع الجملة القرآنية فيستخرج منها الكم الكثير من الألوان و الأسرار البلاغية. لقد كان ابن أبى الإصبع يلوح بما فى الآيات التى يتناولها من إعجاز كلما لاحت له الفرصة، و كان يعتمد فى هذا على ضرب من الخبرة و المعرفة بكلام العرب، و الخبرة و المعرفة بأسلوب القرآن بعد أن أدام النظر فيهما طويلا معتمدا فى هذا على المعرفة النقدية بعد قراءات طويلة يحدثنا هو بها فى مقدمة كتابه "بديع القرآن. "إذ يقول عنه" هو وظيفة عمرى، و ثمرة اشتغالى فى إبّان شبيبتى و مباحثى فى أوان شيخوختى مع كل من لقيته من عقلاء العلماء و أذكياء الفضلاء و نبلاء البلغاء فى علم البيان «۱» و كل من له عناية بتدبر القرآن و نظر ثاقب فى نقد جواهر الكلام، و من له تمييز بين الذهب: و الشّبه" النحاس "من نقود النثر و النظام «۲» فانظر كيف يعطف النقد و التمييز على تدبر القرآن. ثم يذكر أنه استخلص كتابه من كتب كثيرة سبقته كنقد الشعر و نقد النثر لقدامة و البديع لابن المعتز و العمدة لابن رشيق و النكت للرمانى و إعجاز القرآن للباقلانى و رسالة ابن عباد فى التنكيت على المتنبى و مآخذه على أبى تمام و نظم القرآن للجاحظ و الموازنة للآمدى، و غير ذلك من الكتب التى تدل على أن ابن أبى الإصبع لم يقتصر على المعرفة بالدراسات القرآنية الخاصة بإعجاز القرآن

(_____ ۱) يقصد بالبيان مفهومه العام عند أصحاب المدرسة الأدبية و الذى كان يساوى البلاغة عموما. (۲) يقصد نقاد النثر و الشعر و انظر بديع القرآن، تحقيق حفنى شرف ط ۱/ ۱۳۷۷ ه/ ۱۹۵۷ م، مكتبة نهضة مصر. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۴۶ و بلاغته و لكنه تجاوز هذا إلى الكتب الخاصة بنقد الشعر و نقد النثر و كتب الموازنات. و هذا يدل على أنه عمد إلى التسلح بالثقافة النقدية قبل البحث فى إعجاز القرآن و بديعه ليتمكن من الموازنة بين كلام و كلام و لما ذا يفضل هذا على ذاك كوسيلة لاستخراج نواحى التميز و التفوق. و هذا يعكس فهما ثاقبا لطبيعة البحث فى إعجاز القرآن و حاجة الباحث فيه إلى تلك الثقافة النقدية التى نبه إليها عبد القاهر فى سياق حديثه عن أهمية العلم باللغة و المعرفة بالشعر للباحث عن الإعجاز ليكون بصيرا بمعادن الكلام و قادرا على المفاضلة بين أسلوب و أسلوب، فهذا هو السبيل إلى معرفة الإعجاز الذى لا يدرك كنهه و لا تتبيّن ملامحه إلا عن طريق تلك المفاضلة. و لعل هذا يفسر

كثرة الموازنات التطبيقية فى "بديع القرآن "بين آيات قرآنية و أبيات شعرية، و إذا كان عبد القاهر قد نبّه إلى أهمية هذا المنهج (نظريا) فإن ابن أبى الإصبع قد اقتحم هذا المجال تطبيقيا فى غير قليل من أبواب كتابه، و نستطيع أن نقول إن الخطوات التى خطاها الرمانى و الباقلانى للموازنة من الناحية التطبيقية لم تتقدم إلى عند ابن أبى الإصبع فيما لا يقل عن عشرة من أبواب كتابه، و ليس أدلّ على اهتمامه بهذا النهج فى البحث عن الإعجاز من جعله "الموازنة "عنوانا لأحد تلك الأبواب. فما ذا كان يقصد بهذا العنوان (الموازنة)؟ يقول ":هى مقارنة المعانى بالمعانى ليعرف الراجع فى النظم من المرجوح "ففى هذا التعريف يتبيّن الدافع و المنهج، فالدافع للموازنة هو معرفة الراجح من المرجوح و الأفضل من المفضول فى نظم المعانى و صياغتها، و سبيل ذلك و منهجه هو مقارنة المعانى بالمعانى لا- من أجل المعانى فى ذاتها لمعرفة الأصوب أو الأبلغ؛ لأن معانى القرآن لا تجارى فى هذا، و إنما المقارنة بين المعانى لمعرفة أيها أفضل نظما و أتم أداء و صياغة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۴۷ و لعل هذا يذكرنا بحديث عبد القاهر عن المراد بالفصاحة و البيان و البلاغة و البراعة و أن المقصود بها أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته و أجدر بأن تكسبه نبلا و حسنا «۱»، فكانت نظرة هؤلاء العلماء للمعانى ابتداء من أجل النظر فى طريقة تأديتها و كيفية نظمها و الفروق بين صورها المتعددة ففى هذا تكمن البراعة و تتألق الفصاحة و البلاغة و يظهر التفوق و التميز. و من هذا يمكننا الاقتراب من مقصود ابن أبى الإصبع فى تعريف الموازنة بأنها "مقارنة المعانى بالمعانى ليعرف الراجح فى النظم من المرجوح. "على أننا كنا نتوقع من عنونة هذا الباب بالموازنة أن تأتى تلك الموازنة كافية شافية و على مستوى ذلك التعريف الدقيق، لكن ابن أبى الإصبع ساقها مجملة سريعة بين قول الشاعر "السموأل: "و ننكر على الناس قولهم و لا ينكرون القول حيث نقول و بين قول اللّه تعالى: (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ) [الأنبياء: ۲۳] يقول ": فإنك إذا وازنت البيت بالآية .. بيّن لك ما بين الكلامين من الفرق «۲»، و أمثال هذا الباب كثيرة، و هذا أحد وجوه الإعجاز و هو قياس القرآن بكل معجز من الكلام «"۳». فصدر هذه العبارة و صياغتها بالجملة الشرطية التى تعنى أن تحقق الجزاء متوقف على تحقق الشرط يشير إلى أن الفرق بين الكلامين لا يتبيّن إلا عن طريق الموازنة، فهى صياغة تهمس بأهمية الموازنة عند ابن أبى الإصبع، و من الواضح

(_____ ۱) راجع دلائل الإعجاز ۴۳. (۲)

يعتمد ابن أبى الإصبع فى إدراك الفرق على ذوق القارئ لوضوح هذا الفرق من وجهة نظره، و يبدو أنه يتحدد فى أن مدار الإثبات و النفى فى البيت حول القول و إنكاره أو عدم إنكاره، لكن مدار الإثبات و النفى فى الآية حول الفعل الدال على تفرد اللّه سبحانه بالملك و السيطرة، ثم إن التعبير فى البيت بالفعل (ننكر) يدل على مجرد الرفض و الاعتراض، لكن التعبير فى الآية بالفعل (يسألون) يدل على المسئولية و ما يستلزمها من تبعات و ما بعدها من حساب و ثواب و عقاب و هذا لا يكون إلا من القوى المهيمن، على أن تقديم الفاعل على الفعل فى قوله (و هم يسألون) يؤكد على أن المسئولية تقع على عاتق المخلوق لا الخالق ففيها تخصيص و هو من أساليب القوة و الهيمنة، إن صياغة الآية أوجز و أحسم و أحفل بالمعانى بما يدل على العزة و القوة، و قوة الكلام من قوة المتكلم سبحانه، و الآية مع هذا أدق و اسلس فى ترتيب حروف و مقاطعها و كلماتها بما يدل على التفرد و التفوق و الإعجاز، فسبحان من هذا كلامه (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ). (۳) بديع القرآن ۹۵. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۴۸ أنه كالرمانى فى الالتزام بأن يكون أصل المعنى واحدا فى الكلامين الذين نوازن بينهما كى يتاح البحث عن الفروق بين نظم و نظم و تعبير و تعبير فهنا تكمن الخصوصيات و المزايا، و بهذا يتبيّن أن اتجاه الباقلانى- على الرغم من قيمته- كان يمثل انحرافا عن هذا المنهج الذى كان هناك ما يشبه الإجماع عليه «۱». أما قول ابن أبى الإصبع عن منهج الموازنة "و هذا أحد وجوه الإعجاز و هو قياس القرآن بكل معجز من الكلام "فإنه قول موهم و قد يلبس، لكنه فيما يبدو جار على المألوف فى عصره إذ كانوا يصفون كل ما ظهرت فصاحته من كلام الأدباء و الشعراء بالمعجز على سبيل التسامح أو التجوز أو من باب التعبير باللفظ المشاكل. و هذا غير الوجه الذى ذكره الرمانى كأحد وجوه الإعجاز و هو "قياس القرآن بكل معجزة «"۲» فكان يقصد قياس القرآن بكل معجزة من المعجزات السابقة للأنبياء كفلق

البحر و قلب العصا حية و وجه القياس هو الخروج عن العادة و قعود الخلق عن المعارضة، فإن القرآن من هذه الجهة يزيد و يتفوق. و عند ما نجول فى أبواب كتاب بديع القرآن نجد لابن أبى الإصبع موازنات أدق و أوسع و إن وردت تحت عناوين أخرى غير الموازنة و منها:

التنظير: (الموازنة بين المعانى و الموازنة بين المبانى):

التنظير: (الموازنة بين المعانى و الموازنة بين المبانى): و يعرفه بأنه "أن ينظر الإنسان بين كلامين إما متفقى المعانى أو مختلف المعانى ليظهر الأفضل منهما «"۳». فهذا التعريف يتضمن قسمين للتنظير: أولهما يتصل بالموازنة بين المعانى، و ثانيهما يتصل بالموازنة بين المبانى، أى طريقة بناء الكلام و اتصال معانيه.

(_____۱) لأنه وازن بين شعر و بين آيات لا تجمع بينهما صلة معنوية. (۲) النكت ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ۱۱۱. (۳) بديع القرآن ۲۳۸. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۴۹ و من الواضح بداية أن التنظير أشمل من الموازنة، لأن الموازنة تقتصر على كلامين متقاربين معنى أو يشتركان فى أصل المعنى، لكن التنظير يتناول المقارنة بين كلامين متفقين معنى و بين كلامين مختلفين معنى، فالموازنة على كل حال داخلة فى مفهوم التنظير و يذكر ابن أبى الإصبع ما يدل على الغرض من النظر بين كلامين بقوله ":ليظهر الأفضل منهما "فهى غاية شريفة تستحق هذا النظر المتأمل الصادر عن خبرة و دراية و معرفة بطبقات الكلام مع القدرة على التمييز و رصد الخصائص و معرفة الفروق. ثم إن هذه الغاية الشريفة تستمد شرفها من كونها الوسيلة المنهجية لتحديد أسباب الإعجاز و أسراره. و مثال القسم الأول للتنظير- و هو المقارنة بين كلامين متفقين معنى قول يزيد بن الحكم الثقفى من شعراء الحماسة: يا بدر و الأمثال يض ربها لذى اللب الحكيم دم للخليل بودّه ما خير ودّ لا يدوم و اعرف لجارك حقه و الحق يعرفه الكريم و اعلم بأن الضيف يو ما سوف يحمد أو يلوم يوازن ابن أبى الإصبع بين هذه الوصايا و بين قوله تعالى: (وَ بِذِى الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ الْجارِ ذِى الْقُرْبى وَ الْجارِ الْجُنُبِ وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالًا فَخُوراً) [النساء: ۳۶] و بالعودة للأبيات نجد الشاعر يوصى فيها بالخليل "الصاحب "و الجار، و الضيف الذى يقابله فى الآية (ابن السبيل) و ترك الوصية بالأهم- فى حدود جزء الآية الذى اقتطعه ابن أبى الإصبع و هو ذو القربى ثم اليتامى و المساكين .. الخ. على أن هذا الشعر يتناول وصايا مجردة، و هو شبيه بالشعر الذى استخف به الجاحظ و استبعد أن يكون قائله شاعرا: لا تحسبنّ الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال كلاهما موت و لكن ذا أشد من ذاك على كل حال إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۵۰ فالشعر تتوقف حياته و حيويته على التصوير و الإيقاع، فإذا جاء المعنى مكشوفا مجردا زال عنه ماء الشعر و رونقه، و ليس كذلك القرآن الذى يحتفظ بسموه و هيبته و ارتقاء مستوى الأداء فيه سواء جاء المعنى مصورا أو من غير تصوير كما نرى فى الحقائق الدينية و العقائدية و التشريع و المواريث و الحدود و المعاملات التى يتألق فيها النظم على كيفيات خاصة حافلة بالخصوصيات و الإشارات التى تدعم المعنى المقصود و تجعله مقرونا بالترغيب أو الترهيب و الحسم و التأكيد، و انظر إلى السياق الذى وردت فيه تلك الوصايا القرآنية حيث بدأت الآية برأس الإيمان و أساس العقيدة (وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) و عظمت حق الوالدين إذ عطفت التوصية بالإحسان إليهما على عبادة اللّه سبحانه (وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً) فالعبادة للّه سبحانه لأنه قدر وجودنا و الإحسان إلى الوالدين لأنهما سبب وجودنا و جاءت التوصية بها مؤكدة بالمصدر (إحسانا) و لم يظهر الفعل (أحسنوا) للإشارة إلى أن هذا مما ينبغى أن يكون موجودا بالفطرة التى فطر اللّه الناس عليها ففى حذفه إشارة إلى إيقاظ ما هو موجود فى الفطرة، ثم إن هذا الحذف يشير إلى أن الإحسان إلى الوالدين ليس كعبادة اللّه وحده لا شريك له و إن جاء بعده فى الأهمية ثم إن عطف ما عطف بعد ذلك يشير إلى أن له نفس الدرجة من الأهمية و له نفس التوصية بالإحسان كأن قال و بذى القربى إحسانا و باليتامى إحسانا و بالمساكين إحسانا، لكن لم يقل هذا تحاشيا للتكرار و اعتمادا

على العطف الذى دل على المشاركة و إن كان اقتران ذى القربى بالباء دون اليتامى و المساكين الخ .. يدل على التشدد فى حق ذى القربى و أن لهم نفس درجة الوالدين فى الإحسان و أن هذه الدرجة لا يصل إليها من جاء بعدهما .. فكل هذه الإشارات لم تذكر بلفظ و لكنها فهمت من التصرف فى النظم على كيفيات معينة.، و هذا من خصوصيات النظم القرآنى الذى لا نجده فى تلك الأبيات، فالمعانى فيها مباشرة و عارية عن خصوصيات النظم سوى أنه قدم الخليل و وصى بدوام وده و علل لهذا (ما خير ود لا يدوم) و عطف عليه التوصية بالجار لأن هذا حقه المعروف عند العرب و وصى به هذا الدين، على أن البيت الأخير و إن كان يتضمن حكمة و معنى واقعا فإنه مما يؤخذ عليه، لأنه لا ينبغى أن يكون الدافع لإكرام الضيف مجرد إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۵۱ الخشية من لسانه و الخوف من ذمه أو الرغبة فى مدحه، فأفضل من هذا أن يكون إكرامه طبيعة أو لأن للعطاء و الإكرام لذة كما قال الشاعر: ليس يعطيك للرجاء و لا لل خوف لكن يلذ طعم العطاء ثم لننظر إلى موازنة ابن أبى الإصبع بين الآية و الأبيات، فهو يرى أن الآية أجمع فى الوصايا و نظمها أدخل فى البلاغة، و هذه الناحية عنده هى مقياس التفوق، فنظم الآية حصل فيه صحة التقسيم لاستيفائها جميع أقسام من تجب الوصية به و الإحسان إليه، و فيه الإيجاز و المساواة لكون لفظها طبق معناه، و التهذيب لما وقع فيها من حسن الترتيب إذ بدأ سبحانه بذى القربى و عطف عليهم باليتامى لما يجب من تقديمهم على المساكين، و عطف الجار ذى القربى على المساكين و أفراده بالذكر بعد دخوله فى عموم المساكين لينبه على العناية به، و عطف عليه الجار الجنب (أى الصاحب) و قدمه على الصاحب المجاور فى السفر و الحضر و عطف على ذلك ابن السبيل و ختم الوصية بحسن الملكة «"۱». و حاصل ما سبق أن الآية أجمع فى الوصايا و أدخل فى البلاغة، و هذا ما تتميز به، بل لو قلنا إن الأبيات تفتقر إلى البلاغة لما بعدنا، و كان حريا بابن أبى الإصبع أن يستبعدها من مجال الموازنة، و أن يأتى بمستوى من الشعر أرقى حتى يكون تفوق القرآن عليه مما يعتد به. أما القسم الثانى للتنظير و هو ما يكون بين كلامين مختلفين فى المعانى فيستشهد له ابن أبى الإصبع بشاهد نادر فى التراث الشعرى، بقصيدة كاملة للأعشى يسجل فيها موقفا إنسانيا للسموءل فى قصة وفائه بأدراع امرئ القيس التى أودعه إياها عند دخوله الروم، و قصد الحارث الأعرج الغسانى صاحب الشام السموأل و محاصرته له فى حصنه المعروف بالأبلق الفرد و قتله لولد السموأل و هو مشرف ينظر و لم يسلم الأدراع، و لم تزل عنده حتى سلمها لورثة امرئ

(_____ ۱) بديع القرآن ۲۳۹. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۵۲ القيس، يقول الأعشى مسجلا ذلك فى قصيدته الرائية المشهورة و التى يخاطب فيها النعمان بن المنذر: كن كالسموأل إذ طاف الهمام به فى جحفل كسواد الليل جرّار «۱» بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين و جار غير غدّار إذ سامه خطتى خسف فقال له مهما تقله فإنى سامع حار «۲» فقال: غدر و ثكل أنت بينهما فاختر فما فيهما حظ لمختار فشك غير طويل ثم قال له اقتل أسيرك إنى مانع جارى «۳» إن له خلفا إن كنت قاتله و إن قتلت كريما غير عوّار «۴» مالا كثيرا و عرضا غير ذى دنس و إخوة مثله ليسوا بأشرار جروا على أدب منى بلا نزق و لا إذا شمّرت حرب بأغمار «۵» و سوف يخلفه إن كنت قاتله ربّ كريم و بيض ذات أطهار «۶» لا يسرّهن لدينا ضائع هدرا و كاتمات إذا استودعن أسرارى فقال تقدمة إذ قام يقتله أشرف سموأل فانظر للدم الجارى أ أقتل ابنك صبرا أو تجئ بها طوعا فأنكر هذا أىّ إنكار «۷» فشك أوداجه و الصدر فى مضض عليه منطويا كاللذع بالنار «۸» و اختار أدراعه كى لا- يسب بها و لم يكن عهده فيها بختّار «۹» و قال: لا نشترى عارا بمكرمة فاختار تكرمة الدنيا على العار (_____ ۱) الهام هو الحارث الأعرج الغسّانى حاصر السموأل فى حصنه الأبلق و الجحفل: الجيش الكبير. (۲) سامه خطتى خسف: أهانه من قولهم: سمته ذلا إذا أهنته و أذللته- المصباح المنير. (۳) شك غير طويل: لم يتردد طويلا فى قراره، و أسير الحارث هو ابن السموأل و يقصد بجاره: امرؤ القيس و أدراعه. (۴ "")إن قتلت كريما "تقديره: إن قتلت قتلت كريما، غير عوّار أى غير ضعيف و لا جبان. (۵) النزق: الطين، الأغمار جمع غمر و هو الذى لم يجرب الأمور. (۶) البيض كناية عن النساء المصونة. (۷) صبرا: حبسا، أو تجئ بها أى الأدراع. (۸) الأوداج:

جمع ودج و هو عرق الأخدع الذى يقطعه الذابح فلا تبقى بعده حياة و هو كناية عن الذبح. (۹) الختّار: الغدار. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۵۳ و الصبر منه قديما شيمة خلق و زنده فى الوفاء الثاقب الوارى ثم يقول ابن أبى الإصبع ":هذه القصيدة أجمع العلماء البصراء بنقد الكلام على تقديمها فى هذا الباب على جميع الأشعار التى اقتصت فيها القصص و تضمنت الأخبار، و إذا نظرت بينها و بين قوله تعالى فى سورة يوسف (وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّى حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَ جاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِى وَ بَيْنَ إِخْوَتِى إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [يوسف: ۱۰۰]، علمت تفاوت ما بين الكلامين، و أدركت الفرق بين البلاغتين «"۱». و بالعودة إلى النوع الأول من التنظير نجد ابن أبى الإصبع قد وازن هناك و ذكر الخصائص المميزة للآية القرآنية حين كان يوجد التقاء فى المعنى بينها و بين أبيات الثقفى التى نقلت عن صاحب الحماسة، أما فى النوع الثانى و حين اختلف الكلامان فى المعانى كما فى قصة السموأل التى صاغها الأعشى شعرا و آية سورة يوسف التى تلخص قصته مع أخوته، فإن جهة المعانى فيهما منفكّة، و إنما تسوغ الموازنة بين بلاغة التعبير فى الكلامين حين يكون المعنى واحدا أو متقاربا، أما حين يختلف الكلامان معنى فلا مجال للموازنة المفصلة التى تكشف عن جهات البلاغة المميزة للآية القرآنية معوّلا فى هذا على نظر المتأمل ليدرك تفاوت ما بين الكلامين. و ربما كان ابن أبى الإصبع يقصد الموازنة بين طريقة بناء المعانى و كيفية اتصال أجزاء الكلام، و مدى الإيجاز أو الإطناب، على أنه لا ينبغى أن يغيب عنا أن إعجاز القرآن عموما أو فى قصصه خصوصا يعود بالدرجة الأولى إلى خصوصية المعانى التى لا قبل لأحد بها، و أن تلك المعانى لما ارتقت ارتقى معها نظمها و وسائل أدائها و بيانها.

(_____ ۱) بديع القرآن ۲۴۱. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۵۴ و ليس هناك معنى ما تلتقى حوله الأبيات و الآية حتى نبحث عن خصوصيات التعبير عن المعنى و الفروق فى هذا الشأن. و ما يمكن ملاحظته فى هذا السياق أن الوفاء الذى تضمنته تلك الأبيات معنى معروف عند العرب، و قد ورد فى كلامهم شعرا و نثرا و إن كان قد بلغ الذروة عند السموأل الذى آثر التضحية بابنه على التفريط فى الأمانة التى حمله إياها امرؤ القيس، و قد أحسن الأعشى صياغة معانيه و جاءت الصور مناسبة للمقام كتشبيه جيش الحارث الذى حاصر حصن السموأل بسواد الليل لأنه لا يعنى وصف الجيش بالاتساع و ترامى الأطراف حسب، و إنما يرتبط بهذا معان نفسية نابعة من طبيعة الليل و سواده كالرهبة و الهيبة و الخوف و الفزع، فالأعشى كان موفقا فى التشبيه بهذا العنصر و كان متعاطفا مع السموأل لأنه أراد أن يبرهن بهذه الصورة على ثباته و صلابته، لأن جيش الحارث مع كونه بهذه الصورة المخيفة لم يزعزع السموأل و لم يهز من ثباته، و لم يزحزح من موقفه العظيم. ناهيك عن ذلك الحوار المثير الذى يبدأ بإهانات الحارث التى قصد منها استثارة السموأل، و قد طوى الشاعر الفطن هذه الإهانات حتى لا تدور على ألسنة العرب فى شعره بما لا يتناسب مع موقف رجل كريم و اكتفى الأعشى عن ذلك بالمثل الموجز "سامه خطتى خسف "و هو يدل بوضوح على ما أذاقه الحارث للسموءل من إهانات لكن السموأل كان فطنا حذرا فلم يقع فيما أراده الحارث مكتفيا بقوله: مهما تقل فإنى سامع حار و لا يغيب عنا ما فى حذف أداة النداء و ما فى الترخيم من تودد و ملاينة لامتصاص هياج الحارث لكن ذلك لم يزده إلا هياجا و تهديدا إذ قال: غدر و ثكل أنت بينهما و لا يخفى ما فى تقديم الغدر و الثكل من حسم و إيجاز و قطع فالمقام لا يسمح بأن يقول له مثلا أنت مخيّر بين غدر بصاحبك و بين فقد حياة ابنك الأسير و كان رد السموأل عليه "اقتل أسيرك إنى مانع جارى "و لم يقل: اقتل ابنى ليريه أنه لن إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۵۵ يفلح فى استغلال عاطفة الأبوة و اللعب بها للتأثير عليه حتى يتخلى عن موقفه، فقوله: اقتل أسيرك يشعر بهذا و يوحى به. فأى ثبات هذا الذى يجعله يرفض الغدر و يرضى بقتل ابنه الأسير عند الحارث و جملة "إنى مانع جارى "جاءت على طريقة العرب فى القطع و الاستئناف، و كأنه لما قال ":اقتل أسيرك "استشرفت النفوس و تساءلت عن سبب ذلك و ما الذى يجعله يرضى بقتل ابنه فجاء قوله "إنى مانع جارى "قاطعا لذلك الاستشراف مزيلا تلك الحيرة و مجيبا على ذلك التساؤل. و لقد أطال الأعشى فى ذلك

الرد الذی کان من السموأل لأنه أراد أن یبرز ما کان من السموأل الذی لم یکن یملک فی ذلک الموقف غیر استنفار القوة النفسیة التی تعکس للخصم ثباته و صبره، و لعله أراد أن یضرب مثلا للحارث فیما ینبغی أن یکون علیه العربی من شهامة و أراد أن ینبهه إلی رصیده من أبنائه الذین أحسن تربیتهم و هم مثله فی الثبات و الصبر و عدم التردد عند ما تلزم المواقف. ثم جاء رد الحارث یتضمن أن الأمر جد، مع قصد إیقاع الرعب فی قلب الأب ":أشرف سموأل فانظر للدم الجاری. "و هذا واضح من طلبه منه أن یطل و ینظر لیری ما یجری، فتعاقب الأمرین "أشرف .. فانظر "و التعبیر بالدم الجاری مما یهز قلوب الشجعان و لا سیما إذا کان الخطاب للأب، لکن الحارث یعود للمساومة و التخییر بین قتل ابنه و بین تسلیم الأدراع. و إذا کان التخییر فی المرة الأولی بقوله ": غدر و ثکل أنت بینهما "فإنه فی هذه المرة یلجأ إلی استغلال عاطفة الأبوة و لم یفلح قائلا: أ أقتل ابنک أو تجئ بها طوعا إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۵۶ لکن هذا لم یزد السموأل إلا ثباتا علی موقفه فرفض هذا الابتزاز کما یبدو من قول الأعشی ": فأنکر هذا أیّ إنکار "و آثر ذبح ابنه قائلا ":لا نشتری عارا بمکرمة. "فذهب قوله مثلا فی الوفاء. لکن أین هذا من المعانی القرآنیة التی لم یکن للعرب عهد بها، فالآیة التی معنا (وَ قالَ یا أَبَتِ هذا تَأْوِیلُ رُءْیایَ مِنْ قَبْلُ) الخ الآیة .. تلتقی فیها أطراف قصة عجیبة تبدأ برؤیا و تنتهی بتحقیق تلک الرؤیا و تفسیرها فی الواقع بعد مرور سنین طویلة یلاقی فیها نبی اللّه یوسف أهوالا، حتی لقد اعتقد أخوته أنه فی طی النسیان، و فی خبر کان کما یقولون، لکن عنایة اللّه کانت تلاحظه فینجو من الخطر تلو الخطر لأنه کان من المخلصین الذین استخلصهم اللّه تعالی، و تمثل تلک الآیة نهایة الصراع بین الخیر و الشر حیث ینهزم الشر و لا یجد مفرا سوی الانسلاخ من ظلمته إلی نور الحق فیسلم له صاغرا، و هکذا تفعل العنایة الإلهیة حتی یأتی الأخوة الذین رموا یوسف فی الجب المظلم بعد سنین و هو علی رأس الدولة لیخروا له سجدا. و یوسف علیه السلام باعتباره نبیا لا یترک الفرصة حتی یلقی بالعبرة علی مسامع أخوته بادئا بالقصة من أولها فی إشارات و رموز (هذا تَأْوِیلُ رُءْیایَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّی حَقًّا) لأن رؤی الأنبیاء حق (وَ قَدْ أَحْسَنَ بِی إِذْ أَخْرَجَنِی مِنَ السِّجْنِ) و هذا یرمز إلی قصة الفتنة التی دخل بسببها السجن ظلما، (جاءَ بِکُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّیْطانُ بَیْنِی وَ بَیْنَ إِخْوَتِی) و فی هذا رمز إلی ما حدث من أخوته و فضل اللّه علیه بالنجاة، مع التلطف بأخوته إذ نسب ما کان منهم إلی نزغ الشیطان، فأی أدب هذا، و أی رفق؟ إنه أدب النبوة و نورها و کرمها، ثم ینسب ذلک کله إلی أسرار علم اللّه و لطف تقدیره (إِنَّ رَبِّی لَطِیفٌ لِما یَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ). إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۵۷ و بهذا یتبین إن إعجاز هذه الآیة فی روعة إیجازها بحیث تشتمل علی رموز القصة کلها بأطرافها من البدایة للنهایة مع خصوصیة المعانی و سموها، ناهیک عن الإشارة إلی أدب النبوة الذی جعل یوسف لا ینطوی صدره علی الحقد و لا یستغل الموقف للتشفی أو التأنیب و لکنه یصفح و یعذر حین ینسب ما کان لنزغ الشیطان نسبة لا تمیل نحو إخوته و لکن تعادل و توازن بینه و بینهم إذ قال: (مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّیْطانُ بَیْنِی وَ بَیْنَ إِخْوَتِی) و لم یقل بعد أن نزغ الشیطان لأخوتی. ربما کان هذا ما أراده ابن أبی الإصبع حین طلب منا أن ننظر لنری تفاوت ما بین الکلامین دون تفضیل. علی أنه لا یفوتنا التنبیه إلی أن قصیدة الأعشی بلیغة فی مقامها الذی دعاه إلی الإطناب فی عرض تفاصیل القصة لأنه ینقل ما یحدث أمامه فی الواقع من مشاهد و حوار، ثم إنه کان یتوجه بها إلی النعمان بن المنذر قائلا له: کن کالسموأل فی کذا و کذا، فمن المناسب أن یعرض ما کان بالتفصیل حتی تبرز عظمة ذلک الوفاء و صلابة الرجال فی مواقف الشدة، فهو ینتهز الفرصة لیعرض النموذج المثال الذی یجب الاحتذاء به. و جاء أروع من هذا إیجاز الآیة و لم تکن إعادة للأحداث السابقة و لکن الموقف اقتضی أن یذکّر أخوته بفضل اللّه علیهم جمیعا و نعمته علیه فی أحلک اللحظات فی رموز مختصرة بحیث یشیر کل رمز إلی أحداث کثیرة و یستحضرها و هی تمر بالذاکرة مرورا سریعا. إن قصة السموأل و الحارث تمثل الصراع بین الخیر و الشر و انتصار الخیر مع سقوط ضحایا و إراقة دماء و إثارة الأسی فی القلوب من قتل الابن أمام عین أبیه، أما الآیة فإنها تبلور ما کان من صراع بین الخیر و الشر و انتصار الخیر من غیر سقوط ضحایا و لا إراقة دماء مع غرابة الأحداث التی تنتهی نهایة تقرّ بها العیون و تنبسط لها النفوس و تنشرح لها الصدور و تخرج بالعبرة، فتثق فی قدرة اللّه و تطمئن إلی فضله و نعمته لمن کان له قلب، کما توحی بالخلق الکریم فی إعجاز القرآن و منهج

البحث عن التميز، النص، ص: ۵۸ إيماء الصياغة دون اعتماد على اللغة الخطابية المباشرة التى رأيناها أحيانا فى قصيدة الأعشى. إن الآية يتبلور فيها روعة المعانى المعجزة فى روعة الصياغة المعجزة. و ابن أبى الإصبع يؤكد اتجاهه فى إمكان الموازنة بين كلامين مختلفين فى المعنى فتكون الموازنة فى الأسلوب و طريقة بناء المعانى، و ذلك فى باب الاستقصاء.

الاستقصاء: (أو الموازنة فى ترقى المعانى)

اشارة

الاستقصاء: (أو الموازنة فى ترقى المعانى) و يبدأ بتعريف الاستقصاء بأنه "أن يتناول المتكلم معنى فيستقصيه فيأتى بجميع عوارضه و لوازمه بعد أن يستقصى جميع أوصافه الذاتية بحيث لا يترك لمن يتناوله بعده فيه مقالا يقوله، كقول البحترى فى وصف الإبل التى براها السّير و السّرى، فقال فيها ما أجمع الناس على تقديمه فى بابه: كالقسىّ المعطفات بل الأسهم مبريّة بل الأوتار و حاصل كلامه أن الشاعر لم يكتف بتشبيه تلك الإبل الأنضاء بالقسىّ حتى تمّم بالوصف "المعطفات "أى للمنحنيات، لما فى خلق الإبل من الانحناء، فكان التشبيه بذلك أوقع، و المعنى فى الوصف أتم، ثم استقصى بالانتقال على مقتضى البلاغة من الأدنى إلى الأعلى فى النحافة فشبهها بالأسهم لأنها أنحف من القسى، و لم يكتف بهذا حتى تمّم بالوصف (مبريّة) ليقع التشبيه الثانى موقع الأول فى القرب، ثم انتقل إلى الأوتار التى هى أنحف من الأسهم، و كل ذلك على الترتيب المرضىّ الذى استحق الكلام بسببه الوصف بالتهذيب «۱»، ثم أحسن الترتيب بنسق الجمل بعضها على بعض بلفظة (بل) الدالة على الإضراب و الترقى حتى لم يبق من الإبل إلا أعصاب جافة كالأوتار، و الألفاظ بينها من التلاؤم ما يحقق الائتلاف، و هذا الترقى فى الوصف بالنحافة حتى لم يدع نهاية لواصف هو الاستقصاء، ثم يقول ":و هذا أفضل بيت وقع فيه الاستقصاء لمولّد «"۲».

(_____ ۱) التهذيب عند ابن أبى الإصبع هو حسن ترتيب مفردات الجملة فهو ضرب من النظم الذى يدخله التدبر. (۲) راجع بديع القرآن ۲۴۹. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۵۹ ثم يوازن ابن أبى الإصبع من جهة الاستقصاء بين بيت البحترى و بين قوله تعالى: (أَ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) [البقرة: ۲۶۶]. يقول: إذا نظرت بين بيت البحترى و بين الآية علمت مقدار ما فى نظم القرآن من البلاغة و بيّنت أن الإعجاز فيه بالفصاحة، و ذلك أنه سبحانه بعد قوله: (جنة) التى لو اقتصر على ذكرها لكان كافيا، فلم يقف عند ذلك حتى قال فى تفسيرها: (مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ) إذ لفظ الجنة تطلق على أى شجر كان يستر بظل ورقة الأرض، فإذا قيدها بهذا الوصف كان مصاب صاحبها أعظم، ثم لم يقف عند ذلك حتى قال سبحانه: (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) متمما لوصفها بذلك، ثم كمل وصفها بأن قال عز و جل: (لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ) و ذلك لما علم سبحانه أن الاقتصار على وصفها بالنخيل و الأعناب لا يكون به وصفها كاملا فأتى بكل ما يكون فى الجنان ليشتد الأسف على إفسادها، ثم قال فى وصف صاحب الجنة (وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ) ثم استقصى المعنى بما يوجب تعظيم المصاب بقوله: (وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ) و لم يقف عند ذلك حتى وصف الذرية بالضعف، ثم ذكر استئصال تلك الجنة- التى ليس لهذا الذى أصابه الكبر و ليس لذريته الضعفاء غيرها- بالهلاك فى أسرع وقت حيث قال: (فَأَصابَها إِعْصارٌ) و لم يقتصر على ذكر الإعصار فقال: (فِيهِ نارٌ) ثم لم يقف عند ذلك حتى أخبر سبحانه باحتراقها للاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا تفى باحتراقها لما فيها من الأنهار و رطوبة الأشجار، فاحترس عن هذا الاحتمال بقوله: (فَاحْتَرَقَتْ) و هذا أحسن استقصاء وقع فى كلام و أتمه و أكمله «"۱». فابن أبى الإصبع فى هذه الموازنة لا يقتحم الخصوصيات المميزة للمعانى و لا يبحث عن الفروق الدقيقة فى النظم، و إنما يكتفى بالموازنة بينهما فى استقصاء المعانى و يكتفى بصيغة التفضيل فى آخر كلمة قالها ":و هذا أحسن

استقصاء وقع (_____ ۱) بـديع القرآن ۲۴۹، ۲۵۰. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۶۰ فی کلام " ..و قد أعطی البيت حقه من الثناء علی بلاغته بقوله ":و هذا أفضـل بيت وقع فيه الاسـتقصاء لمولـد. "و الموازنـة هنـا لا تقوم بين كلامين متفقين فی المعنی و إنما تـدور حول كلامين يلتقيان فی طريقة التناول و فی الأسلوب كما سبق. و إذا حاولنا تكملة ما بدأه كانت الموازنة من جهتين:

الأولی: خصوصيات المعانی.

الثانية: طريقة الاستقصاء فيها.

الثانية: طريقة الاستقصاء فيها. فمن الجهة الأولی نجد البحتری يصف الإبل بالنحافة، و هذا المعنی متداول عند الشعراء، و منهم من برع فی تصويره فجعـل مـا ينقص من شـحم الناقـة و لحمهـا و كـأن الرحل يقتات منه من طول الملازمـة و من طول المسير كما قال طفيل الغنوی. و جعلت رحلی فوق ناجيـة يقتات شـحم سـنامها الرحل لكن الذی جعل لمعنی البحتری صـيتا و ذيوعا هو الترقی فی الوصـف بالنحافة حتی لم يبق من الإبل فی النهاية شيئا سوی أعصاب جافة تشبه الأوتار. أما المعنی القرآنی فلقد جاء جديدا لا عهد للعرب به و هو "من يعمل خيرا و يضم إليه ما يحبطه فيجده يوم القيامة هباء منثورا «"۱» أو هو عمل الخير الذی يعظم فی نفس صاحبه و لا يبتغی به وجه اللّه، أو الإنفاق الذی يلاحق بالمن و الأذی حتی يحبطه اللّه، فجدّة هذا المعنی المتصل بممارسة المسـلم العبادات و القربات و كونه علی جانب كبير من الخطورة اقتضـی تصويره ليتضح ما فيه من خطر علی سبيل التحذير بالتمثيل الكاشف الذی افتتح بالاسـتمالة و الاسـتدراج و خطاب النفس و العقل عن طريق هـذا الاسـتفهام التقريری (أَ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ) .. الآية، و الجنة هنا بسـتان ظليـل يتكـون من أعظم الشـجر (نَخِيـلٍ وَ أَعْنـابٍ) و قـد كـثر ثمـاره (لَهُ فِيهـا مِنْ كُـلِّ الثَّمَراتِ) و كـان صـاحبه أحـوج مـا يكـون إليه (_____ ۱) فتـح القـدير للشوكـانی ۱ / ۲۸۲.

إعجـاز القرآن و منهـج البحـث عن التميز، النص، ص: ۶۱ (وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُـعَفاءُ) فسـلب البسـتان منه فجأة فكانت الحسـرة شديـدة (فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ). على أنه لم يذكر حال المشـبه اعتمادا على فهمها من صورة المشـبه به، و من دلالة السـياق الذی سبق فيه قوله تعالی (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذیً وَ اللَّهُ غَنِیٌّ حَلِيمٌ) [البقرة: ۲۶۳] و قوله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَـدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذی) ... الآيـة ۲۶۴ البقرة فقول سـبحانه بعـد ذلـك (أَ يَوَدُّ أَحَـدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ) من التصوير و التمثيل الذی يأتی فی أعقاب المعانی فيلقی عليه بأضوائه الكاشفة و يفصح عن زوايا كانت خفية فيه و ما كانت لتظهر لو لا هذا التمثيل. و من الجهة الثانية فإن الترقی و الاسـتقصاء فی بيت البحتری جاء علی عادة البشر فی الإضراب بالأداة (بل) التی تعكس شعورا بالغلط، و هذا ما يعللون به الإضـراب، و تكراره يؤكـده بما يتوافق مع الطبيعـة البشـرية فی قصور رؤيتها، إذ تضـرب عما رأته أولا فتتركه إلی ما رأته ثانيا، ثم إن هـذا الاسـتقصاء يعتمـد علی نوع من المبالغة التی تصل لدرجة الغلو؛ لأن الناقة مهما نحفت لا تصل إلی مشابهة الأوتار، و الوتر هو الخيـط الـدقيق الـذی يصل بين طرفی القوس، أما الصورة القرآنيـة فلا أثر فيها للطبع البشـری و طريقته فی نظم المعانی، لأنها أفرغت إفراغـا واحـدا و سـبكت فی قالب واحـد، معتمـدة فی هـذا علی الجمل القصـيرة التی يلتحم بعضـها ببعض عن طريق الصـلات الإعرابيـة كتتـابع الوصف فی قوله سـبحانه: (أَ يَوَدُّ أَحَـدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ) و عن طريق العطف بـالواو مرتين متواليتين يعقبهمـا العطف بالفاء مرتين متواليتين فی قوله سـبحانه: (وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ) مما يزيـد من حاجته إلی ثمار هـذه الجنـة، و حيث عطف بالفاء دلّ علی سـرعة تتابع الأحداث و كأن تطورا مفاجئا قد حدث (فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ) إنه يريد أن يكون الشعور بالفقد عظيما و الإحساس بالحسرة كبيرا ليقع فی كل نفس إعجاز القرآن

و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۶۲ مرائية خطر المن بالصدقة، و خطورة ملاحقة الفقراء و تذكيرهم بالصدقات التى منحت لهم. على أن تفاصيل التمثيل القرآنى التى عدها ابن أبى الإصبع ترقّيا فى الوصف و استقصاء للمعنى هى من صميم النسيج المكوّن لذلك التمثيل و الذى يعود بأضوائه إلى حال المشبه فيكشف فيه عن حاجة المنفق الشديدة إلى ثواب ما أنفقه، لكنه بحمقه و سوء تقديره فرّط فى ذلك الثواب فضاع من يده و بقى بحسرته. و حاصل هذا أن خصوصية المعنى القرآنى اقتضت تصويره على ذلك النحو الذى رأيناه، و أن التفاصيل الدقيقة فى صورة المشبه به و التى عدّها ابن أبى الإصبع استقصاء فى المعنى هى من صميم التصوير الكاشف عن تفاصيل المعنى فى جانب المشبه، فلم تأت لمجرد البراعة التصويرية و الفنية و إنما هى فى الأساس حاجة المعنى و مقتضياته. بخلاف ما وجدنا فى بيت البحترى من قصد البراعة التصويرية و الفنية فى الأساس مما ترتب عليه مبالغة ظاهرة بل غلو زائد لا حاجة للمعنى إليه.

الموازنة فى باب (صحة التقسيم):

الموازنة فى باب (صحة التقسيم): فى هذا الباب وازن ابن أبى الإصبع بين قوله تعالى: (وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) [البقرة: ۴] و بين قول زهير: و أعلم ما فى اليوم و الأمس قبله و لكننى عن علم ما فى غد عم و الذى سوغ له الموازنة بينهما ما فيهما من تقسيم فى الماضى و الحال و المستقبل، مع اختلاف المعنى المتعلق بهذه الأزمنة و مع اختلاف الصياغة و التعبير، فالموازنة جاءت بينهما بمناسبة حديثه عن صحة التقسيم. و ابن أبى الإصبع ينبه إلى ثلاث ميزات فى الآية لا توجد فى البيت، و تتعلق بما يوجد فى أقسام الآية و لا يوجد فى أقسام البيت: الميزة الأولى: ما فى أقسام الآية من إيجاز بالقياس إلى ما فيها من معان بخلاف البيت الذى زادت ألفاظه من غير فائدة مثل لفظه (قبله) التى جاءت لأجل إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۶۳ الوزن، و يلتفت فى هذا السياق إلى شىء مهم من خصوصيات معنى الآية هو تضمنها مدح المؤمنين فى الأزمنة الثلاثة مدحا مجملا- لو فصلناه لملأت معانيها الأكوان، ففيها الإشارة إلى الإيمان بجميع كتب اللّه التى أنزلها و جميع رسله التى أرسلها فى قوله: (يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) و بما سيكون من أمر البعث و ما فيه من حساب و صراط و ميزان و جنة و نار و جميع صنوف الثواب و العقاب فى قوله: (وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ). الميزة الثانية: تميز فاصلة الآية عن قافية البيت، ففى الفاصلة إيغال زاد معنى الآية زيادة لا- تحصل إلا بقوله: (يُوقِنُونَ) أى أن إيمانهم بالآخرة متيقن لا شك فيه و لا شبهة، أما القافية فى البيت فإنها زيادة يمكن استغناء المعنى عنها، لأن أصله: لا أعلم ما فى الغد، فاضطره الوزن و القافية إلى أن قال ما قال. الميزة الثالثة: ما فى الآية من روح القوة المنبعثة من قوة المتكلم بها، و هذا مفهوم من قول ابن أبى الإصبع "و أين يقع البيت من الآية، فإن بينهما من البعد ما بين المتكلم بهما «"۱». و هذه الموازنة تعد على إيجازها من أفضل ما جاء عند ابن أبى الإصبع، لأنها مسّت عيبا فى البيت هو التطويل أو الحشو يقابله ميزة فى الآية هى من الخصوصيات المطردة فى سائر آيات القرآن و تعد من أبرز وجوه الإعجاز و هى قلة الألفاظ مع غزارة المعانى و تكاثر الدلالات و قد تحدث ابن أبى الإصبع عن هذا فى سياق الحديث عن ميزة أخرى هى الغرض من الآية، ففيها مدح للمؤمنين بشمول إيمانهم بكتب اللّه و رسله و إيمانهم بالآخرة إيمانا لا مجال فيه للتردد أو الشك، على أنه ذكر ميزة أخرى قلما نبه إليها و هى أن قوة الكلام من قوة المتكلم و أن البعد و التفاوت الشديد بين الآية و البيت بمقدار البعد بين المتكلم بهما.

(_____ ۱) بديع القرآن ۷۱. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۶۴ و من تلك الموازنات التطبيقية ما ورد عند ابن أبى الإصبع فى باب جمع المؤتلفة و المختلفة (من الموازنات فى الأسلوب): و يعرفه بأنه أن يريد المتكلم التسوية بين ممدوحين فيأتى بمعان مؤتلفة فى مدحهما ثم يروم ترجيح أحدهما بزيادة فضل لا ينتقص بها الآخر فيأتى لأجل ذلك الترجيح بمعان تخالف معانى التسوية «"۱» و منه قول الخنساء فى أخيها صخر و قد أرادت مساواته فى الفضل بأبيها مع مراعاة حق الوالد بزيادة فضل لا ينتقص بها مدح الولد، فقالت: جارى أباه فأقبلا و هما

يتعاوران ملاءة الحضر «۲» و هما- و قد برازا- كأنهما صقران قد حطا إلى وكر حتى إذا نزت القلوب و قد لزّت هناك العذر بالعذر «۳» و علا هتاف الناس أيهما؟ قال المجيب هناك لا أدرى برقت صحيفة وجه والده و مضى على غلوائه يجرى أولى فأولى أن يساويه لو لا- جلال السن و الكبر و الذى جاء من هذا الباب فى الكتاب العزيز قوله سبحانه: (وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ* فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً ..) [الأنبياء: ۷۸، ۷۹]. و قد وازن ابن أبى الإصبع بين الأبيات و الآيتين موازنة أسلوبية فى طريقة أداء المعنى و ما تستوى فيه الأبيات مع الآيتين فى هذا الباب الذى سماه بجمع المؤتلفة و المختلفة ثم عقب بالمحاسن التى تتميز بها الآية من جهة البلاغة، و حاصل كلامه فى هذا أنّ الأبيات بدأت كما بدأت الآية فى التسوية بين الأب (_____ ۱) نفسه

۱۲۷. (۲) الملاءة: كل ثوب لين رقيق، و الجمع: ملاء، و الخضر: العدو و السباق، فقد شبه غبار السباق الذى يغطيهما بالملاءة التى يتعاورها الأب و الابن أى يتبادلانها فيرتديها أبوه مرة و يرتديها ابنه مرة يعنى أن هذا يسبق مرة و ذاك يسبق مرة، و وراء هذه الاستعارة كناية عن التساوى فى مرات السبق، و هناك رواية أخرى هى: ملاءة الفخر. (۳) العذر: جمع عذار و هو السير من الجلد الذى يكون على خد الدابة من اللجام. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۶۵ و الابن، ففى الآية قوله: (إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ) فساوى بين داود و سليمان عليهما السلام فى أهلية الحكم، و فى الأبيات ساوت بين الأب و الابن بداية فى قولها: و هما- و قد برازا- كأنهما صقران قد حطا إلى وكر ..... و قد لزّت هناك العذر بالعذر تريد أن عذر اللّجم لزّ و التصق بعضها ببعض بما يدل على المساواة التامة فى السباق، ثم قالت فى ترجيح الوالد "برقت صحيفة وجه والده "تعنى أن وجهه خرج من الغبار، كناية عن السبق، ثم قالت فى إلحاق الولد بالوالد فى الفضل: أولى فأولى أن يساويه لو لا جلال السن و الكبر تريد أن الولد كان قادرا على مساواة الوالد- و ما أولاه بذلك- لو لا ما التزمه من الأدب مع برّ أبيه و معرفته بحقه فغضّ من عنانه و خفض جناح فضله ليؤثر أباه بالفضل على نفسه. أما الآية الكريمة فقد بدأت بالتسوية بين داود و سليمان عليهما السلام فى أهلية الحكم و رجّح آخرها سليمان حيث قال (فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ) ثم حصل الالتفات إلى مراعاة حق الوالد فأتى بما يقوم مقام تلك الزيادة التى رجح بها الابن، و هى حق الأبوة التى توازى تلك الفضيلة فحصلت المساواة «۱» و هنا لم يذكر ابن أبى الإصبع ما يدل على تلك الفضيلة التى تساوى داود بسليمان عليهما السلام، و لعلها فى قوله تعالى: (وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ). و هناك فرق معنوى لم ينبه إليه ابن أبى الإصبع و هو أن زيادة المدح فى الشعر كانت للأب و هى زيادة لا تنقص من حق الولد، و الآية عكس هذا؛ لأن زيادة المدح فيها كانت للابن (فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ) و هى زيادة لا تنتقص حق الوالد، بل لقد عاد إلى التسوية بينهما بما يشير إلى أن داود عليه السلام حاز فضل النبوّة و أن سليمان عليه السلام حاز فضل النبوّة و البنوّة.

(_____ ۱) بديع القرآن ۱۲۸، ۱۲۹. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۶۶ و ابن أبى الإصبع ينتقل بعد هذا إلى ما تتميز به الآية، و من ذلك بعد الزيادة على معنى الخنساء الالتفات فى قوله: (وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ) و أدمج فى هذا الالتفات ضرب آخر من المحاسن يقال له التنكيت، فإن النكتة التى من أجلها جمع الضمير الذى كان من حقه أن يكون مثنى فى (لحكمهم) هى الإشارة إلى أن هذا الحكم متبع يجب الاقتداء به لأنه عين الحق و نفس العدل، و كيف لا يكون كذلك و قد أخبر سبحانه أنه له شاهد «"۱». و الحق أن هذه الميزات لا تفهم حق الفهم إلا بالنظر فى خصوصية المعنى القرآنى و سياقه و ملابسته، و يلفتنا فى سياق الآية أمران: الأول: أن قبلها حديث عن لوط عليه السلام يبدأ بقوله تعالى: (وَ لُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ) [الأنبياء: ۷۴] و يناسبه قوله تعالى فى شأن داود و سليمان عليهما السلام: (وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً) و فى ذلك إشارة إلى أن اللّه سبحانه يختار رسله و أنبياءه من الناس لكنه سبحانه يخصهم أن يعطيهم حكما و علما "و الحكم هو النبوة «"۲» و يعطيه العلم ليكون أهلا للنبوة، و هذا ينسحب على كل الرسل و الأنبياء و منهم محمد صلّى اللّه عليه و سلّم فيكون هذا ردا على ما ورد فى صدر

سورة الأنبياء من قوله تعالى: (أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) ... الآية ۳. و من هذه الملابسات نشعر بأن المقصود هو الإيحاء بأن اللّه سبحانه يصطفى من عباده من يشاء لرسالته، و أنه يعطيهم الحكم و النبوة، فلا عجب أن تتفاوت الحظوظ حتى بين الأنبياء فهم درجات، و قد يكون الأب و الابن نبيّين و يعطى اللّه سبحانه لأحدهما من العلم ما لم يعط للآخر بل قد يعطى للابن ما لم يعط للأب كما فى تلك الحلقة التى وردت فى سورة الأنبياء من قصة داود و سليمان عليهما السلام فهى مناسبة لهذا السياق كل المناسبة. إذ يقول سبحانه: (وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ) [الأنبياء: ۷۸].

(_____ ۱) بديع القرآن ۱۳۰. (۲) فتح القدير ۲/ ۱۴۹. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۶۷ " و أخرج بن جرير و الحاكم عن ابن مسعود فى قوله تعالى (وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ) قال: هو كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبى اللّه؟ قال و ما ذاك؟ قال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، و تدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها- ينتفع بها- حتى إذا عاد الكرم كما كان، دفع الكرم إلى صاحبه، و الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: (فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ) «۱». الأمر الثانى الذى يلفتنى فى هذه السورة أن فيها ضروب من التوازنات منها: - أنه سبحانه خلق الباطل و أهله، و لكى يتحقق التوازن خلق الحق الذى يقذف به الباطل فيدمغه راجع آية ۱۸ سورة الأنبياء. - و أنه سبحانه الخالق الذى لا شريك له، و لو كان فى السماوات و الأرض إله آخر لفسدتا، فوحدانية الخالق سبحانه يؤدى إلى توازن الكون و انصلاح حاله، و هذه هى الحالة الوحيدة التى يتحقق التوازن بالوحدانية من غير ثنائية، و أن الثنائية التى يقوم عليها التوازن لا تصلح فى هذه الحالة. - و عند ما خلق الأرض خلق فيها الجبال الرواسى ليتحقق توازن الأرض- راجع آية ۳۱ من سورة الأنبياء. - و اللّه سبحانه ينقص الأرض من أطرافها من أجل هذا التوازن (أَ فَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ) [الأنبياء: ۴۴] و فى السورة آيات أخرى تدل على هذا التوازن، و لكنى أقف على تلك الحلقة المذكورة من قصة سليمان و داود عليهما السلام لنجد فيها ذلك التوازن، ففى حكم سليمان الذى استدرك به على أبيه و الذى قضى فيه بالحكم الذى سبق يتحقق التوازن بلا ضرر و لا ضرار.

(_____ ۱) فتح القدير ۲/ ۱۵۵. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۶۸ و هنا نلحظ أن المسألة ليست مجرد مقارنة بين ما أعطاه اللّه لداود و ما أعطاه لسليمان، فيكون فى قوله تعالى: (فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ) إشارة إلى ما فى حكم سليمان من تحقيق ذلك التوازن الذى قام عليه خلق السماوات و الأرض و قام عليه انتظام الحياة فى الأرض، و يقوم عليه القضاء و الفصل بين الناس، لكن لما اقتضى السياق تخصيص سليمان عليه السلام بهذا، استدرك بقوله سبحانه (وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً)، فلا ينبغى أن يفهم من ذلك الموقف أفضلية ما لسليمان على أبيه عليهما السلام. ثم عاد فذكر أن الحظوظ لا بدّ أن تتفاوت تفاوت تكامل لا تفاوت تصادم ليتحقق ذلك التوازن حتى بين الأنبياء و بين الابن و أبيه، فإذا كان قد خصّ داود بتسخير الجبال و الطير يسبّحن معه، و علمه صناعة الدروع من الحديد «۱»، (آية ۷۹، ۸۰ الأنبياء) فإنه سبحانه قد خص سليمان بتسخير الريح عاصفة تجرى بأمره .. (آية ۸۱ الأنبياء). و خلاصة هذا أن خصوصية المعانى القرآنية و ما يترتب عليها من خصوصيات الأداء لا تتبين إلا عند الربط بالسياق.

موازنات غير صريحة:

اشارة

موازنات غير صريحة: نجد هذا فى أكثر أبواب "بديع القرآن "و المهم أن فكرة البحث عن جهات عن التميز كانت قائمة فى نفسه، و أن الموازنة كانت هى السبيل الذى يراه جديرا بتحقيق تلك الغاية، سواء كانت ظاهرة كما سبق أم غير ظاهرة كما نجدها فى أبواب

كثيرة من كتابه و منها:

۱- فى باب النزاهة:

۱- فى باب النزاهة: و كان يقصد بها "نزاهة ألفاظ الهجاء من الفحش، حتى يكون الهجاء كما قال فيه أبو عمرو بن العلاء و قد سئل عن أحسن الهجاء فقال: هو الذى إذا أنشدته العذراء فى خدرها لا يقبح عليها ثم يستشهد له بشواهد من الشعر و يعقبه بما ورد (_____ ۱) لا- يفوتنا أن هذا أيضا يشير إلى فضل اللّه فى هدايته لتلك الصناعة حتى يتحقق التوازن فى الأرض (وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) [البقرة: ۲۵۱]. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۶۹ منه فى القرآن الكريم ثم يقف مع شاهد القرآن فيذكر ما يميزه من البلاغة بما يشير إلى خصوصية فى نظمه يفتقر إليها ما ورد منه فى الشعر. فما ورد منه فى الشعر قول جرير: لو أن تغلب جمّعت أحسابها يوم التفاخر لم تزن مثقالا- و كقوله عمرو بن معدى كرب الزبيدى: ظللت كأنى للرماح دريئة أطاعن عن أبناء جرم و فرّت فأنت ترى مضاضة هذا الهجاء و نزاهة ألفاظه من الفحش. و من أمثلة هذا الباب فى الكتاب العزيز قوله تعالى: (وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ* وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ* أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [النور: ۴۸- ۵۰]، فإن ألفاظ ذم هؤلاء المخبر عنهم بهذا الخبر أتت منزهة عما يقع فى الهجاء من فحش «"۱». ثم يذكر ابن الأبى الإصبع ميزات فى هذه الآية زائدة على النزاهة و تعد من خصوصيات نظمها فيقول ":و اتفق فى الآية مع النزاهة صحة التقسيم، فإنها لم تبق قسما يقع فى القلوب من الصوارف عن القبول حتى جاءت به، أ لا- ترى أنه سبحانه ذكر الريبة بعد المرض، لأن الصارف عن حكم اللّه و رسوله إما إخفاء الكفر و إظهار الإسلام، و هو المرض، أو التشكك فى حكم اللّه هل هو جار على العدل أو على غيره و ذلك هو الريبة، أو خوف الحيف و هو الجور، فلم يبق قسم من الصوارف حتى ذكر فيها ثم ختمها سبحانه بقوله (بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) و أخر القسم الأخير و هو الخوف من الحيف و الجور الذى غلب على ظنهم الفاسد، ليكون مجاورا للفاصلة التى ترد عليه (بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ). و فيها إيغال لأنه حقق الظلم وصفا لهم، و نفاه عنه سبحانه و تعالى، فحصل (_____ ۱) بديع القرآن ۲۹۳ بتصرف يسير إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۷۰ بذلك الافتنان، و هو جمع الكلام بين فنّى الفخر و الهجاء، فإن فى وصفهم بالظلم وصف ذاته بالعدل، و وصف نبيّه صلّى اللّه عليه و سلّم بذلك «"۱». و حاصل ما سبق أن ابن أبى الإصبع لم ينص فى هذا الباب على الموازنة و ربما منعه من هذا أن الأبيات التى استشهد بها لا تلتقى مع الآية فى شىء من المعنى و لا فى شىء من النظم، فلا- يلتقيان إلا- فى الغرض و هو الذم و الهجاء، و أن هذا الذم يخلو من الفحش، و يتسم بالنزاهة، و لهذا سمى هذا الباب بالنزاهة، على أن الاتفاق فى الغرض وحده ليس مبررا للموازنة، سوى أن وقفته مع الآية و استخلاص سماتها البلاغية التى لا توجد فى الشعر يحمل فى داخله موازنة ضمنية لأنه بحث فى تميز وسائل عرض الغرض فى القرآن الكريم. ربما أراد ابن أبى الإصبع من وراء هذا أن أغراض القرآن الكريم تتسم بالسمو و الرقى، و أن الشعر قد ينال حظا من هذا فيوجد فى الهجاء نزاهة؛ لكنه لا يرقى إلى ما فى القرآن من وسائل خاصة تتزاحم فيها البلاغة، و قد رأينا ما فى الآية من حسن تقسيم، و ما فيها من إيغال و افتنان. ثم لاحظنا أن ابن أبى الإصبع يربط بين هذه الخصوصيات الأدائية و بين الدواعى المعنوية، فحسن التقسيم فى الآية يعنى استقصاء الدواعى التى تصرف الناس عن قبول حكم اللّه بحيث لم يترك منها شيئا فى إشارة إلى علم اللّه سبحانه بدواخل هؤلاء الناس، و أنه بذكر هذه الأشياء يحاصرهم و يواجههم و ينكر عليهم بواسطة الاستفهام: (أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [النور: ۵۰]. أما الإيغال و الافتنان فقد ظهر فى الرد على أخطر هذه الأمور الثلاثة و هو الأخير منها لأنه يمس المشرع سبحانه و تعالى و رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم و ذلك فى قوله سبحانه (بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) فهو إيغال فى داخله افتنان،

أما الإيغال فللمجيء بعد تمام المعنى بزيادة لنكتة، و تلك النكتة هى الافتنان الذى يعنى مجيء الكلام لغرض فى داخله غرض آخر غيره، فالغرض الذى سيقت له تلك الفاصلة هو ذمهم بالظلم، (_____ ۱) راجع بديع القرآن ۹۴. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۷۱ و قد تضمن مع هذا وصف اللّه سبحانه بالعدل.

۲- و فى باب الافتنان:

۲- و فى باب الافتنان: يعرفه بأنه "أن يأتى المتكلم فى كلامه بفنّين متضادين أو مختلفين أو متفقين «"۱»، و يستشهد للقسم الأول بقول عبد اللّه بن طاهر بن الحسين: أحبك يا ظلوم و أنت منى مكان الروح من جسد الجبان و لو أنى أقول مكان روحى خشيت عليك بادرة الطّعان فقد جمع بين الغزل و الحماسة بأرشق عبارة و أبلغ إشارة. و منه الجمع بين التعزية و التهنئة كقول ابن المعزّى ليزيد بن معاوية عند ما جلس فى الخلافة، و أتت الوفود لتهنئته و تعزيته بأبيه، فلما اجتمعوا لم يفتح على أحد بما فتح به لهم باب القبول إذ استأذن فى الكلام، فلما أذن له قال ":آجرك اللّه يا أمير المؤمنين على الرزيّة و بارك اللّه لك فى العطية، فلقد رزئت عظيما و أعطيت جسيما، رزئت خليفة اللّه، و أعطيت خلافة اللّه فاصبر على ما رزئت و اشكر على ما أعطيت، ثم أنشد: اصبر يزيد فارقت ذا ثقة و اشكر حباء الذى بالملك أصفاك لا رزء أصبح فى الأقوام تعلمه كما رزئت و لا عقبى كعقباك أصبحت راعى أمور الناس كلّهم فأنت ترعاهم و اللّه يرعاكا يقول ابن أبى الإصبع "و ما رأيت أحسن من هذا الكلام، فإن النثر المتقدم هو حل الشعر المتأخر، و الشعر المتأخر عقد النثر المتقدم مع ما فى مفردات جمله من ضروب المحاسن و فنون المقاصد مثل المقابلة و المناسبة و التعطف و المساواة و تمكين المقاطع على ما فى الشعر من زيادة احتراس، و مقارنة، و إيغال فى سلامة سبك و خفة ألفاظ، و صحة معان، و فرط إيجاز. "و المهم هنا أنه ينتقل من هذا و غيره من الشواهد الشعرية إلى قوله ":و كل هذه المعانى تتزيّف عند قوله تعالى (ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا) [مريم: ۷۲]. و هذا يحمل فى ضمنه موازنة أجالها ابن الإصبع بينه و بين (_____ ۱) بديع القرآن ۲۹۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۷۲ نفسه، فرأى أن ما ساقه من شواهد- على ما فيها من بلاغة و سلاسة- تتضاءل و تتزيف عند الآية الكريمة التى تفوق فى كيفية الافتنان، يقول فى هذا ":فانظر إلى ما جمعت كلمات الآية من الوعد و الوعيد و التبشير و التحذير، و ما يلزم هذين الفنّين من المدح للمختصين بالبشارة و الذم لأهل النذارة «"۱». و لعله يشير إلى تميز الآية بأنها جمعت بين غرضين مختلفين فى عبارة أوجز مما جاءت عليها الشواهد السابقة من نثر و شعر، ثم إن فى داخل هذين الغرضين غرضين آخرين، فالوعد و الوعيد استلزما مدحا و ذمّا فتكون الآية قد تميزت بأنها أوجز فى اللفظ و أجمع فى المعانى و الأغراض. هذا ما يشير إليه كلام ابن أبى الإصبع، و ربما يلحظ معه ما جاءت عليه صياغة الآية و بناؤها، فلقد قامت أساسا على مقابلة خفية بين مصير المتقين و مصير الظالمين، فمصير المتقين نجاة، و مصير الظالمين هلاك، ناهيك عما تتميز به الآية القرآنية من سمو المعنى لأنه يتعلق بمصائر الخلائق يوم القيامة مع رقى الغاية لأن فيها ترغيبا فى التقوى و ترهيبا من الكفر و الظلم.

۳- باب الإبداع:

۳- باب الإبداع: يعرفه بداية بأنه "أن تكون كل لفظة من لفظ الكلام على انفرادها متضمنة بديعا أو بديعين بحسب قوة الكلام و ما يعطيه معناه بحيث يأتى فى البيت الواحد و الجملة الواحدة عدة ضروب من البديع «"۲». ثم يقول ":و ما رأيت و لا رويت فى الكلام المنثور و الشعر الموزون كآية من كتاب اللّه استخرجت منها أحدا و عشرين ضربا من البديع و عددها سبع عشرة لفظة، و هى قوله

تعالى (وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [هود: ۴۴ (_____]. ۱) راجع بديع القرآن ۲۹۹. (۲) بديع القرآن ۳۴۰ و يفهم من هذا التعريف أن تزاحم أنواع البديع و ضروبه فى الجملة نابع من قوة الكلام و تابع لغزارة المعانى و وفرة الدلالات، و هذا مهم فى الدلالة على توجه ابن أبى الإصبع إلى أن ضروب البديع و البلاغة فى الكلام ليست ترفا و لا لمجرد تحسين صورة الكلام و لكنه تابع لوفرة المعانى و مرتبط بقوة هذا الكلام، و ربما قصد بقوة الكلام قوة نظم المعانى. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۷۳ و هذا يدل على أن تلك الموازنة التى كان يديرها فى نفسه كانت موازنة منهجية قائمة على التتبع و الاستقصاء لكل ما وقع تحت نظره من منثور و موزون ليرى هل تتوفر فيه من السمات و الميزات التى يراها فى آية من الآيات التى ينظر فيها، هذا واضح جلى من عبارته السابقة. على أنه فى سياق كشفه عن ضروب البديع فى تلك الآية يلمح إلى انسجام فكرته السابقة فى التعريف مع تطبيقه، بحيث ترى كل ضروب البديع فى الآية نابعة من قوة الكلام و وفرة معانيه فلنقف مع تتبعه لما فى تلك الآية من بديع لنتأكد من هذا النهج و لتكون هى خير ما نختم به الحديث عن دور ابن الإصبع فى البحث عن تميز القرآن الكريم و تفوقه عن كلام العرب. يقول ":و تفصيل ما جاء فيها من البديع: المناسبة التامة فى (ابْلَعِي و أَقْلِعِي) و المطابقة اللفظية فى ذكر السماء و الأرض، و الاستعارة فى قوله (ابْلَعِي و أَقْلِعِي) للأرض و السماء، و المجاز فى قوله: (وَ يا سَماءُ) فإن الحقيقة: و يا مطر السماء أقلعى «۱»، و الإشارة فى قوله: (وَ غِيضَ الْماءُ) فإنه سبحانه و تعالى عبر بهاتين اللفظيتين عن معان كثيرة، لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء و تبلع الأرض ما يخرج من عيون الماء فينقص الحاصل على وجه الأرض من الماء، و الإرداف فى قوله: (اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) فإنه عبر عن استقرار السفينة على هذا المكان و جلوسها جلوسا متمكنا لا زيغ فيه و لا ميل لطمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب من لفظ الحقيقة، و التمثيل فى قوله: (وَ قُضِيَ الْأَمْرُ) فإنه عبر بذلك عن هلاك الهالكين و نجاة الناجين بلفظ فيه بعد ما من لفظ الحقيقة بالنسبة إلى لفظ الإرداف، و التعليل لأن غيض الماء علة الاستواء، و صحة التقسيم حين استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء و احتقان الماء الذى ينبع من الأرض، و غيض الماء الحاصل على ظهر الأرض، و الاحتراس فى قوله: (وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) محترسا من توهم من يتوهم أن (_____) ۱) و هذا المجاز ليس فى النداء باعتبار أن الكائنات منقادة للّه سبحانه و لكن قصد المؤلف هنا المجاز المرسل بعلاقة المجاورة أو المحلية حيث نادى السماء و المقصود ما يجاورها من مطر. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۷۴ الهلاك ربما عمّ من لا يستحق الهلاك فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين ليعلم أنهم مستحقو الهلاك .. و الانفصال: فإن لقائل أن يقول: إن لفظة القوم مستغنى عنها، فإنه لو قيل ":و قيل بعدا للظالمين "لتمّ الكلام، و الانفصال عن ذلك أن يقال: لما سبق فى صدر الكلام قبل الآية قوله تعالى: (وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ) [هود: ۳۸]، و قال سبحانه قبل ذلك مخاطبا لنوح عليه السلام: (وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) [من الآية ۳۷: هود]، فاقتضت البلاغة أن يؤتى بلفظة القوم التى آلة التعريف فيها للعهد ليتبيّن أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم فى قوله تعالى (وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ) و وصفهم بالظلم و أخبر بسابق علمه أنهم هالكون بقوله سبحانه: (وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) فحصل الانفصال عن الإشكال، و علم أن لفظة القوم ليست فضلة فى الكلام .. و حسن النسق فى عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولا فأولا، فإنه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع ثم عطف على ذلك أمر السماء بالإقلاع، ثم عطف غيض الماء على ذلك، ثم عطف عليه قضاء الأمر بهلاك الهالكين و نجاة الناجين، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها فى الوجود، و ائتلاف اللفظ مع المعنى لكون كل لفظة لا يصلح فى موضعها غيرها، و الإيجاز لأنه سبحانه اقتص القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يترك منها شيئا فى أخصر عبارة، و التسهيم لأن من أول الآية إلى قوله تعالى: (أَقْلِعِي) يقتضى آخرها و التهذيب؛ لأن مفردات الألفاظ

موصوفة بصفات الحسن، كل لفظة سهلة مخارج الحروف، عليها رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة، و التركيب سليم من التعقيد و أسبابه «۱». و حسن البيان من جهة أن السامع لا- يتوقف فى فهم معنى الكلام، و لا- يشكل عليه شىء منه، و التمكين لأن الفاصلة مستقرة فى قرارها، مطمئنة فى مكانها غير قلقة و لا- مستدعاة، و الانسجام و هو تحدر الكلام بسهولة و عذوبة سبك مع جزالة

(_____ ۱) هذا معنى للتهذيب و له معنى آخر عنده هو حسن ترتيب الكلمات فى النظم، بديع القرآن ۱۵۸. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۷۵ لفظ كما ينسجم الماء بالقليل من الهواء، و ما فى مجموع ألفاظ الآية من الإبداع، و هو الذى سمى به هذا الباب إذ فى كل لفظة بديع و بديعان .. فانظر رحمك اللّه إلى عظمة هذه الكلام و ما انطوى عليه نظمه و ما تضمنه لفظه لتقدره قدره «۱». و نرد عجز الكلام على صدره فنؤكد على أن الموازنة عند ابن أبى الإصبع كانت وسيلة ضرورية لتحقيق الغاية التى كان يضعها نصب عينه و هى البرهان على إعجاز القرآن، و انظر إلى آخر سطر فى كتابه ": تم كتاب بديع القرآن .. و تم بتمامه كتاب البرهان فى إعجاز القرآن «"۲». (_____ ۱) بديع القرآن ۳۴۳. (۲) المصدر نفسه ۳۵۳. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۷۷

الفصل الثانى ثمرات الموازنات عند المحدثين فى الإعجاز

المبحث الأول [اعجاز القرآن للرافعى]

اشارة

المبحث الأول [اعجاز القرآن للرافعى] إن من يطالع "إعجاز القرآن "للرافعى يلحظ أنه قد خلط أفكار سابقيه باجتهاداته الدقيقة، و يمكن تقسيم أوجه الإعجاز عنده إلى: - أوجه يبدو فيها تأثره بسابقيه أكبر من اجتهاده. - أوجه أخرى يبدو اجتهاده فيها أكبر من تأثره بسابقيه. و الرافعى يجرى على رأى الكثيرين فى أن القرآن معجز بنظمه و أسلوبه، لكنه كان عميق الإحساس بهذا التميز و جاء تعبيره يعكس هذا الإحساس العميق لأن اللغة كانت قريبة من نفسه و لا سيما عند ما كان يجرى على سجيته جريا يدل على نصوع الفكرة و إشراقها فى عقله، أما عند ما كانت تلطف الفكرة و تعمق فإنه كان يحاورها و يدور حولها بالتعبيرات العصيّة التى تدل على إباء الفكرة و امتناعها عن السفور، و أجدنى أخالف ميلى المتعجل إلى أن الرافعى كان يتعمد الفصاحة، و يبالغ فيها مبالغة تؤدى إلى الإغماض، فالذى يدل عليه التروى و التأنى و الإنصاف هو ميل الرافعى إلى الاجتهاد، و التقاط الأفكار الشاردة العميقة و التى قد تتأبى، و عند ما لا تشرق الفكرة فى نفس صاحبها فإن التعبير يأتى صادق الدلالة على هذا التمنع، و هذا عند الرافعى قليل، و عزره فيه قد اتضح. و من أفكار السابقين فى الإعجاز التى جدد الرافعى ثيابها و التى تعتمد على الطبع: خصوصية الأسلوب القرآنى و مباينته أساليب البلغاء فى شدة التناسب بين أجزائه و آياته على اختلاف المعانى و الأغراض. و هذه الميزة من الإعجاز الظاهر المستمر، و الإحساس بها لا- يحتاج إلى أكثر من الاستماع إلى القرآن "كالصوت المطرب البالغ فى التطريب لا يحتاج امرؤ فى معرفته و تمييزه إلى أكثر من سماعه، ذلك هو وجه تركيب القرآن و أسلوبه فإنه مباين لكل ما عرف من أساليب البلغاء فى ترتيب خطابهم و تنزيل إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۸۰ كلامهم، على أنه يؤاتى بعضه بعضا و تناسب كل آية منه كل آية أخرى فى النظم و الطريقة على اختلاف المعانى و تباين الأغراض «"۱». و مع أن الرافعى لم يوازن موازنة تطبيقية تعتمد النظر و التأمل و وضع اليد على خصائص كل نص للخروج فى النهاية إلى ما يتميز به النظم القرآنى فإنه مع هذا كان يعتمد الموازنة الذاتية التى يعتمد فيها على الطبع و يعول فيها على الذوق لإدراك الفرق يقول ":و حسبك أن تأخذ قطعة منه فى الموعظة و الترغيب أو الزجر و التأديب أو نحو ذلك مما يستفيض فيه الكلام الإنسانى فتقرنها إلى قطعة مثلها من كلام أبلغ الناس بيانا و أفصحهم عربية لترى فرق ما بين أثر

المعنى فى كلتا القطعتين و لتقع على مقدار ما بين الطبقة الإلهية و الطبقة الإنسانية فى السعة و التمكن «"۲». و يخلص من هذه الموازنة الذاتية إلى أن القرآن إنما ينفرد بأسلوبه لأنه ليس وضعا إنسانيا، و لو كان من وضع إنسان لجاء على طبيعة العرب و على طريقة تشبه أسلوبا من أساليبهم، و لمّا حاول مسيلمة أن يعارضه جعل يطبع على قالبه، فجاء بشىء لا يشبهه و لا يشبه كلام نفسه، و جنح إلى اقرب ما فى الطباع الإنسانية و أقوى ما فى أوهام العرب من طرق السجع، فأخطأ الفصاحة من كل جهاتها، و إن الرجل مع ذلك لفصيح «۳». لقد كان العرب يدركون طبقات الكلام و أن القرآن طبقة وحده ليس لها نظير، و ليس طبعا إنسانيا، و هناك وقائع و أقوال كثيرة صدرت منهم تدل على هذا و تقطع به. ۲- و من الوجوه التى استمدها من السابقين و لا سيما الباقلانى تميز القرآن بالسهولة التى يسيل بها أسلوبه على تنوع أغراضه، و يرد هذه الميزة إلى سهولة الأوضاع الإلهية التى يعرفها كل الناس و يعجز عنها الناس كلهم، و يعرف العلماء منها غير

(۱) إعجاز القرآن للرافعى ۲۲۹ الطبعة الثامنة ۱۳۸۴ ه- ۱۹۶۵ م المكتبة التجارية بمصر (۲) المرجع نفسه ۲۳۵ (۳) ينظر ۲۳۲ إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۸۱ ما يعرفه الجهّال، ثم يمتاز بعض العلماء فى المعرفة بها عن بعض ثم يبقى فيها سر الخلق مع كل ذلك مكتوما لا يعرف. و من ذلك ما فى أسلوب القرآن من رهبة لا تمويه فى شىء منها، فلا ترى إلا أثرا من التمكن و إلا روحا أكبر من أن يكون نفسا إنسانية و فى كل أغراضه مادة لتلك الرهبة و لذلك الأثر و الروح «"۱»، و هذا الوجه عند الخطابى مدسوس فى سياق حديثه الرائع عن صنيع القرار بالقلوب و تأثيره بالنفوس «۲» ثم تردّد عند لاحقيه بطريقة أو بأخرى. - و مما نجد له بذورا و إشارات خفيفة عند القدماء لكن الرافعى أحسن تنميتها و الإحساس بها ما سماه بمرونة التأويل بحيث لا يصادم القرآن الآراء الكثيرة المتقابلة التى تخرج بها طبائع العصور المختلفة .. فقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، و فهمه من جاء بعدهم من الفلاسفة و أهل العلوم، و فهمه زعماء الفرق المختلفة إلى ضروب من التأويل، و أثبتت العلوم الحديثة كثيرا من حقائقه التى كانت مغيّبة، لكن ما عهد من كلام الناس لا يحتمل كل ذلك و لا بعضه، بل هو كلما كان أدنى إلى البلاغة كان نصا فى معناه، و عند ما يتحقق هذا يكون فصيحا بما تعين له من معنى، و هذا المعنى محصور فى الغرض الباعث عليه «۳». و يرجع تميز القرآن بتلك الميزة إلى أنه ليس صادرا عن طبع إنسانى محدود بأحوال نفسية لا يتجاوزها، فهو يداور المعانى و يريغ الأساليب و يخاطب الروح بمنطقها من ألوان الكلام لا من حروفه، و هو يتألف الناس بهذه الخصوصية حتى ينتهى بهم مما يفهمون إلى ما يجب أن يفهموا «۴». و هذا التعليل الأخير من بصمات الرافعى التى تذكر له، فالقرآن يعطى لكل من يقرؤه بحسب استعداده و مستوى إدراكه، لكن الإنسان مهما اتسع أفقه

(۱) إعجاز القرآن للرافعى ۲۳۵ (۲) بيان إعجاز القرآن للخطابى (۳) إعجاز القرآن للرافعى ۲۳۷ (۴) المرجع نفسه و الصفحة إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۸۲ و تفتحت مداركه لا يقف عند نهاية ما أودع اللّه فى القرآن من معان، حتى إذا عاد ذلك الشخص إلى القرآن مرة أخرى وجد جديدا مما لم يجده من قبل و كأن اللّه سبحانه يتألفه بما أعطاه من قبل ليعود فيجد الجديد الذى يمنح بالتأمل، و الناس كلهم يستوون فى هذا المنح المتجددة بكثرة التردد و كأن اللّه سبحانه أعطاهم فى البداية ليتألفهم.

إعجاز النظم عند الرافعى:

إعجاز النظم عند الرافعى: هذا ما يظهر فيه اجتهاد الرافعى أكبر من تأثره، و مع أن النظم من وجوه الإعجاز التى قيل بها منذ الجاحظ، مع تفاوت بين العلماء فى تفسير ذلك الإعجاز الذى يحدث بالنظم فإن الرافعى اجتهد فى هذا، و أضاف ما يذكر له و لا سيما عند حديثه عند جزئيات النظم و الأداء الصوتى و تأثيره. فهو يرى أن للنظم جهات ثلاثة هى الحروف و الكلمات و الجمل، ثم يسعى إلى تفسير الإعجاز فى هذه الأمور واحدة بعد الأخرى:

[اعجاز النظام الصوتى]

[اعجاز النظام الصوتى] ۱- الحروف و أصواتها: و يبدو أن الرافعى تجمع لديه ما تناثر عند القدماء من تأثير الصوت، و أن من الحروف ما يتآلف و منها ما يتنافر، ثم أعمل حسه و فكره فى الأثر الذى يحدثه استماع القرآن لأول مرة عند الناس جميعا فيما سماه بالصدمة الأولى للنفس العربية و التى تحدث من تلقيها لحنا موسيقيا لم تعهده فى لغتها، و هو فى إحساسه بتميز القرآن يعتمد على ضرب من الموازنة الذاتية المتكررة، يقول ":كان العرب يترسلون أو يسرعون فى منطقهم كيفما اتفق لهم لا يراعون أكثر من تكييف الصوت دون تكييف الحروف التى هى مادة الصوت، فلما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه فى كلماته و كلماته فى جملة ألحانا لغوية رائعة كأنها لائتلافها و تناسبها قطعة واحدة قراءتها هى توقيعها. "و هذه العبارة تثير عدة أسئلة هل يمكن تكييف الصوت دون تكييف الحروف حتى يتفق للرافعى ما وصف به المنطق العربى، و هل كان يقصد تميز القرآن إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۸۳ بتنسيق حروفه فى كلماته و تنسيق كلماته فى جملة؟ فلعل الرافعى كان يقصد بهذه العبارة المجملة تميز القرآن بميزتين: الأولى: ترتيب حروفه ترتيبا خاصا يراعى فيه المخارج و الصفات و توزيعها توزيعا يحدث نوعا من الإيقاع المشعر بالمعنى و المعين على التوصيل، و قد عاد الرافعى إلى هذه الميزة فذكرها بشكل أوضح كما سيأتى، و أفاد منها الشيخ عبد اللّه دراز دون نسبتها إلى الرافعى. أما الميزة الثانية فهى التوازن الصوتى أو الإيقاع المتزن أو ما سماه الرافعى بالألحان اللغوية الرائعة و التى لا تظهر إلا من قراءتها بطريقة خاصة، فيجب مراعاة قواعد الأداء و التجويد من مد و إدغام و إخفاء و إظهار و تفخيم و ترقيق و قلقلة .. إلخ. و يبدو أن إحساس الرافعى بهذه الخصوصيات الصوتية كان غائما، أو أنه خشى أن تكون هى كذلك، فسعى إلى إزالة الإبهام مرة بعد مرة حتى تراه يلجأ إلى الموازنة الأدائية الصوتية بين آيات من الذكر الحكيم و قطعة من النثر الفصيح يردد هذه تارة و يتلو تلك تارة أخرى و هو يتنصّت للفروق، و كان يحاول أن ينهض بقطعة النثر الفصيح فيتلوها على طريقة التجديد فما يزيدها ذلك إلا ضآلة عن الذكر الحكيم. و لا أستبعد أن يكون كثير ممن بحثوا فى الإعجاز قد مارسوا تلك التجربة لكنى لا أذكر فيما أعلم أن أحدا سجل تلك التجربة كما سجلها الرافعى يقول ": و أنت تتبين ذلك إذا أنشأت ترتل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة تلاوة القرآن مما تراعى فيه أحكام القراءة و طرق الأداء، فإنك لا بد ظاهر بنفسك على النقص فى كلام البلغاء و انحطاطه فى ذلك عن مرتبة القرآن «"۱». و يبدو أن الرافعى، ما توسل بهذه التجربة فى الموازنة الأدائية الصوتية إلا لصعوبة ضبط الفروق و تشخيصها و رصدها رصدا علميا، و لهذا نجده مثل كثير من الباحثين فى الإعجاز يتحول إلى الأثر المقصود و الذى يشعر به مترتبا على توزيع الحروف و تنويعها عند مراعاة طرق الأداء الصحيحة، يقول ":فلو اعتبرنا

(_____ ۱) إعجاز القرآن للرافعى: ۲۴۴

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۸۴ ذلك فى تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها فى هز الشعور و استثارته من أعماق النفس، و هو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربى أو أعجمى حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ و الإلحاد لتلين قلوبهم و تهتز عند سماعه لأن فيهم طبيعة إنسانية «۱» و لأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية التى خلقت فى نفس الإنسان «"۲». و قد حاول الرافعى أن يكون حديثه عن إعجاز الأداء الصوتى أكثر تحديدا لكنه كان ما يزال مطلقا غير مقيد بالشواهد الكاشفة و تنحصر وجوه ذلك الإعجاز فى وجوه: الأول: ترتيب الحروف و توزيعها ترتيبا و توزيعا خاصا يراعى فيه صفات الحروف و مخارجها على نسب معينة يجعل المستمع يشعر ببلاغة الصوت- عربيا كان أم أعجميا بشرط الالتزام بقواعد الأداء و التجويد المعروفة للقرآن، فلذلك أثره فى إسناد الحروف و إفضاء بعضها إلى بعض فى انسياب و انسجام. الثانى: الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن و التى تعد صورا تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى، و هى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت و الوجه الذى يساق عليه «۳» و تراها أكثر

ما تنتهى بالنون و الميم و هما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها أو بالمد و هو كذلك طبيعى فى القرآن، و ختم الفواصل بحروف المد و اللين و إلحاق النون للتمكين فى التطريب كما قال سيبويه: إن العرب إذا ترنموا ألحقوا الألف و الياء و النون .. فإذا لم تنته الفاصلة بواحدة من هذه كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة و تقطيع كلماتها و مناسبة للون المنطق بما هو أشبه و أليق بموضعه، و يغلب هذا فى الجمل القصار بالحروف القوية التى تستتبع القلقلة أو الصفير و نحوهما (_____. ۱) و لعل الرافعى يقصد بهذا تفسير كون القرآن معجزا للعرب و لغيرهم. (۲) إعجاز القرآن للرافعى ۲۴۴ (۳) يحتاج هذا الكلام إلى شرح من متخصص فى قواعد الموسيقى و يبدو أن الرافعى استعان بالمختصين فى هذا الفن كما استعان بمصطلحاتهم و لغتهم. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۸۵ الثالث: طريق الاستهواء الصوتى و هو الأثر الذى يترتب على ذلك التوزيع و الترتيب و على مراعاة تلك الفواصل، و هذا الأثر طبيعى فى كل نفس و كان الرافعى شديد الاعتداد به فى عده من أبرز وجوه الإعجاز "فهى «۱» تشبه فى القرآن أن تكون صوت إعجازه الذى يخاطب به كل نفس تفهمه و كل نفس لا- تفهمه، ثم لا يجد من النفوس فى كل حال إلا الإقرار و الاستجابة، و لو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذى يطمع فيه أو فى أكثره. و هذه العبارة تدل على أن الرافعى كان يرى فى الإعجاز الصوتى رأس وجوه الإعجاز؛ لأنه الوجه الذى يجعل القرآن معجزا لسائر الأجناس "و لو نزل القرآن بغير هذا الوجه الصوتى لما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة إلى أهل اللغات الأخرى «"۲»». و فى هذه العبارة اتجاه واضح إلى حصر الإعجاز فى الأداء الصوتى بالنسبة لغير العرب و هذا قول لا يسلم به؛ لأن الناحية الصوتية وجه من وجوه الإعجاز و لا ينحصر الإعجاز فيها حتى و لو كان ذلك لغير العرب لأن القرآن معجز بمعانيه و مبانيه و هناك الكثيرون ممن دخلوا فى هذا الدين و لم يسمعوا آية واحدة من القرآن و لكن لمجرد أنهم قرءوا معانيه المترجمة إلى لغاتهم. و الرافعى لا يرى لإعجاز النظم الصوتى أو ما سماه أحيانا ببلاغة النغم تعليلا- غير تساوق الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم بالهمس و الجهر و القلقلة و الصفير و المد و الغنة و نحوها، ثم اختلاف ذلك فى الآيات بسطا و إيجازا و ابتداء وردا و تكريرا، و هذا لا ينضبط بحركات و سكنات كأوزان الشعر، و لا يضبط بمقاطع الكلمات التى تجرى فيها الألحان و لا إلى أصوات الحروف كما فى كلام العرب أحيانا، و لكن للقرآن خصوصية فى ترتيب و توزيع حروفه ذات الصفات و المخارج الخاصة ترتيبا و توزيعا يؤدى إلى الاستهواء النفسى بما فيه من انسياب و سلاسة، ناهيك عن قواعد الترتيل و التجويد و ما يترتب عليها من جهر (_____ ۱) يقصد طريقة الاستهواء الصوتى .. إعجاز القرآن ۲۴۷ (۲) نفس المرجع و الصفحة إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۸۶ و همس و قلقلة و صفير و مدّ و غن، و اختلاف ذلك فى الآيات على طرق معينة لا تنفك عن ارتباطها بالمعنى، فذلك لا شك مما يتميز به القرآن الكريم. و قد أصاب الرافعى رمية سديدة عند ما عول فى إعجاز النظم الصوتى على ترتيب و توزيع حروف الكلمة ترتيبا و توزيعا خاصا يراعى فيه مخارج و صفات الحروف بما يؤدى إلى الانسياب و السهولة فى نطق الكلمات متواليات فضلا عن الاستهواء النفسى. و خلاصة هذا أن الرافعى يرى إعجاز النظام الصوتى فى القرآن يكمن فى: ۱- توزيع حروف الكلمة و الكلمات المجاورة لها على أعضاء النطق توزيعا خاصا أو ترتيب و توزيع الحروف ذات الصفات و المخارج الخاصة توزيعا و ترتيبا يؤدى إلى التوازن و الانسجام و السهولة و ما يترتب على ذلك من استهواء نفسى. ۲- قواعد التلاوة التى تراعى المد و الإدغام و الإخفاء و الإظهار و الغن و الجهر و الهمس و القلقلة ... إلخ فإن مراعاة هذه القواعد يؤدى إلى نفس النتيجة أى التوازن الذى يحقق الاستهواء النفسى، و قد عبر الرافعى هذه الفكرة دون تفصيل أو استشهاد. تحريك فكرة الرافعى و الإضافة إليها: لا يستطيع أحد أن يجادل فى أن النظام الصوتى فى القرآن من وجوه إعجازه، و قد سبق أن الرافعى يرى من إعجاز النظام الصوتى ترتيب و توزيع الحروف ذات المخارج و الصفات الخاصة ترتيبا و توزيعا يؤدى إلى السهولة و الاستهواء النفسى، و هذه الميزة تحدث من ذلك التوزيع مع مراعاة قواعد التلاوة من مد و غن و تفخيم و

ترقيق و جهر و همس و إدغام و إخفاء و إظهار .. إلخ. و من يتتبع كثيرا من آيات القرآن الكريم يجد توزيعا متعادلا للحروف على مخارجها، فلا يهجر مخرج و يركز على آخر و إنما تتابع الحروف على المخارج تتابعا متسلسلا من بداية الحلق و المنطقة الوسط حتى الشفتين فى حل و ترحال عجيب. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۸۷ و أقصد بالحل و الترحال هنا تنقّل الحروف بين أول المخارج و هو الحلق و مرورا ببعض أعضاء النطق التى تليه حتى تصل إلى آخر محطات المخارج و هى الشفتين، ثم عودة إلى بداية الرحلة و تكرار ذلك، و قد ينعكس خط سير الحل و الترحال فيبدأ من الشفتين حتى يصل إلى منطقة الحلق ثم يعود مرة أخرى إلى الشفتين ليبدأ بها مرة ثانية و ربما كانت البداية من منطقة وسط بين الحلق و الشفتين أو منطقة قريبة منهما. و قبل المضى فى ضرب الأمثلة الكاشفة أنبه على أن ما سبق يقتضى علما بالحروف التى تخرج من أول المخارج نطقا و هى حروف الحلق (الهمزة و الهاء و العين و الحاء و الغين و الحاء) و آخر أعضاء النطق و هما الشفتان اللتان يخرج منهما حروف الباء و الميم و الواو، و ليكن ما بين المخرجين مناطق وسط تقرب من الحلق أو تقرب من الشفتين، و لسنا بصدد التحديد الدقيق لمخارج تلك الحروف التى تخرج ما بين الحلق و الشفتين، و إنما نسعى فى هذا السياق إلى معرفة كيفية توزيع الحروف على مخارجها فى شواهد من القرآن الكريم، و بما ذا تتميز به؟ فى محاولة محدودة ببعض الشواهد. خذ مثلا قوله تعالى: (وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ) [الحاقة: ۱۷] و أعد قراءتها تشعر كأنك تصعد إلى أعلى و تترقى فى الصعود، و تلمس توازنا إيقاعيا يسهم فى هذا الشعور و أنه لا يعود إلى حسن نظم الكلمات و ترتيبها ترتيبا خاصا فحسب، و إنما يعود قبل هذا إلى التوزيع الداخلى لأصوات الكلمة و حروفها على مخارج الحروف توزيعا متعادلا متوازنا بحيث تجد تنقلا من الشفتين و اللسان و وسط الحنك إلى الحلق و أقصاه على الترتيب من الواو إلى الحاء فى (و يحمل) ثم عودة إلى الشفتين و مرورا بالمنطقة الوسط حتى نصل إلى الحلق من (الميم و اللام و العين) فى (و يحمل عرش) ثم عودة عكسية مرتبة للمخارج من أول العين يليها الراء و الشين و الراء حتى الشفتين حيث الباء فى (عَرْشَ رَبِّكَ) ثم عودة ثانية إلى وسط و سقف الحنك مع الكاف و ارتداد إلى الشفتين مع الفاء و الواو فى (فوقهم) ثم رجوع إلى الحلق مرورا بالقاف حتى الهاء، ثم قفزة من الحلق إلى إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۸۸ الشفتين فى الميم، و هكذا ترى انتقالات متكررة و ترى الحروف ما بين كرّ و فر بين بداية المخارج و نهايتها من الحلق إلى الشفتين ثم رجوع إلى الحلق ثم عودة إلى الشفتين مرورا بمحطات وسط بينهما فى توزيع متعادل بين تلك المحطات بحيث لا تجد تعثرا و لا إرهاقا لمخرج من تلك المخارج، و لا ريب فى أن سهولة خروج الأصوات يستلزم سهولة فى تلقى الأذان. و هذا التوزيع لا يتعلق بالكلمة وحدها و إنما يرتبط بالنظم الذى أرجع العلماء الإعجاز إليه، لأن توخى ترتيب معين للكلام له ثمرات كثيرة جدا منها ذلك التوزيع المتوازن للحروف على أعضاء نطقها. انظر إلى قوله تعالى: (أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). تجد توزيعا متوازنا يدور بين بداية المخارج و نهايتها فيما يشبه الحل و الترحال، إذ يبدأ أول حرف من أقصى الحلق (الهمزة) يليه حرف من الشفتين هو الفاء. تليها رحلة أخرى بثلاثة حروف تبدأ بالحاء الحلقية و تنتهى بالباء الشفوية مرورا بالسين التى تخرج من منطقة قريبة من الشفتين. يلى ذلك رحلة عكسية من الشفتين تبدأ بالميم الشفوية التى اتخذت من التاء القريبة منها وصلة إليها فى (تم) من نهاية الفعل (حسبتم) و تنتهى للهمزة الحلقية فى (أنما) دون وسائط بينهما. تليها رحلة عكسية أخرى من تلك الهمزة الحلقية إلى الميم الشفوية مرورا بالنون القريبة من الميم فى (أنما). يلى ذلك رحلة عكسية أخرى من الحاء الحلقية فى أول الكلمة إلى الميم الشفوية فى نهايتها من (خلقناكم) و إنما تعددت محطات المخارج الوسط هنا بين البداية و النهاية للإشعار بمراحل الخلق و إعجاز القدرة فيه. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۸۹ يلى ذلك رحلة أخرى تبدأ بالعين الحلقية و تنتهى بالباء الشفوية دون وسائط بينهما فى (عبثا). تليها رحلة عكسية تبدأ من الواو الشفوية التى مهد لها بالثاء المنونة تنوينا مدغما و تنتهى بالهمزة الحلقية من غير وسائط بينهما فى (و أنكم) و قد جرت العادة عند الرحلة العكسية التى تنتهى رحلة قبلها بحرف شفوى لتبدأ هى بحرف شفوى أيضا أن يكون هناك فاصل بينهما فى الغالب كالفاصل هنا بحرف الثاء المنون فى (عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ) «۱». و تابع أنت هذه الرحلات بين أول

المخارج و نهايتها على ضوء ما سبق لترى تتابع رحلات الحروف المنتظمة بين أول المخارج و آخرها فى تعادل و توازن عجيب لا يمكن إلا- أن يكون بترتيب العليم الخبير. و من عجائب توزيع الحروف الذى تراه يخالف ظاهرة الحل و الترحال ما تراه فى بدايات بعض السور و خصوصا تلك التى تبدأ بالحروف المقطعة كما فى بداية سورة البقرة و آل عمران و المائدة مثلا، فالبقرة و آل عمران تبدءان ب "الم "مع مراعاة النطق الكامل للحرف فليس هو حركة واحدة تنطق و إنما هى حروف تنطق نطقا كاملا مع مراعاة قواعد التجويد فيما يمد و ما لا يمد و كأنها ثلاث كلمات صغيرة، و اللافت هنا أنه يبدأ من الحل بالهمزة التى تخرج من الحلق إلى الفاء الشفوية مرورا باللام القريبة من منطقة الشفتين و ذلك فى الألف وحدها، أما اللام فتبدأ قرب الشفتين (من طرف اللسان مع اللثة بمساعدة هواء يخرج من جانبى اللسان) حتى تصل إلى الشفتين اللتين تنطبقان فى نهايتها انطباقا تاما (لام)، أما الميم فتبدأ من الشفتين و تنتهى بهما، فتجد فى النطق لهذه الحروف المقطعة الثلاثة أنها بدأت بالحلق و لم تعد إليه بينما ترددت على الشفة "نهاية الرحلة" ثلاث مرات أو أربع مرات مرة مع الهمزة و مرة مع اللام و مرتين مع الميم، و ذلك راجع إلى طبيعة هذه الحروف و ارتباطها بمناطق خروجها (_____. ۱) أما عند بداية الرحلة و مع بداية الآية فقد نجد تلك البداية بحرفين أو ثلاثة من مخرج واحد كقوله تعالى: (فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ) فالفاء و الباء و الميم كلها حروف شفوية و انضمامها على هذا النحو مع خفة نطقها من أسرار القرآن، و هى تشعر بقرب رحمة اللّه سبحانه من عباده و من رسوله صلى اللّه عليه و سلم خاصة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۹۰ و لكن اللافت أكثر من هذا ما يعقب تلك الحروف المقطعة من قوله تعالى (ذلِكَ الْكِتابُ) إذ نجد خمسة أصوات مخارجها من مناطق قريبة من الشفتين تظل تقترب شيئا فشيئا من الشفتين حتى تصل إليها بواسطة الباء الشفوية، و لعل فى هذا إشارة على أن ذلك الكتاب الذى بلغ الغاية فى الكمال نظما و تأليفا هو من جنس تلك الحروف المقطعة «۱»، و حتى يشعر المستمع بهذا المعنى اقتربت الحروف المقطعة مع ما يليها فى المخارج الشفوية و القريبة منها و التى هى أيسر نطقا من غيرها للتأكيد على مماثلة حروف الكتاب الكريم لحروف كلماتهم، و ذلك أوقع فى التحدى، و أقوى فى الإشعار بأن تحدى القرآن ليس بحروفه التى يملكونها، و لكن بكيفية تشكيل و ضم تلك الحروف، فهذا استدراج للتفكير فى أمر ذلك الكتاب. و إذا كان ما سبق فى أول البقرة شاهدا على غلبة الحروف الشفوية و ما يجاورها لتسهم بأصواتها فى الإشعار بمعنى خاص فإننا قد نجد غلبة الحروف الحلقية و ما يجاورها و قلة الشفوية كقوله تعالى: (وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا). فتجد التركيز فى هذه الآية على منطقة الحلق و ما يجاورها لا سيما حروف الحلق التى كثرت كثرة لافتة تدعو إلى التوقف و التأمل، مع تردد حرف القاف و الراء و هاء الاستراحة و هو الضمير المتصل فى فعلين متواليين (فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ) ثم تردد حرف العين (عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ) و عودة إلى هاء الاستراحة فى (وَ نَزَّلْناهُ) و الهاء تحتمل فى البناء (و تقبل بسهولة) للينها و هشاشتها كما يقول الرازى نقلا عن الخليل [نهاية الإيجاز ۱۲۱] و الهشاشة هنا من هشّ لفلان أو هششت به إذا خففت إليه و ارتحت له. أما تردد القاف و العين فلأنها "لا- تدخلان فى بناء إلا- حسّيناه؛ لأنهما أطلق الحروف، أما العين فأنصع الحروف جرسا و ألذها سماعا، و أمتأمتن القاف فأقواها قرعا، و أشدها بعدا، و أجهرها صوتا، و أفخمها نفخا، و أبعدها مخرجا، و أشجاها نبرة، و أرقها حاشية، و أحسنها رنينا، و أحلاها فى السمع إذا تجاوبت أصداؤها فى الصماخ» (_____. ۱) أى ذلك الكتاب الذى يتحداكم و عجزتم عن مثل نظمه و تأليفه هو من جنس حروف كلامكم و ذلك أوقع فى التحدّى و أدعى إلى التفكير الذى يستدرجهم إلى أنه لا- يمكن إلا- أن يكون وحيا من لدن حكيم خبير. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۹۱ الحروف و أصحها جرسا فإذا كانتا هما أو إحداهما فى بناء حسن البناء لنصاعتهما «"۱». ثم تردد حرف الراء ابتداء فى (وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ) فقد تردد فى هذه الكلمات الثلاث المتجاورة و تردد معه حرف النون مرتين، و ذلك لأن الراء و النون من حروف الذلاقة التى تسهل فى النطق على اللسان «۲» هذا فضلا عن الإيقاع الذى تشعر به فى ترديد و قراءة هذه الآية، و قد نبه إليه بعض العلماء على أنه كإيقاعات الشعر لا سيما بحر الوافر، و لكن أيسر رد على هذا أن القرآن هنا لا يعد شعرا لأن بحر الوافر من ست تفعيلات لكن هذه الآية جاءت من

سبع تفعيلات، فليست ببيت من الشعر و لكنها قرآن صادف إيقاعه إيقاعا من إيقاعات الشعر من شدة الانسجام، بل أن الإيقاع الداخلى فى الآية أبلغ و أروع و أسلس لما سبق أن رأيناه من تردد حروف معينة يؤدى إلى ترددها إلى شيوع الخفة و اليسر و السهولة. و الغاية من كل هذا هو إشعار الأذن التى ترسل ذلك الإشعار للقلب بأن اللّه سبحانه يسر بلطفه ذلك القرآن و خلق فى النفوس قبولا له و ارتياحا لسماعه، و هذا مناسب جدا لمعنى الآية. و نخلص من هذا إلى أن أصوات حروف القرآن تتوالى بين الحل و الترحال أى بين الحلق و الشفتين فى ذهاب و إياب منتظم يستدعى القبول و يستفز الطرب و الارتياح النفسى، و قد نجد تركيزا على إحدى المنطقتين أى منطقة الحلق أو منطقة الشفتين لسر من الأسرار يرنو لأولى الأبصار عند التأمل المخبت. (_____ ۱) نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى ۱۲۰، ۱۲۱. (۲) انظر المصدر نفسه ۱۲۰، و يلفتنا أن الراء التى ترددت هنا مفخمة فى الكلمات الثلاث لأنها إما مفتوحة أو ساكنة و قبلها ضم، و هذا أى اجتماع خفة الحرف مع تفخيمه يسهم فى الإشعار بالمقصود هنا من تفخيم شأن الكتاب العزيز الذى يسر اللّه قراءته و تلاوته. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۹۲

إثبات التميز بالموازنة:

إثبات التميز بالموازنة: إن ذلك الذى تلاحظه فى الشواهد القرآنية السابقة من توزيع الأصوات على مخارج الحروف توزيعا خاصا يقصد به الإشعار لذوى الأبصار بمعان إضافية خاصة مؤكدة للمعنى الظاهر المتاح لكل الناس، يؤدى ذلك التوزيع إلى تسلسل الأصوات فى الكلمات و انحدارها فى يسر و تتابع مريح كانحدار حبات الندى من فوق الأوراق فى سهولة و ترقرق يأخذ بالألباب. و هذا من التميز الصوتى الذى يتأكد عند ما نوازن بين الآية السالفة (وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا) [الإسراء: ۱۰۶]. و توزيع الأصوات على المخارج توزيعا متعادلا فى هذه الآية ظاهر لكل ذوق بصير و قد سبق بيانه و هو يعطى للآية مذاقا و اتساقا خاصا يفوق ما يعطيه ذلك الانسجام الملموس من مجيء الآية على طريقة البحر الوافر و إن لم تكن شعرا لما سبق، هذه الميزة لا نجدها فى أى شعر جاء على بحر الوافر. خذ مثلا قول المتنبى من هذا البحر: و دهر ناسه ناس صغار و إن كانت لهم جثث ضخام و ما أنا منهم بالعيش فيهم و لكن معدن الذهب الرغام فلا تجد حل الأصوات و ترحالها بين الحلق و الشفتين على نظام خاص كما لاحظناه قبل فى تلك الشواهد القرآنية التى سبقت، و إنما نجد فى البيتين توزيعا للأصوات ليس له ضابط فقد تقصر المسافة بين الشفتين و الحلق كما بين الواو و الهاء من كلمة "و دهر "ثم تطول كما بين الهاء الحلقية فى "ناسه "و الواو الشفوية فى بداية الشطر الثانى "و إن " ..ثم تعود للقرب الشديد حتى لا تجد وسائط بينهما كما فى الهاء الحلقية و الميم الشفوية فى "لهم "و كما فى الواو و الميم فى بداية البيت الثانى (و ما أنا) و هكذا لا تجد نظاما واحدا تتعادل فيه الرحلات بين الحلق و الشفتين قصرا فقط أو طولا فقط كما نجد فيما عرضنا له من آيات كريمة، و مع أن توزيع الأصوات على مخارج النطق يخضع لنوع الحروف أو لأنواع الحروف التى تتشكل منها الكلمة ثم لتجاور الكلمات فإن هذا التوزيع نجد فيه تعادلا و انتظاما إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۹۳ عجيبا فى كلمات و تراكيب القرآن و هو سر من أسرار نظمه، و هى ميزة فيه لا- توجد فى الشعر. إن توزيع أصوات الكلمات القرآنية على مخارج النطق كان بمقدار دقيق، و له غاية هى الإشعار بمعان إضافية خاصة زائدة على المعنى المدلول عليه بالتركيب، أما توزيع أصوات الكلمات الشعرية فليس بمقدار و لا ضابط له و ليس له غاية محددة، فلا نشعر من وراء ذلك التوزيع بشىء، و ما قد نلاحظه فى الشعر من جرس أو همس أو قوة أو رقة، فذلك لا يكون من توزيع الأصوات على مخارج النطق توزيعا خاصا و لكنه على قلته يكون من تردد حروف ذات صفات خاصة و هو غير مطرد فى الشعر. إن للشعر وزنه و قافيته ما يحقق له الإيقاع الذى يجذب الأسماع و قد يتوفر له ضرب آخر من الإيقاع الداخلى الناشئ من تشطير أو تصريع أو حسن جرس الحروف و لكن لا تتوفر له تلك الميزة التى نتحدث عنها و هى توزيع أصوات الحروف على المخارج توزيعا متعادلا- بحيث تجد رحلات منتظمة ما بين الحلق و

الشفتين و مرورا بمخرج وسط بينهما أو أكثر، و لا مجال للقول بأن للشعر من وزنه ما يغنيه عن تلك الميزة و تكفيه، أو أن ذلك التوزيع لأصوات الحروف على المخارج توزيعا متناسقا لا يجتمع مع الموزون من الكلام، فإن هذا مما لا يقال و لا يعتد به؛ لأن جملا من القرآن جاءت على بحور الشعر موزونة و قد تحقق فيها ذلك التوزيع، كما سبق في قوله تعالى: (وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا) [الإسراء: ۱۰۶]. و لعل هذا هو سر المجيء أحيانا في القرآن بنحو هذا ليكون إعجازا للشعراء مضاعفا حتى لا يجرى في وهم أحد منهم أن يأتي بمثل القرآن. عودة إلى إعجاز النظم عند الرافعي: سبق أن الرافعي يرى للنظم جهات ثلاث هي الحروف و الكلمات و الجمل، و سبق حديثه عن إعجاز الحروف و أصواتها و أنها تتبلور في التوازن الصوتي الناشئ من ترتيب الحروف ترتيبا خاصا يراعى فيه المخارج بحيث توزع تلك إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۹۴ الحروف توزيعا يحدث نوعا من الإيقاع، ثم التوازن الصوتي الناشئ من مراعاة قواعد التجويد و مراعاة توافق الفواصل، و ما يترتب على جملة تلك التوازنات من استهواء صوتي للنفس الإنسانية «۱». و لقد كان الرافعي شديد الاعتداد بمدخل الحروف و توزيعها على مخارج خاصة في تحقيق التوازن الصوتي الذي يعد من ضروب الإعجاز، لكن حديثه عن ذلك التوازن جاء مجملا و هو من الأهمية بمكان، لهذا رأيت تفصيله كما فهمته فيما يشبه الحاشية على فكرة الرافعي كما سبق آنفا. و كان الرافعي يرى أن ما يحققه التوازن الصوتي من استهواء يتميز في القرآن بالاعتدال، فلا يسرف على النفس و لا يستفرغ مجهودها، و إنما يقتصد في التأثير على الحس النفسي، و يرى أن هذه هي الحقيقة النفسية الوحيدة التي يمكن أن نجدها مطردة في أصول البلاغة الإنسانية و أنها لا تظهر في شيء من الكلام ظهورها في القرآن.

۲- إعجاز الكلمة:

۲- إعجاز الكلمة: أخذ الرافعي تحت هذا العنوان يصول و يجول حول فكرة القدماء التي عبر عنها ابن عطية عند ما ذكر أن الكلمة القرآنية من الدقة في موقعها بحيث لو نزعت كلمة ثم أدير لسان العرب على أحسن منها أو مثلها في تأليفها و موقعها و سدادها لم يتهيأ ذلك و لا اتسعت له اللغة «۲». و يرى أن التركيب القرآني هو الذي يجعل للكلمة مساقا و اتساقا حتى ترى الحركات الصرفية و اللغوية يهيئ بعضها لبعض و يساند بعضها بعضا حتى تجد الكلمة ربما تكون في كلام الناس ثقيلة و قد جاء في القرآن على أيسر ما يكون لأن الأحرف و الحركات قبلها قد امتهد لها طريقا، و جعل السياق لها مساقا «۳».

(_____ ۱) راجع من ۲۴۴ إلى ۲۴۷ إعجاز القرآن للرافعي. (۲) إعجاز القرآن للرافعي ۲۵۵. (۳) المرجع نفسه ۲۵۸. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۹۵

روم التراكيب:

روم التراكيب: يفهم من حديث الرافعي عن روح التراكيب أنه يقصد منها الميزة التي ينفرد بها القرآن في ضم كلماته في علاقات خاصة تبث الحياة في تلك المفردات، و هي الروح التي تسري في بناء الكلام فتنشئ نوعا من الصلات و العلاقات بين أجزائه مهما تعددت معانيه و تنوعت أغراضه، فهي سمة خاصة بالقرآن "لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن و بها انفرد نظمه و خرج عما يطيقه الناس، و بسببها انتفى التباين و التفاوت، و تعلق أجزاء النظم بعضها ببعض مهما تعددت الأغراض و تنوعت الوجوه التي يتصرف فيها في تلك الأغراض كالقصص و المواعظ و ضرب الأمثال «۱». و إنما وقع للبلغاء النقص من جهة التركيب، و التباين عند تعدد الأغراض أو الانتقال من معنى إلى معنى؛ لأنه ليس لكلامهم روح كروح النظم في القرآن، و هذه الروح يشعر بها المرء شعورا قويا كلما استمع إلى كلام العرب ثم استمع إلى القرآن، و يصل من خلال هذا إلى أن العرب أوجدوا اللغة مفردات فانية و أوجدها القرآن تراكيب خالدة. و الحق أن هذا الذي يتحدث عنه الرافعي ليس شيئا جديدا إلا في الألفاظ فالفكرة موجودة عند القدماء، و

حدیث الرافعی عنها بلورة لما سبق إلیه هؤلاء و لا سیما الباقلانی فی حدیثه عن بناء السورة القرآنیة و الروابط بین تراکیبها و حسن التخلص بین معانیها و أغراضها "فالقرآن علی اختلاف فنونه و ما یتصرف فیه من الوجوه الکثیرة و الطرق المختلفة یجعل المختلف کالمؤتلف و المتباین کالمتناسب، و هذا أمر عجیب تبین به الفصاحة، و تظهر به البلاغة، و یخرج معه الکلام علی حد العادة «"۲».

(_____ ۱) نفسه بتصرف ۲۸۰. (۲) إعجاز القرآن للباقلانی ۳۸. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۹۶

غرابة الأوضاع الترکیبیة:

غرابة الأوضاع الترکیبیة: و هذا من إعجاز النظم، و للرافعی فیه کلام لم أفهمه إلا بعد أن استدعیت أساس فکرته عند القدماء و رأیت کیف أخذها الرافعی و سلخها و غیر خلقتها لکنه لم یستطع أن یبدل لحمها و عظمها، یقول ":و هذا أمر دقیق لا بد لنا من طلب وجهه لأنه شطر الإعجاز، ذلک أنک حین تنظر فی ترکیبه لا- تری کیفما أخذت عینک إلا وضعا غریبا فی تألیف الکلمات و فی مساق العبارة بما یجعلک تقطع أن هذا الوضع و هذا الترکیب لیس فی طبع الإنسان "۲۸۲ إعجاز القرآن. و هذا الکلام عام و لا یفهم منه غیر خصوصیة التراکیب القرآنیة و ظهور الطابع الإلهی فی نظم کلماتها، ثم یقول بعد هذا و هو بصدد الموازنة النظریة ": و لو ذهبت تفلی کلام العرب من شعر شعرائهم و رجز رجازهم و خطب خطبائهم و حکمة حکمائهم و سجع کهانهم علی أن تجد ألفاظا فی غرابة ترکیبها (التی هی صفة الوحی) کألفاظ القرآن، و علی أن تجد لها معانی کهذه المعانی الإلهیة التی تکسب الکلام غرابة أخری یحس بها طبع المخلوق و یعتریه لها من الروعة ما یعتری لما وجدت إلا لغة و أوضاعا و معانی إنسانیة «"۱». و قد حذفت بعض الکلمات حتی یتصل أول الکلام بآخره علی نحو یمکننا من السیطرة علی المقصود، و المهم بعد هذا ما ذا کان یقصد الرافعی بغرابة الأوضاع الترکیبیة التی لا نظیر لها فی نثرهم و لا فی شعرهم، و التی یشعر بها و بمعانیها الإلهیة کل مخلوق فتعتریه الروعة و المهابة؟. کان یقصد بذلک خروج النظم القرآنی عن المألوف من خطبهم و حکمهم و سجعهم و شعرهم خروجا یستدعی غرابة و دهشة المستمع، حتی لا تجد مفرا من التسلیم بأن هذا الذی لا أثر فیه للطابع البشری لا یکون إلا من عند اللّه سبحانه. و استمد الرافعی فکرته تلک من بین فکرتین: إحداهما للرمانی عند حدیثه عن وجه من وجوه الإعجاز العشرة عنده و هو نقص العادة إذ یقول ":فإن العادة

(_____ ۱) إعجـــــاز القرآن للرافعی ۲۸۳.

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۹۷ کانت جاریة بضروب من أنواع الکلام معروفة: منها الشعر و منها السجع و منها الخطب و منها الرسائل و منها المنثور الذی یدور بین الناس فی الحدیث، فیأتی القرآن بطریقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة فی الحسن تفوق به کل طریقة «"۱». أ لیست هذه هی غرابة تراکیب القرآن و مجیئها علی خلاف ما عرف العرب من طرائق کلامهم و نثرهم و شعرهم ... إلخ. أما حدیث الرافعی عن أثر تلک الغرابة فی النفس الإنسانیة التی یعتریها من الروعة ما یعتریها فهو قول الخطابی عن وجه من وجوه الإعجاز ":و ذلک صنیعه بالقلوب و تأثیره فی النفوس فإنک لا تسمع کلاما غیر القرآن منظوما و لا منثورا إذ قرع السمع خلص له إلی القلب من اللذة و الحلاوة فی حال و من الروعة و المهابة فی أخری ما یخلص من القرآن «"۲». و هکذا کانت للرافعی قدرة علی أن یسلخ أفکار العلماء من ألفاظها و یعید صیاغتها، و لو أبقاها علی صیاغات السابقین لکان أیسر لها و أجدی؛ لأنه أراد أن یصبغها بفصاحته التی بالغ فیها حتی استحالت تعقیدا فی بعض الأحیان. و یخلص الرافعی إلی تسمیة القرآن بالمعجم الترکیبی لأن العرب أوجدوا اللغة مفردات فانیة و أوجدها القرآن تراکیب خالدة، و أن لهذه اللغة معاجم کثیرة تجمع مفرداتها و أبنیتها و لکن لیس لها معجم ترکیبی غیر القرآن، و لأن القرآن أصل فنون البلاغة کلها فما یکون فی المنطق العربی نوع بلیغ إلا- هو فیه علی أحسن ما یمکن أن یتفق علی جهته فی الکلام «"۳». و لکن یشعر المرء بحاجة هذه الفکرة إلی مراجعة؛ لأن تراکیب العرب موجودة، و تتردد علی ألسنة الناس و فی حلقات دروسهم من کلام العرب و کلام رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و

كلام الصحابة و أشعار العرب الفصيحة، أ ليست

(۱) ثلاث رسائل فی إعجاز القرآن ۱۱۱. (۲) ثلاث رسائل فی إعجاز القرآن ۷۰. (۳) إعجاز القرآن للرافعی ۲۸۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۹۸ هذه تراكيب عربية موروثة تربت عليها عقولنا و ألسنتنا كما تربت على تراكيب القرآن، لكن يبقى للتراكيب القرآنية خصوصيتها المعجزة، على ألا يدفعنا هذا إلى عد القرآن المعجم التركيبی الوحيد للغة العرب. هل وازن الرافعی موازنة موضوعية؟ كان الرافعی يشير كثيرا على تفوق القرآن و تميزه و انفراده بخصوصية ما بالقياس إلى كلام الناس لكنه تجنب الموازنة الموضوعية التی تثبت هذا التفوق بالدليل العلمی القاطع، بل تفتقر كثير من أفكاره على الأمثلة الكاشفة و الشواهد المحددة المقصودة، يقول فيما يشبه الاعتذار عن هذا ":لو ذهبنا نستقصی فی استخراج كل معنی على حدوده و جهاته و نستحمل النفس حاجة الشرح و التمثيل و الموازنة و التعديل لخرجنا منه إلى ما يستنفد العمر كله «"۱». و يبدو أن الباحث مهما تأهب و مهما شمر و مهما استعد بأدواته للبحث عن الإعجاز فإنه عند ما يواجه النص القرآنی ينعقد لسانه أمام هيبة القرآن و جلال معانيه و تسلسل كلماته و تراكيبه فلا يملك إلا أن يحوم و يصول و يجول بعيدا عن الهدف و يقول و يعيد و يزيد دون أن يصيب الرمية، و هذه تجربة الكثيرين و منهم الرافعی الذی يقول ":و إنك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن و نظم كلماته فی الوجوه المختلفة التی يتصرف فيها، و تقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضی فی وصفه حتی لا ترى فی اللغة كلها أدلّ على غرضك، و أجمع لما فی نفسك، و أبين لهذه الحقيقة غير كلمة الإعجاز «"۲ (

». ۱) إعجاز القرآن ۳۰۹ (۲) المرجع نفسه ۲۸۱ إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۹۹

المبحث الثانی الإعجاز و منهج البحث عن التميز عند الشيخ عبد اللّه دراز

اشارة

المبحث الثانی الإعجاز و منهج البحث عن التميز عند الشيخ عبد اللّه دراز نجد هذا فی كتاب "النبأ العظيم. "و لقد توخّی الشيخ دراز فی كتابه هذا الطريق الصحيح للكشف عن الإعجاز و ذلك بالبحث عما يتميز به الأسلوب القرآنی و لا يوجد فی كلام الفصحاء و إن كان ينقصه الاستشهاد الكافی الذی يبرز تميز الأسلوب القرآنی بميزة ما عن طريق الموازنة. و لقد كان هذا يقتضی منه عرض جملة من شواهد القرآن و شواهد من كلام الفصحاء ثم يردد النظر هنا و هناك ليخرج فی النهاية بما يتميز به القرآن و لا يوجد فی كلام الناس. لكنه كان يكتفی بالشواهد القرآنية و يفيض فی تحليلها و ينبه على ما فيها من أسرار من غير موازنة. مع اقتناعه الشديد بهذا المنهج فی الكشف عن الإعجاز بما يدعو إلى الدهشة. لكنه على كل حال وقف على خصائص للقرآن تدل على نظر طويل و على موازنة صامتة متأملة. و قدم لهذا كله بما يدل على قيام تلك الموازنة فی نفسه يقول ": كل من يرى بعينين أو يسمع بأذنين إذا وضع القرآن بإزاء غير القرآن فی كفتی ميزان. ثم نظر بإحدى عينيه أو استمع بإحدى أذنيه إلى أسلوب القرآن. و بالأخرى إلى أسلوب الحديث النبوی و أساليب سائر الناس. و كان قد رزق حظا من الحاسة البيانية و الذوق اللغوی فإنه لا محالة سيؤمن معنا بهذه الحقيقة الجلية. و هی أن أسلوب القرآن لا يدانيه شیء من هذه الأساليب كلها «"۱». و أظهر من هذا فی الدلالة على أنه مارس هذا المنهج قوله ":فإن كان السائل من طلاب الحق و انتهى من بحثه إلى حيث أشرنا فأبصر و سمع و قايس و وازن و ذاق و وجد فسوف يتقدم إلينا بكلمته الأخيرة «"۲». فهذه العبارة تدل بوضوح على رؤية الشيخ لمنهج الموازنة و أنه المنهج الجدير بالوصول إلى الحق فی معرفة الإعجاز. لكنه يشير إلى أن ذلك لا يدركه

(۱) النبأ العظيم ۹۳ مطبعة السعادة

۱۳۸۹ ه/ ۱۹۶۹ م. (۲) نفسه ۹۳. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۰۰ و لا يذوقه إلا من مارس الموازنة بنفسه و كانت له بصيرة و ذوق كما يبدو من قوله ":فأبصر و سمع و قايس و وازن و ذاق و وجد ... "إلخ. و لم يعرض لنا الشيخ دراز تجربته التطبيقية مكتفيا بالإشارة إليها. و مكتفيا بعرض ما انتهى إليه من نتائج تحدد ملامح الإعجاز و خصوصياته.

خصائص الإعجاز عند عبد اللّه دراز:

اشارة

خصائص الإعجاز عند عبد اللّه دراز: يرى الشيخ دراز أن الإعجاز إما أن يكون فى لغة القرآن و بيانه أو فى معانيه فيما سماه بالإعجاز اللغوى و الإعجاز العلمى. فالإعجاز اللغوى يتناول: - خاصية التأليف الصوتى. - و دقة التعبير عن المعنى سواء كان ذلك فى جزء من السورة أم فى بناء السورة كاملة أو فيما بين بعض السور. و فيما يتصل بخاصية التأليف الصوتى: يرى أن القرآن الكريم يتميز بالنظام الصوتى البديع الذى تتوزع فيه الحركات و السكنات و المقاطع و المد و الغن توزيعا متعادلا متوازنا يحدث ضربا من الإيقاع الأخاذ و اللحن المسيطر على كل نفس. و قد سمى هذا بالجمال التوقيعى. و كذلك ينشأ النظام الصوتى البديع عن اختيار الحروف ذات الصفات الخاصة، مع ترتيبها ترتيبا خاصا متوافقا مع المعنى. فحرف يصفر و حرف يهمس و ثالث يجهر، و آخر ينزلق معه النفس، و آخر يحتبس معه النفس حتى ترى توزيعا رائعا فى مجموعة من الحروف مؤتلفة مختلفة و قد سماه بالجمال التنسيقى. و الحق أنه لا تهم هذه التسميات و إنما يهمنا ما تحتها من ظواهر لا- سيما و أن جمال التنسيق سبب فى جمال التوقيع. فلا داعى لتسمية توزيع الحركات توزيعا متوازنا بالجمال التوقيعى. و تخصيص توزيع الحروف و ترتيبها بالجمال إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۰۱ التنسيقى؛ لأن كلا من توزيع الحركات و توزيع الحروف يجتمع عليها حسن تنسيق يؤدى إلى حسن توقيع. و المهم أن الشيخ دراز يرى بعد ذلك أن ذلك النظام الصوتى البديع نشأ عن سيطرة القرآن الكريم و أخذه بمجامع القلوب و جذبه لكل النفوس فى كل زمان و فى كل مكان حتى صار هذا من إعجازه و أسرار حفظه «۱». و مع أن الناس مولعون بتقليد ما يستحسنون، و يتنافسون فى ذلك إلا أنهم عجزوا عن تقليد القرآن؛ لأن فيه منعة طبيعية مستمدة من نظامه الخاص الفريد و التى كان منها ذلك النظام الصوتى المميز الذى توزع فيه الحروف و المقاطع توزيعا خاصا. ثم يذكر الشيخ دراز ما يدخل تحت الموازنة المجملة فى هذا الصدد فيقول ": و هذا النحو من التنظيم الصوتى إن كانت العرب قد عمدت إلى شىء منه فى أشعارها فذهبت فيه على حد الإسراف فى الاستهواء ثم على حد الإملال فى التكرير. فإنها ما كانت تعهده قط و لا- كان يتهيأ لها بتلك السهولة فى منثور كلامها سواء المرسل و المسجوع «"۲». خلاصة هذا أنه ربما أتيح للعرب فى أشعارهم هذا النظام الصوتى البديع على إسراف أو إملال، لكنه لا يوجد فى نثرها ... و من أجل هذا قال العرب أول ما سمعوا القرآن: إنه شعر؛ لأنهم وجدوا فى توقيعه هزة لم يجدوا شيئا منها إلا فى الشعر. ثم لما عادوا إلى أنفسهم قالوا: ما هو بشعر. و لما لم يجدوا له نظيرا عندهم و صفوه من جهة تأثيره و استحواذه على النفوس فقالوا سحر. و عن كيفية تعبير القرآن عن معانيه: يرى أن القرآن من هذه الناحية يتميز عن كلام الناس بالجمع بين نهايات الفضيلة على تباعد أطرافها و من ذلك: ۱- القصد فى اللفظ مع الوفاء بحق المعنى.

(_____ ۱) النبأ العظيم بتصرف ۹۷. ۹۸. (۲) نفسه ۹۶. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۰۲ ۲- خطاب العامة و خطاب الخاصة. ۳- إقناع العقل و إمتاع الوجدان. ۴- البيان و الإجمال.

۱- فالميزة الأولى:

۱- فالميزة الأولى: و هى القصد فى اللفظ مع الوفاء بحق المعنى: نادرة فى كلام الفصحاء. و لقد أجمع نقاد الكلام على أن أبرع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة فى الإيجاز مع الوفاء بحق المعنى إلا فى أبيات مفردة محددة من قصيدة أو قصائد معدودة و كذلك بالنسبة للكتاب و الخطباء. أما فى القرآن فقد اجتمعت الغايتان على التمام. فبيانه قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير. فلو قرأت آية أو قطعة تؤدى معنى فى كتاب اللّه ثم حاولت أن تسقط كلمة أو حرف أو تبدل كلمة بكلمة لما استطعت. يقول ابن عطية "لو نزعت منه لفظة ثم أدير مكانها على لسان العرب من أجل لفظة مثلها لم توجد «"۱».

۲- و الميزة الثانية: خطاب العامة و الخاصة:

۲- و الميزة الثانية: خطاب العامة و الخاصة: ففى كلام الفصحاء لكل طبقة من الناس مستوى يناسبهم من الكلام. و لا تستطيع أن تخاطب طبقتين كالأذكياء و الأغبياء بمستوى واحد أو بكلام واحد أما القرآن الكريم فإنه يخاطب فى كل آية أو مجموعة من الآيات كل المستويات و يجد كل مستوى ما يناسبه و كأنه هو المقصود. و الحق أن منبت هذه الفكرة عند الخطابى عند ما يقسم أجناس كلام الناس إلى مراتب متفاوتة و درجات فى البلاغة متباينة. فمنها البليغ الرصين الجزل، و هذه أعلى طبقات الكلام. و منها الفصيح القريب السهل و هذه أوسط طبقات الكلام. و منها الجائز الطلق الرسل، و هذه أدنى الطبقات. فهو يرى أن هذه المستويات فى كلام الناس مستقلة لا تتداخل، و لكل مستوى من الكلام طبقة من الناس.

(_____ ۱) النبأ العظيم ۱۰۸. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۰۳ لكن القرآن يتميز بأن الغرض الواحد فيه يأخذ من كل قسم حصة حتى انتظم له بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة و العذوبة «۱» و يعنى هذا أن القرآن الكريم يخاطب بالآية الواحدة كل المستويات. فيجد الخواص فيها بغيتهم من الفخامة. و يجد عامة الناس فيها طلبتهم من العذوبة.

۳- إقناع العقل و إمتاع الوجدان:

۳- إقناع العقل و إمتاع الوجدان: برع الشيخ دراز فى الكشف عن تميز القرآن بإقناع العقل و إمتاع الوجدان معا، و ذلك موازنة بما فى كلام الناس. فهاتان القوتان لا يمكن أن يوجدا معا فى كلام واحد. و إن وجدا معا فلا يمكن أن يكون ذلك بشكل متكافئ، إذ لا بد أن ترجح كفة على أخرى. و هذه هى الطبيعة البشرية التى لا تعمل فيها القوتان معا "الفكرية و الوجدانية "فى وقت واحد و بشكل متكافئ. و لا تجد أسلوبا واحدا يتجه اتجاها واحدا و يجمع بين يديك هذين الطرفين المتباعدين معا فى وقت واحد كما يسرى الروح فى الجسد و الماء فى العود الأخضر، فذلك ما لا تظفر به فى كلام بشر، و إنما تجده فى كلام اللّه سبحانه الذى لا يشغله شأن عن شأن. فهو القادر على أن يخاطب العقل و القلب معا بلسان. و أن يمزج الحق و الجمال معا يلتقيان و لا يبغيان. أ لا تراه فى فسحة قصصه و أخباره لا ينسى حق العقل من حكمة و عبرة، و فى معمعة براهينه و أحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق و ترقيق و تحذير و تنفير و تهويل و تبكيت. يبث ذلك فى مطالع آياته و مقاطعها و تضاعيفها. لكنى لست مع الشيخ دراز و هو يصف تلك القوتين المتباعدتين فيعنون لهما بإقناع العقل و إمتاع الوجدان أو إمتاع العاطفة كما فسرها بعد ذلك؛ لأن مسألة الإمتاع ليست هدفا للقرآن الكريم و لا وسيلة من وسائله. إن القرآن الكريم يسمو فى وسائله و فى غاياته فيخاطب العقل و يستهوى الوجدان سعيا إلى التأثير من جهة العاطفة. لأن العاطفة قد تكون عند كثير من الناس أقوى فتكون هى نافذة الوصول إلى الاقتناع العقلى. و حينئذ يكون الاستهواء الوجدانى وسيلة إلى الاستحواذ النفسى و العاطفى و يكون هذا من أهم

(_____ ۱)- بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث

رسائل ۲۶. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۰۴ النوافذ إلى تقبل العقل و اقتناعه. فالإنسان بطبيعته إذا أحب شيئا مال إليه و اقتنع به. أما إمتاع الوجدان أو ما سماه بحظ القلب. فليس مما يعنى به القرآن. و عد إلى قوله ":فى معمعة براهينه و أحكامه لا ينسى خط القلب من تشويق و ترقيق و تحذير و تنفير و تهويل و تعجيب و تبكيت و تأنيب .. إلخ «"۱». فالحق أن التشويق و الترقيق و التحذير و التنفير .. إلخ ليست من حظ القلب و لكنها من نتائج اعتماد القرآن على وسائل الاستحواذ النفسى و الاستهواء الوجدانى للتأثير و توجيه النفس الإنسانية وجهة معينة. و المهم أن خاصية الاستهواء الوجدانى تسير مع الإقناع العقلى بشكل متكافئ و فى خط متواز. و إن كنت أرى كما يرى أى متأمل أن بعض الأساليب القرآنية تعلو فيها نبرة الاستهواء النفسى. و أساليب أخرى تعلو فيها نبرة الإقناع العقلى مع وجود الخاصيتين معا. و ذلك يرجع إلى تفاوت المقامات و طبائع المخاطبين. و لعل الشاهد الذى أورده يشفع له. فلم يرد فيه إمتاع الوجدان و لا حظّ القلب. يقول ":اقرأ مثلا قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ [البقرة: ۱۷۸]- و انظر الاستدراج إلى الطاعة فى افتتاح الآية بقوله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) و ترقيق العاطفة بين الواترين و الموترين فى قوله: (أَخِيهِ) و قوله (بِالْمَعْرُوفِ) و قوله: (بِإِحْسانٍ) و الامتنان فى قوله: (تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ) و التهديد فى ختام الآية. ثم انظر فى أى شأن يتكلم؟ أ ليس فى فريضة مفصلة و فى مسألة دموية؟ و تتبع هذه الطريقة فى سائر آيات الأحكام حتى أحكام الإيلاء و الظهار «"۲».

(_____ ۱) النبأ العظيم ۱۱۰ (۲) النبأ العظيم ۱۰۹ بتصرف يسير إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۰۵

۴- البيان و الإجمال:

۴- البيان و الإجمال: هذه من السمات المميزة للتعبير القرآنى عن المعانى، فهو يجمع بين طرفى البيان و الإجمال فى اقتدار لا تجده فى كلام البشر. لأن الناس إذا عمدوا الى تحديد أغراضهم لم يكن التعبير محتملا الدلالة على غير ذلك الغرض. أو على حد تعبير الشيخ دراز ":إن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل «"۱». بل قد يذهب بعضه إلى الإلباس و الإبهام إذا عمد إلى إجمال غرضه. أما أن يجمل الغرض و تحدد العبارة ثم تجد من ورائها اتساعا فى المعانى و غزارة فى الدلالة المقصودة و المحتملة فذلك ما لا تجده فى كلام الناس. لكنه مطرد فى القرآن. و من مظاهر هذا ما تجده من تعدد الاجتهادات فى تفسير اللفظ الواحد عند جمهرة المفسرين. فذلك لا يعد اختلاف. و لكنها اجتهادات يتسع لها اللفظ القرآنى و يحتملها المعنى، بل إن الشخص الواحد يخرج بمعان شتى للعبارة أو الجملة الواحدة كلما تردد عليها بالتأمل. و يضرب الشيخ لذلك مثلا بقوله تعالى: (وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) [البقرة: ۲۱۲]. فإنك لو قلت فى معناها: إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه و لا سائل يسأله، لما ذا يبسط الرزق لهؤلاء و يقدره على هؤلاء؟ أصبت. و لو قلت: إنه يرزق بغير تقتير و لا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاد أصبت. و لو قلت: إنه يرزق من يشاء من حيث لا تحتسب و لا تنتظر أصبت. و لو قلت: إنه يرزقه بغير معاتبة و مناقشة له على عمله: أصبت. و لو قلت: إنه يرزقه رزقا كثيرا لا يدخل تحت حصر و لا حساب: أصبت «۲». و لكن بالرجوع إلى سياق هذه الآية أو الجزء من الآية تبين أنها تتحدث عن الرزق يوم القيامة للمتقين قال تعالى: (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَ يَسْخَرُونَ

(_____ ۱) نفسه ۱۱۰. (۲) راجع النبأ العظيم ۱۱۰، ۱۱۱ إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۰۶ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ) [البقرة: ۲۱۲]. و مع هذا تبقى تلك الوجوه التى ذكرها الشيخ دراز محتملة ما عدا الاحتمال الثالث و هو أن اللّه يرزق من يشاء من غير معاتبة له أو مناقشة على عمله. فذلك مستبعد و لا يمكن أن يكون يوم القيامة. إنما الرزق الذى يتحدث عنه

للمتقين: (وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ). على أن قابلية اللفظ القرآنى أو الجملة القرآنية لأوجه دلالية كثيرة مرهون بقابلية السياق، فالسياق هو الذى يحدد الوجوه المحتملة. و من ألفاظ القرآن ما لا تحتمل إلا وجها واحدا، و لو احتملت غيره لقدح ذلك فى معناها كآيات الأحكام من مثل قوله تعالى: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ وَ إِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ) [النساء: ۱۱]. فحسب تلك الآية القرآنية أنها أعطت سبعة أحكام فى الميراث فى أقل حيز عن طريق الألفاظ المحددة الدلالة. و مع ذلك فإن الآية لم تتخل عن المنهج القرآنى الذى يخاطب العقل و الوجدان معا. أما خطاب الفكر فواضح فى توالى تلك الأحكام. و أما خطاب الوجدان فظاهر فى صدر الآية و فى عجزها. فلم تبدأ الآية بقوله مثلا: فرض اللّه عليكم للذكر مثل حظ الأنثيين .. إلخ و إنما بدأت بتوصية اللّه سبحانه الآباء فى أولادهم. و من الواضح أن المقصود أقارب هؤلاء الأولاد الذين مات أبوهم لأن توزيع التركة (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) لا يكون إلا بعد موت الأب. فالخطاب إذن لأقرب الناس إليهم قائلا لهم ":يوصيكم اللّه فى أولادكم "أى عدوّهم أولادكم، و عدوّا أنفسكم آباء لهم بعد وفاة أبيهم برعاية مصالحهم و توزيع التركة عليهم حسب تشريع اللّه الذى شرعه فيهم. فهذه البداية تستثير عواطف الرحمة. ثم نجد قرب نهاية الآية قوله سبحانه: (آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً) و فيه تذكير بالموت، إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۰۷ ذلك المصير المجهول الذى لا يعرف أحد موعده لا أب و لا ابن بما يعنى مراعاة كلّ ربّه و استعداده لغده. أما قوله تعالى فى نهاية الآية (فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً) ففيه تحذير ظاهر من اتباع الهوى فى توزيع التركة. و بالعودة إلى خلاصة ما كان ينشده الشيخ عبد اللّه دراز و هو التنبيه على الخصائص التى يتميز بها البيان القرآنى و التى لا يوجد مثلها فى كلام الناس، يقول ":ها نحن قد عرضنا جانبا من تلك العجائب البيانية التى لا تنال مثلها أيدى الناس «"۱». و لقد كان صدر حديثه عن إعجاز القرآن و أهمية الموازنة لتحقيق هذا الإعجاز، كان حديثا مطمعا فى أن يمارس الموازنة التطبيقية بين آيات من القرآن و نصوص فصيحة من كلام الناس ثم يضع يده على الخصائص المميزة لأسلوب القرآن. لكنه لم يفعل. و مع هذا فإن حرارة حديثة و النتائج التى انتهى إليها تدل على أنها نشأت بعد خبرة طويلة و معرفة بخصائص كل، بل و تدل على موازنة صامتة أجراها الرجل فى نفسه، ثم قدم لنا نتائجها.

(_____ ۱) النبأ العظيم ۱۱۲. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۰۸

المبحث الثالث منهج سيد قطب فى البحث عن التميز و نظرية التصوير الفنى

اشارة

المبحث الثالث منهج سيد قطب فى البحث عن التميز و نظرية التصوير الفنى تبرز ملامح البحث عن الإعجاز عند سيد قطب فى كتابة "التصوير الفنى فى القرآن "لأنه كان يسعى فيه إلى الوقوف على ميزات التصوير فى القرآن، لكن الإحساس بالبحث عن عناصر التفرد و التميز كانت تعلو و تهبط عنده من فصل لآخر، فلا نستطيع أن نقول إن كتابه يدخل كله فى صميم البحث عن التميز، و إن كان سيد قطب قد قصد بكتابه الخروج بنظرية التصوير الفنى فى القرآن «۱» فإن منهجه لم يسعفه لتحقيق تلك الغاية بشكل كامل؛ لافتقاده إلى الموازنة الموضوعية التى تتأمل الصورة القرآنية فتستخرج منها الخصائص المميزة، ثم تبحث عن مدى تحقق تلك الخصائص فى شعر العرب و نثرهم، و مع ذلك فإنا نعنى بالبحث عن نواحى التميز عنده لأن عنده ما يدخل فى هذا الباب فى لفتات و إشارات متفرقة كانت تعكس تجربة خاصة فى الموازنة الذاتية و نظر طويل فيما يميز التصوير القرآنى، و لهذا يعد ما كتبه فى هذا المجال أساسا جيدا لكثير ممن كتبوا بعده فى خصوصية التصوير القرآنى، بل لقد طبق سيد قطب نفسه خلاصة ما ذهب إليه فى التصوير الفنى و ذلك فى تفسيره "فى ظلال القرآن "فعنى فيه بوسيلة القرآن الأساسية فى تقديم المعانى الدينية و الخلقية و التشريعية و هى التصوير الذى يقدم

المعانى بصورها الناطقة بها و التى هى أجدى و أقوى لتحقيق العظة و العبرة، و بهذا فإنه يستدرك فى الظلال ما قصر فيه وفاته كثيرا فى التصوير الفنى من الربط بين الوسيلة الأدائية و الغاية الدينية خضوعا لأهم خصوصية من خصوصيات التصوير القرآنية، فليست تلك الصورة القرآنية لغاية فنية خالصة و إنما تتجه كل طرق الأداء فى القرآن إلى تحقيق غايات نفسية و وجدانية و عقائدية و أخلاقية و إصلاحية، و كان سيد قطب يلامس المعنى الدينى الكامن فى الصورة القرآنية كثيرا و هو يتحدث عن الوسيلة الفنية و الأدائية و التى تدخل فى صميم الإعجاز- و إن لم يقصد الحديث عن تلك الغاية- و ذلك لشدة الارتباط بين الوسائل و الغايات فى

(_____ ۱) أى القواعد الأساسية التى يلتزمها التصوير القرآنى و التى تميزه و تخصه و لا توجد فى غيره. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۰۹ القرآن الكريم على نحو لا نجده فى أى أسلوب آخر، فالتصوير أو الجمال الفنى فى القرآن الكريم متميز متفرد و هو غاية فى ذاته باعتباره من ضروب الإعجاز و شكل من أشكال النظم القرآنى المعجز لكن التصوير فى الوقت نفسه وسيلة إذا قرن بالغاية الدينية التى تكمن فيه، فالتصوير القرآنى بهذا يكون غاية و وسيلة معا، لكن الإشكال عند سيد قطب أنه نظر للتصوير الفنى فى القرآن باعتباره غاية يقف عندها كما سيتبين عند حديثه عن تصوير الحالات النفسية و النماذج الإنسانية.

مكانة التصوير فى الإعجاز عند سيد قطب:

مكانة التصوير فى الإعجاز عند سيد قطب: يرى سيد قطب أن الجمال الفنى أو التصوير هو الأساس المطرد الخالد الذى اعتمد عليه القرآن فى المقام الأول فى توصيل معانيه و تأثيرها، و هو فى هذا مقدّم على الإعجاز بالآيات الكونية أو التشريعية أو الغيبية لأننا نجده فى سائر سور القرآن، و الدليل على هذا أن أول ما نزل من القرآن ابتداء بسورة العلق و المزمل و المدثر و القلم .. هذه السور لا نجد فيها شيئا من الغيبيات أو التشريع أو الآيات الكونية، و إنما نجد الصوت الأعلى فيها هو الاعتماد على الأسلوب و الجمال الفنى و التصوير «"۱». و لا شك فى أن الأسلوب هو المعول عليه فى الإعجاز و هو الإطار الذى يضم فى داخله كل وجوه الإعجاز التى ذهب إليها العلماء، لكن ليس لنا أن نتوسع فى مفهوم التصوير فنستعمله كاستعمال الأسلوب و نقول إنه المطرد الذى اعتمد عليه القرآن و ليس لنا أن نضع التصوير و الأسلوب معا فى مواجهة وجوه إعجازية أخرى فنقول إن الأسلوب و التصوير و الجمال الفنى مقدم على الإعجاز بالآيات الكونية أو التشريعية أو الغيبية لأن هذا الكلام يوهم أن هذا شىء و ذاك شىء، فالحق أن التشريع و الغيب و الحقائق العلمية إنما هى معان جاءت بأسلوب القرآن، فالأسلوب هو الإطار و هو النظم الذى يضم كل الوجوه و قد تجد الغيب مصورا بل قد نجد الحقائق التشريعية و العلمية مصورة، كقوله تعالى

(_____ ۱) راجع التصوير الفنى فى القرآن ۲۳، ۲۴. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۱۰ (وَ ابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَ لا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَ بِداراً أَنْ يَكْبَرُوا) .. الآية ۶ من سورة النساء. فهذه الآية تتضمن ضرورة ابتلاء و اختبار قدرة اليتامى على التصرف و تنمية هذه القدرة من قبل البلوغ بإشراكهم فى بعض الأعمال أو إسنادها إليهم على سبيل التدريب حتى إذا بلغوا سن النكاح و البلوغ تابع الوصى ذلك اليتيم و راقب تصرفاته، فإن آنس منه رشدا و صوابا دفع بماله إليه دون تردد. يفهم هذا من كلمة (حتى) فإنه لم يقل: و ابتلوا اليتامى إذا بلغوا النكاح بمعنى توقف الاختبار على بلوغ سن الرشد، و لكن يجب اختبارهم قبل ذلك حتى إذا بلغوا هذه السن صاروا قادرين على التصرف الراشد، و هذا يستلزم أن يدخل فى معنى الأمر (ابتلوا) إعداد اليتيم لهذا الاختبار بإعطائه فرصا من الأعمال التى يصبح بعدها مؤهلا- للاختبار- فدلالة (حتى) على الغاية يعنى أن ما قبلها مرحلة يقطعها فى طريق الابتلاء و الاختبار قبل الوصول إلى سن البلوغ، أ فليس هذا تصويرا بتلك الأداة الموجزة ثم إنه لم يقل: فإن آنستم منهم رشدا فأعطوهم أو مكنوهم من أموالهم و لكن قال: (فادفعوا) للإشارة إلى حزم الأمر و حسمه، و مقاومة ما قد تقع فيه نفس الوصى من تردد

أو إبطاء فی تمکین الیتیم من ماله بسبب ما من أسباب الطمع الذی یتخذ أشکالا من العلل و الحجج الواهیة. فالتعبیر بالدفع یجسم الفکرة و یکسوها قوة و حسما و قطعا، و هو بذلک یمهد للنهی المحذر فی قوله: (وَ لا تَأْکُلُوها إِسْرافاً وَ بِدارا أَنْ یَکْبَرُوا). و هذه صورة ثالثة فی أداء ذلک المعنی التشریعی، لأن المعنی لا تنفقوا من أموال الیتامی فی إسراف و إسراع قبل أن یکبروا و یستردوا أموالهم، فإن حدوث هذا ینطوی علی إثمین کبیرین: الأول الإسراف فی الإنفاق من مال الیتامی من غیر حاجة أو مع تجاوز الحاجة الضروریة، الثانی تعمد التعجل فی هذا قبل أن یأتی سن البلوغ الذی یخول للیتیم الحصول علی ماله، لهذا حذر اللّه سبحانه منه و عبر عن الإنفاق بلفظ الأکل خاصة لأنه یبرر الفعل فی أبشع صوره و هو استحلال ملء البطن بالحرام، فإنها صورة بشعة قذرة تشمئز منها الفطر السلیمة، إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۱۱۱ و ینفر منها أصحاب الطباع المستقیمة، و لهذا قال سبحانه فی آیة أخری فی السیاق نفسه (إِنَّ الَّذِینَ یَأْکُلُونَ أَمْوالَ الْیَتامی ظُلْماً إِنَّما یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَیَصْلَوْنَ سَعِیراً [النساء: ۱۰]. أ رأیت کیف تعددت وسائل التصویر فی أداء المعنی التشریعی الذی یتصور کثیر من الناس أنه یأتی بالألفاظ المجردة، و ذلک کله فی تصحیح عبارة "التصویر الفنی "و التی تضع الإعجاز التشریعی و الغیبی فی مقابلة الإعجاز التصویری و الأسلوبی، فالحق أن الأسلوب و التصویر إطار یدخل فیه کل ضروب المعانی سواء کانت غیبیة أو تشریعیة أو علمیة کونیة، و إنما ذهب سید قطب إلی ما ذهب إلیه من شدة اعتداده بالتصویر القرآنی.

وقفات نقدیة مع موارد التصویر القرآنی و ضروبه:

وقفات نقدیة مع موارد التصویر القرآنی و ضروبه: توسع سید قطب فی موارد التصویر القرآن و مجالاته، فیری أن فی القرآن تصویرا باللون، و تصویرا بالحرکة، و تصویرا بالتخیل، و تصویرا بالنغمة تقوم مقام اللون فی التمثیل، و کثیرا ما یشترک الوصف (الحقیقی) و الحوار و جرس الکلمات و نغم العبارات و موسیقی السیاق فی إبراز صورة من الصور تتملاها العین و الأذن و الحس و الخیال و الفکر و الوجدان. و قد سبق سید قطب النقاد المعاصرین فی عد الإیقاع من عناصر التصویر مهما کان مصدر هذا الإیقاع کالجرس فی الحروف و الکلمات و نغم العبارات و موسیقی السیاق فإن أحدا لا یجادل فی أن الجرس أو النغم أو الموسیقی فی الأسالیب توحی بجو المعنی و ترسم صورة له فی الحس و الخیال، و ذلک متحقق عند الأدباء الکبار فی أحوال خاصة عند شفافیة النفس و صدق الحس و تجلی الإبداع الشعری أو النثری، لکنه فی القرآن طبقة خاصة لا نظیر لها. و من ضروب التصویر اللافتة التی ذکرها تصویر الحالات النفسیة و النماذج الإنسانیة، و لعل هذا النوع من التصویر فی القرآن یستمد أهمیته من هدفه الذی یسعی إلیه القرآن و الذی یترکز فی الترغیب فی الفضیلة بتقدیمها فی صورها المجسدة المرغبة أو التنفیر من الرزیلة بتقدیمها فی صورة المنفرة إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۱۱۲ المجسدة، و هو علی کل حال یضرب علی الأوتار النفسیة متوسلا بما تمیل إلیه الفطرة الإنسانیة أو تنفر منه، و المتکلم سبحانه أعلم بنفوس عباده، علی أنه عند ما یقدم مواقف الناس من الدعوة إلی اللّه من خلال قصص الأنبیاء و عند ما یعرض لمواقفهم من الحق أو الباطل فإنه یقدم هذا من خلال النماذج البشریة التی تتحرک و تتحدث و کل هذا بأسلوب القرآن الذی یصور و یجسد و یترک للخصوم کی یتحدثوا بأمانة کاملة لا تغفل شاردة من أفکارهم و لکن بأسلوب القرآن حتی یشعر المستمع بنمط فرید قادر علی أن یحدد الملامح و یخلق التجاوب و یحقق الانفعال و یدفع لاتخاذ موقف محدد. و قد رکز سید قطب فی النماذج التی استشهد بها علی الألفاظ و الجمل التی تجسد المعانی تجسیدا یحقق شعورا معینا کالشعور بالخطر فی قوله تعالی: (وَ اذْکُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ إِذْ کُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِکُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ کُنْتُمْ عَلی شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَکُمْ مِنْها) [آل عمران: ۱۰۳]. یقول سید قطب "فهذه الصورة رسمها للمسلمین قبل أن یسلموا یوم أن کانوا معرضین لجهنم بما هم فیه من الکفر هکذا: (وَ کُنْتُمْ عَلی شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ) موشکین علی الوقوع، تکاد أقدامکم تزل فتهوون «۱». و یستوقفنا فی هذا السیاق أن سید قطب کان یعمد إلی استبعاد أمرین: الأول: النص علی نوع الصورة، مع أن هذا مهم لتعدد أنواع الصور کالتشبیه و الاستعارة و

الكنايـة و ذهـاب كـل نوع بطعم خاص و ميزة خاصـة و دور معين فى سياق خاص يكون هـذا النوع هو الأدق و الأصـدق دلالـة على المراد، لكن سيد قطب يقول ":و ليس المهم لـدينا فى هـذا المجال دقـة التشبيه و صـدقه، إنمـا المهمـة أولاـ هو هـذه الصورة القلقة المتحركـــة الموشـــكة فى الخيـــال على الزوال «"۲» يقصـــد قـــوله تعـــالى: (وَ كُنْتُـــمْ عَلى شَـــفا حُفْرَةٍ مِـــنَ النَّارِ).

(_____ ۱) التصوير الفنى فى القرآن ۴۶. (۲)

نفسه ۴۶. إعجاز القرآن و منهـج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۱۳ الأمر الثانى: الـذى عمد إلى تنحيته هو الغرض الدينى الكامن من وراء كل صورة حتى تكون دراسته خالصة للناحية الفنية كما يذكر، و الحق أننا لا ينبغى أبدا أن نفصل بين الوسيلة التصويرية و الغاية الدينيـة، و ما الأدوات التصويريـة فى القرآن إلا لغايات دينيـة، و بين هـذين الأمرين ارتباط شديد حتى نجد سيد قطب عند ما يعرض لقوله تعـالى: (وَ اتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ الَّذِى آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَـلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ وَ لَوْ شِـئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لكِنَّهُ أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) [الأعراف: ۱۷۶]. يعقب بقـوله ":و فى الصورة تحقير و تقـذير، و ذلك غرض دينى لا شأن لنا به هنا، و لكنها من الوجهـة الفنية صورة شاخصة فيها الحركة الدائبة و هى صورة معهودة، فهى فى تثبيت المعنى المراد بها أشـد و أقوى، و هكذا يلتقى الغرض الدينى بالغرض الفنى كالشأن فى جميع الصور التى يرسـمها القرآن" «۱». فتجده ينفى الغرض الدينى و يستبعده فى صدر عبادته ثم يثبته فى نهايتها؛ لأنه فيما يبدو لم يجد مفرا من التسليم و الرضوخ لواقع التصوير القرآنى الـذى ترتبط فيه الصورة بغايتها الدينيـة ارتباطا وثيقا بحيث لا تتبين قيمـة الصورة الفنية إلا بالكشف عن المعنى الذى تهدف إليه و الغرض الذى يكمن فيها. و الباحث المنصف حقا من لا يرى بأسا فى العودة للحق عند ما يلوح شعاعه، و لعل هذا يتجلى عنـد ما يقـدم الغاية الدينية على التحليل الفنى فى قوله ": و يريد- القرآن- أن يوضح حالة تزعزع العقيدة حيث لا يسـتقر الإنسان على يقين، و لا يحتمل ما يصادفه من الشدائـد بقلب راسـخ، و لا يجعل عقيدته بمعزل عن ملابسات حياته بعيدة عن ميزان الربح و الخسارة فيرسم لهـذا التزعزع صورة تهتز و تترنـح و توشـك على الانهيار: (وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُـدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصـــــابَتْهُ فِتْنَـــــةٌ انْقَلَـــــبَ عَلى وَجْهِـــــهِ خَسِـــــرَ الـــــدُّنْيا وَ الْـــــآخِرَةَ [الحـــــج: ۱۱].

(_____ ۱) التصـــوير الفنى فى القرآن ۴۵.

إعجـاز القرآن و منهـج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۱۴ فإن ما صـدر به الآيـة لا يخرج عن الغايـة الدينية التى تتبلور فى تحذير من يقيس دينه و يزنه بمقاييس الربـح و الخسارة. أما تحليل الوسـيلة الفنيـة و تأثير الجهـة التصويريـة فقـد جاء به بعـد الآيـة فى قوله ":إن الخيال ليكاد يجسم هـذا الحرف الـذى يعبـد اللّه عليه هـذا البعض من الناس، و إنه ليكاد يتخيل الاضـطراب الحسى فى وقفتهم و هم يتأرجحون بين الثبات و الانقلاب، و إن هـذه الصورة لترسم حالـة التزعزع بأوضـح مما يؤديه التزعزع؛ لأنها تتطبع فى الحس و تتصـل منه بالنفس "و المهم أن الغرض الـدينى هو الموجّه الأول للتصوير، و هو الذى يسـتدعى تكييف الصورة و تشـكيلها على نحو خاص. لقد كان سيد قطب يحاول فيما يبدو أن ينسجم منهجه فى التحليل مع الهدف الذى أعلن عنه من وراء تأليف كتابه "التصوير الفنى "و هو عنـده غايـة فنيـة خالصـة نابعـة من طريقـة القرآن فى التصوير كما كان يرى بداية، لكنه لم يلبث أن ربط بين الوسـيلة التصويرية و الغايـة الدينيـة خضوعـا لطبيعـة الارتبـاط بينهما. ثم عنـد ما عرض للقصـة فى القرآن نجـده يقول ":القصـة فى القرآن ليست عملا فنيا مسـتقلا فى موضوعه و طريقة عرضه و إدارة حوادثه .. إنما هى وسـيلة من وسائل القرآن إلى أغراضه الدينية «"۱». و لما كانت القصة القرآنيـة تعتمد اعتمادا أساسيا على التصوير الذى سبق أن أعلى من شأن الفن فيه وجدناه هنا يتراجع تراجعا صـريحا عند ما يذكر أن الجمـال الفنى أداة مقصودة للتأثير الوجـدانى فيخاطب حاسـة الوجـدان الدينيـة بلغـة الجمال الفنيـة و الفن و الـدين صـنوان فى أعماق النفس و قرارة الحس، و إدراك الجمـــــال الفنى دليـــــل اســـــتعداد لتلقى التـــــأثير الـــــدينى «۲».

(_____ ۱) التصـوير الفنى ۴۳ (۲) راجع ۱۴۴

المرجع نفسـه إعجـاز القرآن و منهـج البحـث عن التميز، النص، ص: ۱۱۵ و من مـوارد و ضـروب التصوير عنـده: التصوير المشـخص

لمشاهد الحوادث الواقعة و الأمثال المضروبة و القصص المروية «۱» و يمثل للأول بحادثة الأحزاب فى قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً [۹] إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا [۱۰] هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً) [۱۱] الآيات من سورة الأحزاب. فجملة هذه الآيات تبرز و تشخص كل حركة نفسية أو حسية و كل سمة ظاهرة أو مضمرة من سمات الموقف. أما الثانى و هو التصوير المشخص عن طريق الأمثال المضروبة فقد مثل له بقصة أصحاب الجنة فى سورة القلم «۲»، و قصة الرجلين فى سورة الكهف. لكن سيد قطب كان يسمى هذه قصص الأمثال فى مقابل القصص الحقيقية كقصة إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام فى بناء الكعبة و رفع قواعدها، انظر إلى قوله ":و الآن فلنعرض شطرا من قصص حقيقية بعد ما عرضنا قصص الأمثال «"۳». و لا مشاحة فى تسمية قصة الرجلين فى سورة الكهف و نحوها بقصص الأمثال لبدايتها بقوله تعالى: (وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا) ... على ألا- يعنى هذا أنها ليست حقيقية كما يفهم من عبارة سيد قطب السابقة، فإن المرجح عند كثير من المفسرين وقوع تلك القصص و أن اللّه سبحانه ضرب بها مثلا- على سبيل الاستدلال و الاعتبار. و من اللفتات الجيدة أن سيد قطب ألمح إلى إعجاز الأسلوب و النظم فى أثناء الحديث عن إعجاز التصوير فى قوله تعالى: (وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [البقرة: ۱۲۷]. يقول ":و كم فى

(۱) راجع المرجع نفسه من صفحة ۵۰ إلى ۵۸. (۲) التى تبدأ بقوله سبحانه (إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ ..) من ۱۷ إلى ۳۲. (۳) التصوير الفنى ۵۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۱۶ الانتقال من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فنى بارز يريد وضوحا لو فرضت استمرار الحكاية و رأيت كم كانت الصورة تنقص لو قيل: و إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت و إسماعيل يقولان ربنا .. إلخ. إنها فى هذه الصورة حكاية و فى الصورة القرآنية حياة، و هذا هو الفارق الكبير. إن الحياة فى النص لتثب متحركة حاضرة، و سر الحركة كله فى حذف لفظة واحدة، و ذلك هو الإعجاز «۱». و مضى سيد قطب يذكر من موارد التصوير القرآنى الذى يرسم للمعانى و المشاعر صورا شاخصة مؤثرة: مسائل العقيدة و شاهد القيامة و النعيم و العذاب و مشاهد الطبيعة الصامتة، و كثير من تلك الموارد التصويرية يمكن أن يضمها سلك واحد ذكره البلاغيون القدماء و هو تشبيه المعقول بالمحسوس أو التشبيه التمثيلى أو المثل بوجه عام و كلها تسهم فى تقديم المعانى الذهنية فى صور حسية لافتة بحيث تجعل المتلقى فى أفضل حالات اليقظة و التجاوب الفكرى و النفسى.

عناصر التصوير:

عناصر التصوير: سبق أن سيد قطب يرى التصوير هو القاعدة الأساسية للتعبير فى القرآن، و قد توسع فى تتبعه عناصر التصوير و ضروبه حتى كاد يكرر بعض كلامه بعضا، فهو مثلا يرى من ضروب التصوير القرآنى تقديم المعانى الذهنية فى صور حسية ثم التخييل الذى نراه فى تجسيم المعنويات فى صور محسوسة أو تشخيص الجمادات بتحريكها و بث الحياة فيها، فكل من التجسيم و التشخيص يعتمد على التخييل و لم يستطع سيد قطب أن يفصل بين هذه الضروب فتداخل بعضها فى بعض حتى لا تجد فرقا بين التجسيم و بين تقديم المعانى الذهنية فى صور حسية. و شواهد هذا و ذاك عنده لا تختلف فى طريقتها و فى اعتمادها على ضرب من التشبيه التمثيلى الذى يجسد المعنويات و يخرج المعقولات فى صور محسوسة، و لم يكن ذلك سهوا منه أو غفلة بل لقد كان يدرك هذا و هو يستشهد للتجسيم بالصور نفسها التى سبق أن استشهد بها لتقديم المعانى الذهنية فى صور محسوسة كقوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ

(۱) التصوير الفنى فى القرآن ۵۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۱۷ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ [إبراهيم: ۱۸] و قوله تعالى: (يا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً) [البقرة: ۲۶۴]. فالظاهر أن المؤلف كان يدرك شمول التخييل و التجسيم لكل الصور التشبيهية التى تبرز المعقول فى صورة المحسوس «۱»، و إذا كان الأمر كذلك فما ذا دعاه إلى التفريع و التقسيم الذى يشتت القارئ و يوهمه أن لكل ضرب من تلك الضروب خصوصية.

التناسق الفنى:

التناسق الفنى: و هو من ضروب التصوير أو من الوسائل المؤدية إلى التصوير، و يرى أن التناسق ألوان و درجات، فمنه التنسيق فى تأليف العبارات بتخير الألفاظ ثم نظمها فى نسق خاص يبلغ فى الفصاحة أرقى درجاتها و يؤدى إلى إيقاع موسيقى حسن، و منه ذلك التسلسل المعنوى بين الأغراض فى سياق الآيات و التناسب فى الانتقال من غرض إلى غرض. و منه التناسق النفسى بين خطوات ترقى المعانى، و قد ضرب له مثلا بتفسير سورة الفاتحة عند الزمخشرى، و كيف تترقى آياتها مع ترقى أحاسيس النفس. و قصص القرآن يجمع بين التناسق المعنوى و التسلسل النفسى، مع مراعاة التناسب مع السياقات و الغرض الدينى لكل سياق «۲». و من يتأمل جملة كلام المؤلف عن التناسق يجد أنه انطلق أساسا من أفكار ابن جنى فى إمساس الألفاظ أشباه المعانى و تعاقب المعانى لتعاقب الألفاظ، و من أفكار عبد القاهر فى النظم و أفكار السيوطى فى التناسب القرآنى و تطبيقات الزمخشرى فى تفسير كثير من آيات القرآن الكريم و سوره، لكن الذى يحسب لسيد قطب هو التجديد فى طريقة عرض تلك الأفكار بالأسلوب الأدبى الجاذب الذى قد

(_____ ۱) راجع كلامه فى التصوير الفنى

۷۸. (۲) راجع التصوير الفنى فى القرآن ۸۹: ۸۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۱۸ يوهم بأن ما يقدمه جديد مبتكر، كما يذكر له تتبع القرآن: سوره و آياته تتبعا جيدا مع التقاط الشواهد التى تعد تطبيقا جيدا لأفكار السابقين حتى خرج بما سماه بعضهم بنظرية سيد قطب فى التصوير. تناسق التصوير بكلمة واحدة: يذكر المؤلف أن تناسق التصوير قد يتحقق بلفظ واحد هو الذى يرسم الصورة تارة بجرسه الذى يلقيه فى الأذن، و تارة بظله الذى يلقيه فى الخيال، و تارة بالجرس و الظل معا. فمما يرسم الصورة بجرسه لفظ (اثاقلتم) فى قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ) [التوبة: ۳۸] فهذا اللفظ يصور بجرسه للخيال جسما ثقيلا يرتفع ليسقط للأرض. و مما يرسم صورة بظله الذى يلقيه فى الخيال لفظ "يترقب" فى قوله تعالى: (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ) [الآية ۲۱] القصص، فهذه اللفظة ترسم هيئة الحذر المتلفت. و مما يحقق التصوير بجرسه و ظله معا لفظ الدع فى قوله تعالى: (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا [الطور: ۱۳] و الدع هو الدفع فى الظهور بعنف، أما تصويره بجرسه فإنه يحكى للأذن الصوت الناشئ من الدفع، و أما تصويره بظله فمما يرسمه فى الخيال من صورة الدفع العنيف المهين. و قد أحسن سيد قطب فى تتبع شواهد أخرى كثيرة تحقق ألفاظ معينة فيها التصوير بالجرس أو بالظل، و لكن النفس تتساءل عن صلة هذا بتناسق التصوير مع ما سبق من الحديث عن ضروب التناسق التى تلتقى جميعا حول النظم و التأليف لا اللفظ المفرد، و سواء كان ذلك التناسق فى النظم معنويا أو نفسيا أو إيقاعيا بتخير ألفاظ ثم نظمها فى نسق خاص يؤدى إلى إيقاع حسن كما فهمنا من كلام سيد قطب، فهذه طبيعة التناسق التصويرى التى تقتضى تشكيلا و نظاما و تركيبا خاصا، بل لقد عطف سيد قطب على هذا حديثا عن الموسيقى و الإيقاع إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۱۹ الناشئ من الفواصل القرآنية و التى تحقق ذلك التناسق التصويرى، ثم يرقى إلى أفق آخر يحقق ذلك التناسق و هو حسن توزيع الكلمات المتناسبة المتآخية فى الجملة أو الآية أو الآيات، و يستشهد لهذا بالتناسق و التناسب بين كلمتى الفلق و الغاسق باعتبارهما من مشاهد الطبيعة، و التآخى بين "النفاثات فى العقد "و" حاسد إذا حسد "باعتبارهما مخلوقين آدميين و ذلك فى سورة الفلق «۱». ثم يترقى من هذا إلى مشاهد قرآنية يتحقق فيها ذلك التناسب، و الحق أن ذلك التناسق سمة لكل كلمات القرآن و جمله و آياته و سوره، و هو نفسه التناسب الذى اهتم به البلاغيون و

المفسرون اهتماما بالغا و إن زعم سيد قطب "أن التناسق الفنى فى التصوير القرآنى كان بعيدا عن آفاق بحثهم «"۲» و من أراد دليلا على أن القدماء قد عنوا بهذه الظاهرة عناية كبيرة، و قالوا فيها كلاما يتضاءل إلى جانبه ما ذكره سيد قطب، من أراد دليلا على هذا فليراجع التفسير الكبير للرازى و الإتقان للسيوطى ناهيك عن نظم الدرر للبقاعى الذى ترقى فى البحث عن التناسب من الجزئيات فى الجملة و الآية إلى الكليات فى السورة الكاملة ثم فى ترتيب سور القرآن حتى لقد كان يربط بين معنى فى سورة مريم و نظيره فى سورة الكهف قبلها ثم فى الإسراء قبل الكهف. سيد قطب و البحث عن الإعجاز: إن كثيرا مما ذكره سيد قطب يصعب عده من الإعجاز؛ لأنه و إن أشبع الحديث عن التصوير الفنى فى القرآن فإنه لم يحدد لنا خصوصيات التصوير القرآنى، و ما يمكن أن يدخل فى البحث عن التميز، لا- سيما و أن غير قليل من سمات التصوير القرآنى التى ذكرها يمكن أن نجد لها نظيرا فى الشعر كتقديم المعانى الذهنية فى صور حسية و التخييل بالتجسيم و التشخيص ثم التناسق بالجرس و الظلال و غير ذلك من سمات التصوير التى ذكرها، فأين ما يمكن عده من خصوصيات التصوير القرآنى و الذى يدخل فى باب الإعجاز؟ كان يمكن أن يقف

(_____ ۱) راجع التصوير الفنى فى القرآن ۶/

۱ (۲) التصوير الفنى ۸۹. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۲۰ سيد قطب على ذلك لو أنه وازن بين سمات التصوير فى الشعر، و سمات التصوير فى القرآن، و خرج من هذه الموازنة بما يوجد فى التصوير القرآنى و لا- يوجد فى التصوير الشعرى، لو أنه فعل ذلك لوقف على خصوصيات التصوير القرآنى لكنه لم يفعل. ثم إنه عمد إلى الناحية الفنية الخالصة، مع أن الإعجاز القرآنى لا يستخرج و لا يستنبط من البحث فى الصورة القرآنية عن الناحية الفنية الخالصة؛ لأن كثيرا من نواحى الإعجاز فى القرآن تكمن فى طرائق أداء المعانى و الأغراض الدينية و الخلقية و التشريعية فلا مفر للباحث عن الإعجاز من الربط الدائم و الوثيق بين الناحية الفنية الأدائية و بين المعانى أى بين الشكل و المضمون، فذلك هو سبيل الوصول إلى نواحى التميز فى القرآن الكريم مضموما إلى هذا منهج الموازنة. إن ما يمكن أن يدخل فى باب الإعجاز هو حديث سيد قطب عن القصة القرآنية؛ لأن أكثر ما ذكره يعد من خصوصيات القصة القرآنية التى لا توجد فى قصص البشر سواء ما يتصل بأغراضها أم بطريقة بنائها و سماتها الفنية، و قد عمد سيد قطب إلى هذا لأنه لم يجد مفرا منه، فإن القصة القرآنية ظاهرة التميز من كل الوجوه عن القصص البشرى. و لقد أرجع سيد قطب هذا التميز بداية إلى الرسالة التى تؤديها القصة القرآنية فى الإطار العام للقرآن الكريم باعتباره كتاب دعوة دينية فى المقام الأول يقول "و قد خضعت القصة القرآنية فى موضوعها و فى طريقة عرضها و إدارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية «"۱». ثم ذكر أغراض القصة القرآنية، و هى أغراض متعددة كثيرة لا- تجد غرضا واحدا منها فى القصص البشرى إلا إذا كان متأثرا بالقصص القرآنى فى أفكاره و موضوعاته، و مع ذلك يبقى للقصص القرآنى خصوصيته فى البناء و النسج و التصوير و الترتيب و طريقة الابتداء و التخلص و الانتهاء (_____ ۱) التصوير

الفنى فى القرآن ۱۴۴. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۲۱ و من أغراض القصة القرآنية: ۱- إثبات صدق الوحى و أن هذه الرسالة من عند اللّه سبحانه، و قد سجل هذا الغرض فى مقدمات و نهايات بعض القصص كقوله تعالى فى صدر سورة يوسف: (إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [۲] نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ [۳] سورة يوسف، و قوله سبحانه قرب نهاية هذه السورة: (ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ [يوسف: ۱۰۲] و جاء فى صدر سورة القصص: (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [القصص: ۳] و قرب نهايتها قوله سبحانه: (وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ [القصص: ۴۴] و قوله سبحانه عقب قصة نوح عليه السلام فى سورة هود: (تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ [هود: ۴۹]. ۲- بيان أن الدين كله من عند اللّه، و أن المؤمنين كلهم أمة واحدة، و أن الرب المعبود واحد كقوله تعالى فى سورة الأنبياء بعد ما ذكر سلسلة من قصص الأنبياء فى عرض موجز (إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

[الأنبياء: ۹۲]. ۳- بيان أن الدين كله موحد الأساس؛ لأن الرسالات جميعا من لدن إله واحد، لذا نجد فى سورة الأعراف توحد العبارة الدالة على الإيمان باللّه الواحد تجرى على لسان أنبياء متعددين و هى قوله تعالى: (يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ) ... راجع الآيات ۵۹، ۶۵، ۷۳، ۸۵. ۴- بيان أن اللّه عز و جل ينصر رسله فى النهاية و يهلك المكذبين و ذلك تثبيتا لمحمد صلى اللّه عليه و سلم و موعظة للمؤمنين، قال تعالى: (وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ [هود: ۱۲۰] إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۲۲ ۵- و هناك أغراض خاصة متفرقة منها بيان قدرة اللّه على الخوارق كقصة خلق آدم، و قصة مولد عيسى، و قصة إبراهيم و الطير الذى آب إليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءا كدليل على قدرته سبحانه على البعث بعد الموت و التفرق، و بيان عاقبة الخير و الصلاح و عاقبة الشر و الإفساد كقصة بنى آدم، و قصة صاحب الجنتين و قصة سد مأرب و قصة أصحاب الأخدود، و بيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة و الحكمة الكونية البعيدة الآجلة، كقصة موسى مع عبد من عباد اللّه آتاه اللّه رحمة من عنده و علّمه من لدنه علما خاصا «۱». و قد جاء بناء القصة القرآنية متميزا حسب مقتضيات الغرض الدينى إيجازا أو إطنابا و تكرارا و إن كان هذا التكرار فى ظاهر الأمر أما الحقيقة فلا تكرار، و لكنه توزيع لحلقات القصة القرآنية حسب مقام كل سورة، فصلب القصة لا يكرر إلا نادرا و لمناسبة خاصة فى السياق. و النظام الذى يحكم عرض حلقات القصة المنتشرة فى عدة سور أن معظم القصص يبدأ حسب ترتيب النزول بإشارة مقتضبة، ثم تطول هذه الإشارات فى السور التالية فى النزول، ثم تعرض حلقات كبيرة تكون فى مجموعها جسم القصة، و قد تعود الإشارات المقتضبة مرة أخرى عند حاجة المقام إليها. و قد نجد حلقة ما أو موقفا يتكرر فعلا فى سورتين، كما فى إلقاء العصا فتنقلب حية تسعى فى قصة موسى كما ورد فى سورة النمل و القصص، و الظاهر أن هذا من تعدد المواقف فى الواقع للتدريب على أمر خطير حتى يكون موسى عليه السلام قد تعود عليه فلا يهاب و لا يخاف عند ما يمارسه فى مواجهة فرعون و أعوانه.

(_____ ۱) راجع التصوير الفنى فى القرآن الكريم من ص ۱۴۴ إلى ص ۱۵۵. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۲۳ و قد اقتضب سيد قطب فى عرض الخصائص الفنية للقصة القرآنية فذكر ما يدخل فى بنائها مثل تعدد بداياتها و هل تبدأ ملخصة ثم تفصل أو من غير تقديم أو البداية بالعبرة من القصة أو ترك العبرة للنهاية أو تركها ليستنبطها المستمع، و كيفيات الإثارة و المفاجأة، ثم تحدث عن التصوير فى القصة و أنها تخضع لنظام القرآن فى إيثار العرض المصور الذى يحيل القصة من حادثة تروى إلى مشاهد تقع و أحداث و أشخاص تتحرك. و حاصل ما سبق أن بحث سيد قطب لا يدخل منه فى الإعجاز إلا ما يتصل بالقصة القرآنية لأن كل ما ذكره يدخل فى صميم البحث عن التميز، و إن كان يفتقد إلى الموازنة الموضوعية التى تكشف عن الفروق الحقيقية فى الأسلوب و فى البناء و فى كيفية ترتيب الأحداث و تحريكها و كيفية وقوع الأحداث و رسم الشخصيات. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۲۴

المبحث الرابع الموازنة بين الشيخ محمود شاكر و مالك بن نبى

اشارة

المبحث الرابع الموازنة بين الشيخ محمود شاكر و مالك بن نبى كتب الشيخ محمود شاكر مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبى و سجل فيها أفكارا مهمة تتعلق بمنهج البحث عن الإعجاز، فهو يرى بداية أن كتاب الظاهرة القرآنية ليس كتابا فى إعجاز القرآن، لأن مالك بن نبى عنى فيه بإثبات صحة دليل النبوة، و بصدق دليل الوحى، و أن القرآن تنزيل من عند اللّه و أنه كلام اللّه لا كلام بشر، و ليس هذا هو إعجاز القرآن، بل هو أقرب إلى أن يكون بابا من أبواب علم التوحيد «۱». و هو ينطلق فى هذا من رأيه فى أن صحة النبوة ليست برهانا على إعجاز القرآن، و لكن القرآن المعجز هو البرهان على صحة النبوة. و نأتى إلى منهج الموازنة، فلقد كان

محمود شاكر من الذين أيقنوا بجدوى هذا المنهج فى الكشف عن الإعجاز، سوى أنه تجنب كلمة الموازنة و ذكر بدلا منها كلمة" المقارنة، "و ذلك فى سياق حديثه عن المجال النصى الأولى بأن يكون محلا للمقارنة بينه و بين القرآن، و ذلك هو الشعر الجاهلى" لأنه مادة لدراسة البيان المفطور فى طبائع البشر ببيان القرآن الذى فاق بلغاء الجاهلية «"۲». و القرآن الكريم عند ما نزل بلسان العرب كان لسانهم حينئذ هو الشعر الجاهلى فى أرقى صور اللغة التى نطقوا بها، و كان يمثل جوهر أحاسيسهم فضلا عن تمثله لخصائص بيانهم، فلا- مفر- لإثبات الإعجاز و التفوق الذى أدركه هؤلاء العرب لأسلوب القرآن من الموازنة بينه و بين شعرهم للوقوف على الخصائص المميزة، يقول الشيخ شاكر ":و أنت خليق أنت تعرف أن الشىء الذى طلبته و احتججت له و حاولت أن أكشف عن منهاجه و مذهبه إنما يتعلق بخصائص البيان فى القرآن و خصائص بيان البشر، و أن مخرج هذا غير مخرج هذا، و أن

(_____ ۱) راجع مقدمة الظاهرة القرآنية، دار

الفكر المعاصر- بيروت الطبعة الرابعة ۱۴۰۳ ه/ ۱۹۸۴ م. (۲) نفسه ۳۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۲۵ الشعر الجاهلى هو مادة الدراسة الأولى، لأن القرآن نزل بلسان عربى، و الذين نزل عليهم ثم تحداهم و أعجزهم هم أصحاب هذا الشعر و المفتونون به و ببيانه «"۱». لكن ما المانع أن نوسع من النصوص لتكون مادة للموازنة فلا نقتصر على الشعر الجاهلى و إنما نضم إليه أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و نماذج من خطب علىّ كرم اللّه وجهه، و نصوص من كلام الحسن البصرى، و بعض نصوص العهد القديم و الجديد فى معان توجد فى سور قرآنية و الموازنة حينئذ للتفريق بين الطابع الإلهى و الطابع البشرى، و الشيخ شاكر على كل حال لم يتعصب للشعر الجاهلى و لم يحصر الموازنة عليه و لكن يرى أنه الأولى و أنه مادة الدراسة الأولى و لم يقل إنها الأولى و الأخيرة. و اللافت أن الشيخ محمود شاكر لم يتحدث عن الإعجاز فى مقدمة "دلائل الإعجاز "لا من قريب و لا من بعيد، و إنما دفعه للتحدث عنه فى مقدمة كتاب "الظاهرة القرآنية "ما جرى عليه بعض الناس حين اعتقدوا أن هذا الكتاب خاص بإعجاز القرآن. فكان رده على هذا بأنه كتاب فى إثبات دليل النبوة و أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من كلام بشر، و استدعى هذا حديث الشيخ شاكر عن المنهج الجدير بالكشف عن الإعجاز فى هذا العصر و هو منهج المقارنة التى تقف على خصائص النص القرآنى و خصائص الشعر الجاهلى لمعرفة ما يتفوق به القرآن الكريم، فذلك هو سبيل معرفة الإعجاز. يقول و كان يقصد هذا المنهج ": فإذا تمّ ما دعونا إليه لأهل هذا اللسان العربى يوما، و عسى أن يكون ذلك بتوفيق اللّه فسيكون ذلك فتحا مبينا لا فى تاريخ البلاغة العربية وحدها بل فى تاريخ بلاغة الجنس الإنسانى، و سيكون أيضا مقنعا، و رضى لهذا العقل الحديث الذى يتطلب فى معرفة (إعجاز القرآن) ما يرضى عنه و يطمئن إليه، و ليس هذا فحسب، بل إن

(_____ ۱) مقدمة الظاهرة القرآنية ۴۸. إعجاز

القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۲۶ أهل الحق من أهل الإسلام سيجدون يومئذ وسيلة لا تدانيها وسيلة تسهّل لهم ما استغلق عليهم من دعوة الناس إلى كتاب اللّه .. الذى جعله هدى للبشر جميعا «۱» و الشيخ شاكر بعبارته تلك يستحث الهمم للقيام بأعباء هذا المنهج و اهميته فى خطاب العقل الحديث، و أنه مفتاح دعوة العالمين أجمعين إلى كتاب اللّه الذى شرّف العرب بنزوله عليهم لكنه ليس خاصا بهم و لكنه هدى لكل الناس و جميع الأجناس، فمن كان على ملة أخرى سابقة كاليهودية أو البوذية أو النصرانية لا يستطيع بحكم التعود و الانتماء أن يتخلى عن ملته و أن يتحول منها إلى ملة أخرى إلا إذا اقتنع بصدق رسالة الإسلام، و اقتنع أنه خاتم الرسالات، و أن القرآن من عند اللّه، و أن فيه ما يلبى حاجة الإنسان المعاصر الفكرية و الروحية، و أولى خطوات إقناعه هى إثبات صدق رسول اللّه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و أن القرآن إنما هو من عند اللّه و ليس فى مقدور بشر ما و هذا ما سعى إليه مالك بن نبى و كان موفقا إلى أبعد حد فى كتابه الظاهرة القرآنية. أما الخطوة الثانية فهى إثبات أن كتاب هذه الرسالة معجز و أنه ليس فى طاقة بشر و أنه يمتلك من الظواهر الأسلوبية الدالة على أنه من عند اللّه و ذلك لا يكون إلا بالموازنة بينه و بين نماذج من كلام أفصح البشر شعرا و نثرا، و هذا ما نبه إليه سائر الباحثين فى الإعجاز و لكن إشارة الشيخ محمود شاكر إليه كانت عميقة و طلبه

لمنهج المقارنة كان ملحا ليقينه أن هذه هى وسيلة الخطاب الصحيحة لغير المسلمين. و هذا ما أسعى إليه بتوفيق اللّه فى هذا الكتاب. مالك بن نبى فى كتابه "الظاهرة القرآنية: "سعى مالك بن نبى فى هذا الكتاب إلى خطاب العرب و غير العرب فى محاولة إقناعهم بصدق هذه الرسالة عن طريق إثبات صدق نبيها محمد صلّى اللّه عليه و سلّم و أن القرآن ليس فى مقدوره كبشر، و قد ذكر الشيخ محمود شاكر أن كتاب الظاهرة القرآنية ليس حديث عن إعجاز القرآن من أجل ما سبق، و الحق أننا لا نستطيع أن (_____ ۱) المرجع نفسه ۴۸ ، ۴۹. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۲۷ نجرد الكتاب من حديث الإعجاز، فلقد كانت فيه ومضات تبرق فى الحديث عن خصوصية القرآن و كل حديث عن خصوصية هذا الكتاب العزيز فهو حديث عن الإعجاز.

البحث عن التميز عند مالك بن نبى:

البحث عن التميز عند مالك بن نبى: لقد كانت فكرة البحث عن تميز الأسلوب القرآنى عن الشعر الجاهلى من الأفكار التى راودته فى الفصول الأخيرة من كتابه، و لكنه كان يرى أن تحقيق هذه الفكرة من الصعوبة بمكان بالنسبة لمن ليست له سيطرة على عبقرية اللغة العربية و لا خبرة له كافية ببلاغة هذه اللغة يقول ":إن سيطرتنا القاصرة على عبقرية اللغة الجاهلية لا تسمح لنا بأن نحكم- عن معرفة- على سمو الأسلوب القرآنى «"۱». و هذا ما جعله يعوّل على دليل منطقى آخر يستمده من قوله تعالى (وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) [البقرة: ۲۳]. فهذه الآية تؤكد إعجاز القرآن للعبقرية الأدبية عند العرب، إذ لم يذكر التاريخ أن أحدا قد أجاب على هذا التحدى، و بهذا يمكن أن نستخلص أنه قد ظل دون تعقيب و أن إعجازه الأدبى قد أفحم فعلا عبقرية ذلك العصر. و لكن اعتراف مالك بن نبى بقصور سيطرته على عبقرية اللغة الجاهلية لم يمنعه من إجراء بعض الموازنات الذهنية السريعة بين لغة القرآن و لغة الشعر الجاهلى و التى يدل عليها ملاحظته تميز القرآن بألفاظه الجديدة التى لم تكن موجودة فى بيئة الجاهليين و ملاحظة الاستخدام الفذ للكلمات فى القرآن و خاصة فى مجال الأخرويات (على حد تعبيره) و تجاوزه الحدود التقليدية للأدب الجاهلى و ما فيه من أفكار دينية و مفاهيم توحيدية أدت إلى هذا، ثم يقول: و الحق أن القرآن أحدث انقلابا هائلا فى الأدب العربى بتغييره الأداة الفنية فى التعبير، فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظمة فى موضع البيت الموزون و جاء من ناحية أخرى (_____ ۱) الظاهرة القرآنية ۱۸۹. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۲۸ بفكرة جديدة أدخل بها مفاهيم و موضوعات جديدة لكى يصل العقلية العربية بتيار التوحيد «۱». و لم يمنعه اعترافه بقصور سيطرته على عبقرية اللغة الجاهلية من الموازنة التى تثبت اختلاف مجال العناصر التصويرية فى الشعر الجاهلى عن مجال العناصر التصويرية فى القرآن الكريم يقول ": المجاز هو العنصر البلاغى الفريد الذى يحدد معالم الأسلوب و يحدد بصورة ما موقعه الجغرافى، فامرؤ القيس وصف فرسه فى بيته المشهور. مكرّ مفرّ مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطّه السيل من عل «۲» و يرى أنه اقتبس عناصر الصورتين المتماثلتين تماما من حياة الصحراء التى احتواها الوسط الجغرافى، و هى صورة فرس يعدو و صورة جلمود صخر حطه السيل، فالوسط الذى يتمثل فيه هذا البيت وسط عربى طبعه بطابعه الخاص. لكن المجاز ليس دائما و لا غالبا انعكاسا للحياة البدوية فى الصحراء فهو يستمد على عكس ذلك عناصره و ألفاظ تشبيهاته من بيئات و مشاهد جد مختلفة فالأفكار القرآنية المتصلة بالنبات و الشجر و أنواع الرياض تصور لنا طبيعة أرض كثيفة الزرع طيبة الهواء «۳» أكثر من أن تصور أرض الصحراء القاحلة الرملية. و السحب التى تسوقها الرياح لتحيى الأرض بعد موتها ليست من المشاهد اليومية فى سماء بلاد العرب .. و فضلا عن ذلك فإننا نجد فى القرآن صورا ذهنية كثيرة لا تتصل بسماء الجزيرة و لا بأرضها «"۴ (_____». ۱) راجع الظاهرة القرآنية ۱۹۲ (۲) أحسن مالك بن نبى حين اعترف بقصور سيطرته على بلاغة اللغة و عبقريتها فهو صادق فى هذا بدليل أنه عدّ بيت

امرى القيس من شواهد المجاز فى الشعر الجاهلى و هو تشبيه صريح مذكور الأداة، و لو اتيح له ان يدرس بلاغة هذه اللغة و فقهها لقدم نتائج رائعة فى ظل منهجه و تفكيره الدقيق. (۳) لعله يقصد قوله تعالى (وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [الرعد: ۴] (۴) الظاهرة القرآنية ۲۹۴ إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۲۹ ثم يأتى المؤلف بصورتين قرآنيتين: الأولى عناصرها من البيئة الجغرافية العربية كقوله تعالى (وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ) [النور: ۳۹]. و الثانية عناصرها على عكس تلك من بيئة أخرى كقوله تعالى (أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ) [النور: ۴۰]. فهذه الصورة ليس لها صلة بالمستوى العقلى أو بالمعارف البحرية فى العصر الجاهلى، و إنما هى فى مجموعها منتزعة من بعض البلدان الشمالية التى يلفّها الضباب، و لا يمكن للمرء أن يتصورها إلا فى النواحى كثيفة الضباب يلفّها الضباب، و لا يمكن للمرء أن يتصورها إلا فى النواحى كثيفة الضباب فى الدنيا الجديدة أو فى (أيسلندا) «۱»، فلو افترضنا أن النبى رأى فى شبابه منظر البحر فلن يعدو الأمر شواطئ البحر الأحمر، و غنى عن البيان أن العصر القرآنى كان يجهل كلية تراكب الأمواج و ظاهرة امتصاص الضوء و اختفائه على عمق معين فى الماء، و على ذلك فما كان لنا أن ننسب هذا المجاز إلى عبقرية صنعتها الصحراء و لا إلى ذات إنسانية صاغتها بيئة قارية «"۲». فهذه إشارة جيدة تثبت أن القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و أنه قطعا من عند اللّه. و مع هذه الإشارات فإن مالك بن نبى يعترف بأنه لا يمتلك الأدوات التى تجعله يتذوق بلاغة هذه اللغة تذوقا علميا يمكّنه من التفريق بين أسلوب و أسلوب، و معرفة الخصائص التى يتميز بها أو يتفوق بها هذا على ذلك، مع إلحاح هذه الفكرة عليه، بل لقد أكد على قيام هذه الفكرة فى أذهان الغربيين و غير العرب

(_____ ۱) تفسير مجيء صورتين متواليتين إحداهما من البيئة العربية و الثانية من بيئة اخرى مختلفة إن القرآن لم ينزل للعرب وحدهم و لكنه للناس جميعا لا سيما و ان الصورتين تشتركان معا فى تصوير معنى مهم و هو اعمال الكفار التى يعتقدون أنها مدخره لهم تنفعهم. فالصورة الاولى توضيح فساد هذه الأعمال و عدم جدواها، و الصورة الثانية توضح الحيرة النفسية التى تلف كيان هؤلاء و نستبدلهم فلا يخرجون من ظلام الا إلى ظلام آخر. (۲) الظاهرة القرآنية ۲۹۶ إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۳۰ عموما، لكنهم لا يملكون فى أذواقهم عبقرية اللغة العربية التى تمكّنهم من الموازنة الموضوعية بين آية قرآنية و فقرة موزونة أو مقفاة من أدب العصر الجاهلى «۱». من أجل هذا لجأ مالك بن نبى إلى موازنة أخرى بين الأساسيات التى تشترك فيها الأديان جميعا ليرى كيف وردت فى القرآن الكريم و كيف كانت فى التوراة و الإنجيل سواء فيما يتصل بالوحدانية أو الغيبيات التى يسميها بالأخرويات و الكونيات و الأخلاق و تاريخ الأنبياء، و فى هذا الإطار نجد فى القرآن قصصا سبقت فى التوراة و الإنجيل اللذين ضما و أعيدت صياغتها مرارا و تكرارا ثم ترجما مرات كثيرة تحت عنوان "الكتاب المقدس "بعهديه القديم و الجدير، لكنّنا نجد فى الوقت ذاته قصصا آخر لم يسبق له ذكر فى الكتاب المقدس مثل قصة هود و صالح و لقمان و أهل الكهف و ذى القرنين «۲». و يقصد مالك بن نبى من هذا أن كل ما ورد فى القرآن من قصص دال على صدقه و أنه من عند اللّه سواء ما كان منه جديدا لم يسبق له ذكر فى الكتاب المقدس- و هذا صريح الدلالة على صدق القرآن و صدق مصدره- أم ما كان من هذا القصص القرآنى مذكورا فى العهد القديم و العهد الجديد من جهة تميز ما جاء فى القرآن بالمنطقية فى ذكر الأحداث و ترتيبها. و قد تجد التشابه كبيرا بين قصص ورد فى القرآن و سبق ذكره فى الكتاب المقدس مما يثير الشكوك عند أولى النزعات المغرضة قديما و حديثا بل يرى مالك بن نبى أن هذا التشابه ما يزال يعدّ لغزا محيّرا عند النظرة المتجردة، و لهذا عرض قصة يوسف التى تعد نموذجا لهذا التشابه و وازن بين ما ورد منها فى الكتاب المقدس و ما ورد فى القرآن الكريم. ثم خرج من هذه الموازنة بالتقاء الروايتين فى جوهر الأحداث و سداها لكن مجرد التأمل السريع يكشف عن

عناصر خاصة تميز كليتهما على حدة. فرواية القرآن تنغمر باستمرار فى مناخ روحانى نشعر به فى مواقف و كلام الشخصيات .. و فى مقابل ذلك نجد الرواية الكتابية نبالغ بعض الشىء فى

(_____ ۱) راجع الظاهرة القرآنية ۵۷. (۲) راجع المرجع نفسه ۲۱۰. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۳۱ وصف الشخصيات .. و تقع فى أخطاء تاريخية تثبت صفة الوضع، فمثلا- الفقرة التى وردت فى الفصل الثالث و الأربعين من التوراة "لأن المصريين لا- يجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين "يمكننا التأكيد بأنها من وضع النساخ الميالين إلى أن يذكروا فترة المحن التى أصابت بنى إسرائيل فى مصر بعد زمن يوسف. و أخيرا فإن حل عقدة القصة يحمل طابع السرد التاريخى فى الرواية الكتابية فهو يشتمل فى الفصول الأخيرة على تفاصيل مادية عن استقرار العبرانيين فى مصر، أما فى القرآن فإن حل عقدة القصة يدور حول الطابع المميز للشخصية المحورية (يوسف عليه السلام) الذى يختم هذا الختام المنتصر «۱» (وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّى حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَ جاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِى وَ بَيْنَ إِخْوَتِى إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [يوسف: ۱۰۰]. و هذه النتائج تعد أقل ما يمكن أن يقال فى هذا الباب و لعل أهم ما فيها ما استنتجه المؤلف من غلبة المناخ الروحانى فى رواية القرآن الكريم و الذى يعنى اهتمام القرآن فى عرض القصة بالغاية الدينية و تركيزه على ما يحقق هذا الهدف بخلاف السرد التاريخى الذى يغلب على الرواية الكتابية فضلا عن الأخطاء التاريخية التى تثبت صفة الوضع و غلبة الطابع البشرى عليها. و يبدو مالك بن نبى متأثرا بمقاييس نقد القصة الفنية البشرية حين يرى أن حل العقدة فى القصة القرآنية يدور حول شخصية المنتصر و هو يوسف عليه السلام، و هذا من أخطاء تطويع النص القرآنى لمقاييس نقد النص البشرى؛ لأن القرآن لم يقصد تصوير يوسف بهذا و لم يقصد إبرازه فى صورة المنتصر. إن الموازنة مهمة فى ذاتها إذا ما روعى فيها التركيز على الجوانب الجديرة بإبراز الخصوصيات، و هذا ما يستدعى إعادة تلك الموازنة عند الموازنة التطبيقية فى الباب الأخير.

(_____ ۱) الظاهرة القرآنية ۲۵۳. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۳۲

المبحث الخامس الإعجاز و منهج البحث عن التميز عند أحمد ديدات

اشارة

المبحث الخامس الإعجاز و منهج البحث عن التميز عند أحمد ديدات كان أحمد ديدات من الذين تحولوا إلى الإسلام بعد دراسة و تأمل و قراءة واسعة فيما كتب عن الإسلام، و بدأ اهتمامه بدراسة الإعجاز منذ ذلك الوقت لأنه يدخل فى جوهر الاقتناع و التحول لأن الإيمان بهذا الدين يستلزم أولا التصديق بأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صادق و أن القرآن الذى يتلوه وحى من عند اللّه و ليس من كلام بشر، لهذا بدأ فى النظر فى القرآن بحثا عن الخصائص التى تميزه ليقتنع أنه ليس فى طاقة بشر و أنه لا يمكن إلا أن يكون من عند اللّه سبحانه يقول ":لقد بدأ اهتمامى بدراسة الإعجاز إثر محاضرة سمعتها و أنا طالب غض عام ۱۹۴۳ ألقاها العلامة و الداعية المفوّه عبد العليم صدّيقى أثناء جولته فى جنوب إفريقيا .. و فيها يذكر أن القرآن يحثنا على التأمل فى خلق الإنسان تركيبا و سلوكا و أنواعا، و كذلك النبات: شكلا و خواص و أنواعا و ذلك مجال "علوم البيولوجيا "كما يدعونا لدراسة نظام الكون و ما به من مواد و طاقة، و ذلك مجال "علوم الفيزياء، و إلى التأمل فى خواص المواد و تفاعلاتها و ذلك مجال "علوم الكيمياء .. و إلى التدبر فى تعاقب الليل و النهار و تغير الفصول و حركات الكواكب و مواقع النجوم و ذلك مجال "علوم الفلك «"۱». إلخ .. و أحمد ديدات يبدأ حديثه عن الإعجاز بما بدأ به مالك بن نبى بالتأكيد على صدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما بلغه عن ربه سبحانه، و أن

القرآن بوحى من اللّه تعالى و ليس من عند محمد، و هذه الفكرة و إن كانت لا تشغل أوساط المسلمين ليقينهم بصدق رسول اللّه و أمانته، فإنها مهمة لغير المسلمين الذين يعتقدون خطأ أن القرآن ألّفه محمد أو أنه من تأثير العهد القديم و العهد الجديد، و لهذا ركز عليها أحمد ديدات، كما ركز عليها قبله مالك بن نبى، لأنهم كانوا يتجهون بكتابتهم فى الأساس إلى غير المسلمين.

(_____ ۱) القرآن معجزة المعجزات، ۲۸

أحمد ديدات، ترجمة نبيل عبد السلام هارون، مكتبة القرآن للطبع و النشر و التوزيع. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۳۳ و من الأدلة التى ذكرها ديدات للتأكيد على صدق الرسول و أن القرآن يوحى من اللّه سبحانه: ۱- أمية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فلو كان يقرأ أو يكتب لارتاب الناس فى أنه قرأ كتبا أخرى فاقتبس منها ما اقتبس و خطه بيمينه، و هذه حجة منطقية تتجه إلى العقل السليم المحايد و هى مأخوذة من القرآن الكريم، قال سبحانه (وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ) [العنكبوت: ۴۸]. ۲- من الثابت أن الكتاب المقدس بعهديه القديم و الجديد لم يترجم إلى العربية قبل القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) مما يقطع الطريق أمام من لا يصدق بأمية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و يزعم أن محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم اقتبس نصوصا من التوراة و الإنجيل، إذ كيف يصح ذلك عقلا و لم تكن نصوص التوراة و لا نصوص الإنجيل متاحة فى عهده صلّى اللّه عليه و سلّم بل لم توجد بين المسلمين إلا بعد رحيله صلّى اللّه عليه و سلّم بأربعة قرون بعد ترجمتها إلى العربية. ۳- تجانس النص القرآنى، و لا يمكن لبشر أن يواصل كتابا يستغرق جمعه (۲۳) ثلاثة و عشرين عاما من بداية الوحى إلى إتمام الرسالة، يبتلى خلالها بأشق ما مرّ به نبى مرسل دون أن تتقلب أفكاره، و تتبدّل مشاعره و تتفاوت تعبيراته، و ما كان هذا شأن النص القرآنى الذى اكتمل .. فما اختلف السياق و لا الجرس المميز لكل سورة، و ما تضاربت فيه الحقائق و الأفكار و التشريعات بين سورة و أخرى، بل تكاملت مع بعضها البعض، و فسر بعضها بعضا، و ليس هذا شأن أى كتاب بشرى يكتب و يجمع بهذه الكيفية و طوال تلك المدة، و صدق اللّه العظيم إذ يقول: (أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) [النساء: ۸۲]. و فى هذه الفكرة أثر من حديث القدماء و لا سيما الباقلانى عند حديثه عن استواء الأسلوب القرآنى على الرغم من طوله و تعدد أغراضه و تصرف القول فيه على أنحاء شتى- بل إننا نجد الفكرة التى ذكرها ديدات هى هى عند الرافعى فى قوله (هامش إعجاز القرآن ۲۸۶ "و متى عهد تاريخ إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۳۴ الأرض كله أن كلام إنسان من الناس يستمر على مثل هذه الطريقة من الاستواء بضعة و عشرين عاما ثم لا ينتقص و لا يضعف و لا تختلف طبقاته و لا يتفاوت أمره فى كل هذه المدة مع اختلاف أحوال النفس و أمور الزمن- و لا ندرى أطّلع ديدات عليها عند الرافعى أم لم يطلع؟ و إن كان الظاهر أن هذا مما تلتقى عليه خواطر المجتهدين المخلصين فى معرفة الحقيقة فيقذف اللّه سبحانه فى قلوبهم منها ما شاء له أن يقذف، لا سيما و أن ديدات لم يكتب بالعربية و لا تكلم بها، و كل ما نقل عنه إنما هى ترجمات. ۴- ما فى القرآن من حقائق علمية لا يمكن لبشر أن يصل إليها منذ أربعة عشر قرنا و لو كان عالما أو فيلسوفا فضلا عن أن يكون أميا، و من هذه الحقائق: - ظاهرة تمدد الكون باطراد: حتى تتباعد المجرات تباعدا استدعى من العلماء أن يطوروا مجاهرهم لملاحقة تلك المجرات، و قد سبقهم القرآن إلى هذا منذ قرون بعيدة فى قوله سبحانه: (وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ) [الذاريات: ۴۷]. - أصل الحياة: فقد ثبت علميا أن أصل الكائنات الحية نشأ من الماء، و أن مادة البروتوبلازم التى هى أساس تكوين الخلايا الحية مرهونة بوجود الماء، فالحياة لا تنشأ و لا تستمر إلا بالماء، أدرك العلماء ذلك فى القرن العشرين، و سبقهم القرآن إلى هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرنا، قال تعالى: (وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ) [الأنبياء: من الآية ۳۰] «۱» و قال تعالى: (وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ ..) [النور: من الآية ۴۵]. - زوجية النبات: فإن ظاهرة الزوجية تنطبق على كل المخلوقات: الإنسان و الحيوان و النبات و المخلوقات الأخرى التى لا تتبادر إلى الذهن، فهناك أزواج من القوى المضادة فى الطبيعة كالشحنات الكهربائية السالبة و الموجبة، بل إن ذرات المواد جميعا من نواة موجبة تحيطها "الكترونات سالبة، أى إنها هى الأخرى أزواج، فسبحان من وسع كل شىء علما اذ قال

(_____ ۱) انظر القرآن معجزة المعجزات. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۳۵ سبحانه (سُبْحانَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْواجَ کُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا یَعْلَمُونَ) [یس: ۳۶] «۱».

منهج البحث عن الإعجاز عند ديدات:

منهج البحث عن الإعجاز عند ديدات: أما فيما يتصل بمنهج البحث عن التميز عند أحمد ديدات فيمكن القول انه عرض أفكارا تمس إعجاز القرآن و تكشف عن شیء من نواحی تميزه من خلال موازنات سريعة بين أسلوب القرآن و أسلوب العهد القديم و العهد الجديد من جهة، ثم الموازنة بين القرآن و بين الحديث النبوی من جهة أخری. فمن خلال الموازنة الأولی يصل إلی أن القرآن الكريم فريد فی صياغته؛ لأنه يخلو مما يسود العهد القديم و العهد الجديد من عبارات رتيبة مكررة يغلب عليها الطابع الروانی البشری مثل "يحكی أن "أو "فی يوم من الأيام "أو "ذات مرة "و هذه ظاهرة فی صياغة أسفار العهدين. أما القرآن الكريم الذی يتميز بالسمو و الجلال و الحسم فلا تجد فيه أثرا لصياغات البشر المعتادة «۲». - ثم إن أسلوب القرآن يطوی كثيرا من المسافات و التفاصيل التی نراها فی السرد العادی عند البشر، خذ مثلا قوله تعالی: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ [۱] خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ [۲] اقْرَأْ وَ رَبُّکَ الْأَکْرَمُ [۳] الَّذِی عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [۴] عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ یَعْلَمْ) [۵] (سورة العلق). فلو جری علی طريقة العهد القديم أو الجديد أو سواهما من طرق السرد البشری لقال مثلا ":إنه كان فی ليلة السابع و العشرين من شهر رمضان و فی منتصف هذه الليلة التی هی خير من ألف شهر فتح كتاب اللّه للروح المتعطشة بواسطة جبريل: ملاك من عند اللّه ظهر لمحمد و أمره بلغته العربية (اقْرَأْ) أحس محمد بالخوف و الرهبة، فصاح قائلا: (ما أنا بقارئ) و اعاد الملك أمره: اقر.

(_____ ۱) انظر المرجع نفسه؟؟؟ ۲ عن الترجمة الإنجليزية للقرآن؟؟؟ علی (۲) راجع القرآن معجزة المعجزات ترجمة علی عثمان من ۴۹ إلی ۵۳ لمختار الاسلامی نشر و توزيع. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۳۶ و أجاب محمد بنفس الإجابة، و ضمه جبريل بقوة و أمره للمرة الثالثة: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ). لكن جلال النص الإلهی يبدأ بقوله: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِی خَلَقَ ..) فيتجاوز البداية التی اعتاد البشر أن يبدأ بها، و يتبع الآية بآيات أخری تتضمن أن اللّه الذی خلق الإنسان من علق فأحياه بقدرته يبدأ معه حياة جديدة بهذه الرسالة التی كان أولها أمرا بالقراءة. ثم يقول ديدات ":إنك لا تجد فی نصوص القرآن عربية أو مترجمة تفاصيل تتعلق بسنّ محمد صلّی اللّه عليه و سلّم و أنه كان فی الأربعين عند ما تلقی الوحی و لن تجد فيها تحديد المكان الذی نزل فيه الوحی و أنه كان فی غار حراء، و لن تجد فيه ما حدث بعد هذا من انصرافه سريعا إلی منزله علی بعد ثلاثة أميال جنوبا نحو مكة إلی زوجته خديجة. سرد القرآن ليس فيه كل هذا، إنه سرد فريد بصورة مطلقة كما أنه فريد فی جلال إيجازه و حسمه، و هو فريد فی حفظه من تدخل الرجال فيه بالزيادة أو الحذف هو إعجاز، بخلاف الأسلوب الأدبی البشری فی ابتدائه و فی انتهائه و فی أسلوبه و فی طريقته، و لا يوجد كتاب دينی فی العالم كله يتبع هذا النمط، لأنه ليس هناك وحی آخر حافظ علی نقائه منذ أن نزل حتی الآن «۱» كما هو شأن القرآن، و صدق اللّه تعالی: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) [الحجر: ۹]. و هناك وجه آخر سماه بالمعجزة الإعلامية: و هی من صميم المعجزة الأسلوبية أو البلاغية، و يقصد بها طريقة القرآن فی الخطاب، فإنه يخاطب كل الطوائف بأسلوب واحد قادر علی أن يستفزهم جميعا للمعرفة و قادر علی أن يستحوذ علی غرائز حب المتابعة و الاستطلاع، لقد كان محمد اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم فی المدينة محاطا باليهود و النصاری و المسلمين و المشركين و المنافقين، و القرآن ينزل بقوله تعالی: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) [الحجر: ۹ (_____]؟ ۱) راجع القرآن معجزة المعجزات، احمد ديدات ۵۹. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۳۷ لم يكن الرسول صلّی اللّه عليه و سلّم عنده

علم بموسى و لا أحد من المسلمين و لم يكن بين أيديهم صحف بالعربية تدلهم على سيرة موسى إلا اليهود و النصارى أما المسلمون فكانوا يستشرفون و يتطلعون لمعرفة الإجابة، و أما اليهود و النصارى فكانوا يتربصون اختبارا و انتظارا لخطأ ما أو تناقض، فالكل يصغى و يستشرف فى التباه شديد، و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم يتابع ما يتلقاه من شفرات الوحى: (إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ ناراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً) [طه: ۱۰]. و هنا يعقد ديدات مقارنة بين هذا الإيجاز الحاسم و بين ما ورد بشأن قصة موسى فى سفر الخروج و ما فيها من تفصيلات تبتعد عن قداسة النص الإلهى و تبعد عن طريقته سبحانه فى الحديث «۱». و فضلا عن هذا فإن النص القرآنى حافل بالمعانى الروحية التى تنبثق من الآيات المنتظمة الإيقاع، كل من الإيقاع المسجع و المعنى العميق فى القرآن هو موطن السر الإعجازى «۲». و الحق أنه لا ينبغى أن يطلب من رجل أعجمى حديث عهد بالإسلام و القرآن أكثر من هذا، و إن كان يعد ما استنبطه أقل ما يمكن فى خصوصيات القرآن و جهات تميزه و أسرار إعجازه، فليس الإيقاع المسجع و لا المعنى العميق وحدهما يرجع إليهما سر الإعجاز القرآنى مع أن الإيقاع يرتبط بطريقة الأداء اللافتة التى يمكن أن تكون هى أول شىء يستوقف من يصغى للقرآن لأول مرة. و لعل هذه حكمة اللّه سبحانه فى الطريقة الفريدة لصياغات القرآن بحيث يستولى ما فيه من انسجام و اتساق و توازن و إيقاع على حواس من يستمع إليه لتكون له وقفة و تساؤل، و حينئذ ينتقل للإصغاء إلى معانيه، و لهذا كان من الطبيعى أن يرتبط الإيقاع المسجع بالمعنى العميق فى ذهن أحمد ديدات ليرى فيهما موطن الإعجاز الأول، و هو يقصد بالمعنى العميق المعانى الجديدة التى تتصل بهدى القرآن و تشريعه و أخلاقه التى تنظم حياة الفرد و الجماعة و الأمة فى كل نواحيها

(_____ ۱) انظر القرآن معجزة المعجزات ۶۹.

(۲) نفسه ۷۱. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۳۸ من غير تفاوت و لاختلاف، فهذا ما تنبه إليه و نص عليه أكثر من مرة، و لا شك أن المعانى القرآنية من أبرز ما يدخل فى الإعجاز لأنها معان إلهية فى مجملها و تفاصيلها و فى مجرى نفاذها من العقل و طريقة صياغتها للفكر، فضلا عن أساليبها و طرق التعبير عنها، فالمعنى القرآنى المعجز هو الذى أدى إلى ذلك النظم المعجز.

بين النص القرآنى و النص النبوى:

بين النص القرآنى و النص النبوى: ينهج ديدات نهجا سديدا فى إثبات الإعجاز القرآنى حين يوازن بين نصّ قرآنى و نص نبوى حول معنى واحد ليثبت أن النصين مختلفان فى الأسلوب و البناء و الجلال على الرغم من أن كليهما قد خرج من نفس الشفاه. فهو يريد أن يصل من ذلك إلى تميز النص القرآنى، و أنه لا يمكن أن يكون هو نفس أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و لا ريب فى أن هذا من أفضل المناهج فى خطاب الآخر الذى يمنعه من الإيمان بهذا الدين شكه فى مصداقية الرسالة، و شكه فى أن القرآن وحى من عند اللّه. لقد نظر إلى قوله تعالى: (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما وَ يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) [البقرة: ۲۱۹]. ثم نظر إلى حديث رسول اللّه الذى رواه ابن ماجة و الترمذى عن أنس قال ":لعن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى الخمر عشرة: عاصرها و معتصرها و شاربها و حاملها و المحمولة إليه و ساقيها و بائعها و آكل ثمنها و المشترى لها و المشترى له "و قوله صلى اللّه عليه و سلم ":ما أسكر كثيره فقليله حرام "ثم يقول ديدات ":انظر مرة أخرى فى النص القرآنى و كلمات حديث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم السابقة و سوف لا يسعك إلا- أن توافق على أن الاثنين مختلفان فى الأسلوب و البناء و الجلال على الرغم من أن كليها قد خرج من نفس الشفاة «"۱».

(_____ ۱) القرآن معجزة المعجزات، ترجمة على عثمان ۷۴ ۷۶. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۳۹ و أحمد ديدات فى هذه الموازنة السريعة يعوّل على حسّ القارئ المتجرد الذى ينشد الحقيقة، و كان يقتصر على هذا لأنه لا يملك أدوات البحث الأسلوبى التى تمكنه من الوقوف على خصائص النظم و المعانى المميزة للآية القرآنية عن الحديث النبوى، و هو نفسه يعترف بهذا و ينبه إليه عند ما يذكر أن المجال مفتوح

فی هـذا الإطار لمن هو أفضل منه من العلماء و الباحثين ليجلو المزيـد من أوجه الإعجاز. و الحق أن الإنسان قد يصل بقليل من العلم و كثير من الإخلاص و الحمية و الرغبة إلى ما لم يصل إليه كثير من المتخصصين إذا لم يكونوا بنفس القدر من الإخلاص و الغيرة، لأن الوقوف على الحقيقـة لاـ يكون إلاـ بتأييـد و سـند من اللّه الـذى يقـذف بنور الحق فی قلب من شـاء من عبـاده المخلصـين، و لعل فی الموقف التالی دليلا على هـذا، إذ نرى توفيقا غير عادى لأحمـد ديدات فی الكشف عن جانب من جوانب الإعجاز التشـريعی ينطق به بين حشود غير مسـلمة فيكون سـببا فی هدايـة الكثيرين منهم، يقول ": منـذ سـنوات مضت فقـد ملك السويد زوجته المتوّجة، فعكف رجال الكنائس على البحث فی التشـريعات المسيحية لتحديـد الفترة التی يجوز لملك البلاد بعـدها أن يتخذ ملكة جديدة، و لما كان للملـك ثمـانی زوجـات أخريـات تحوّل البحث نحو قضـية أخرى هی متى يجوز لأرملـة الملـك أو غيره أن تتزوج من جديـد؟ و أمر الملك بعقد مجمع عام لكل الكنائس آملا فی الاتفاق على رأى .. يقول ديدات ":سعيت لحضور المناظرة الممتعة و معی أخی مسلم صديق من السويد فأذن لنا، و فی إحدى الجلسات احتدم النقاش و توالى المتحدثون يتبارون فی مواهبهم الخطابية، فتجاوب السامعون مع كـل متحـدث بالتصـفيق الحـاد، و كلمـا قـام متحـدث نقض مـا قاله سابقوه و اسـتهزأ بعقولهم، و بعـد ساعات طوال جاء دورى فی الحديث فبدأت بقولی: ما زلنا منذ الصـباح الباكر ندور حول أنفسـنا فی حلقة مفرغة بحثا عن إجابة شافية لقضية مدة العدة للأرملة، و الكل يستشـهد مرة تلو المرة بالعهـد القـديم ثم بالعهد الجديد، و هكذا بلا طائل، و السـبب هو أن أحدا منها لم يلجأ إلى العهد الأخير أقصـد إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۴۰ هذا المصـحف الشريف الذى رفعته فوق رأسی ليراه الجميع .. العهد الأـخير يـا سـادة هـو القرآن الكريم ففی سورته الثانيـة "سورة البقرة "الآيـة [۲۳۴] سـتجد الإجابـة الحكيمـة (وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِی أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ). ثم تساءلت: أربعـة أشـهر و عشـرة أيام أ تدرون لما ذا؟ صاحوا جميعا: لا فاسـتطردت لأشـرح الحكمة المعجزة فی هذا التشـريع، فأشرت إلى آية سابقة فی سورة البقرة تحدد عدة المطلقة بثلاثة شهور للتأكد تماما من عدم حملها، قال تعالى: (وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِی أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِی ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِی عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة: ۲۲۸] «۱». و لقد زيدت المدة للأرملة فوق عدة المطلقة أربعين يوما إضافية، و لم يكن ذلك اعتباطا أو ضربة لازب و إنما لحكمة تبيّنها الآية التالية: (وَ لاـ جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِی أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَ لكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِی أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) [البقرة: ۲۳۵]. فنهى سبحانه عن الوعـد أو الاتفاق سرا على الزواج قبل انتهاء مدة عدة الأرملة كما نهى من باب أولى عن عقد الزواج قبل انتهاء تلك الفترة التی تزيـد فيها عدة الأرملة عن عدة المطلقة أربعين يوما، و الحكمة الإلهية يا سادة هی حماية الأرملة من اسـتغلال الرجـل لضـعفها و ظروفهـا و نفسـيتها للإيقـاع بهـا فی زواج غير

(_____ ۱) و ذلـك فی حـد ذاتـه إعجـاز علمی، و حكمته سبحانه تكمن فی أن المرأة الحامل قـد تستحيض مرة أو مرتين، و يستحيل علميا أن تستحيض الثالثة "من تعليق المترجم نبيل عبد السلام هارون ۷۳ القرآن معجزة المعجزات. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۴۱ متكافئ يضر بمصالح أبنائها مع زوج لا يحفظ لها قدرها، فهی فی حاجة إلى فسحة من الوقت تستعيد فيها توازنها و صفاء نفسها و فكرها و تناقش الأمر بهـدوء مع أهلها و تلتمس النصح و الرأى قبل اتخاذ القرار السليم. فهل كان محمد صلّى اللّه عليه و سلّم عالما فی الاجتماع أو خبيرا فی التشريع حتى يجيء بهذا التشريع الحكيم من عند نفسه؟ كلا بل هو تشريع خالق الكون العليم الحكيم، و ما محمد إلا مبلغ يتلقى الوحی من اللوح المحفوظ ليردده بلا تبديل و لا تحريف إلى البشرية جمعاء. و سيظل القرآن يتحدى أى شك أو ريبة فی قوله سبحانه: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هـذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) [الإسراء: ۸۸].

لقد تحدى القرآن البشرية كلها عبر تاريخها الطويل منذ فجر الدعوة إلى قيام الساعة أن يأتوا بمثله، فشهد التاريخ بعجزهم و أثبت أن القرآن معجزة المعجزات الشامخة التى تتكسّر على سفحها كل ادعاءات البشر و محاولات التضليل التى لم تلق إلا السخرية و الإشفاق مثلها فى ذلك مثل عبث الأطفال و صياحهم ابتداء من مسيلمة الكذّاب الذى ظن أنه يضاهى القرآن بعبارات مثل ": الفيل ما الفيل، و ما أدراك ما الفيل، له ذنب قصير و خرطوم طويل "إلى أحدث ما ظهر فى أسواق النشر من طبعة عربية جديدة للإنجيل باسم ":سيرة المسيح بلسان عربى فصيح "حاول كاتبوها أن يقلدوا عبارات القرآن و لم ينسوا افتتاح كل جزء بعبارة "بسم اللّه الرحمن الرحيم "و تقليد شكل السورة و الآيات بالمصحف، لكن ذلك لم يزدنا إلا يقينا بالقرآن، و أترك للقارئ الحكم على مثل هذه المحاولات. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۴۲ (۲۷) باب السّكينة مقدسيّ بسم اللّه الرّحمن الرّحيم (۱) قل يا أيّها الّذين آمنوا إن كنتم تؤمنون باللّه حقّا فآمنوا بى و لا تخافوا إنّ لكم عند اللّه جنّات نزلا (۲) فلأسبقنّكم إلى اللّه لأعدّها لكم ثمّ لآتينّكم نزلة أخرى (۳) و إنّكم لتعرفون السّبيل إلى قبلتى العليا فقال له توما الحوارىّ مولانا إنّا لا نملك من ذلك علما (۴) فقال له عيسى أنا هو الصّراط إلى اللّه حقّا و من دونى لا تستطيعون إليه سبيلا (۵) و من عرفنى فكأنّما عرف اللّه و هإنّكم منذ صورة صفحة من الإنجيل الجديد إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۴۳

الفصل الثالث موازنات تطبيقية للفصل فى قضايا شائكة

اشارة

الفصل الثالث موازنات تطبيقية للفصل فى قضايا شائكة المبحث الأول: موازنات فى ضوء إشارات ابن ناقيا المبحث الثانى: موازنات بين القرآن و الشعر. المبحث الثالث: موازنات بين نصوص قرآنية و نصوص نبوية المبحث الرابع: قصة يوسف عليه السلام بين القرآن الكريم و الكتاب المقدس. المبحث الخامس: دور الموازنة فى الكشف عن محاولات التحريف فى القرآن إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۴۵

المبحث الأول موازنات فى ضوء إشارات ابن ناقيا

اشارة

المبحث الأول موازنات فى ضوء إشارات ابن ناقيا بعد طول النظر لوحظ أن الموازنات فى كتاب ابن ناقيا يمكن أن يستنبط منها ظواهر خاصة مستمدة من طبيعة الشواهد القرآنية و أوجه التأثر التى نجدها فى تشبيهات الشعراء، فمن تلك الظواهر:

(۱) الموازنة بين صور المعانى:

(۱) الموازنة بين صور المعانى: (أ) قال تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) [البقرة: من الآية ۷۴]. يقول البغدادى ":و إنما شبه اللّه عز و جل قلوب اليهود فى القسوة بالحجارة؛ لأن الحجارة هى غاية المثل «۱» قال الفرزدق: أما العدو فإنا لا نلين له حتى يلين لضرس الماضغ الحجر و يذكر تشبيهات عدة من الشعر شبه فيها القلب بالحجر أو الصخر كقول ذى الرمة: لو كان قلبك من صخر لصدّعه هيج الديار لك الأحزان و الذّكرا و قول سلم بن عطاء: يلين من لا أريد رقته و قلب من أشتهيه كالحجر و قول ابن أمية يصف محبوبا: أطرافه تعقد من لينه و قلبه كالحجر القاسى و قول الحكمى: فيا ليت شعرى أ من صخرة فؤادك هذا الذى لا يلين (_____ ۱) يقصد فى القسوة و الجمود و الصلابة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۴۶ و المعنى ملحوظ فى قول كثير: كأنى أنادى صخرة حين

أعرضت من الصم لو تمشى بها العصم زلّت و قول آخر: و لو أن ما أشكو إليكم شكوته إلى جبل لارفضّ أو لتصدّعا و حاصل كلام ابن ناقيا «۱» أن الشعراء أخذوا المعنى القرآنى الذى يصف القلوب بالقسوة و يشبهها بالحجارة لكنهم لم يستوفوه لأنهم وقفوا عند تشبيه القلوب بالحجارة، لكن القرآن جعلها (أَشَدُّ قَسْوَةً) و عبارته "و قصّروا فلم يستوفوا المعنى كما استوفاه القرآن بقوله سبحانه (أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً. "و لو أن ابن ناقيا وازن بين صورة المعنى فى القرآن و صورته عند الشعراء لكان أجدى و أجدر بالكشف عن جهة تميز القرآن؟؟؟ تناول المعانى و هذا ما كان يسعى إليه عبد القاهر، فليست المسألة مبالغة فى المعنى كما يفهم من كلام البغدادى و إلا فإن قول الشاعر- و قد سبق- و لو أن ما أشكو إليكم شكوته إلى جبل لارفضّ أو لتصدّعا يتضمن أن هؤلاء الأحبة الذين يشكو إليهم، و يتذلل لهم فلا يأبهون به، و لا يلتفتون إليه قلوبهم أقسى من الجبل؛ لأن الجبل لو سمع شكواه لتصدّع، و هى صورة يتجاوز المعنى فيها حدود الإمكان. و إنما المعول عليه هو صورة المعنى و سياقها الذى وظفت لأداء غرض خاص فى إطاره إن السياق القرآنى يسعى إلى بيان كفران اليهود نعمة اللّه عليهم، و جمودهم أمام الآيات الدالة على قدرة اللّه سبحانه، فلقد ثبت أمام أعينهم قدرته سبحانه على إحياء الموتى، و ذلك عند ما ضربوا من قتلوه ببعض البقرة فعادت إليه الروح و دبّت فيه الحياة (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [البقرة: ۷۳]. و يدل هذا على أن المشكلة تكمن فى ضعف يفنيهم؟؟؟ فى

(_____ ۱) يقول "إن هؤلاء أخذوا تشبيه القرآن و قصروا، فلم يستوفوا المعنى كما استوفاه القرآن بقوله سبحانه (أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) من الدلالة عليه و التعليل له يقصد قوله سبحانه (إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ) الآية راجع الجمان فى تشبيهات القرآن تحقيق عدنان زرزور و محمد رضوان الداية، المطبعة العصرية بالكويت؟؟؟ ۱۳۸ ه ۱۹۶۸ م إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۴۷ البعث بعد الموت، و لهذا كانت قصة البقرة و الرجل الذى قتلوه ليكون مثلا عمليا دالا على قدرة اللّه سبحانه على البعث (كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ). لكنهم اتجهوا اتجاها معاكسا فقست قلوبهم، و هذا هو السياق الذى ورد فيه تشبيه قلوبهم بالحجارة. على أن القرآن تدرج فى البداية بالوصف الدال على علم اللّه بموقفهم بعد ما ظهر لهم ما ظهر من قدرته سبحانه (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ) ثم ترقى من هذا الخبر إلى التشبيه الكاشف عن مدى تلك القسوة (فَهِيَ كَالْحِجارَةِ) ثم ترقى إلى درجة ثالثة هى النهاية فى الوصف (أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) و هو بهذا لا يفاجئنا بالتشبيه الذى يصور قلوبا بالحجارة، و إنما يسير مع المعنى سيرا طبيعيا وفق ما يقع فى الواقع من القسوة التى جاءت بعد طول الأمن كما تدل عليه (ثُمَّ) فى قوله (ثُمَّ قَسَتْ) فمن شأن تلك القسوة التى جاءت بعد طول مدى أن تكون شديدة (فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) ثم لما كان الإضراب عن التشبيه إلى ما هو أقوى منه فى الدلالة على مدى تلك القسوة، و لما كان وصف الذى ينبض بالحياة بأنه أشد قسوة من الحجارة مثار تساؤل، أزال ذلك الإبهام بقوله: (وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ «۱» وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) [البقرة: من الآية ۷۴]. و هذه العبارة لا تكشف إبهام قوله (أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) فحسب، و لكن تتضمن إلى جانب هذا اللفت إلى مزيد من قدرة اللّه و عظمته مع الإشارة إلى أن قلوبهم لا- يرجى منها لين أبدا، و قد صدق اللّه فيما ضمن من حديثه، كما تشير هذه العبارة إلى سبب الداء الذى أصاب قلوبهم و هو التبلّد و عدم الشعور بالخوف من اللّه، و ذلك فى قوله: (وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)، فإذا كانت قلوبهم أشد قسوة من الحجارة، و من الحجارة ما يهبط من خشية اللّه، فمعنى هذا أن قلوبهم لم تعرف تلك الخشية، و هذا هو السبب فى قسوتها، ناهيك عن إشارة قوله: (وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ) إلى أن ننتظر الخير من

(_____ ۱)- هى العيون التى تتلاقى فى مجال أوسع تصب فيه. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۴۸ الحجارة و لا ننتظره من أصحاب القلوب القاسية. إن كل هذه المعانى تعد سياقا و إطارا للتشبيه، و لا يمكن تقديره و فهمه إلا من خلالها. و نعود إلى ابن ناقيا فقد وقف عند هذا التكميل فى الآية (وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ) ... الآية فيرى فيه بيانا لصيرورة قلوبهم أشد قسوة من الحجارة، و أن بعض الشعراء

المولدين اقتفى معناها كقول أحدهم: يا شبيه البدر فى الحسن و فى بعد المنال جد فقد تنفجر الصخرة بالماء الزلال و قوله: و لا تعجبا للجلد يبكى فربما تفطّر من عين من الماء جلمد ثم يقول ":و معنى التنزيل أتم و أعم و أوفى و أعلى "و هذه طريقته التى لا يتجاوزها فى مجال الموازنة، و حسبه على كل حال أنه التقط من الأبيات ما يظهر فيه التأثر بالآية القرآنية. فإذا نظرنا فى كيفيات التعبير و الصياغة وجدنا بعدا شديدا بينهما فشتان ما بين قوله تعالى (وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ) و بين البيتين السابقين، نجد فى صورة المعنى القرآنى أثرا من آثار القوة الدالة على عظمة المتحدث إذ نجد المعنى مؤكدا بإن التى تصدرت الجملة و اللام التى دخلت على الخبر (لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ) بما يدل على قدرة العليم الخبير الذى يخرج الحى من الميت، على أنه لم يقل و إن اللّه يخرج الأنهار من الحجارة؛ لأنه ليس بصدد الحديث أساسا عن تلك القدرة، و إنما الحديث أصالة بشأن تلك القلوب القاسية و التى هى أقسى من الحجارة حتى لينتظر الخير من الحجارة و لا ننتظر من تلك القلوب خيرا أبدا. و يشير التأكيد الواثق فى هذه الجملة (وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ) إلى أنها حقيقة تخلو من أى مبالغة، و قد توخى فى صياغتها ما يدل على كمال صدقها كما نرى فى حرف الجر (من) الذى يشير إلى عدم إطراد الظاهرة، فليست كل حجارة يتفجر منها الأنهار و لكن بعضها، ثم جمع (الأنهار) للإشارة إلى إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۴۹ تكرار الظاهرة و إن لم تطرد، و ربما أشار ذلك الجمع إلى قوة التدفق حتى قد نرى أنهارا تتفرع من مصدر واحد، و لعل التعبير بالتفجّر يدل على هذا. ثم إن شئت فوازن بين التأكيد الواثق فى الآية الدال على علم المتحدث و عظمته، و بين قول الشاعر أولا: .. فقد تنفجر الصخرة بالماء الزلال و قوله ثانيا: .. فربما .. تفطّر من عين الماء جلمد فعبر "بقد "مع المضارع تارة و "ربما "تارة أخرى، و هى من الأدوات الدالة على القلة و الاحتمال، فشتان ما بين تعبير الخالق العليم بمخلوقاته فيؤكد، و تعبير المخلوق الذى لا علم له فيقف عند حدود علمه قائلا قد يحدث و ربما. ثم إنه شتان ما بين التعبير القرآنى (يَتَفَجَّرُ) و بين قول الشاعر (ينفجر)، لأن التفجّر «۱» يدل على الحركة الطبيعية التى تحدث عند ما تتشقق الصخور فيتفجر منها الأنهار، بخلاف الانفجار «۲» الذى لا يدل على ذلك دلالة صادقة، ثم إنه شتان ما بين التعبير القرآنى (يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ) و بين قول الشاعر: ... تفطّر عن عين من الماء. فمع أن التفطّر بمعنى التشقق لكن للتشقق جرسا صوتيا موحيا بالمعنى مصورا لحركة انفلاق الصخر عن الماء، فالصورة فى هذا الشعر بليغة لكن التعبير القرآنى أبلغ و أكمل، فضلا عن السياق الذى وظفت فيه الصورة القرآنية و التى جعلت لها مساقا و اتساقا و روعة و جمالا و أثرا فى القلوب لا تجده فى ذلك الشعر. (ب) قال تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِى ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ) [البقرة: ۱۷]. يقول ابن ناقيا ":هذا التشبيه للمنافقين فى تجملهم بظاهر الإسلام و حقنهم دماءهم بما أظهروا، فمثل ما تجملوا به من الإسلام كالنار التى يستضىء بها

(_____ ۱) مصدر الفعل تفجر يتفجّر الذى ورد فى الآية. (۲) هو مصدر الفعل ينفجر الذى جاء فى البيت. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۵۰ المستوقد، و قوله تعالى: (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ) معناه: اطلاع اللّه المؤمنين على أمرهم .. و يجوز ذهب اللّه بنورهم فى الآخرة، ... حتى يصل إلى قوله تعالى: (يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [البقرة: ۲۰]. و نظر أعرابى إلى هذا المعنى فقال: و ليل بهيم كلما قلت غوّرت كواكبه عادت فما تتزيّل به الركب إما أومض البرق يمّموا و إن لم يلح فالقوم بالسير جهّل و بين هذا و لفظ التنزيل من التفاوت ما هو ظاهر ظهورا شديدا لا يخفى على ذى لب «"۱» و من الواضح هنا أن البيت و إن تناول المعنى القرآنى فى قوله تعالى: (كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا) فإنه قصّر فى اللفظ و فى الصياغة، و لهذا اتجه البغدادى إلى الموازنة فى اللفظ و إن جاءت موازنة مجملة مختصرة إذ يقول ":و بين هذا و لفظ التنزيل من التفاوت ما هو ظاهرة «"۲». أ. ه كلامه. و عند التأمل يظهر الفرق من جهات متعددة: ۱- المعنى القرآنى يعد جزءا من التمثيل الذى يصور التوزع النفسى و الرعب الذى يسيطر على المنافقين مما يجعلهم مضطربين عاجزين عن النجاة فى الدنيا و الآخرة و لعل ذلك البرق هو نور الإيمان الذى كانوا يكرهونه، لكن هذا لم يمنع مسايرته كلما أضاء لهم أى بدا لهم من الإسلام

منفعة تعلقوا بها، و رددت ألسنتهم كلمات الإسلام، فإذا وجدوا حرمانا أعطوه ظهورهم و سخطوا عليه و هذا معنى (وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا) «۳». فالجملة القرآنية جزء من مثل يؤدى وظيفة محددة فى إطار ذلك التمثيل، و عند ما يأتى شاعر و يقتطع هذا الجزء ليوظفه توظيفا آخر فإن قدرا كبيرا من المعنى يختلف فضلا عن اللفظ.

(۱) الجمان فى تشبيهات القرآن ۱۶

(۲) المصدر السابق ۱۶ (۳) راجع فتح القدير؟؟؟ ۴ إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۵۱ و الفرق يتلخص فى أن البرق فى المثل القرآنى قوى حاد لا يستطيع الإنسان أن يثبت نظره فيه (يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ) فهذا هو نور الإيمان الذى لا يحتملونه لمرض فى قلوبهم، لهذا فإنهم يعطونه ظهورهم لكنهم يفيدون منه إفادة ما عبر عنها بقوله فى المثل: (كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ) و حاصل هذا أن البرق فى الآية قوى يسمح بالمشى فيه بعض الوقت. لكن كيف يسمح برق ضعيف خاطف للركب بالسير و الاتجاه هنا و هناك كما ذكر الشاعر: إما أومض البرق يمموا فكأنه لم يلحظ أن البرق فى المثل القرآنى إنما سمح للقوم بالمشى فيه لأنه كان قويا حادا، أما برق الشاعر فإنه إيماض، فكيف يسمح الإيماض للقوم بالسير عدة خطوات؟ فهذا خطأ فى المعنى ناشئ من اقتباس جزء المعنى القرآنى اقتباسا ناقصا، فضلا عن انتزاعه من سياق خاص إلى سياق آخر مختلف. أما بقية الأخذ فمن قوله تعالى: (إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا) سلخه الشاعر فى قوله: .. و إن لم يلح فالقوم بالسير جهّل و شتان ما بين "إن لم يلح "و قوله تعالى (إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ) لأن التعبير القرآنى متمكن فى موقعه، فبعد ذهاب البرق مع الضوء القوى الساطع لا يكون إلا الظلام؛ لأن الشعور بالظلمة الحقيقية لا تكون إلا بعد ضياء قوى، لكن الشاعر جعلها حالة أخرى منفصلة فى قوله ":و إن لم يلح "و كأن لم يكن قبلها برق، ثم شتان ما بين جواب الشرط فى الآية (قامُوا) و بين جواب الشرط فى الشعر: (فالقوم بالسير جهّل) و لاحظ ما فى اللفظ القرآنى من إيجاز و إشعار بأن القوم لم يتوقفوا حسب و لكن مع ذلك بهتوا و انزعجوا، لأن القيام لا يكون إلا لأمر ذى بال، ثم لك أن تتصور حركة القوم المضطربة عند ما يختفى ضوء البرق، و قيامهم ينتظرون عودته مرة أخرى، و كأن فترة الانتظار طالت حتى تعبوا من الانتظار فهم ما بين جلوس و قيام يتشوقون و ينتظرون. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۵۲

۲- موقع المعنى و تشكيله فى إطار الصورة:

۲- موقع المعنى و تشكيله فى إطار الصورة: قال تعالى: (إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) «۱» [يونس: ۲۴]. يقول ابن ناقيا ":فالتشبيه فى الآية أحسن موقعا و أبلغ معنى من جميع ما وصف به حال الدنيا و ميل النفوس إليها مع قلة صحبتها و الاستمتاع بلذتها «"۲» لكنه يأتى بشواهد من الشعر كثيرة لا تفيد أكثر من أن العرب تنزل حيث ينزل الغيث و ينبت الكلأ، و لا يصح له ما يشبه المعنى القرآنى من حيث التحول من الخضرة و الظل إلى الجفاف و الهشيم إلا معنى أو معنيان كقول ذى الرمة: يا صاحبىّ انظرا آواكما درج عال و ظلّ من الفردوس ممدود حتى إذا وجفت بهمى لوى لبن و ابيضّ بعد سود الخضرة العود «۳» ظلّت تخفّق أحشائى على كبدى كأننى من حذار البين مورود و قريب منه فى مطلق التحول و النضرة على الذبول قول أبى العتاهية: عريت من الشباب و كنت غضا كما يعرى من الورق القضيب و كأنما اجتنى ثمرة هذا البيت من الجعدى فى قوله: و ما البغى إلا على أهله و ما الناس إلا كهذا الشجر ترى الغصن فى عنفوان الشباب يهتز ذا بهجات خضر زمانا من الدهر ثم التوى فعاد إلى صفرة فانكسر و مجموع هذه الصور الشعرية تلتقى مع الآية الكريمة فى البداية المفرحة و النهاية المحزنة، لكن الصورة القرآنية تتميز عن تلك الصورة الشعرية بأمرين: الأول: موقع الصورة و وظيفتها الثانى: تشكيل هذه الصورة بالتفاصيل الدقيقة التى تحقق تلك الوظيفة.

(۱) غنى بالمكان: اذا اقام به، و

المغانى: المنازل- المصباح فالمعنى فى الآيـة- و اللّه اعلم- كان لم تعمر بزرعها و اهلها بالامس (۲) الجمال فى تشبيهات القرآن ۵۸ (۳) و جفت: حرب، و الوجيف: ضرب من السير، و لبن: موضع. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۵۳ فالصورة القرآنيـة تقع موقع المشبه به الـذى يصور الحياة، و تتلخص غايتها فى التحذير من الاغترار بالدنيا، و أن يضع كل فى اعتباره أن الحياة الـدنيا لها نهايـة، فلا يغرق فى متعها، و لا يبالغ فى التزين بزينتها، لأن الوصول إلى هـذا الحـد من التمتع و الزينة يجعل الشـعور بفقدها مفزعا قبل الفقـد، فالمثل القرآنى موظف لغاية دينية هى التحذير من الانصـراف الكلى للدنيا. فإذا جئنا إلى تشـكيل هذا المثل وجدناه قـد تصدر بأداة القصـر (إنما) الدالة على أن ذلك المثل على طوله هو المرآة التى لا تجد مرآة سواها تعكس لك الدنيا بصدق، فهى وسـيلة جاذبـة لافتـة و مسـتميلة فى الوقت ذاته للتعرف على حقيقة الحياة الدنيا من خلال تلك المرآة الصادقة. الحياة الدنيا فى البداية (مـاء) و المـاء هو أسـاس الحياة. - و (أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ) مؤذن بقـدوم الرزق لقوله تعالى (وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ) ... - (فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ) أى التف مخضـرا يعجب النـاظرين ممـا يؤذن بحصول الثمرة، و الـدنيا تبـدأ مراحل الانبهار بها من الحاجـة حتى إذا حـدثت الحاجـة الضـرورية بقوله: (مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعـامُ) عبر عن مرحلـة الترف الممتع التى تسـقط فيهـا النفوس ذات الرغبات و النزوات بقوله (حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها). و لا شك أن المغالاة فى التزود من متع الحياة الـدنيا حتى تتجـاوز مرحلـة الإشـباع يؤذن بالهلاـك، و هنـا نجـد قوله تعـالى يعبر عن هـذا فى جـانب المثـل بقوله: (أَتاهـا أَمْرُنـا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ). فهـذا تصوير صادق لمراحل الحياة الـدنيا و مواقف الناس منها، و تتلخص فى البدايـة بالحاجة التى يعقبها الإشـباع و الترف ثم تتجاوز هذا إلى السـقوط فى مراتع الشـهوات التى يعقبها الهلاك، و هذه المراحل دلت عليها العناصر التى تشـكل منها المثل على ترتيب خاص. فإذا نظرنا إلى تلك الشواهد الشعرية افتقدنا هاتين الميزتين، فلا نجد للتشبيه أو التمثيل فيها وظيفة سوى التحسر على أيام الرخاء و قرب الأحبة و الحزن على ما فات. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۵۴ ثم لاـ نجـد تشـكيلها على النحو الـذى وجـدناه فى الآيـة حيث تجاورت عناصـر المثل فيها على ترتيب خاص يتناسق مع مكونات المعنى المقصود و ترتيب عناصره. و إنمـا نجـد فى تلـك الأشـعار عنصـرين اثنين يمثل أحـدهما حال النضـرة و يمثل الآخر حال الجفاف، و راجع قول الأول: .. و ابيض من بعد سواد الخضـرة العود فالبياض كناية عن الجفاف، و سواد الخضرة كناية عن نضرتها، و قول الثانى" أبو العتاهية: "عريت من الشـباب و كنت غضّا كما يعرّى من الورق القضيب فلا تجد سوى هذين العنصرين فى كل من طرفى التشبيه: العنصـر الأول الـذى يمثل النضـرة، و الثانى الـذى يمثل الجفاف، و لم يزد الشاهـدا الثالث على هـذا سوى أنه قال أولا: و ما الناس إلا كهذا الشجر ثم ذكر ما يحدث للشجر من جفاف بعد نضرة، فهو كالثانى إلا أنه فصل فى المشبه به تفصيلا لا يفهم منه إلا ما يفهم من قول أبى العتاهيـة: كما يعرى من الورق القضـيب. فلا نجد ما نجده فى الصورة القرآنية من تعدد العناصـر التى تشـكّل منها المثل على ترتيب خاص، و لكل عنصـر دلالة بحيث تتناسق تلك الدلالات الجزئية لتشـكل معنى مركبا يتناول مراحل الحياة التى تبدأ بالحاجة، و كان فى إمكان الإنسان أن يقف عندها مكتفيا بسدها، لكنه خضع لشـهوات النفس فتجاوز حد التشبع بالمتع، فكان لا بدّ من الهلاك، و هو النهايـة الحتميـة للحياة الـدنيا. أما المؤمن فإنه لا يغتر بتلك الحياة، و يقف عند حدّ الكفاية يحمد اللّه عليها و يرحب بلقاء اللّه، و لـذلك لاـ يشـعر بالفقـد الـذى يشـعر به الكافر حين تقتصـر طموحاته على متع الحياة الـدنيا. إعجاز القرآن و منهـج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۵۵ فالحيـاة المصوّرة فى الآيـة هى حياة اللاهين المنصـرفين عن منهـج اللّه. و بهـذا يتبيّن أن خصوصـية الصورة القرآنية مستمدة من خصوصية المعنى القرآنى الذى لا يرد بخاطر شاعر.

۳- خصوصية المعنى و أثره على كيفيات التصوير:

۳- خصوصـية المعنى و أثره على كيفيـات التصوير: ۱- قـال تعـالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ [۲۶] وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما

أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ [۲۷]) [یونس]. و قد جاء ابن ناقیا بشواهد من الشعر عقب هذه الآیة و لا تلتقی صورها مع الصورة القرآنیة إلا فی المعنی العام المقصود من التشبیه و هو سواد الوجوه. و من الأبیات التی صورت ذلک قول الأول- و أنشده الثوری: و جاءت بنو ذهل کأن وجوههم إذا حسروا عنها ظلال صخور أی سودا لأن ظل الصخرة کثیف، و قال آخر: و أنتم صغار الهام صعد کأنما وجوهکم مطلیة بمداد و قال علی بین جریج الرومی (ابن الرومی) وجهک یا جعفر فی قبحه أولی من العورة بالستر کأنما تأوی إلیه الدّجی إذا هی انفضّت عن الفجر و نقل أن القاضی شریح تقدم إلیه مسلم و نصرانی، فکان النصرانی ألحن بحجته «۱»، و لم یزل شریح یوقظ المسلم لحجته و هو غافل عنها، و کان یوما قائظا فضجر شریح و قال للمسلم": قم عنی فإنی أری ظلمه الکفر علی وجه هذا الجاحد أظهر من نور الإسلام علی وجهک «"۲».

(_____ ۱) ألحن بحجته: أبلغ فی عرضها. (۲)

الجمان فی تشبیهات القرآن ۸۸. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۱۵۶ فالمشبه به مستمد من البیئة البدویة فی البیت الأول الذی یشبه الوجوه بظلال الصخور، و مستمدة من البیئة الحضریة فی البیت الثانی الذی یشبه الوجوه و کأنها مطلیة بمداد، و الصورة الثالثة أبلغ من السابقتین لأنه یصور الوجه من شدة السواد و کأن ظلمة اللیل تأوی إلیه و تتجمع حوله عند ما طاردها الفجر، و یبدو أن ابن الرومی تأثر بالتشبیه القرآنی الذی یصور آثار الذلة علی وجوه الکفار یوم القیامة و کأنما تغطت تلک الوجوه بقطع من اللیل عند ما یمعن فی الظلام. و ربما کانت صورة شریح هی الأقرب إلی روح التشبیه القرآنی و إن کان دونه بمراحل إذ یجعل للکفر ظلمة فی الوجه فی قوله ":ظلمة الکفر فی وجه هذا الجاحد .. "الخ. فالموازنة تنحصر إذن بین بیت ابن الرومی و جملة شریح و بین التشبیه القرآنی، و هنا نجد التشبیه المعجز ینفرد بخصوصیات عدة لا توجد فی غیره، منها: ۱- أنه جاء تصویرا لآثار الکرب و الذلة علی وجه الکافر یوم القیامة، فهو یتناول معنی فریدا لا عهد للعرب به و لهذا جاء التشبیه فریدا فی بابه، فجدة الصورة من جدة المعنی الذی یصوره. ۲- أن هذا المعنی عنصر فی نظم المقابلة التی تبرز منتهی التباین بین الحال الراضیة المستبشرة للمؤمنین و الحال الساخطة التعسة للکافرین یوم القیامة، فالذین أحسنوا لهم الحسنی و زیادة (للتکریم) و لا یرهق وجوههم قتر و لا ذلة، و الذین کسبوا السیئات جزاء سیئة بمثلها و ترهقهم ذلة .. کأنما أغشیت وجوههم قطعا من اللیل مظلما. لکن تصویر سود الوجوه فی الشعر و النثر مقصود لذاته مستقل بنفسه، فکون الجزء الذی لا یستقل بنفسه- فی الآیة- یأتی بصورة نادرة جدیدة تفوق تصویر المستقل فی الشعر و النثر دلیل علی إعجاز الصورة القرآنیة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۱۵۷ ۳- و یبدو أن ابن الرومی تعمّد الأخذ من الصورة القرآنیة، فقد بدأ المشبه به بالأداة (کأنما) کما بدأها القرآن و جعل الدجی کأنها تأوی إلی وجه ذلک الشخص لیجاری ما فی الآیة من قطع اللیل المظلم التی غشّت وجوه الکافرین. لکن ذلک عنده بسبب القبح، لکنه فی القرآن بسبب الذلة، و الذلة معنی نفسی و شعور وجدانی یظهر أثره فی الوجوه حلکة و قتامة، فالتصویر القرآنی یربط بین المشاعر الداخلیة و الآثار الحسیة المترتبة علیها ربطا طبیعیا رائعا یفتقده تشبیه ابن الرومی الذی یصور قبحا محسوسا بظلام محسوس، فلا بد من أن یکون المشبه به أقوی فی الإحساس، و هذا ما ألجأه إلی المبالغة فی المشبه به إذ جعل الدجا هی التی تأوی إلی ذلک الوجه. و لم تکن الصورة القرآنیة بحاجة إلی تلک المبالغة و لا إلی ذلک الخیال؛ لأن المعانی النفسیة تتلمس من المحسوسات ما یصورها تصویرا کاشفا و هی قانعة بهذا دون حاجة إلی مبالغة و لا إلی خیال. ۴- تفتقد صورة ابن الرومی إلی الفعل "أغشیت "و ما یؤدیه فی الآیة من تحریک الصورة تحریکا مثیرا، و قد بنی هذا الفعل للمفعول فصار الفاعل مبهما فیه عموم، و صارت النفس تذهب کل مذهب فی تصور کنه الفاعلین و عددهم و صورتهم و هم یأخذون من اللیل قطعا من ظلامه فیغشون بها وجه ذلک الکافر الذلیل، ثم إن هذا الفعل عند ما ینضم إلی المفعول (أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً) نشعر بأن الوجوه لم تکتس بقطع اللیل المظلم دفعة واحدة و إنما کانت تزداد سوادا مع زیادة قطع اللیل التی تغطیها و ما یعنیه هذا من زیادة الإحساس بالذلة و الغم. ۵- تفتقد الصورة الشعریة إلی ما یوحی به ذکر اللیل فی الصورة القرآنیة، و لقد کان اللیل عندهم مقرونا بالرهبة و الخوف، و هذا هو السبب فی أن التعبیر القرآنی لم یکتف بأن یقول مثلا:

كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الظلام، و لكن قال: (قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً) ليمتلئ الحس بتجسد الليل إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۵۸ المرهوب الذى يتجزّأ ظلامه إلى قطع تغشى وجوه الظالمين و تكسوها ظلاما. و كل هذه الميزات مما تفتقدها صورة شريح كذلك، سوى أنه اعتمد على استعارة الظلمة لأثر الكفر على وجه الكافر استعارة تصريحية ليس فيها ما يلفت أولى الألباب و لا أصحاب الذوق الحسّاس. و من هذه الموازنة و غيرها يتبين أن الفرق يكمن فى خصوصية المعنى القرآنى، و أن النظم القرآنى إنما جاء استجابة لتحقيق أغراض دينية و معان قرآنية جديدة لا عهد للعرب بها، فالنظم القرآنى معجز لإعجاز ما يتضمنه من معان. و من هنا يمكن الإجابة على سؤال عبد القاهر فى صدر كتابه "دلائل الإعجاز "إذا كانت نظوم العرب فى شعرهم و نثرهم معروفة و محصورة فى طرق معينة، فما الذى تجدد بالقرآن حتى أعجز العرب؟ فالجواب أن الذى تجدد بالقرآن هو خصوصيات المعانى القرآنية و هى التى اقتضت ألفاظا و صورا و تراكيب بعينها ... فالمعانى من لدن عليم خبير يعلم ما كان و ما يكون و ليس لعلمه حدود و هذا الكتاب العزيز من عنده فلا مفر من أن يكون أسلوبه أثرا من آثار قوته و جلاله و عظمته. و أعود إلى أن قولهم: القرآن معجز بنظمه، يحتاج إلى تحليل و تفسير لأن خصوصية المعانى هى الموجه إلى نظم خاص و تصوير متميز، و لا ينبغى أن تنسى إشارة عبد القاهر إلى هذا عند ما ذهب إلى أن النظم نظم معان و تنسيق دلالات لا ترتيب أصوات و حروف «۱». و من خصوصية المعنى القرآنى و تصويره، قوله تعالى (وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ) [النور: ۳۹].

(۱) راجع دلائل الاعجاز، ۴۹. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۵۹ فمن من الشعراء تعنيه أعمال الذين كفروا و بطلانها و من يقدر على تصوير هذا المعنى كما صوره القرآن، سوى أن بعض الشعراء نظر إلى جزئية فى ذلك التشبيه التمثيلى هى قوله تعالى: (يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً) فقال بعضهم و هو بشر بن المعتمر يهجو: غلطا كمن حسب السراب بقفرة ماء ترقرق وسط قاع قرقر فأراق نطفته و أمعن نحوه و الآل لمّا يدن أو يتأخّر «۱» و القرقر هو الأملس، و النطفة هنا القليل جدا من الماء الذى يحتفظ به، فالشاعر قد نقل المعنى فى قوله تعالى: (يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً) «۲» من إطاره و سياقه فى الآية إلى مجال آخر يصف فيه شخصا بسوء التقدير إذ يفرّط فيما يملكه بين يديه طمعا فيما لا يملكه، أو يفرّط فى القليل الذى يملكه طمعا فى الكثير الذى لا يملكه و لا يضمنه، فشبه بمن حسب السراب بقفرة ماء وسط قاع أملس فأراق ما معه و سعى وراء السراب. و هذا من تحويل الصورة من مجال إلى مجال آخر، و قد قصر الشاعر من وجوه عدة منها: ۱- أنه أخذ جزءا من التمثيل القرآنى الذى يصور حال الذين كفروا يوم القيامة إذ يتوهمون أن أعمالهم تنفعهم و يعظم أملهم فيها ثم تكون الخيبة و الحسرة يشبهها بحال الظمآن الذى يرى السراب بقيعة فيتوهمه ماء و يعظم أمله فيه، لأنه ظمئان، و لأن السراب من يراه لا يشك فى كونه ماء لكونه بقيعة، ثم يلهث وراءه فلا يجد شيئا فتعظم حسرته. فلما أخذ الشاعر الجزء الخاص بحسبان الظمآن السراب ماء صار المعنى غير المعنى و الصورة غير الصورة؛ لأنه إنما يريد تصوير غلط المهجو بغلط من حسب السراب بقفرة ماء يترقرق. ۲- إن التمثيل القرآنى جعل السراب بقيعة و هى المكان المخفض الأملس الذى إذا تراءى السراب فيه كان ذلك أعظم فى توهم أنه ماء، لكن الشاعر نقل

(۱) ذكر ابن ناقيا البيتين فى "الجمان فى تشبيهات القرآن "۱۵۳. (۲) أى يحسب الظمآن السراب ماء. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۶۰ القيعة أو القاع من السراب فجعله ظرفا لماء فلم تعد له قيمة فى قوله: ماء ترقرق وسط قاع إلخ .. فأين ذلك من التمثيل القرآنى الذى يقصد تصوير معنيين موصولين هما البداية المطمعة المتصلة بالنهاية المؤيسة، و هذا يؤدى إلى الأسى و الحسرة؛ لأن الأمل كان عظيما، و الخيبة فى الأمل كانت بنفس المقدار عظيمة، و هذا يؤدى إلى حسرة كبيرة، فتلك حال الكفار يوم القيامة عند ما يأملون فى نفع أعمالهم ثم يصابون بالخيبة و الحسرة عند ما يخيب ظنهم. لا شك فى أن أهم وجوه الإعجاز القرآنى كان فيما تجدد من معان لم يعهدها العرب و لا قدرة لهم عليها، و خصوصية المعانى القرآنية هى التى أدت إلى نظم مخصوص و

تصوير متميز لا عهد للعرب به.

۴- خصوصية المعنى و تأثيره على كيفيات الصياغة:

۴- خصوصية المعنى و تأثيره على كيفيات الصياغة: قوله تعالى: (وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) [فصلت: ۳۴]. يقول ابن ناقيا ":الحسنة تعنى المداراة، و السيئة تعنى الفظاظة، و ادفع بالغى هى أحسن أى ادفع السيئة بالتى هى أحسن، ثم يضع إلى جانب الآية قول الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم ":إنكم لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم "و قال رجل: يا رسول اللّه أوصنى، قال: لا تغضب. و من كلام أكثم لولده: يا بنى الق عدوك بحسن البشر، و اخف عنه ما فى الصدر، و قال آخر: قلّمت أظفارا بلا قلم. و قال الأحنف بن قيس: رب حلم تجرعته مخافة ما هو أشدّ منه. و كان يقول: وجدت الحلم أنصر لى من الرجال. و عند ما نتأمل جوهر هذه الأقوال قبل الموازنة بينها و بين الآية الكريمة نجد الحديث النبوى الشريف": إنكم لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم "دعوة إلى حسن الخلق لكل الناس، مع البداية لذلك بأسلوب الترغيب الذى يتضمن تفضيل حسن الخلق على بذل المال فى استمالة الآخرين، لأن الإنسان بماله لن إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۶۱ يرضى كل الناس، و لن يستطيع أن يستحوذ على نفوسهم جميعا بماله و إنما يستطيع ذلك بحسن خلقه، فهو معنى راق يمثل أدبا نبويا ساميا فى أسلوب موجز. أما الحديث الثانى "لا تغضب "فإنه من أوجز ما يكون فى الدعوة إلى السيطرة على كتم الغيظ و السيطرة على نوازع الشر، و أما قول القائل: قلمت أظفارا بلا قلم. فإنه تمثيل لاستلال الضغائن من الصدور بالحلم و المداراة. و فى قول الأحنف بن قيس ":رب حلم تجرعته. "المقصود رب غيظ تجرعته بالحلم، و هو يعكس شدة معاناة الصبر و كتم الغيظ على أذى الأعداء و حقد الخصوم كما يتجرع الإنسان المر. و فى القول الأخير ": وجدت الحلم أنصر لى من الرجال. "يعنى أنه ينتصر بالحلم على خصومه نصرا لا يحققه الرجال، لأنه نصر بلا ضحايا و لا قتال. فكل هذه الأقوال تتضمن أخلاقا كريمة صيغت فى عبارات موجزة، لكن أروع منها و أكمل ما جاء عليه المعنى القرآنى، فهو يتفوق على كل تلك الأقوال من نواح عدة: ۱- أنه يتجاوز الحلم و الصبر و كتم الغيظ إلى سلوك إيجابى مباين لما صدر من الخصم؛ لأنه مقابلة السيئة بالحسنة بل بما هو أحسن (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ). و لست مع ابن ناقيا فى تفسير الحسنة بالمداراة و إنما هى سلوك إيجابى بدليل التعبير بعدها بأفعل التفضيل (أحسن) و لا شك أن الرد بالتى هى أحسن يستل السخائم و يطفئ نيران العداوة و يستميل الخصم و يدفعه إلى مراجعة موقفه و الثمرة هى قوله تعالى: (فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) [فصلت: من الآية ۳۴] إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۶۲ ۲- و مع أن الحلم و كتم الغيظ خلق محمود إلى أن الأعلى درجة منه هو الرد بالتى هى أحسن، لأن الحلم قد يكون تعملا، و كتم الغيظ قد يكون تكلفا، لكن الرد بالأحسن يدل على أن الحلم أصبح من الدأب عليه طبيعة، و الخلق الكريم صار عقيدة يبتغى بها المسلم رضا اللّه بتنفيذ أوامره، و هذا هو لب الفرق بين الحلم تعملا و الحلم طبيعة و عقيدة يدعو إليها القرآن، فعند ما يصل إلى هذه الدرجة يأتى الرد بالتى هى أحسن تلقائيا. ۳- إن سمو المعانى القرآنية و تفردها على ذلك النحو هو الذى أدى إلى تفرد التعبير عن تلك المعانى و تفرد صياغتها، فقد بدأ أولى خطوات الاستمالة النفسية بإقناعنا أولا أن الحسنة لا تستوى مع السيئة: (وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ) معتمدا فى هذا على ما وقر فى النفوس السوية و جبل فى الطباع المستقيمة، و هذه الضدية تسهم فى إبراز هذا التباين. ثم يأخذ بيدك إلى منزلة أعلى فيطلب منك أن تدفع لا بالحسنى فحسب و لكن بالتى هى أحسن، على أنه صاغ هذا المعنى صياغة ترغبنا فيه، فلم يقل: ادفع بالأحسن، و إنما عرف بالاسم الموصول (ادْفَعْ بِالَّتِي) لتمييز تلك المنزلة أكمل تمييز لفتا للقلوب إليها، ثم بدأ الصلة بالضمير (هى) تشويقا للمطلوب و رفعا لدرجة التهيئة الذهنية؛ لأن ما يطلب ليس باليسير إلا على النفوس العالية و الإرادة القوية، حتى إذا جاء أفعل التفضيل (أحسن) تلقته النفس تلقى الحبيب الذى جاء بعد ترقب و انتظار، فيتمكن فى النفس أسمى تمكن، و قد ترك تحديد التى هى أحسن اعتمادا على ما جبل فى الطباع من معرفة السيئ و الحسن و الأحسن، و لأن لكل موقف

ظروفه و ملابساته و لكل مقام مقال. و قد صاغ القرآن النتيجة بإذا الفجائية المقرونة بفاء التعقيب للإشارة إلى سرعة التبدل من العداوة المبينة إلى الصداقة المتينة، و فيه إشارة إلى أن النتيجة مضمونة و سريعة جدا بشيء يدعو إلى العجب .. من عدو إلى (ولى حميم). و هذا وعد من اللّه العليم الخبير لمن يغالب نفسه فيتحول من الرغبة فى الانتقام إلى ضبط الاتزان، يعده اللّه سبحانه بنقاء الصدر و صفاء النفس ليكون مهيا للرد بالتى هى أحسن. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۶۳ و حاصل هذا أن سمو المعانى القرآنية و تفردها هو الذى أدى إلى سمو التعبير عنها و تفرد الصياغة التى جاءت فيها. و لئن خلا كلام رسول صلّى اللّه عليه و سلّم من أن يصل إلى منزلة القرآن المعجز، فلقد جاء سلوكه صلّى اللّه عليه و سلّم وفق ما يتطلبه الكتاب العزيز، و مواقفه التى تشهد على هذا كثيرة كموقفه من الأعرابى الذى أساء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله: أعطنا من مال اللّه، فليس هذا مالك و لا مال أبيك، فظل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعطيه و يسأله: هل أحسنت إليك؟ حتى خجل الرجل و اعتذر و شهد لرسول اللّه بالإحسان. ۱- و من تأثر التصوير و التشكيل معا بخصوصية المعنى: قوله تعالى: (وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً* ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً) [نوح: ۱۷- ۱۸] و قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى قوم يخرجون من النار لبقية إيمان فى قلوبهم "فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل «"۱». و قال الكلبى: مر مروان بن الحكم سنة بويع له على ماء لبنى جزء عليه زرارة بن جزء و هو شيخ كبير فقال: كيف أنتم آل جزء؟ فقال: بخير، أنبتنا اللّه فأحسن اللّه نباتنا، ثم حصدنا حصادا، و كانوا قد قتلوا فى الجهاد بالروم «"۲». تلتقى النصوص الثلاثة فى التعبير عن الخلق و الإحياء بالإنبات على سبيل الاستعارة التصريحية أو المكنية حسب توجيه المعنى، و إن كانت المكنية هى الأقرب للمراد حيث يشبه الإنسان بالزرع الذى ينبت من الأرض و هم يرونه بأعينهم، لكن طبيعة المعنى القرآنى و خصوصيته جعلته يتشكل على نحو خاص به لا نظير له فى حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا فى كلام الشيخ و يبدو الفرق من جهات عدة: ۱- أن الفاعل فى الآية قد تقدم على الفعل لإفادة الاختصاص، و أن القادر على ذلك هو اللّه وحده لا يقدر عليه غيره، و لا نجد هذا فى الحديث و لا فى كلام الرجل. (_____ ۱) و هو فى البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى: يقول اللّه تعالى: أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان، قال: فيخرجون فيلقون فى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل "و فى رواية "فى جانب السيل "فتح البارى ۱۱/ ۳۶۱ و انظر ۲۸۱ الجمان فى تشبيهات القرآن. (۲) الجمان فى تشبيهات القرآن ۲۸۱. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۶۴ ۲- أن فعل الإنبات قد أكد بمصدره بعد حذف الزوائد و يسمى اسم مصدر كما ذكر أبو السعود «۱» ثم ذكر احتمال أن يكون التقدير: و اللّه أنبتكم من الأرض فنبتم إنباتا. و قد ذهب السيوطى إلى أن تأكيد الفعل بمصدره (أو باسم مصدره) من علامات الحقيقة و ليس كذلك المجاز، و على ذلك فقوله تعالى: (وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً) الكلام هنا حقيقى بدليل تأكيد الفعل بمصدره. و حاصل هذا أننا سواء عددنا (نباتا) اسم مصدر للفعل أنبت أم كان المصدر محذوفا على تقدير و اللّه أنبتكم من الأرض فنبتم إنباتا كما ذهب أبو السعود فإننا نجدنا فى حيرة بين عده مجازا؛ لأن الإنسان لا ينبت فى الواقع لأنه ليس بزرع و بين عده حقيقة وفق ما ذهب إليه السيوطى من أن المجاز لا يؤكد بالمصدر و أن تأكيد الفعل بمصدره دليل على أنه من الحقيقة. و المخرج من هذا هو إرادة نسيان المجاز لشدة الشبه بين الإنسان و الزرع أو بالأحرى لشدة الشبه بين إيجاد الإنسان و إيجاد النبات لا سيما و أن كلا منهما من الأرض و لا يكون إلا منها، و الغاية هى تمثل الصورة للاعتبار، و لنصل هذه المقدمة بالنتيجة، فإنا إذا كنا نباتا فإن النبات يخرج من الأرض ثم إذا أثمر و عادت ثماره و حباته للأرض نبت مرة ثانية، فهذه هى النتيجة التى يستدرجنا إليها التعبير بالفعل (أنبت) مؤكدا بمصدره حتى ننسى المجاز و نتعامل معه باعتباره حقيقة ليسهل استنباط تلك النتيجة و هى أننا إذا متنا و عدنا للأرض فمن السهل أن ينبتنا اللّه من الأرض مرة ثانية كما أنبتنا فى المرة الأولى. - من أجل هذا جاء الحديث عن الإنبات موصولا بقوله تعالى (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً) الآية ۱۸ سورة نوح، فهذا المعنى امتداد طبيعى للمعنى قبله، أى يعيدكم فيها بالموت و الدفن فيها ثم يبعثكم، و عند ربط الآيتين تتخلق صورة من

صور البرهان و الاحتجاج، لأننا إذا علمنا أننا نبات ينبتنا اللّه من الأرض و أننا قد تشكلنا من عناصر هذه الأرض: من طين و ماء، فمن السهل (_____ ۱) إرشاد العقل السليم ۵/ ۱۵۹. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۶۵ أن نستنبط إعادتنا من تلك الأرض بعد الموت فيها، تماما كالحبة التى خرجت من نبات الأرض و أعيدت فيها فإنها تنبت ثانية. - و لما أكد الإنبات بمصدره أكد الإخراج يوم البعث بمصدره (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً) و هو معنى قوله تعالى فى سورة الحج (وَ هُوَ الَّذِى أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) و قوله تعالى فى سورة طه (مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى) و لكن المعنى فى سورة نوح أكد بالتصوير الذى جعل فيه الخلق و الإنشاء إنباتا مع زيادة التوكيد بالمصدر فى الخلق (نباتا) و فى الإعادة (إخراجا) لمناسبة السياق؛ لأن الآية من حكاية كلام نوح لقومه الذين امتد بهم العمر فقست قلوبهم و استعصت الفكرة على أفهامهم. و لا نجد شيئا من هذا فى حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا فى كلام الشيخ الذى سبق، و ذلك لخصوصية المعنى القرآنى و خصوصية السياق الذى ورد فيه، على أن تشبيه رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم متمكن فى التصوير مقرب لمعنى غيبى أطلعه اللّه سبحانه عليه، و الجهة فيما يبدو منفكة عما ورد له الإنبات فى الآية؛ لأن الحديث يصور إعادة المعذب إلى طبيعته بعد ما مسخه التعذيب و غيّر خلقته حتى صار فى حكم العدم. أما كلام الشيخ فإنه و إن قصد احتذاء المعنى القرآنى و هو الخلق و الإنشاء "أنبتنا اللّه فأحسن اللّه نباتنا "فإنه قصر فى النواحى التى تميز بها التعبير و التشكيل القرآنى، فلا هو قدم ما يدل على الاختصاص، و لا هو أكد بالمصدر تأكيدا يستدعى نسيان المجاز، و لا هو ربط بين الإنشاء الأول من الأرض و الإخراج منها ربطا يتولد عنه ذلك الاحتجاج، على أن ذلك الرجل ناسب بالتضاد بين الإنبات و الحصاد فى قوله "أنبتنا اللّه فأحسن نباتنا ثم حصدنا فأحسن حصادنا "مع أن ترك التعبير بالحصاد كان أولى ليتأتى التنبيه بفعل الإعادة الذى جاءت عليه الآية إلى أن العودة تكون فى نفس المكان الذى خلقنا منه، فهذا أدعى إلى تصور إمكان الإعادة ثانية و اللّه أعلم. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۶۶

۲- وجه دلالة الاقتباس على الإعجاز:

۲- وجه دلالة الاقتباس على الإعجاز: إن ما جاء به الشعراء من معان قرآنية فى أشعارهم تهاوت بانتقالها من سياقها و بانتزاع أجزاء من الكل الذى جاءت عليه المعانى القرآنية، مما يدل على أن الإعجاز يكمن فى المعانى القرآنية المتصلة التى اتخذت نظوما خاصة من التأليف، و ليس أدل على ذلك من أن بعض الشعراء أخذ جملة من القرآن على سبيل الاقتباس فانطفأ نورها بانتقالها من مجالها و بانتزاعها من سياقها، حتى و لو كان الإيقاع الذى انتظمت فيه مناسبا خفيفا، من ذلك ما نقله ابن ناقيا قال ": نظم يحيى بن خالد البرمكى لفظ القرآن فى شعر كتبه إلى الرشيد حين نكب البرامكة، فقال يخاطبه و يذكر حالهم: عمّتهم لك سخطة لم تبق منهم باقية فكأنهم مما بهم أعجاز نخل خاوية «۱» فاللفظ القرآنى (أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ) هو هو و لكن شتان بين موقعه فى القرآن و موقعه فى الشعر، فلقد كان فى القرآن جزءا متلاحم الوشائج بآيته و عنصرا فعالا يؤدى وظيفة خاصة فى صورته التى جاء فيا، فهو يبرز الصرعى من قوم عاد الذين أهلكتهم الريح العنيفة و دفعتهم دفعا شديدا و هى تزهق أرواحهم حتى التقت أيديهم بأرجلهم فصارت لهم صورة مستديرة تقلبها الرياح، فهذه صورة عجيبة لكنا لا نراها، لها جاء بصورة مرئية تبرزها و تنقلها على أوضح ما يكون، و هى صورة أعجاز النخل "أصولها "المستديرة الخاوية من داخلها حتى تجدها خفيفة فيسهل للرياح العاتية ان تدفعها و تقلبها حيث شاءت، قال تعالى: (وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ* سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ) [الحاقة: ۶، ۷]. فما صلة هذا بقتلى البرامكة الذين نكب بهم الرشيد؟، لا تبدو هناك مماثلة بينهم و بين أعجاز النخل الخاوية، و لكنه الوزن الذى استحكم و الفاصلة التى وجدها

(_____ ۱) الجمان فى تشبيهات القرآن ۳۱۱،

و تضيف الروايـة أن الرشـيد رد عليه بقوله تعالى: (وَ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما كـانُوا يَصْـنَعُونَ). إعجـاز القرآن و منهـج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۶۷ مماثلة للقافيـة، فضـلا عن كثير من المبالغـة التى نزع إليها الشاعر، و لو أن القافية كانت بالراء مثلا لقال الشاعر مقتبسا من سورة القمر (أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) بلا فرق عنـده، و شـتان ما بين المنقعر و الخاويـة، فالمنقعر هو المقطوع من أصـله، و الخاويـة التى تآكلت حتى خوت من الـداخل فصارت خفيفـة تحركها الرياح بسـهولة، و هـذه و تلك ضـمن حلقات متعـددة فى سور مختلفـة بحيث تكمل تلك الحلقات بعضـها بعضا، ليتكون منها فى النهايـة تصور كامل عن قصـة هلاك عاد. و الاقتباس مع كونه أخذا للفظ و المعنى إلا أنه يخرج النص القرآنى عن أسـلوبه، و يحل عرى نظمه المعجز، و هذا يدلنا على ضرورة أن تكون الجمل القرآنية بل الآية دائما فى سياقها حتى يلمع إعجازها «۱». إن اسـتلهام و اقتباس جملـة أو آيـة من القرآن فى أثناء الكلام من شـعر أو نثر يزيـد من قيمة الكلام لا شك و يرفع من قـدره فى سـلم البلاغـة، لكنه لاـ يصـل به إلى درجـة الإعجاز، لأن المعجز من القرآن بسـياقه، و خصوصا إذا كان هـذا داخلا فى أقل المعجز، كآيـة أو كأقصـر سورة، فمع كونهـا معجزة بـذاتها إلاـ أن من اللاـزم لتحقيق إعجـاز الآيـة أن تظـل فى موضـعها حـتى يضـئ إعجازها بسياقها. و قـد قرات فى أعلام النبوة كلاما للماوردى يؤكد على هذا، يقول "و قد تعاطاه- أى القرآن- من الشـعراء ما خرج عن أسلوبه إلى طريقة شعره فقال فى قصة الفيل: ألا من مهلك الفيل و من سار مع الفيل بطير صبه اللّه عليهم من أبابيل رمتهم بجنادل ترى من طين سجيل فأضحى القوم فى القاع كعصف غير مأكول فلم يساعـده الطبع عليه، مع أخـذ معانيه و اسـتعمال ألفاظه حتى عاد إلى مطبـوع شـعره، و ضـمن آخر مـن الشـعراء شـيئا منـه فى شـعره فخرج عـن أسـلوبه حيـث يقـول:

(_____ ۱) و لهـذا كان من خطأ البلاغيين فى الاستشـهاد بالقرآن أن يقتطعوا جملـة من سـياقها، فمثلهم فى ذلك كمن ينزع عصـنا من فرع فى شـجرة أو كمن ينزع ورقة من غصن. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۶۸ و قرأ معلنا ليصدع قلبى و الهوى يصدع الفؤاد السقيما أ رأيت الذى يكذب بالـدين فذاك الذى يدع اليتيما «۱» فالمـاوردى يرى أن هـذا الاقتباس خرج بالقرآن عن أسـلوبه و طريقته عنـد ما ترك سـياقه مع أن المأخوذ و المقتبس ليس جملة و لا آية واحدة.

۳- من أوجه تصرف الشعر فى الصورة القرآنية:

الوجه الأول: اقتباس المشبه به:

الوجه الأول: اقتباس المشـبه به: إن خصوصـية المعانى القرآنية و جدّتها هى التى جعلتها تلتمس صورا لها تقربها إلى مدارك الناس و تصوراتهم بقياس تلك المعانى على ما يعرفون و ما يحسون، و إذا كانت المعانى قـد اتسـمت بالجدة و اللطافة فإن الصور التى قدمتها اتسـمت بالدقة و الطرافة حتى تجد تناسبا شديدا بين المشبه و المشبه به. و قد حاول الشعراء مجاراة الصور القرآنية أو على الأقل وقعوا تحت تأثيرهـا، و لم يكن فى وسـعهم الاـقتراب من المشـبه الـذى يمثـل فى الغـالب معنى دينيـا أو أمرا غيبيـا لاـ يعلمه إلاـ اللّه سـبحانه كالصـرعى من قوم عاد الـذين شـبهوا بأعجاز النخل الخاوية تارة و بأعجاز النخل المنقعر تارة أخرى «۲»، و كالحور العين التى شـبهت بالياقوت و المرجان «۳» و كأعمال الخير التى قـدمها الكفار و التى يظنون يوم القيامة أنها تنفعهم فيشـبهها القرآن تارة بالسـراب الذى يلوح بقيعه و كأنه ماء «۴»، و يشبهها تارة أخرى برماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف «۵». إن خصوصية المشبه فى أمثال هذه الصور و اتصاله بأمر غيبى أو بمعنى دينى جعلت الشعراء يقتصرون على اقتباس المشبه به فى الغالب و يجعلونه كما هو فى تشبيهاتهم، فيكون بهـذا قـد انتقـل مـن صـورة إلى صـورة أخرى، و مـن وظيفة

(_____ ۱) راجع أعلام النبوة لأبى الحسن

الماوردی ص ۱۳۱، دار النفائس ط ۱، ۱۴۱۴ ه- ۱۹۹۴ م. (۲) راجع الآیة ۲۰ من سورة القمر و الآیة ۷ من سورة الحاقة. (۳) راجع الآیة ۵۸ من سورة الرحمن. (۴) راجع الآیة ۳۹ من سورة النور. (۵) راجع الآیة ۱۸ من سورة إبراهیم. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۱۶۹ إلی وظیفة أخری کما سبق فی اقتباس أعجاز النخل الخاویة و انتزاعها من سیاق قرآنی إلی سیاق شعری و من صورة إلی صورة مغایرة و من وظیفة إلی وظیفة مختلفة، و کان هذا سببا فی انطفاء ما کان من بریق و ذهاب ما کان من قیمة. و منه قوله تعالی فی تصویر الحور العین (کَأَنَّهُنَّ الْیاقُوتُ وَ الْمَرْجانُ) [الرحمن: ۵۸] فجاء بعضهم و شبه الزلفاء بالیاقوت کقول الخلیل: إنما الزلفاء یاقوتة أخرجت من کیس دهقان و نسب لعبد اللّه بن طاهر قوله یقصد امرأة جمیلة: هی کالدرة المصونة حسنا فی صفاء الیاقوت و المرجان فقد انتقل المشبه به من سیاقه الخاص و وظیفته المحددة فی القرآن حیث شبهت هناک الحور العین بالیاقوت و المرجان فی القیمة الغالیة و فی الاحمرار الصافی و فی میل النفوس عموما إلیها، و ذلک تشویقا إلی الجنة و ما فیها من نعیم لا نظیر له فی الدنیا و لا سیما تلک الحور. فقد أدی المشبه به دور التصویر لشیء لم تره أعیننا فجعلنا کأننا نراه، و من هنا یستمد التشبیه قیمته و أهمیته، أما عند ما یصور المشبه به شیئا رأیناه فإن قیمته تقل، ناهیک عن صیاغة التشبیه فی قوله تعالی: (کَأَنَّهُنَّ الْیاقُوتُ وَ الْمَرْجانُ) [الرحمن: ۵۸] فقد جاء التشبیه بأداته بینما حذفت الأداة فی هذین البیتین، و وقع المشبه به خبرا للمشبه فی البیت الأول: إنما الذلفاء یاقوتة و وقع مضافا إلیه فی البیت الثانی "هی .. فی صفاء الیاقوت و المرجان. "و قد نحکم عند النظرة العجلی أن ما حذفت أداته أقوی لاقتراب الطرفین و جعلهما کأنهما شیء واحد، و لیس هذا بصحیح دائما، فلیس التشبیه کلما حذفت أداته کان أبلغ، و إنما العبرة بموافقة المقام و تحقیق التناسب سواء ذکرت الأداة أم حذفت، و لقد جاء ذکرها فی التشبیه القرآنی السابق أبلغ و أدق و أروع؛ لأن وجودها یعنی عدم إرادة اتفاق الطرفین اتفاقا تاما؛ لأن المشبه به "الیاقوت و المرجان "و إن حلا منظره و غلا ثمنه و ارتفعت قیمته، فإنه لا یخرج عن کونه إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۱۷۰ جمادا، لکن الحور العین إناث حیة تمتلئ بالجمال و الحیویة، فذکر الأداة من أجل هذا، للإشارة إلی ذلک الفرق و أن الطرفین لا یتفقان اتفاقا تاما، و لم یفطن الشعراء إلی هذا الفرق الدقیق و بالغوا بحذف الأداة، و کثیرا ما تسیء المبالغة إلی المعنی و الصورة. ناهیک عن أن وجود الأداة فی التشبیه القرآنی یشوق إلی معرفة کنه الحور العین و لونها، ثم إن الأداة (کأن) الموصولة بضمیر جمع الإناث (کأنهن) فیها نونان مشددتان قریبتان و فیهما غنة حتی یشعر الناطق بهما بالتأنی و التملی فی ذلک الجمال و استحضاره و امتلاء الخیال به لیزداد الشوق إلی تلک الجنة و ما فیها من نعیم الحور العین.

الوجه الثانی: التحول من الاستعارة إلی التشبیه:

الوجه الثانی: التحول من الاستعارة إلی التشبیه: کقول ابن مناذر: و أرانا کالزرع یحصد الدهر فمن بین قائم و حصید و قول آخر: و الناس فی قسم المنیة بینهم کالزرع منه قائم و حصید «۱» من قوله تعالی: (ذلِکَ مِنْ أَنْباءِ الْقُری نَقُصُّهُ عَلَیْکَ مِنْها قائِمٌ وَ حَصِیدٌ) [هود: ۱۰۰] أی منها قائم و منها حصید، و المقصود بقائم: القری الخاویة علی عروشها، و الحصید: المستأصل بمعنی محصود، شبه القری بالزرع القائم علی ساقه و المقطوع «۲». فالفضاء الذی یدور فیه معنی البیتین محدود لأنه لا یزید عن تشبیه الناس بالزرع الذی حصد و الزرع الذی لم یحصد بعد، لکن الفضاء الذی یدور فیه المعنی القرآنی متسع باتساع السیاق الذی ورد فیه و الغرض الذی وظف من أجله، فإنه لا یقصد تصویر فناء الناس حسب، أو تحولهم من الحیاة إلی الموت حسب، و إنما یقصد تصویر مآل القری الظالمة التی أخذها اللّه أخذا ألیما و لهذا نجد قوله

(۱) البیت الأول من الجمان فی تشبیهات القرآن ۲۱۹، و الثانی من تفسیر "فتح القدیر "للشوکانی ۲/ ۱۰۴۰. (۲) المصدر نفسه ۲/ ۱۰۴۰. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۱۷۱ سبحانه فی هذا السیاق: (وَ کَذلِکَ أَخْذُ رَبِّکَ إِذا أَخَذَ الْقُری وَ هِیَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِیمٌ شَدِیدٌ) [هود: ۱۰۲]. ما ذا کانت ثمرة الظلم سوی الهلاک حتی أصبحوا أثرا بعد عین، فمنهم من قطع دابره و

خسف به و بداره الأرض، و منهم من هلك و بقيت ديارهم و قصورهم خاوية على عروشها. فالاستعارة القرآنية (مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ) لم يقصد بها إلا- تصوير ما آلوا إليه بعد الهلاك، فهم ما بين زائل لا اثر له كقوم لوط، و تصوره الاستعارة "حصيد "و زائل بقيت آثاره تدل عليه كالفراعنة و تدل عليه الاستعارة "قائم. "فلم يقصد من هاتين الاستعارتين "قائم و حصيد "تصوير التحول من الحياة إلى الفناء، و إلا- لو كان هذا هو المقصود لما صلح لتصويره إلا- التشبيه الذى يذكر فيه المشبه به "الزرع "و إن قال "منه قائم و حصيد "فإن مجرد ذكر الزرع يشير إلى الحياة. لهذا فإن الشاعر لم يوفق حين أراد تصوير فناء الناس فشبههم بالزرع يحصده الدهر فمن بين قائم و حصيد؛ لأن كونهم كالزرع الذى يحصده الدهر يعنى أنها هالكون هالكون لكن قوله عقبة "فمن بين قائم و حصيد" يعنى أن منهم القائم الموجود و منهم الهالك، فذكر الزرع فى التشبيه يجعلك تستعيد صورة الحياة. لكن الصورة القرآنية لا تريد أن يكون فى خيالك أى حياة باقية لهذه القرى الظالمة التى هلكت، لهذا بنى الكلام على الاستعارة بطى المشبه به "الزرع "و إسناد صفتين من صفاته إلى تلك القرى بعد الذبول و الفناء، انه يريد من ذلك أن يرسم فى خيالنا صور الهلاك و أن يجعلنا فى الوقت نفسه نتذكر أن هذه القرى الهالكة سواء ما كان منها زائلا تماما أم بقيت آثارها- كانت تعج من قبل بالحياة فما ذا كان مصيرها و هل نفعها كفرها و استكبارها. الفرق إذن بين الصورة القرآنية و الصورة الشعرية السابقة أن الأولى تنقل أمامك صور هلاك القرى الظالمة، و لهذا طوى ذكر الزرع و أبقى ما يدل على صورتين من صور انتهاء حياته "قائم "أى القائم على ساقه، و "حصيد "أى المحصود المستأصل، و كلاهما قد زالت منه الحياة أما الصورة الشعرية فيتدافع إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۷۲ المعنى فيها بين الفناء التام "يحصده الدهر "و بين اجتماع الحياة مع الموت، و هذا ملحوظ من مجرد ذكر الزرع القائم إلى جانب الحصيد، و هذا يعكس تشبث الإنسان بالحياة على الرغم من مرور الموت أمام عينيه. و بهذا يتبين أن خصوصية المعنى القرآنى هو الذى أدى إلى كيفية خاصة فى تعبيره و تصويره و نظمه، و أن الشعراء عند ما التفتوا الى الصورة القرآنية تأثرا و اقتباسا تغيرت الوظيفة و الكيفية و التشكيل بما ينسجم مع محدودية التفكير البشرى و تقلباته النفسية. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۷۳

المبحث الثانى موازنات بين القرآن و الشعر

اشارة

المبحث الثانى موازنات بين القرآن و الشعر غايتى من هذه الموازنة إثبات تهافت القول بالصرفة بطريقة موضوعية عملية، لقد قال النظام رأس المعتزلة إن القرآن معجز بالصرفة، أى أن العرب كانت لديهم قدرة على المجىء بمثل القرآن لكن اللّه صرفهم عنها، و قد ردّ العلماء عليه بأنه إذا كان قد صرفهم جدلا بعد نزول القرآن فهل صرفهم قبل نزوله، ذلك ما لا يكون، و لم يثبت أن فى الشعر الجاهلى ما يضارع أسلوب القرآن، و إثبات هذا عمليا لا- يتأتى إلا بالموازنة بين نص جاهلى و بين نص قرآنىّ على أن يلتقيا فى الغرض و المعنى العام، فذلك مما يساعد على إبراز الفروق فى التعبير و التصوير، و الفروق فى كيفيات النظم التى يرجع إليها الفضل و التميّز و التفرد.

تصوير الخيل العاديات فى القرآن و الشعر الجاهلى:

تصوير الخيل العاديات فى القرآن و الشعر الجاهلى: لا نجد من شعراء العرب قبل الإسلام من وصف الخيل العاديات كعنترة بن شداد الذى عاش التجربة، و توفرت عنده دواعيها من قوة نفس و جرأة قلب، و بطولة فذة و عبودية مهينة دفعته إلى محوها بتلك القوة النفسية و البدنية، فكانت حروبه التى خاض غمارها و شق غبارها و جاز بحور المنايا فيها، فنقل تلك المشاهد و الصور الحية فى

تجارب شعرية تنطق بالقوة و العزيمة. لهذا لا نجد لوصف فرسه الذى يخوض المعارك نظيرا عند شاعر آخر لا فى الجاهلية و لا فى الإسلام. فهذا ما دعانى إلى تسليط الضوء على تلك الصور و تشخيصها و اختيار الأقوى منها ليكون مجالا للموازنة مع تصوير الخيل العاديات فى القرآن الكريم، فى السورة التى عرفت بهذا الاسم "العاديات "لأصل من خلال هذه الموازنة إلى الفروق التى يتميز بها تصوير القرآن و نظمه و التى يكمن فيها الإعجاز. ثم إن من ضرورات الموازنة و مقدماته الوقوف على خصائص التصوير و النظم فى وصف الخيل العاديات فى شعر عنترة ثم خصائص التصوير و النظم إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۷۴ فى وصفها فى سورة العاديات لأصل من خلال ترديد النظر فى هذه الخصوصيات و تلك إلى الفروق المميزة. لا يخفى على من يراجع شعر عنترة فى وصف الخيل العاديات عموما، و فى وصف فرسه خصوصا أن هذا الوصف لم يكن على مستوى واحد فى القوة النفسية و الحركية، و إن جاء المستوى الفنى فى كل الأحوال ثابتا أو متقاربا بما يعكس روح عنترة و أسلوبه الخاص به، أما تفاوت مستوى وصف العاديات فإنه راجع فيما يبدو إلى تعدد المواقف و المعارك التى خاضها و التى كانت تتفاوت بين السهولة و الشدة و بين السيطرة و الانفلات، فكانت روح القوة تعلو تارة و تهبط تارة أخرى بتعدد المواقف. فقد تجد الخيل سود الوجوه كالحة عابسة و هى تخوض بحر الهلاك و الخطر: و الخيل سود الوجوه كالحة تخوض بحر الهلاك و الخطر «۱» و بعده ما يدل على شدة ذلك الموقف الذى جاء فيه قوله يخاطب عبلة: أدافع الحادثات فيك و لا أطيق دفع القضاء و القدر و ربما وجدنا ذلك الوصف فى سياق آخر دالا على هول المعركة التى كان فيها رابط الجأش يوقع الرعب فى قلوب الأعداء و كأن الموت يتمثل لهم فى صورته: إنّ المنيّة لو تمثّل مثّلت مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل و الخيل ساهمة الوجوه كأنما تسقى فوارسها نقيع الحنظل ثم إنك ربما وجدت فى تصوير عنترة للخيل العاديات غفلات و سقطات من تلك التى لا يخلو منها إبداع بشرى مهما ارتقى، و ليس ذلك تتبعا لعورات الشاعر و لا قصدا إلى سلب محاسنه، و لا توخّيا لمنهج إثبات الإعجاز القرآنى ببيان سقوط غيره و عجزه، فليس هذا من همّى لأنى أسعى أساسا إلى بيان الفروق فى حياد تام (_____ ۱) شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزى ۸۳ دار الكتاب العربى بيروت ط ۱- ۱۴۱۲ ه/ ۱۹۹۲ م. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۷۵ لأصل فى النهاية إلى جوانب التفوق و التفرد التى يثبت بها إعجاز القرآن فى تصوير الخيل العاديات. و أعود إلى ما لمسته من غفلات عنترة فى ذلك التصوير، كقوله: نديمىّ إما غبتما بعد سكرة فلا تذكرا أطلال سلمى و لا هند و لا تذكرا لى غير خيل مغيرة و نقع غبار حالك اللون مسودّ فإن غبار الصافنات إذا علا نشقت له ريحا ألذّ من الندّ «۱» فمن الواضح أنه يقصر نشوته على ذكر الخيل المغيرة التى تثير النقع القاتم الكثيف، لأن ريح غبار الخيل الصافنات ألذ عنده من رائحة النّد (بفتح النون) و هو عود البخور، لقد تعود أن يعيش هذه التجربة ممارسة أو سماعا لأنها حياته و لذته. و الغفلة التى وقع فيها أن الخيل الصافنات هى التى تقف على ثلاث قوائم و طرف حرف الرابعة، و هى الخيل الكرام الأصيلة، فهذا الوصف بالتحديد و إن دلّ على كرم الخيول فإنه لا يتسق مع ذكر الغبار الذى لا يثار إلا عند الكر و الفر و الإقبال و الإدبار، فوصف الصافنات يدل على السكون، و ذكر الغبار يدل على الحركة أثناء المعركة، فلا توافق و لا تناسب و أين هذا من "العاديات "التى بدأت به السورة القرآنية و الذى جاء وصفا للخيل يتناسب مع حالها حين عدوها و يتلاءم مع "الموريات قدحا "و مع "المغيرات صبحا. "بل لم يسلم عنترة من نحو هذا فى صورة من صوره البليغة التى يصف فيها فرسه، ذلك قوله من معلقته: يدعون عنتر و الرماح كأنها أشطان بئر فى لبان الأدهم ما زلت أرميهم بثغرة نحره و لبانه حتى تسربل بالدم فازورّ من وقع القنا بلبانه و شكا إلىّ بعبرة و تحمحم لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى و لكان لو علم الكلام مكلّمى «۲» فهذا وصف للخيل فى أثناء المعمعة التى يستقبل رماحها المتوالية بصدر فرسه (_____ ۱) شرح ديوان عذرة ۵۴. (۲) الأشطان: جمع شطن و هو حبل البئر. لبان؟؟؟ الفرس. صدره، و ثغرة النحر: نقرة فى أسفل الحلق، تسربل بالدم أى صار الدم له كالسربال يغطيه و يسعه ه، و ازور أعرض. و التحمحم: صوت خفى، فان اشتد فهو الصهيل. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز،

النص، ص: ۱۷۶ حتی تسربل بالدم أی غطی الدم من غزراته کل نواحیه فصار له کالسربال، و هنا یسیطر شعور الإشفاق علیه حتی عدّ صهیله المکتوم بکاء، و تخیله یشکو إلیه بعبرة و تحمحم، و لو أنه وقف عند هذا الحد لکان أحری و أجدی من نزول التصویر و انکفاء الخیال، فبعد أن جعل الخیل یشکو و یستعبر عاد فنزع منه شکواه لأنه لا یقدر علی المحاورة و الکلام: لو کان یدری ما المحاورة اشتکی و لکان لو علم الکلام مکلّمی و علی کل حال فإن حاصل الصورة السابقة أن فرسه یخوض غمار الحرب بصدره الذی یتلقی طعنات الرماح حتی یتسربل بالدم. و علی عکس هذا نجد الشاعر فی مواقف أخری یکفکف من خیله خشیة علیها من طعن ملتهب کشرر النار، و ذلک فی قوله: و الخیل تشهد لی أنّی أکفکفها و الطعن مثل شرار النار یلتهب «۱» فهو هنا لا یقلل من دور الخیل؛ لأنه ما یکفکفها إلا فی حال اندفاعها الذی تعودت علیه، لکن حاجة الموقف استدعت منه تلک الکفکفة، و الخیل تشعر أنه لا یفعل ذلک جبنا و لکن شفقة علیها، و هی تقدر له هذا الإشفاق کما یدل لفظ "تشهد لی "فهی تشهد له لا علیه. و هذا ینبهنا إلی لغة التفاهم و الإحساس المتبادل بینه و بین خیله کما سبق فی قوله (شکا إلیّ بعبرة و تحمحم) و (لو کان یدری ما المحاورة اشتکی) و هی هنا تشعر بشفقته علیها حین یکفکف أعنتها. إن اقتحام رحی الحرب و خوض المخاطر تارة و التریث مع کفکفة الخیل تارة أخری لیس من التناقض لأنه لیس فی موقف واحد و لا فی قصیدة واحدة و لکن فی قصائد مختلفة بما یدل علی اختلاف المواقف، و لکل موقف ظروفه، و لیس الفارس متهورا حتی یندفع بفرسه فی کل حال. و ما مضی من وصف الخیل عند عنترة لا یهبط فی میزان النقد، و لا یقدح (_____ ۱) شرح دیوان عنترة ۲۵.

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۱۷۷ فی درجة الوصف؛ لأنه إما تسجیل أمین لهول المعارک و صعوبة المواقف، و إما وقوع فیما یمکن أن یقع فیه البشر من سهوات الفکر و غفلات النفس و هبوط الخیال أو شروده، و مع ذلک فإنا نستبعد أمثال تلک النماذج عند الموازنة و نتخیّر لها ما برع فیه الشاعر و صعد فیه المرتقی و تألق فیه خیاله و قوی إحساسه بحرکة فرسه عند التوهج، حتی إذا تفوق تصویر القرآن علیه کان ذلک أقوی فی الدلالة علی الإعجاز. فمن ذلک قول عنترة: جزی اللّه الجواد الیوم عنی بما یجزی به الخیل العتاقا شقت بصدره موج المنایا و خضت النقع لا أخشی اللحاقا فالبیت الثانی تصویر محلّق لاقتحام الفرس رحی الحرب الدائرة و النفوس تتساقط تباعا کالأمواج، فکأن ذلک الفرس یشق بصدره موج المنایا، و الشاعر عند ما یرقی تصویره فإن ذلک یکمن خلفه رقی الإحساس، و لأن عنان الفرس فی ید و السیف فی الید الأخری، فلا یکون الترقی فی وصف الفرس إلا بدافع الترقی فی وصف نفسه، فالفرس یقتحم لأن نفس الشاعر هی التی تقتحم، و الفارس هو الذی یسمح للفرس بالاقتحام، و الخیل إنما تکون کالحة الوجوه عابسة لأن نفس الشاعر قد کلّت من هول القتال و استمراره، و یشهد لهذا ما بین الفارس و فرسه من تفاهم و حساسیة مفرطة و استجابة سریعة نلحظها فی قوله من أدق ما رأیت من تصویر فارس شاعر: ولی فرس یحکی الریاح إذا جری لأبعد شأو من بعید مرام یجیب إشارات الضمیر حساسة و یغنیک عن سوط له و لجام فهذا من التمازج بین نفس الفارس و نفس الفرس من طول الصحبة و الملازمة و ممارسة الحروب. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۱۷۸

الموازنة (فی التصویر و الصیاغة و سیاق الفکرة):

أولا: فی التصویر:

اشارة

أولا: فی التصویر: ۱- یهمنا عند الموازنة الترکیز علی تصویر الاندفاع للحرب، و لقد جاءت أوصاف الفرس المندفعة فی شعر عنترة متفرقة غیر مجتمعة و لا مکتملة فی قصیدة واحدة، ففی قصیدة نجدها موصوفة بالسرعة البالغة کالریاح. ولی فرس یحکی الریاح إذا

جرى لأبعد شأو من بعيد مرام «۱» و فى قصيدة أخرى نجدها موصوفة بقوة الاندفاع حتى تكون حوافرها على الصخور كالصواعق تقدح بالشرر: و حوافر الخيل العتاق على الصفا مثل الصواعق فى قفار الفدفد «۲» و فى قصيدة أخرى نجد فرسه ملتحما يشق بصدره موج المنايا و يخوض النقع المثار بلا تردد: شققت بصدره موج المنايا و خضت النقع لا أخشى اللحاقا فهذه الأوصاف المتتابعة ابتداء بالسرعة، و قوة الاندفاع، ثم اقتحام الصفوف لا نجدها مجتمعة عند عنترة فى سياق واحد و لا فى قصيدة واحدة و لكنها أوصاف متفرقة فى قصائد متعددة. و هذا عكس ما نراه فى سورة العاديات، فإن تلك الأوصاف كلها و أكثر منها قد اجتمعت فى سياق واحد و بأقل الألفاظ فى صدر السورة، و فى قوله تعالى: (وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً [۱] فَالْمُورِياتِ قَدْحاً [۲] فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً [۳] فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً [۴] فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) [۵] سورة العاديات. على أن هذه الأوصاف الموجزة للخيل فى اندفاعها و التى تتناولها تلك الآيات ليس مقصودة لذاتها و لكنها وردت على سبيل القسم بها تعظيما لشأنها باعتبارها وسيلة الجهاد فى سبيل اللّه حينئذ، ففى ذكرها تعظيم للجهاد و تفخيم (_____ ۱) شرح ديوان عنترة ۱۹۱.

(۲) نفسه ۶۳. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۷۹ لأمره، و إلهاب النفوس للأخذ بأسبابه و الاستعداد له عند ما يقتضى الأمر، فهاتان خصوصيتان لهذه الأوصاف الأولى أنها وردت مجتمعة فى سياق واحد و ليست متفرقة كما فى شعر عنترة، الثانية أنها ليست مقصودة لذاتها و لكنها أدوات فى أسلوب القسم، فقد أقسم بها تعظيما لشأنها باعتبارها وسائل للجهاد فى سبيل اللّه. (وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً) هى الخيل التى تعدو للجهاد عدوا سريعا ينشأ عنه صوت جهير مكتوم هو الضبح، و ليس هو الصهيل و لكنه صوت آخر يخرج مع الأنفاس عند شدة الحماس. (فَالْمُورِياتِ قَدْحاً) تصوير لدرجة من السرعة تتجاوز العدو حتى يترتب على احتكاك الحوافر بالصخور قدح الشرر و إيراء النار. (فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً من العطف بالسبب أى أنها تخرج و تعدو سريعا للإغارة و فى الزمن الذى تكون الخيول فيه أنشط ما تكون (الصبح) ثم إنه وقت الغفلة لأخذ العدو على غرة. (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً) هذا ما يترتب على الإغارة من إثارة النقع، لكن تعقيبه بهذا على زمن الصبح يرمز لقوة الإثارة؛ لأن التراب فى الصبح يكون مبللا بالندى، فإثارته ليشكل فى الجو نقعا مطبقا على الرغم من هذا دليل على قوة الاندفاع و أنها قد دخلت مرحلة الكر و الفر و الالتحام و الاحتدام لهذا أعقبه بقوله سبحانه: (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) يعنى توسطت الخيل هذا الغبار و التبست به فى أقل حيّز عند الاشتباك، فهذا ما يدل عليه (جمعا). ۲- و إذا عدنا إلى وسائل التصوير فى تلك الصور الجزئية المتفرقة عند عنترة نجد منها:

(أ) تصوير السرعة تصويرا يعتمد على التشبيه بالرياح:

(أ) تصوير السرعة تصويرا يعتمد على التشبيه بالرياح: ولى فرس يحكى الرياح إذا جرى لأبعد شأو من بعيد مرام بينما تعتمد الآية فى وصف السرعة على التعبير الحقيقى (وَ الْعادِياتِ) لأنه من العدو و هو الجرى السريع، و قد دل على أن هذا الجرى يتجاوز الحدود إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۸۰ المألوفة عن طريق ربطه بتلك الحال (ضَبْحاً) و هى فضلا عن ذلك صورة سمعية صادقة واقعية مرتبطة بالصورة البصرية المرئية للخيل العاديات، و بهذا فإن التعبير القرآنى على وجازته يلتقط صورة واقعية دون مبالغة فيها، و يحرك حاستين من أهم الحواس المدركة- السمع و البصر- لمتابعة العدو السريع المقترن بالصوت الدال على اشتغال الحركة، و لا شك أن هذا يستدعى الخيال ليرصد حيّزا من المكان و الزمان تعدو فيه تلك الخيول. و مع أن صورة عنترة قوية، لأن التشبيه بالرياح يعنى السرعة المتناهية التى تؤدى إلى اختفاء الجسم السريع عن الأعين، لكن الصورة القرآنية أقوى و أصدق و أروع لاعتمادها الحقيقة التى تفوق التشبيه لما فيها من القدرة على استنفار أكثر من حاسة و تحريك الخيال على الرغم من حقيقيتها، فضلا عن تركيزها بتلك الصياغة الموجزة التى طوى فيها ركنا الجملة الأساسيان لأن التقدير: أقسم بالخيل العاديات ضبحا، و هذا الاختزال و الطى فى الكلام يتناسب جدا مع تصوير الخيل التى تطوى المكان و الزمان طيا. و تشبيه عنترة لا يخلو من إيجاز محدود فى داخله؛

لطی وجه الشبه، لکنه اجتلب شرطا أو ظرفا لا حاجة للمعنی إلیه (إذا جری) لأنه مفهوم ضمنا من التشبیه بالریاح.

(ب) تصویر قوة الاندفاع و ما یترتب علیه:

(ب) تصویر قوة الانـدفاع و ما یترتب علیه: قال تعالی: (فَالْمُورِیاتِ قَدْحاً) و لعنترة: و حوافر الخیل العتاق علی الصـفا مثل الصواعق فی قفـار الفدفـد و معنی هـذا البیت أن حوافر الخیـل القویـة علی الصـخور العریضـة الملساء کالصواعق، أی أن لتلک الحوافر وقع شـدید یحـدث صوتـا قویـا و یقـدح شـررا عظیما. و الآیـة الکریمـة تعنی وصف الخیل المنـدفعات انـدفاعا قویا فیتولـد من احتکاک حوافرها بالصـخر قدح النار، و لا شک أن الخیال یستدعی تلک الصورة القویة مرئیة مسموعة فی وقت معا، لأن إیراء النار من اصطدام الحوافر بالصـخور لا إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۱۸۱ یکون إلا مع صوت قوی مسـموع، فهذا أمر بدهی مفهوم ضمنا و محسوس ضـمنا من غیر التشبیه بالصواعق الـذی ورد عند عنترة، و إن کان هذا التشبیه عنده یضـفی علی المعنی مزیدا من التهویل و المبالغـة و قد تبین أن هذا المعنی المقصود موجود ضـمنا فی الآیة من غیر تشبیه و لا تهویل و لا مبالغة. و هذه میزة التعبیر القرآنی أنه یؤدی باللفـظ الحقیقی مـا یؤدیه التشبیه فی کلاـم النـاس، لأـن القرآن بنظم خاص فیه یبعث الحیاة و الحرکـة فی مفرداته حتی تصـبح قـادرة علی التصویر و الاسـتدعاء، و لا یلجأ للتشبیه إلا إذا کان فیه میزة لا تؤدیه الحقیقـة. و الأصل فی الکلام هو الحقیقـة، و لا یعـدل عنها إلا لـداع، و لم یکن فی الآیـة القرآنیة ما یدعو إلی التشبیه، بل لو عدل إلیه لاختل نظام الإیقاع المقصود الذی یصور جو السـرعة المضـبوطة و ذلک من توالی جمل موجزة متوازیة (وَ الْعادِیاتِ ضَبْحاً [۱] فَالْمُورِیاتِ قَدْحاً [۲] فَالْمُغِیراتِ صُبْحاً [۳] فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً [۴] فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعـاً) .. إلـخ الآیـات. فـالصورة القرآنیـة (فَالْمُورِیاتِ قَـدْحاً) تتمیز إذن بمیزات منها: ۱- صـدق الصـورة و قوتهـا من غیر المبالغـة الناشـئة من التشبیه بالصواعق الذی نجده عند عنترة. ۲- إیجازها إیجازا یتناسب مع سـرعة قدح الشـرر الناشئ من الاحتکاک القوی. ۳- انتظامها فی سیاق خاص لأنها جزء ضمن أجزاء تتعاون جمیعا و تتناسق لفظا و إیقاعا و تصویرا و دلالة.

(ج) تصویر إثارة النقع:

(ج) تصویر إثـارة النقع: قـال تعـالی: (فَالْمُغِیراتِ صُـبْحاً* فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً) و لعنترة: جزی اللّه الجواد الیوم عنی بما یجزی به الخیل العتاقا شققت بصـدره موج المنایـا و خضت النقع لا أخشـی اللحاق وقعت صورة إثارة النقع فی البیت الثانی فی سـیاق اقتحام الموت، و لکن إعجـاز القرآن و منهـج البحث عن التمیز، النص، ص: ۱۸۲ یبـدو أن الجو المعتم بالنقع المثار کانت له خشـیته و هیبته حتی عـدّه بحرا یخـوض فیه ":و خضت النقع "لأـن البحر أمـام الخیـل له هیبـة، و خوضه لیس بالأـمر الیسـیر فالفعـل "خضت "یشـی بهـذا الإحسـاس النفسـی "التهیب "و الذی یطل فی سیاق التظاهر بالجسارة و الاقتحام. أما الآیة الکریمة فقد عبرت عن المعنی باللفظ الدال علیه دلالة حقیقیة و هو الإثارة فی (فَأَثَرْنَ) و هو ینسـجم مع الوصف الحقیقی للجری السـریع فی (الْعادِیاتِ) و الوصف الحقیقی لقدح الشـرر من اصـطکاک حوافر الخیـل بالصـخور (فَالْمُورِیاتِ قَـدْحاً) و یرتبط ارتباطا وثیقا بالمعنی قبله (فَالْمُغِیراتِ صُـبْحاً) إذ یقوم الزمن (صُـبْحاً) بوظیفة قبله فیدل علی عنصـر المفاجأة فی الإغارة؛ لأنه فی وقت الغفلة فی الصـباح، کما یقوم بوظیفة بعده؛ إذ یدل علی عنفوان حرکة تلک الخیل حتی تسـتطیع إثارة النقع فی الوقت الـذی یکون فیه ثقیلا ملتصـقا فی الصـباح لأن النـدی قـد بلله. فالآیـة الکریمة تتمیز و تتفوق بمیزان ثلاـث: الأـولی: حقیقیـة التعبیر مع الوفاء بحق المعنی و الانسـجام مع الأوصاف قبله. الثانیـة: قوة الوصف المقصود لکون إثارة النقع فی الصباح الذی یکون التراب فیه ثقیلا ملتصقا بفعل الندی الواقع فیه. الثالثة: طریقة النظم التی جعلت الآیة حلقة فی سلسلة من الجمـل المتوازیـة و التی تنتهی نهایـة إیقاعیـة واحـدة تصور حرکـة الخیـل و ترقّی جریهـا المتتابع. و حاصل هـذا أن تلک الآیات

الكريمة تتفوق فى أوصاف الخيل حال اندفاعها للحرب سواء نظرنا إليها نظرة جزئية (آية آية) فى مقارنة لكل آية بما يشبهها عند عنترة، أم نظرنا إليها نظرة كلية و هى مجموعة مضمومة بعضها إلى بعض، فهى حينئذ متفرّدة لا نظير لها؛ لأننا لا نجد عند عنترة أوصافا مجتمعة للخيل على هذا النحو تبدأ بالجرى السريع و تترقى فيه حتى يقدح الشرر من احتكاك حوافرها بالصخور حتى تصل فورا إلى غايتها و إغارتها على الأعداء فى أنسب الأوقات و هو وقت الغفلات حتى ترى الكر و الفر و النقع المثار و حتى ترى التحاما عند القتال فى أقل حيز و مساحة: (فوسطن به جمعا). إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۸۳ و يبقى شىء مهم تنفرد به أوصاف الخيل فى سورة العاديات، و هى أنها لم تأت لمجرد تلك الأوصاف، و لكن لتعظيم أمر الجهاد فى نفوس المؤمنين فهذه الأوصاف صورة صادقة للجهاد. و أمر آخر هو أنها بلغت من شأنها و عظم أمرها أن اللّه تعالى أقسم بها، ففيه تنويه لها و لفت إليها، و تفخيم من شأنها لكونها وسائل الجهاد فى سبيل اللّه. و على تعدد تلك الأوصاف التى تشكل صورة كاملة فإنها تمثل شقّ أسلوب القسم الذى يتكون من مقسم به و مقسم عليه، فهذه الصورة الحافلة الكاملة التى تنتشر فى الزمان و المكان تمثل جزء القسم و هو المقسم به. أما الشق الآخر و هو المقسم عليه فهو قوله تعالى: (إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) و الكنود هو الكفور لنعمة ربه، و هو العاصى و هو البخيل كما دلت على ذلك التفاسير، و المقصود أنه عاص لربه فى أمر الجهاد؛ لأنه شحيح بنفسه، شحيح بماله، فلا ينهض لأمر ربه فى الجهاد، فبين المقسم به و المقسم عليه تناسب لكنه عكسى، لأن الأصل المناسب لتعظيم أمر الجهاد هو الامتثال لأمر اللّه فيه و الجود بالنفس و المال، و لكن العكس هو ما سجله القرآن (إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) لأنه بطبعه الإنسانى محب للحياة حريص عليها و لا يستطيع أن ينكر ذلك «۱» و لذلك سمى الجهاد كذلك لحاجته إلى مجاهدة النفس و رغباتها و التطلع إلى ما عند اللّه، و لعله لم يقل ":إن المؤمن لربه لكنود "ليشير إلى أن المؤمن لا يجتمع فى قلبه هذه الصفات و ما ينبغى أن يكون كنودا، فلا يمكن أن يجتمع فيه عصيان و شح و كفران بنعمة اللّه سبحانه عليه.

ثانيا: الموازنة فى النظم:

ثانيا: الموازنة فى النظم: نظرا لأن صور عنترة فى وصف فرسه "حال الحركة "جزئية متفرقة فى قصائد متعددة، فمن الطبيعى أن تتعدد طرق صياغتها بتعدد سياقاتها و قصائدها، و مع ذلك فإن أغلبها من تلك الصياغات المألوفة التى تتردد عند الشعراء الجاهليين و غيرهم (_____. ۱) و هو ما يسجله قوله سبحانه بعده (وَ إِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ* وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ). إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۸۴ فالصورة التى يصف فيها فرسه بالسرعة و التى تعتمد على التشبيه تأتى الصياغة عادية، و التشبيه صريح مرسل بأداة ظاهرة هى الفعل الدال على المحاكاة فى قوله: ولى فرس يحكى الرياح إذا جرى .. لكن مما قوّى دلالة هذه الصورة أن المشبه وقع مسندا إليه مرتين: الأولى من وقوعه مبتدأ مؤخرا فى هذه الجملة الابتدائية "ولى فرس "و الثانية من وقوعه فاعلا مستترا فى الفعل الواقع أداة للتشبيه "يحكى "بما يدل على قوة إحساس الشاعر بفرسه و أنه يملأ عليه حسّه و نفسه حتى يتكرر ظاهرا و مضمرا، ثم إن تعدد إسناد الفعل إليه يقوّى من تلك المشابهة و يدعم من تلك المحاكاة و يزيد من دعوى المماثلة، و هذا يعكس قوة إحساسه بسرعة فرسه حتى لا يجد فرقا بينه و بين الرياح إذا جرى. و تقديم الجار و المجرور فى صدر هذه الصورة "ولى فرس "يقوى من نسبة ذلك الفرس إليه على سبيل الاعتداد و الاعتزاز و ربما دلّ مع هذا على الاختصاص أى أن مثل هذا الفرس الذى يشبه فى سرعته الرياح لا يكون إلا لعنترة. و حاصل هذا أن النظم بطريقة خاصة زاد من قوة التشبيه. و عند تصوير قوة الاندفاع و أثر ذلك على الصخور نراه يعتمد أيضا على التشبيه، لكن الصياغة اختلفت اختلافا ما فى قوله: و حوافر الخيل العتاق على الصفا مثل الصواعق فى قفار الفدفد إذ شكلت عناصر التشبيه جملة واحدة تامة تشمل الشطرين، فقد وقع المشبه مبتدأ "حوافر الخيل العتاق " ..و الخبر هو أداة التشبيه "مثل "مضافة للمشبه به "الصواعق "و نحو هذه الصياغة مألوفة عادية لا تزيد من حركة التصوير و لا من فاعلية المعنى، كما حدث مع التشبيه فى البيت

السابق عند ما وجدنا التصرف فى عناصر التصوير بتقديم المشبه على الفعل الواقع أداة للتشبيه مما أدى إلى تكراره مع تكرار الإسناد إليه، و ما ترتب عليه من فاعلية الصورة و قوة المعنى. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۸۵ و عند تصوير النقع المثار و اجتياز الفرس له يستعين الشاعر بالاستعارة "و خضت النقع "فى قوله: شققت بصدره موج المنايا و خضت النقع لا أخشى اللحاقا و هذه الاستعارة من نوع المكنية التى تعتمد على طى المشبه به مع إثبات لازمة وصفته للمشبه على سبيل التخييل، لأنه يتخيل أن النقع بحر يخوضه فرسه، مع ما فى ذلك من الرمز إلى تهيّب ذلك النقع، و أن اجتيازه لم يكن بالأمر اليسير، لكنه خاضه على كل حال. و المعروف أن أكثر صياغات المكنية: أن يسند لازم المشبه به "الفعل "إلى المشبه "الفاعل "مثل: ضحك المشيب، و أتاك الربيع يختال، و أنشبت المنية أظفارها .. إلخ و قد يضاف لازم المشبه به للمشبه مثل يد الشمال و غضب البحر و صمت الليل إلخ .. و هنا فى قول عنترة نجد المشبه يقع مفعولا "خضت النقع "مثل تجرعت الصبر، و طويت الآلام. و لا فرق بين أن يقع المشبه فاعلا لفعل المشبه به (لازمه) مثل ضحك المشيب، و بين أن يقع مفعولا مثل: خضت النقع من جهة ما يترتب على ذلك من تخييل و تصوير، و إن كان وقوعه فاعلا أقوى لمعناه و أزيد فى التخييل، فقوله تعالى مثلا: (وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) ... [الأعراف: ۱۵۴] أدل على تحكم الغضب، و أقوى فى تخييل أنه يتكلم و يسكت من قولنا: أسكتّ الغضب أو زجرته. و الاستعارة عند عنترة من نوع الصياغة الثانية التى لا يتألق فيها الخيال تألقه فى الصياغة الأولى. و المهم أن الصور الجزئية التى تتناول أوصاف الخيل العاديات عند عنترة متعددة الصياغات، و أن أكثرها عادى مألوف، و أنها ليست على نمط واحد؛ لأنها ليست من سياق واحد، و ليست مجتمعة فى قصيدة واحدة. و على خلاف هذا ما جاءت عليه صياغة أوصاف الخيل العاديات فى القرآن الكريم، فقد جاءت مجتمعة فى سورة واحدة، و على أكمل ما يكون انتظاما و اتساقا موافقا للانتظام و الاتساق الذى يكون فى الواقع، و كأنها لوحة نراها أو مشهد نبصره فى الطبيعة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۸۶ و قد توحدت صياغات تلك الأوصاف حتى أحدثت توازنا و إيقاعا منسجما يسهم بشكل فعّال فى الإيحاء القوى بانضباط حركة الخيل و توازنها فى الواقع. و من ظواهر الصياغة المشتركة فى تلك الآيات: ۱- الإيجاز الشديد الذى دلّ عليه حرف الواو لأنه للقسم كما ذهب المفسرون، فدل هذا على فعل قسم محذوف تقديره: و أقسم بالعاديات ضبحا، أو أقسم بالخيل العاديات ضبحا، فطوى جملة تامة مكونة من فعل و فاعل و معها الموصوف "الخيل "و لم يبق من الجملة سوى توابع أو بالتحديد صفة "العاديات "و حال "ضبحا "على أنها بمعنى ضابحات من ذكر المصدر و إرادة اسم الفاعل .. و هذا النوع من الحذف الذى يطوى أركانا أساسية و لا يبقى من الجملة إلا توابع أو متعلقات دون ما تأثير على المعنى لا تجده إلا فى كتاب اللّه و هو من سمات إعجازه، ثم إن هذا الحذف الذى طوى فيه أكثر مما تبقى يوحى بجو السرعة المتناهية، و كأن الخيل تفلت من دوائر المكان و الزمان و تطوى وارئها الأشياء طيا. إن هذه الميزة الموحية فى ذلك النظم نجدها فى ثلاث آيات من ثلاث جمل متوالية هى قوله تعالى: (وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً [۱] فَالْمُورِياتِ قَدْحاً [۲] فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً) [۳] و لا يحتج على ما سبق من ذلك التميز المعجز بأن هذا الأسلوب له مثيل عند العرب فيما عورض به القرآن من مثل ما أورده الماوردى "عن عكرمة أن النضر بن الحرث و كان من فصحاء قريش عارض القرآن فقال ": و الزارعات زرعا و الحاصدات حصدا و الطاحنات طحنا، و العاجنات عجنا فاللاقمات لقما «"۱». لأن هذه الصياغة قد عمد فيها إلى مماثلة صياغة القرآن و المجيء بكلام على حذوه و أسلوبه، فلا يعد من أساليب العرب المألوفة الدائرة فى كلامهم، ثم إن هذا الذى جاء به النضر مضحك، ليس وراءه كبير معنى، و ليس له سياق و لا غاية سوى المعارضة، و هو كلام- على تفاهته- ناقص؛ لغياب شق المعنى و تمامه و هو المقسم عليه.

(_____ ۱) أعلام النبوة ۱۵۱ ت خالد العك، دار النفائس بيروت ط ۱ ۱۴۱۴ ه/ ۱۹۹۴ م إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۸۷ ۲- و من ظواهر الصياغة اللافتة فى الآيات الكريمة تعاقب العطف بالفاء تعاقبا يدل على تعاقب ما تتناوله من أحداث ابتداء بالعدو السريع (وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً) و مرورا بما يترتب عليه من اشتعال الحركة و قدح الشرر (فَالْمُورِياتِ قَدْحاً) و انتهاء بالإغارة و الالتحام، و إثارة الغبار و تداخل الصفوف

(فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً. فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً). فاجتماع الأوصاف و ترتيبها فى تسلسل و ترقّ سريع يدل عليه تعاقب العطف بالفاء، و ينسجم تماما مع الواقع.

ثالثا: خصوصيهٔ الأداء الصوتى:

ثالثا: خصوصيهٔ الأداء الصوتى: مما يتميز به الأداء الصوتى لوصف الخيل العاديات فى القرآن الكريم: ۱- توالى ثلاث آيات متفقهٔ الفواصل و السجع بحرف الحاء الممدودهٔ (وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً [۱] فَالْمُورِياتِ قَدْحاً [۲] فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً) [۳] ثم تحول الفاصلهٔ إلى العين الممدودهٔ فى آيتين تاليتين هما (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً [۴] فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) [۵]. و سبب هذا أن الآيات الثلاثهٔ السابقهٔ تمثل مرحلهٔ السعى الحثيث المفاجئ فى الصبح، فناسب ختمها بحرف الحاء المهموس، أما عند الالتحام و إثارهٔ الغبار و اشتباك الخصوم فى الآيهٔ الرابعهٔ و الخامسهٔ فالأنسب ختمها بحرف العين المجهور؛ لأنه أقوى صوتا فهو أدل على شدهٔ الالتحام. ۲- نظمت كل آيهٔ من الآيات الثلاث فى الصدر من كلمتين اثنتين، تتفق الكلمات الأولى منها وزنها (العاديات- الموريات- المغيرات) سوى أنه فى المغيرات حدث تغيير فى توزيع الحركات و السكنات، و إن كان عددها بين الكلمات الثلاثهٔ فى النهايهٔ متفقا. ثم اتفاق الكلمات الثوانى فى الجمل الخمسهٔ فى الوزن كذلك (ضبحا- قدحا- صبحا- نقعا- جمعا). و هذا من السجع المتوازى الذى يزداد صوت الإيقاع المنسجم فيه لأنه لا إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۸۸ ينشأ من السجع فى نهايات الجمل حسب، و لكن ينشأ من جههٔ ثانيهٔ هى توافق الكلمات فى الوزن و فى السجعهٔ الداخليهٔ، و كل هذا يعكس انضباط حركهٔ الخيول العاديات و توافقها إلى أعلى درجهٔ بما يشير إلى أنها قد درّبت و أعدت إعدادا يمنعها من الفوضى، ثم إن هذا التوازن المنسجم فى أداء أوصاف الخيل العاديات مما يزيد من تعظيم شأنها فى نفس كل مستمع، و تعظيم ما أعدت له و هو الجهاد فى سبيل اللّه. ۳- ثم إن التشكيل المقطعى فى الآيات الثلاثهٔ الأولى يكاد يكون واحدا، و هذه المقاطع تتنوع كما هو ظاهر ما بين القصيرهٔ و الطويلهٔ المفتوحهٔ و الطويلهٔ المقفولهٔ مما يشعر بتنوع طريقهٔ الجرى السريع ما بين التقريب و الإرخاء كما هى عادهٔ الخيول العاديات، فهذا مما يزيد من دلالهٔ ارتباط الصورهٔ المرسومهٔ فى تلك الآيات بالواقع دون تزيّد أو مبالغهٔ. و كل هذه المميزات لا نجد شيئا منها فى وصف الخيل العاديات عند عنترهٔ و لا عند غيره، فهى من خصوصيهٔ الأداء القرآنى المعجز. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۸۹

المبحث الثالث بين القرآن الكريم و البيان النبوى

المبحث الثالث بين القرآن الكريم و البيان النبوى أول فرق يطالع كل ذى بصر بين البيان القرآنى و البيان النبوى هو تجلى الأثر الإلهى فى البيان القرآنى بخصائص معينهٔ فى الأسلوب تدل بقوهٔ على أن هذا لا يكون كلام بشر أبدا، لكن البيان النبوى يبدو فيه الطابع البشرى مهما سما فى درجات بيان البشر. و من خصائص الأسلوب التى تسهم فى تجلى الأثر الإلهى فى البيان القرآنى: ۱- مجىء التكاليف الشرعيهٔ و المبادئ الأخلاقيهٔ بالأسلوب الإنشائى و بصيغهٔ الأمر الجازمهٔ غالبا فى خطاب الناس جميعا، و هذا نادر فى الحديث النبوى. و انظر إلى قوله تعالى فى التكليف بالصلاهٔ ركوعا و سجودا: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [الحج: ۷۷] و قرنه عقب ذلك بين الصلاهٔ و الزكاهٔ فى قوله تعالى: (فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ) [الحج: من الآيهٔ ۷۸]. و هكذا لا تجد الأمر بالفروض مع توالى الأوامر إلا فى كلام اللّه القوى العزيز الغالب، بينما نجد هذه المعانى فى البيان النبوى غالبا بالأسلوب الخبرى الذى يحمل الطابع البشرى كقوله صلّى اللّه عليه و سلّم فيما رواه الشيخان عن ابن عمر أن رسول صلّى اللّه عليه و سلّم قال "بنى الإسلام على خمس: شهادهٔ أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا عبده و رسوله، و إقام الصلاهٔ و إيتاء الزكاهٔ و حج البيت و صوم رمضان «"۱». و انظر إلى الفرق بين قوله تعالى: (وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ) .. [آل عمران: ۱۰۴]، و بين قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فيما رواه أبو مسعود البدرى "من دل على خير فله

مثل أجر فاعله «"۲» لتجد المعنى قد جاء فى الآية على سبيل التكليف بواسطة المضارع المقترن بلام الأمر، ثم إن تقديم الجار و المجرور "منكم "على (_____ ۱) مختار الأحاديث النبوية السيد أحمد الهاشمى ۴۸ دار الفكر بيروت ۱۴۱۴ ه- ۱۹۹۴ م. (۲) نفس المرجع ۱۶۶. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۹۰ اسم تكون و خبرها يدل على تخصيص جماعة مؤهلين لمهمة الدعوة إلى الخير (منكم) فمن تدل على البعضية، و توجيه الخطاب للجمع يدل على مسئولية الجماعة فى اختيار من يصلح منهم لمسئولية الدعوة إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر. أما الحديث الشريف فقد جاء بلفظ الخبر المرغب، مع ترك هذه المسألة للاختيار اكتفاء بالترغيب فى قوله ":فله مثل أجر فاعله "و الحاصل أن مجيء المعنى فى القرآن بالأسلوب الإنشائى الآمر يدل على صدوره من قوة قاهرة آمرة مسيطرة. هذا فضلا عن خصوصيات الصياغة التى لا نجدها فى الحديث الشريف، على أن الجملة القرآنية السابقة: (وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ) جزء من كل متواصل متلاحم يبنى بعضه على بعض، فبعدها: (وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [آل عمران: من الآية ۱۰۴]. إن ذلك الفرق يظهر جليا حتى لا يجد المتأمل صعوبة فى إدراك الاختلاف بين أسلوب و أسلوب، و انظر إلى قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ) .. من الآية ۸ سورة التحريم. و قارن بينه و بين قوله صلّى اللّه عليه و سلّم ":إن اللّه تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار و يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها «"۱». تجد الأسلوب القرآنى قد جاء فيه طلب التوبة بلفظ الأمر الجازم مع التمهيد له و الاستدراج إليه بالنداء للذين آمنوا حتى يتحقق إيمانهم على أكمل ما يكون، بينما خلا الحديث الشريف من هذا الطلب الجازم و هو يحمل الطابع النبوى الشفوق إذ يعرض المعنى فى صورة محببة مرغبة فى التوبة ":إن اللّه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار و يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل "أى أن الدعوة للتوبة قائمة دائمة لا تنقطع ما توالى الليل و النهار، و هذا يلتقى مع ديمومة طلب القرآن (تُوبُوا) فهو طلب قائم إلى يوم الدين، لكن أسلوب الحديث هو أسلوب التودد البشرى الذى (_____ ۱) مختار الأحاديث النبوية ۱۶۶ دار الفكر. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۹۱ يبسط فى العبارة و يحرص على الاستمالة النفسية فى التعبير ببسط اليد ليلا- و نهارا، و بسط العبارة النبوية هنا نسبى بالقياس إلى إيجاز القرآن، و إلا فإن أسلوب البيان النبوى هنا لا يخلو من سمات الإيجاز. و حاصل هذا ما نراه من بروز عناصر التكليف و التوجيه فى الأسلوب القرآنى، و بروز عناصر الترغيب و التلطف و التودد فى الحديث النبوى، و أن البيان النبوى و إن كان موجزا فى جملته فإنه قد يوجد فيه ما يعد بسطا و إطنابا بالقياس إلى ما هو أوجز منه و هو أسلوب القرآن الذى يحمل فخامة و قوة و طابعا إلهيا لا يوجد فى أى أسلوب بشرى مهما ارتقى فى طبقات كلام الناس. و لا يقدح فى الظاهرة السابقة التى ترى فيها التكليف بالفروض بلفظ الأمر مظهرا من مظاهر القوة و عزة الربوبية ما نراه فى فرض الصوم الذى جاء ابتداء بلفظ الخبر فى قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ۱۸۳]، بينما فى حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد جاء بلفظ الأمر فى قوله الذى رواه الشيخان ":صوموا لرؤيته و أفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين «"۱»، ذلك لأن لفظ الخبر فى الآية الكريمة (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ) أقوى فى التكليف للتعبير بلفظ الكتابة الدالة على وثاقة الفرض و تسجيله سلفا، ثم إن اللّه تعالى رتب عليه قوله فى الآية التالية: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) ... من الآية ۱۸۴ البقرة. فجاء الطلب بصيغة المضارع المقرونة بلام الأمر و هذه الصيغة لا تقل عن صيغة فعل الأمر (صوموا) فى الدلالة على الطلب الجازم، سوى أن المضارع ربما دل على أن ذلك الطلب ليس دائما مستمرا فى كل وقت و لكنه يتجدد حينا بعد حين و فى كل سنة شهر، فيكون للام الأمر دلالة على الطلب الجازم، و للفعل المضارع دلالة على تجدد ذلك الطلب فى وقت محدد من كل عام. على أن الأمر فى الحديث النبوى لم يقصد به التشريع و إنما كان لتحديد وقت الصوم ابتداء و انتهاء": صوموا لرؤيته و أفطروا لرؤيته " ...الحديث.

(_____ ۱) مختار الأحاديث النبوية ۸۶.

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۹۲ و على ذلك فإن أكثر التكاليف و الفروض جاءت فى القرآن بأسلوب الإنشاء و بواسطة الأمر الجازم على سبيل الاستعلاء لأن الآمر هو اللّه سبحانه بحيث يتبين فى تلك الأوامر أثر الألوهية و عزة الربوبية، بينما نجد هذه الأشياء قد جاء معظمها فى الحديث النبوى بأسلوب الخبر الذى اعتمد البسط و التودد و التشويق بطريقة تبدو فيها أثر النفس البشرية و إن سما أسلوب الخطاب النبوى و ارتقى فى سلم البيان البشرى. ۲- و قد تجد مقامات و معانى أخرى تقتضى العكس كالترغيب فى الإنفاق و بذل الأموال تقربا إلى اللّه سبحانه، يقول عز و جل: (قُلْ إِنَّ رَبِّی يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [سبأ: ۳۹]. فلما كانت النفس الإنسانية مجبولة على الحرص طمأنها اللّه سبحانه بأنه يخلف عليها فى الدنيا و هو خير الرازقين، فضلا عن مضاعفة الثواب فى ميزان حسنات الآخرة، و النص هنا بالأسلوب الخبرى الذى يدل على اختصاص اللّه سبحانه بالتعويض و الإخلاف: (وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ). لكن هذا المعنى جاء فى الحديث النبوى بأسلوب الإنشاء و بلفظ الأمر فى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم الذى رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى اللّه عنه ":ما من يوم يصبح العباد فيه إلا و ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، و يقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا) «۱». على أن الآية القرآنية ليست تشريعا يقتضى التكليف بلفظ الأمر و لكنه وعد من اللّه سبحانه بتعويض المنفقين تعويضا عاجلا. و اللافت هنا أن الحديث الشريف دعاء "اللهم أعط منفقا خلفا "و أن الآية القرآنية كالإجابة على هذا الدعاء (وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ).

(_____ ۱) مختار الأحاديث النبوية للهاشمى

۱۸۵. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۹۳ ۳- فروق فى الإيجاز و الصياغة: قال تعالى: (فَاذْكُرُونِی أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِی وَ لا تَكْفُرُونِ) [البقرة: ۱۵۲]. و فى الحديث القدسى الذى رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: يقول اللّه عز و جل: (أنا عند ظن عبدى بى إذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، و إن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه «" ...۱» و الحديث القدسى من البيان النبوى، لأنه حكاية معنى ما قاله اللّه سبحانه ببيان رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم و ألفاظه، فهو من البيان النبوى. و قوله سبحانه: (فَاذْكُرُونِی أَذْكُرْكُمْ) .. جزء من آية يدل سياقها على أن المقصود بالذكر عمومه سواء كان فى صلاة أم فى غير صلاة، و هو ذلك الذكر الذى يقوى من صلب الإيمان و يشد أزر المؤمنين و يشعرهم بالقرب من ربهم، و لعل هذا يفسر خصوصية الصياغة الموجزة فى هذه الجملة (فَاذْكُرُونِی أَذْكُرْكُمْ) .. إذ جعل مكافأة الذكر ذكر من باب التكريم و الفوز و حتى يكون الجزاء من جنس العمل كما يفهم من جعل المكافأة جوابا للأمر دون فاصل بينهما. فإذا قارنا هذا بالحديث القدسى السالف وجدنا المعنى القرآنى فى جملة واحدة هى الأمر و جوابه، و كل منهما جملة صغيرة، أما الحديث القدسى فقد جاء المعنى مرتين، مرة مجملا- فى قوله ":و أنا معه إذا ذكرنى "و مرة مفصلا مبسوطا فى قوله ":فإذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، و إن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه "و المعنى حين جاء مجملا أفاد معية اللّه مع الذاكر، لكن هذه المعية ظلت مبهمة فى كيفيتها حتى أبان التفصيل عنها بطريقة التقسيم بعد الجمع، و فى التقسيم مزيد بيان و ترغيب فى الذكر ":فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، و إن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه "و الجملة الثانية من باب الزيادة فى الجزاء و الإحسان فى المكافأة. فالآية القرآنية و الحديث القدسى يلتقيان فى جعل الجزاء مشاكلا للعمل و مماثلا له و تحفيزا للذاكرين و إلهابا لهمم الشاكرين، و إن كان ذكر اللّه فى الحقيقة رحمة أو مغفرة أو رفع للدرجات فى الدنيا و الآخرة، ثم يفترقان فى الصياغة

(_____ ۱) مختار الأحاديث النبوية ۱۷۹.

إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۹۴ و التأليف، فالمعنى القرآنى فى جملة أوجز مما جاء عليه الحديث، و مع أن البيان النبوى سواء كان عن اللّه سبحانه أو عنه صلى اللّه عليه و سلم يأتى موجزا و من جوامع الكلم، فإنه يعد إطنابا بالقياس إلى البيان القرآنى الذى جاء أوجز و أكثر تركيزا للمعنى مما يدل على نسبية الإيجاز، و أن الكلام قد يكون موجزا لكنه يكون إطنابا بالقياس

إلى كلام آخر أوجز منه فى المعنى نفسه. ۴- ثم إن هناك سمة أخرى مطردة فى البيان القرآنى، و هى هنا ظاهرة جدا، تلك السمة هى ظهور الطابع الإلهى الماثل فى أمر الجميع (فَاذْكُرُونِي) مقرونا بالجزاء للجميع (أَذْكُرْكُمْ) فطلب الذكر من جميع الخلق بلفظ الأمر مقرونا بجزائه فورا لا- يكون إلا- من القوى القادر العزيز القاهر، أما البيان النبوى فيظهر فيه بجلاء الطابع البشرى ابتداء من الحكاية و النقل عن اللّه سبحانه فى ": يقول اللّه "ثم فى الصياغة التى جاءت على النحو السالف حين ذكر المعنى مرتين: مرة مجملا فى جملة واحدة، و مرة مفصلا فى جملتين، فيكون المجموع ثلاث جمل، بينما جاء المعنى فى القرآن من جملة واحدة هى الأمر و جوابه. و هناك فرق مهم هو أن الجملة القرآنية التى سلفت: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) عبارة عن حلقة فى سلسلة من المعانى القرآنية المتصلة، و هذه الحلقة لها وظيفة فى ذاتها، و وظيفة فى سياقها، مع التفاعل فى هذا السياق و مع سائر الحلقات «۱»، بخلاف المعنى فى البيان النبوى فهو معنى قائم بذاته. ۵- على أن المعنى قد يرد فى الحديث النبوى مجملا، و فى القرآن الكريم مبسوطا، و هذه حالة نادرة تعود إلى خصوصية فى المعنى القرآنى لا- يوجد نظيرها فى المعنى النبوى. خذ مثلا- التحذير من أكل أموال اليتامى: يقول

(_____ ۱) بمراجعة السياق .. الآية ۱۵۱، ۱۵۲

من سورة البقرة نجد الأمر: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) قبله أعظم النعم التى تستحق الذكر و الشكر: (كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ* فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونِ) [البقرة: ۱۵۱- ۱۵۲]. فإن الأمر بالذكر و الشكر هنا لما سبقه من نعم عظيمة، و مع هذا فقد وعد سبحانه بمكافأة لهذا الذكر، لأن المقصود بقوله: (أَذْكُرْكُمْ) ما يستلزمه من الإكرام و الإنعام. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۹۵ سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) [النساء: ۱۰]. و مما رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال ": اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول اللّه و ما هن؟ قال: الشرك باللّه، و السحر، و قتل النفس التى حرم اللّه إلا بالحق، و أكل الربا، و أكل مال اليتيم، و التولى يوم الزحف، و قذف المحصنات المؤمنات الغافلات «"۱» و الشاهد هنا فى "و أكل مال اليتيم "فقد جاء فى الحديث الشريف فى جملة موجزة؛ لأنه ضمن أشياء سبعة يحذر منها و يدعو لاجتنابها، و من ضرورات الخطاب التربوية أن يذكرها متوالية مجملة حتى لا ينسى بعضها بعضا فيما لو بسط واحدا منها و فصل فيه، لهذا جاء أكل مال اليتيم مركبا إضافيا فى حكم الكلمة الواحدة المعطوفة على ما قبلها للتشريك فى الحكم و هو التحذير من السبع الموبقات و الأمر باجتنابها. أما الآية القرآنية فلم تكن كذلك، و لكنها عبارة عن جملة كاملة خبرية مؤكدة، و يلفتنا فيها أنه لم يكتف بالتأكيد فى صدرها حتى عاد لتأكيد مضمون الخبر الذى هو حكم و جزاء زاجر (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً) على أنه نص هنا على الظلم الدال على أن ذلك الأكل ليس لحاجة و لا هو بالمعروف و لكنه مجرد جشع، لهذا كان الخبر تفظيعا من المصير الشنيع فى الدنيا: (إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً) و العذاب الأليم فى الآخرة: (وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً)، و هذا العطف يدل على أن النار فى الجملة الأولى ليست نار الآخرة و إلا- لكان من التكرار و عطف الشىء على نفسه، و إنما المقصود بالجملة الأولى تعجيل العقوبة فى الدنيا إلى جانب عذاب الآخرة على سبيل التحذير الشديد من نتيجة الأكل الظالم لأموال اليتامى، فإن من يقومون عليه لا- تطيب به أبدانهم و لا- تزيد، و إنما تتلظى و تسقم و كأنهم يضعون فى بطونهم نارا حارقة، فالتعبير بالنار يسهم فى التشنيع و التفظيع المقصود، و كذلك التعبير بالأكل، لأن الانتفاع بمال اليتيم عموما حرام سواء كان أكلا أو لبسا أو ترفها، و إنما عبر

(_____ ۱) مختار الأحاديث النبوية ۱۹۵،

۱۹۶. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۹۶ بالأكل خاصة من باب النهى عن أشنع صور الفعل كما عبر بالأكل فى جانب الربا فى قوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [آل عمران: ۱۳۰]، مع أن النهى عن الانتفاع يكون هنا مطلقا، و لكنه من باب النهى عن أشنع صور الفعل لإدخال الروع و الرعب فى النفوس، و لا شك فى أن كل نفس حرة كريمة لا ترضى أن تملأ بطنها من مال يتيم أو من مال جاء من الربا لأنه صورة من صور استغلال حاجات المضطرين و

استنزاف دمائهم، بل هو أبشع تلك الصور على الإطلاق. و قد اقتبس الحديث النبوى الشريف هذا اللفظ- على طريقة البيان النبوى فى التأثر بالتوجيهات القرآنية شكلا و مضمونا فى كثير من الأحيان، و ذلك فى الجملة السابقة من الحديث و هى قوله صلى اللّه عليه و سلم فى ضمن ما أمر باجتنابه ":و أكل مال اليتيم. "و الحاصل من هذا أن العبارة عن التحذير من أكل أموال اليتامى فى القرآن قد بسطت إلى حد ما بالقياس إلى عبارة الحديث النبوى عن هذا المعنى و ذلك لخصوصيات و معان إضافية ليست فى الحديث النبوى كما سلف، فليست المسألة زيادة ألفاظ و لكنها زيادة معان بالدرجة الأولى. ۶- و قد تجد أصل المعنى واحدا، و لكن ذهبت به الآية إجمالا و ذهب به الحديث الشريف تفصيلا، ثم تفاوت الأسلوب تفاوتا يجعل لكل طريقة وظيفة و لكل صياغة خصوصية و سياق، من ذلك قوله تعالى: (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ) [الزمر: من الآية ۹]. و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم فيما رواه أبو موسى الأشعرى ":مثل ما بعثنى اللّه به من الهدى و العلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ و العشب الكثير، و كان منها أجادب أمسكت الماء فنفع اللّه بها الناس فشربوا منها و سقوا و زرعوا، و أصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء و لا تنب إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۹۷ كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين اللّه و نفعه ما بعثنى اللّه به فعلم و علّم، و مثل من لم يرفع بذلك رأسا و لم يقبل هدى اللّه الذى أرسلت به «"۱». و بالتأمل فى الجملة القرآنية السابقة نجد لها سياقا خاصا بمن يقنت للّه آناء الليل ساجدا و قائما حذرا و رجاء، و أنه لا يستوى بمن لا يعبأ بذلك و لم يمس الإيمان قلبه، و أن الأول علم حق اللّه عليه، و الثانى لم يعرف شيئا من ذلك فلا يستويان، و مع هذا فقد جاء قوله سبحانه: (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) من العموم بحيث يضم كل ما يمكن أن يدخل فى إطار العلم، و كل ما يمكن أن يخرج عن إطاره أى كل ما يتعدى إليه العلم مثبتا أو منفيّا، و على هذا يمكن أن يكون الحديث النبوى تفصيلا من تفصيلات الآية الكريمة و نموذجا من نماذج الذين يعلمون و الذين لا يعلمون، لأن عموم الآية جعل فيها سعة أو اتساع يقبل توجيهات كثيرة و أصنافا عديدة ممن ينطبق عليه العلم أو عدم العلم، و تكون هذه الآية مثالا لما يترتب على الحذف «۲» من توسيع المعنى و إطلاقه، و يكون ترك الذكر أفصح من الذكر، و الصمت عن الإفادة أزيد للإفادة كما ذكر عبد القاهر رحمه اللّه «۳» و يكون من غايات إجمال الآية أن تتناول المعنى قبلها فى إطار سياقها الخاص ثم تتناول معه ما سواه ممن يدخل فى إطار الحرص على العلم الدال على القلب الواعى، أو إيثار الجهل الدال على القلب الغافل الخامل المستهتر. أما الحديث النبوى فإنه تفصيل لجانب من جوانب المعنى الذى تتناوله الآية الكريمة، إذ سلط الضوء على العلم و الهدى الذى بعث به رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم من حيث مواقف الناس منه، فكان هناك صنفان من الناس: صنف تلقاه بالقبول و الرغبة و الحرص فتشبعه و وعاه و تشربه و متى صار كذلك فإنه ينتفع بما علمه، و يصبح قادرا على أن ينفع به غيره و ينقله إليه كما تلقاه، و يدخل فى هذا و يلحق به من وعى العلم و لم تكن له قدرة على أن يتشربه و لا أن يسرى فى دمه و لحمه و عظامه، و إنما حفظه و نقله لغيره فانتفع به غيره، فمثل هذين كمثل غيث

(_____ ۱) مختار الأحاديث النبوية ۱۱۵. (۲) و المحذوف هنا هو المفعول لأنه ترك الفعل الصالح للتعدية بدون تعدية فلم يقل يعلمون ما ذا أو لا يعلمون ما ذا. (۳) دلائل الإعجاز تحقيق محمود شاكر ۱۴۶ مكتبة الخانجى بالقاهرة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۹۸ أصاب الأرض، فكان منها طائفة طيبة خصبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ و العشب الكثير، و كان منها أجادب أمسكت الماء فنفع اللّه به الناس فشربوا و سقوا و زرعوا و هذان معا فى حكم الصنف الواحد الذى يدخل فى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم ":فذلك مثل من فقه فى دين اللّه و نفعه ما بعثنى اللّه به فعلم و علم "و يبدو أن الحديث الشريف إنما تغاضى عن ذكر الذى حفظ العلم و نقله لغيره و لم ينتفع هو به فى جانب الممثل له تقليلا من اللوم عليه، و اكتفاء بالإشارة إليه فى الصورة الممثل بها ابتداء، و ذلك لأن هذه المسألة تعود فى غالب الأمر إلى المواهب و القدرات، و هؤلاء الذين نفعوا غيرهم و لم ينتفعوا، إذا تأملنا حالهم وجدنا أنهم ما منعهم من نفع أنفسهم إلا جمود فى التفكير و كزازة فى الفهم، و لعل هذا ما يشير إليه تصويرهم ابتداء بالأجادب، فهؤلاء ليسوا فى قدرتهم كمن تقبل الفكرة و حركها فى

نفسه فتشربها قلبه، و سرت فى روحه، فأورقت و أثمرت و تفتقت عنها صور جديدة، فهؤلاء الذين حفظوا العلم و لم ينتفعوا به معذورون على كل حال، و حسبهم أنهم حفظوا العلم و نقلوه لغيرهم، و من أجل هذا تغاضى البيان النبوى عن ذكرهم فى تفسير و بيان الذين ضرب لهم المثل مكتفيا بالطرفين المتناقضين اللذين تبدو بينهما هوة واسعة فى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم ": فذلك مثل من فقه فى دين اللّه ... فعلم و علّم، و مثل من لم يرفع بذلك رأسا و لم يقبل هدى اللّه الذى أرسلت فيكون الطرف الثانى الذى حفظ العلم و لم ينتفع به قد دخل ضمنا فى الأول الذى علم و علم. و لعل البيان النبوى عند ما دمج هذين الصنفين فى صنف واحد كان يستوحى إجمال البيان القرآنى و عمومه عند ما قال: (هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ..) و لا شك أن الذين يعلمون أصناف و أنواع، على أنه أبقى على عموم الذين (يَعْلَمُونَ) ليقابله بالذين (لا يَعْلَمُونَ)، و مع أن الحديث النبوى فصل فى تصوير الذين (يعلمون) و أن منهم من وعى و فهم و علم غيره، و منهم من حفظ العلم دون فهم و نقله لغيره، فإنه فى الوقت ذاته أدمج عند الكشف عنهما فى جانب الممثل له كما لو كان يتحدث عن صنف واحد بقوله ":فذلك مثل من فقه فى دين اللّه و نفعه ما بعثنى اللّه به فعلم و علم. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۱۹۹ أما الصنف المقابل الذى لم يرفع بذلك رأسا و لم يقبل هدى اللّه فمثله كمثل القيعان التى لا تمسك ماء و لا تنبت كلأ فلا انتفع و لا نفع غيره. و بهذا يتبين أن إجمال الآية القرآنية إنما كان لتتسع مجالات المعنى المراد، و هذا يتسق مع منهج القرآن و جلال معانيه، و أن الحديث النبوى على الرغم من تفصيله فإنه يدور فى إطار مجالات المعانى المحتملة فى الآية القرآنية. ثم إن البيان النبوى فى هذا الحديث و إن اتجه للتفصيل و التوضيح عن طريق ضرب المثل فإنه مع هذا يحرص على إبقاء المغزى من إجمال التعبير القرآنى و ذلك عند ما دمج نوعى الصنف الأول الذى علم و علم و ذلك التماسا للعذر و تخفيفا عن أحدهما الذى نفع غيره و لم ينتفع، و إشارة إلى أنه لا يحرم من الثواب بمقدار ما حمل و تعب حتى نقل غيره عنه، و حرصا على استلهام دلالة النص القرآنى المعجز و الذى أطلق الفعل و لم يحدد المفعول. و تبقى الفروق بين البيان القرآنى و البيان النبى كثيرة، و لكن فقط أشير إشارة مجملة إلى عنصر التصوير بالأمثال، فأمثال القرآن تتجه فى الغالب إلى تصوير أفكار عقائدية تتصل بالإيمان و الكفر و إخلاص الوحدانية للّه تعالى و نفى الشركاء، و عبادة اللّه وحده و إخلاص التوجه إليه، لكن أمثال الحديث النبوى تنتشر فى كل المعانى بما ينسجم مع غايات البيان النبوى و أهمها تفصيل ما أجمل من القرآن و بيان ما قد يغمض على سائر الناس، و تقريب المعانى عموما و لفت الناس إلى الفضائل و ترغيبهم فيها و إقناعهم بالفروض و حثهم عليها. و هذا أمر يحتاج إلى تفصيل مستفيض للوقوف على المعانى و كيفيات تصويرها و الفروق بين تلك الكيفيات للوصول إلى خصوصيات البيان القرآنى المعجز، فلعل اللّه سبحانه ييسّر لذلك مستقبلا. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۰۰

المبحث الرابع قصة يوسف بين القرآن الكريم و الكتاب المقدس

اشارة

المبحث الرابع قصة يوسف بين القرآن الكريم و الكتاب المقدس قد يبدو من المستبعد أن نوازن بين نص معجز هو القرآن و بين نص مترجم «۱» هو الكتاب المقدس، بل قد يبدو من السابق لأوانه أن نذكر ما يخطر فى نفوس كثير من الباحثين المسلمين من استبعاد الموازنة بين نص معجز لم يطرأ عليه تغيير أو تبديل و بين نص مترجم تعرض لكثير من التغيير و التبديل و الحق أن هذا ينبغى أن يترك لنتائج الموازنة التى تركز على الفروق بين المعانى «۲» للنظر فى أى منها هو الصحيح عند الاختلاف بين الروايتين و أيها هو المتناسق الذى لا يناقض بعضه بعضا، و أيّها هو الذى يظهر فيه أثر القوة و العظمة الإلهية و أيها الذى يحمل الطابع البشرى. على أن المعول عليه فى الحكم بصحة أحد المصدرين لن يكون التعصب أو الادعاء و إنما الحكم المنطقى الذى يفصل فى صحة الحدث، و ذلك عند تناسقه مع سائر الأحداث و مناسبته للشخصية و موافقته لجلال الوحى و سموه.

۱-

۱- يبدأ النظم القرآنى للقصة بالعرض الإجمالى الذى يستدعى التهيئة النفسية تشويقا لما يأتى بعده، و هى طريقة من طرق الجذب فى القرآن الكريم، و ذلك فى قوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ) [يوسف: ۳ (_____]. ۱) من الثابت تاريخيا و علميا أن الكتاب المقدس بعهديه القديم و الجديد لم يترجم إلى العربية قبل القرن العاشر الميلادى أى الرابع الهجرى، القرآن معجزة المعجزات. أحمد ديدات ترجمة نبيل هارون ص ۱۵، و فى هذا قطع الطريق على من يتوهم أن لنبى الأمى ربما اطلع على كتب سابقة أو بما لديه من ثقافة من دراسات اليهود و النصارى. (۲) للمعانى القرآنية مدخل فى الإعجاز لتفردها و تميزها سواء كانت معانى غيبية أم تشريعية أم أخلاقية أم علمية، و قد قرأ البعض قوله تعالى (قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ) فظن أن إعجاز القرآن بألفاظه و نظومه حسب و ليس بمعانيه و ذلك بناء على فهم خاطئ للآية لكن الحق أن فى الأمر استدراجا؛ لأن الخصوم يقولون: إن محمدا افترى هذا القرآن، فرد عليهم بقوله (أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ) يعنى هب أنكم صادقون فى دعواكم أن ما يتلوه عليكم من افترائه فهاتوا بمثل ما يأتى به عشر سور مثله مفتريات، فلا ينبغى أن يفهم من هذا طلبا حقيقيا يستنتج منه أن القرآن معجز بلفظه حسب، و لكن الأمر للاستدراج و لمجاراة التى تؤدى بالخصم إلى أن يصل بنفسه إلى إدراك عجزه. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۰۱ و فى تلك البداية المجملة نلحظ أثرا من آثار القوة و العظمة مما يعطى لأولى الأبصار إيحاء باكتساء الأسلوب القرآنى بالطابع الإلهى فى قوله (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ). فالبداية بضمير التكلم المجموع يدل على عظمة المتحدث و يناسبه التعبير فى الفعل (نقص) بالضمير نفسه، و قد تخيّر حرف الجر و مجروره (عليك) للدلالة على نزول من أعلى مما يشير لأولى الأبصار إلى أن هذه خصوصية الوحى، و بهذا ندرك لما ذا ترك ما قد نظنه هو الأصل و هو "نقص لك "على أن مجيء الخبر بلفظ الجمع (لَمِنَ الْغافِلِينَ) دون المفرد كأن يقول مثلا و إن كنت من قبله غافلا للإشارة إلى أن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم لم يكن وحده الذى لا يعلم هذه القصة، فالبيئة العربية لم تكن فيها ترجمة عربية للتوراة و الإنجيل، و هذا من حكمة اللّه سبحانه حتى لا يقول أحد بتأثيرهما، و حاصل هذا أن خصوصيات قوله (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) و قوله (وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ) تدل أن قصة يوسف بوحى من اللّه، و قد صرح بهذا فى وسط الآية (بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ). فالبداية القرآنية لقصة يوسف تتسم بعظمة المتحدث، و أنه هو اللّه الذى يوحى لرسوله صلّى اللّه عليه و سلّم، و أن محمدا لم يكن عنده علم سابق بهذه القصة حتى لا يتوهم واهم أن القصة مما اختزنه من علم سابق. لكن العرض التوارتى يبدأ بالسرد التفصيلى الذى لا أثر فيه لطابع الوحى الإلهى مثل ":لما كان يوسف ابن سبع عشرة سنة و كان يرعى الغنم مع إخوته و هو غلام مع بنى بلهة و بنى زلفة امرأتى أبيه أخبر يوسف أباهم عنهم بريبة شنيعة، و كان إسرائيل «۱» يحب يوسف على جميع بنيه لأنه ابن شيخوخته، فصنع له قميصا موشّى. "يتجاوز القرآن كل هذه التفصيلات فلا يذكر سن يوسف بداية، و لا يذكر رعيه للغنم مع أخوته لأبيه "بنى بلهة و بنى زلفة "إلخ (_____ .. ۱) إسرائيل هو الاسم العبرانى ليعقوب عليه السلام و قد اعتمدت فى اقتباس نصوص الكتاب المقدس على كاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبى. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۰۲ فالبداية القرآنية تؤكد لكل ذى بصيرة أن هذا حديث اللّه و كلامه، أما البداية التوراتية فإنها أشبه ما تكون بحديث المخلوقين فى جلسة مسامرة. ثم إن العهد القديم يذكر حب يعقوب ليوسف على جميع بنيه و أن إخوته رأوا أباهم يحب يوسف عليهم جميعا فأبغضوه، لكن القرآن يتجاوز هذه المباشرة، و يترك لنا فهم هذا الحب من الحوار الذى دار بين الإخوة (إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) [يوسف: ۸]. و لا شك أن ما يستنتج من الحوار يكون أوقع فى النفوس و أصدق مما يساق مباشرة، لأن ذكر الحوار يعطى للكلام مصداقية و وثاقة.

۲- الرؤيا و قصتها:

۲- الرؤيا و قصتها: ورد فى العهد القديم ":و رأى يوسف حلما فأخبر أخوته به فازدادوا كراهية له، قال لهم: اسمعوا هذا الحلم الذى رأيته، رأيت كأنا نحزم حزما فى الصحراء فإذا حزمتى وقفت ثم انتصبت فأحاطت حزمكم و سجدت لحزمتى، فقال له إخوته: أ لعلك تملك علينا، و ازدادوا أيضا حنقا عليه لأجل أحلامه و كلامه، و رأى أيضا حلما آخر فقصه على إخوته و قال: رأيت حلما أيضا كأن الشمس و القمر و أحد عشر كوكبا ساجدة لى، و إذ قصه على أبيه و إخوته زجره أبوه و قال له: ما هذا الحلم الذى رأيته، أ ترانا نجئ أنا و أمك و إخوتك فنسجد لك إلى الأرض "؟و القرآن الكريم لا يزيد فى حكاية الرؤيا عن قوله تعالى: (إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ* قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) [يوسف: ۴، ۵]. و لا مجال للمقارنة بين فصاحة الكلامين لوضوح الركاكة فى نص العهد القديم و الذى يسوده التكرار كما تكثر فيه كلمة (أيضا) و تكرارها يدل على الضعف، لهذا تقتصر المقارنة على ما تحمله النصوص من معان. ففى العهد القديم رؤيتان، و فى القرآن الكريم رؤيا واحدة، و الروايتان تلتقيان فى رؤيا يوسف للشمس و القمر و الكواكب تسجد له، فهل استبعد القرآن رؤيا إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۰۳ سجود حزمات الأخوة لحزمة يوسف، أو أنها رؤيا لا- وجود لها و هى من اختلاق نساخ نصوص العهد القديم؟ لا مفر من التماس عوامل مساعدة على الحكم من النصوص نفسها، ففى نص العهد القديم يذكر أن يوسف قصّ الرؤيا على أخوته، فأدركوا تفسيرها و فهموا مغزى الرمز فيها حين قالوا: أ لعلك تملك علينا أو تتسلط علينا؟ و يذكر هذا النص أن يوسف قص الرؤيا الثانية على أخوته و أبيه فزجره أبوه و قال: أ ترانا نجئ أنا و أمك و إخوتك فنسجد لك إلى الأرض؟، فكيف يرك إخوته مغزى الرؤيا الأولى و لم يكونوا أهلا لإدراكها؟ و كيف يغيب مغزى الرؤيا الثانية عن يعقوب إذ يصرح بتعبيرها زاجرا و مستنكرا و هو النبى الذى يوحى اللّه إليه؟ هذا التعاكس المنطقى يجعلنا نستبعد الرؤيا الأولى و أنها من زيادات النسّاخ، و ليس هذا فحسب، فقد حرّفوا تفاصيل الرؤيا الثانية، لأن المرجح أن يوسف لم يذكرها إلا لأبيه، بل إن القرآن يقطع بهذا و أن أباه نصحه ألا- يقصها على إخوته لما يعلم من حسدهم (قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً). ثم إن سمت النبوة و الإلهام يظهر فى هذا النص القرآنى لأن ما خاف منه يعقوب قد وقع و هو الكيد، و هو يرد ذلك إلى الشيطان (إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ). و بعين النبوة و إلهامها تنبّأ يعقوب لابنه يوسف أن يكون نبيّا يصطفيه اللّه و يجتبيه و يعلّمه من تأويل الأحاديث و يتم نعمته عليه و على آل يعقوب كما أتمها على أبويه إبراهيم و إسحاق، و القرآن سجل هذا فى الآية ۶ من سورة يوسف. و لا- شك أن هذا دليل على مصداقية النص القرآنى لتناسق الأحداث و تناسب الحوار مع الشخصية بخلاف ما جاءت عليه نصوص العهد القديم من الافتقار إلى كل هذا.

۳- ذهاب يوسف مع إخوته:

۳- ذهاب يوسف مع إخوته: تذكر نصوص العهد القديم إن ذلك كان بأمر من أبيه، فقد جاء فيها ": و مضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم، فقال إسرائيل ليوسف هو ذا إخوتك إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۰۴ يرعون عند شكيم، هلم أبعثك إليهم، قال: ها أنا ذا. فقال له: امض فافتقد سلامة إخوتك و سلامة الغنم و ائتنى بالخبر، و أرسله من وادى جبرون فأتى شكيم ..". ..بينما يفيد النص القرآنى أن إخوته هم الذين احتالوا لانتزاعه من أبيهم بعد ما اتفقوا على إبعاده عن أبيه، قال تعالى (قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ* أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ* قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ) [يوسف: ۱۱- ۱۳]. و لا شك أن الصحيح من المصدرين هو الذين ينسجم مع عاطفة الأبوة و إلهام النبى بحيث يدرك حسد الأخوة ليوسف و يخشى عليه منهم و يعرف أنهم سيكيدون له، و هذا ما يذكره القرآن و يدل عليه. أما ما ورد فى العهد القديم من أمر الأب ابنه يوسف بأن يذهب ليفتقد سلامة إخوته و سلامة الأغنام فإنه يصور يعقوب عليه السلام

باعتباره صاحب أغنام يخاف غنمه و رعاتهم و هو غافل عما يدور فى نفوس أبنائه نحو يوسف، و هذا لا يتفق مع طبيعة النبوة التى كان عليها يعقوب، و لا شك أن هذا يفقد نصوص العهد القديم مصداقيتها، ثم تأتى العبارة لتزيد الطين بلة، إذ نرى فيها تكرارا و ثرثرة فى حديث الأب النبى "إخوتك يرعون، هلم أبعثك إليهم .. امض فافتقد سلامة إخوتك .. و أرسله وادى حرون إلخ ..

۴- العودة بقميص يوسف:

۴- العودة بقميص يوسف: ورد فى العهد القديم ":فأخذوا قميص يوسف و ذبحوا تيسا من المعز و غمسوا القميص فى الدم. "و جاءت فى القص القرآنية: (وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) فترى تميز الجملة القرآنية بجلال الإيجاز الذى يتجنب تفاصيل لا تليق بكلام اللّه، و وصف الدم بالكذب فى الآية أغنى عن التفاصيل التى وردت فى العهد القديم و زاد عليها سمو النظم القرآنى الذى يصف الدم بأنه كذب، و هو من التجوز فى إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۰۵ الإسناد الذى يشير إلى أن الكذب الملفق فى هذه القصة كان واضحا فاضحا حتى يكاد الدم أن يتكلم و يفصح عن تلفيقه.

۵- جواب يعقوب:

۵- جواب يعقوب: ورد فى نصوص العهد القديم ":قال: قميص ابنى، وحش ضار أكله؟ افترس يوسف افتراسا؟ و مزق يعقوب ثيابه، و شدّ مسحا على حقويه و ناح على ابنه أياما كثيرة. "و جاء فى القرآن الكريم: (قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ). فنص العهد القديم يظهر يعقوب فى صورة الأب الجازع الذى يسلّم بفريتهم و يصدقهم و يجزع جزعا شديدا فيمزق ثيابه و ينوح أياما كثيرة، فهل يتفق كل هذا مع طبيعة النبى؟ إن ما جاء فى القرآن هو الأنسب لطبيعة النبى الذى يدرك بنور اللّه و فراسة النبوة أنهم كاذبون: (قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ..) الأداة (بل) الدالة على الإضراب تعنى رفض ما قالوا و تكذيب ما حدثوا به، و الحقيقة هى (سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً) ثم إنه يصبر و لا يجزع و ينطق بكلمة الصبر الجميل مع الاستعصام باللّه و الاستعانة به على كيدهم (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ). إن من ينظر ببصيرة و بعين محايدة إلى أى النصين أنسب لطبيعة النبوة التى كان عليها يعقوب عليه السلام، يدرك أن القرآن هو الذى يظفر بذلك؛ لأنه كلام اللّه الذى لم يدخله التحريف و لا التبديل (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) [الحجر: ۹].

۶- إخراج يوسف من البئر و بيعه:

۶- إخراج يوسف من البئر و بيعه: ورد فى العهد القديم ":فقالوا نبيعه للإسماعيليين و لا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا و لحمنا، فمرّ قوم تجار فجذبوا يوسف و أصعدوه من البئر و باعوه للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر. "إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۰۶ فأخوة يوسف فى العهد القديم يتفقون على إخراجه من البئر و بيعه إنقاذا لحياته لأنه أخوهم و لحمهم، ثم تأتى العبارة بعد ذلك لتحتمل أنهم جذبوا يوسف و أصعدوه من البئر و باعوه للإسماعيليين، كما تحتمل أن التجار هم الذين فعلوا ذلك "فمرّ قوم تجار، فجذبوا يوسف و أصعدوه من البئر و باعوه للإسماعيليين إلخ. " ..أما الآية القرآنية فلا تذكر أن إخوته اتفقوا على بيعه و لا تذكر أنهم هم الذين باعوه، و إنما ورد قوله تعالى: (وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ) [يوسف: ۱۹]. فالقافلة المارة أرسلوا واردهم ليجلب لهم الماء من البئر فأدلى دلوه، و كانت مفاجأة سارة (قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ) و ضموه إلى بضاعتهم فى سرية و خفية حتى لا ينازعهم أحد فيه (وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً) بما يدل على أن إخوة يوسف لم يكن لهم حضور حينئذ و لا علم لهم بوجهته و لا علم لهم بمن أخذه و لمن باعه، و يؤكد هذا أن وجود يوسف بمصر كانت مفاجأة كبيرة فيما بعد لإخوة يوسف كما تدل نصوص العهد القديم نفسها على هذا فضلا عن

آيات القرآن التى تدل عليه. و معنى هذا أن إخوة يوسف لم يخرجوا يوسف من البئر لبيعه و لا هم اتفقوا على هذا، و المرجح أن ما ورد فى العهد القديم بهذا الشأن من زيادات النسّاخ الذين كانت لهم رغبة فى تخفيف الجرم عن إخوة يوسف من "أجدادهم العبرانيين "و تصويرهم فى صورة رقيقة رحيمة إذ قالوا ":نبيعه لأنه أخونا و لحمنا "يعنى لا نتركه يهلك، فأين كانت تلك الرحمة و هم يلقونه فى ظلمات الجب؟

۷- قصة المراودة:

۷- قصة المراودة: ورد فى العهد القديم ":و كان بعد هذه الأمور أن امرأة مولاه طمحت عينها إلى يوسف و قالت: ضاجعنى، فأبى و قال لامرأة مولاه: هو ذا مولاى لا يعرف معى شيئا مما فى البيت و جميع ما هو له جعله فى يدى، و ليس فى البيت شىء فوق يدى، و لم يمسك عنى شيئا غيرك لأنك زوجته فكيف أصنع هذه السيئة العظيمة و أخطئ إلى اللّه. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۰۷ و كلّمته يوما بعد آخر فلم يقبل منها أن ينام بجانبها ليكون معها، فاتفق فى بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمره و لم يكن فى البيت أحد من أهله، فأمسكت بثوبه قائله ضاجعنى، فترك رداءه بيدها و فرّ هاربا إلى الخارج، فلما رأت أنه قد ترك رداءه و هرب خارجا صاحت بأهل بيتها و قالت: هلم انظروا كيف جاءنا برجل عبرانى ليتلاعب بنا أتانى ليضاجعنى فصرخت بصوت عال، فلما سمعنى قد رفعت صوتى و صرخت ترك رداءه بجانبى و فرّ هاربا إلى الخارج، و وضعت رداءه بجانبها حتى قدم مولاه إلى بيته، فكلمته بمثل هذا الكلام، و قالت: أتانى العبد العبرانى الذى جئنا به ليتلاعب بى، و كان عند ما رفعت صوتى و صرخت أنه قد ترك رداءه بجانبى و هرب خارجا. لما سمع مولاه كلام امرأته الذى أخبرته به استشاط عليه غضبا. فأخذ يوسف مولاه و أودعه الحصن حيث كان سجناء الملك مقيدين، فكان هناك فى الحصن. "و فى هذا الشأن جاء فى القرآن الكريم: (وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) [يوسف: ۲۳] (وَ اسْتَبَقَا الْبابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ* قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ) [يوسف: ۲۵، ۲۴]. و هنا يظهر الفرق من وجوه: الأول: غلبة التكرار فى رواية العهد القديم حتى صار أقرب إلى حكايات السمار، و قد ورد فيه التعبير بالمضاجعة ثلاث مرات، مرتان تطلب المرأة فيهما من يوسف، و مرة تحكى ما كان لمّا رفض و بشكل معكوس بقصد توريطه، و من المستبعد جدا أن يكون قد وردت تلك التعبيرات المكشوفة فى النسخة الأصلية لأنها لا تليق بنص مقدس، فمن المؤكد أنها من زيادات و تصرفات النسّاخ. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۰۸ و فى مقابل هذا نجد تعبير القرآن عن هذا الموقف يتناسب مع جلال الوحى الذى نزل به جبريل من عند اللّه سبحانه على قلب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم «۱» فقد جاء بالكلمات الموجزة التى تحمل وراءها دلالات و مواقف و إشارات مثل كلمة (وَ راوَدَتْهُ) و هى من رادت الإبل إذا أخذت تذهب و تجئ بحثا عن صغارها أو بحثا عن المرعى، فهو لفظ يستمد من أصل استعماله قلقا كبيرا قد استبدّ بسيدة القصر بسبب الرغبة المسعورة مع محاولات التماسك حتى لا تسقط هيبتها فى نظر عبدها، كل هذا يدل عليه و يشير إليه الفعل (رواد) و التعبير عنها باسم الموصول و صلته (الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها) يشير إلى أن كونه فى بيتها و تحت سيطرتها يجعلها واثقة من استجابته لرغبتها و وقوعه تحت تأثيرها، كما يشير إلى صعوبة إفلاته من سيطرتها و استحواذها، فكونه يفلت على الرغم من كل هذا لدليل على عفته و نزاهته. و القرآن يترفّع عن تعبيرات العهد القديم، فلا يرد فيه لفظ المضاجعة، و لكن جاء قوله تعالى على لسانها: (هَيْتَ لَكَ) و هو لفظ موجز موح و يعنى: هلمّ و تعال و قرأ ابن عامر و أهل الشام بكسر الهاء و بالهمزة و فتح التاء (هئت) و غيرهم بهذا مع ضم الهمزة فتكون بمعنى: تهيأت، و أنكر أبو عمرو و الكسائى هذه القراءة و قال الكسائى هى جيدة عند البصريين «۲»، و ربما استجادوها لتناسبها مع الجار و المجرور بعدها (لك) و فيها معنى التنازل و أنها تعطيه فرصة ما كان يحلم بها، لهذا كان قوله: (مَعاذَ اللَّهِ) صدمة أفقدتها توازنها ليقينها أن مثلها لا

یرفض، فشرعت تکید له. و خلاصة هذا أن تعبیر القرآن عن طلب المرأة جاء موجزا مهذبا بما یتناسب مع جلال الأسلوب القرآنی و بما لا یخل بمراد المرأة فی طلبها بخلاف ما جاء علیه تعبیر العهد القدیم الذی تکرر فیه طلب المضاجعة.

(_____ ۱) قال تعالی: (وَ إِنَّهُ لَتَنْزِیلُ رَبِّ الْعالَمِینَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ* عَلی قَلْبِکَ لِتَکُونَ مِنَ الْمُنْذِرِینَ* بِلِسانٍ عَرَبِیٍّ مُبِینٍ) [الشعراء: ۱۹۲- ۱۹۵]. و کون النزول علی قلب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یعنی أنه کان یسمع من جبریل فیعی و یحفظ قلبه قبل أن یحرک لسانه حتی لا یؤدی تعجله بالنطق إلی الزیادة أو التغییر و التبدیل و یؤیده قوله سبحانه فی سورة أخری (لا تُحَرِّکْ بِهِ لِسانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ) [القیامة: ۱۶] فهذه حکمة النزول علی قلب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و اللّه أعلم. (۲) راجع فتح القدیر ۱/ ۱۰۶۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۰۹ الفرق الثانی: جاء جواب یوسف علیه السلام- فی العهد القدیم یقدم حفاظه لمولاه علی خوفه من اللّه، و راجع کلامه لتری أنه أطال فی الحدیث عن ولائه لسیدة أو لا و أوجز فی الإشارة إلی الخوف من اللّه ثانیا. لکن النص القرآنی یقدم ذکر اللّه و یستعصم به فی أول کلمة ینطقها (مَعاذَ اللَّهِ) ثم یلیه حفاظه علی عرض مولاه الذی أحسن إقامته و معاملته (إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوایَ) ثم یختم جوابه بالتأکید علی أن هذا الذی تطلبه ظلم و تجاوز للحدود و لا فلاح عند اللّه للظالمین (إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الظَّالِمُونَ). و هذا هو برهان اللّه و نوره الذی یقذف به فی قلوب من عصمهم من أولیائه و خلصائه. هذا الترتیب التلقائی فی عرض المعانی هو الذی یتناسب مع منطق نبی اصطفاه اللّه، مما یحمل أی متابع محاید علی الإقرار المطمئن إلی أن ما ورد فی القرآن هو الصحیح و هو المناسب لجلال الوحی المتنزل من عند اللّه سبحانه. و مما سبق نفهم معنی قوله تعالی: (وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأی بُرْهانَ) .. فالمراد: لقد همت به و لو لا برهان ربه و نوره و عصمته لهمّ بها «۱»؛ لأن الفتنة کان شدیدة إلا علی من عصم اللّه. و لیس المعنی أنه کان منه کما کان منها من إقبال راغب و استعداد و عزم لو لا أن رأی برهان ربه، و العجیب أن ینسب أکثر من هذا إلی علیّ بن أبی طالب، فقد أخرج أبو نعیم فی "الحلیة "عن علی ابن أبی طالب فی قوله: (هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها) قال: طمعت فیه و طمع فیها، و کان فیه من الطمع أن همّ أن یحل التکّة ... لو لا أن رأی برهان ربه «"۲» و هذا مستبعد بدلیل أن أول کلمة نطق بها فی رده علی طلبها (قالَ مَعاذَ اللَّهِ) و هو احتماء و استعصام باللّه، و اللّه یعصم من استعصم به حتی من مجرد التفکیر.

(_____ ۱) ذهب فی نحو هذا ابو حاتم قال کنت اقرأ علی ابی عبیدة غریب القرآن فلما اتیت علی قوله: (وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها) قال هذا علی التقدیم و التأخیر کأنه قال: و لقد همت به و لو لا أن أری برهان ربه لهمّ به راجع فتح القدیر ۱/ ۱۰۷۰. (۲) نفس المصدر و الصفحة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۱۰ و لذلک فمن الخطأ أن یذکر ذلک المعنی المتعجل المأخوذ من ظاهر الآیة عند المقارنة بین الآیة القرآنیة و نص العهد القدیم کما فعل مالک بن نبی (فی الظاهرة القرآنیة) إذ قال ":إن فی الروایة القرآنیة همّ یوسف بالمعصیة. بینما خلت منه الروایة الکتابیة «"۱» علی أننا هنا لا نتکلف تبرئة النص القرآنی بقدر ما نسعی إلی إثبات عصمة یوسف نزولا مع واقعه کنبی و جریا مع معطیات النص القرآنی من غیر تکلف. الفرق الثالث: ورد فی روایة العهد القدیم- التی سبقت- أن المرأة أخذت قمیص یوسف و تکرر ذلک أکثر من مرة. و فی الآیة القرآنیة أن تلک المرأة قدّت قمیص یوسف "قطعته "من الخلف و هو یهرب منها، و هذا هو الصحیح الذی یقبله العقل لاستبعاد أن یترک یوسف لها قمیصه بهذه السهولة، و استبعاد أن تکون هی من القوة بحیث تستطیع أن تخلعه و تسلبه منه، ثم إن المنطق السدید یؤید ما ورد فی القرآن من قطع القمیص من الخلف؛ لأنه کان یسعی للهروب منها، و هی تسعی للإمساک به من الخلف، و یؤکد هذا و یجزم به أن الشاهد الذی کان من أهلها- و کان رجلا عاقلا- استند إلی موضع ذلک القطع عند الحکم بصدق أحدهما أو کذبه، و هذا ما خلت منه التوراة و ثبت فی القرآن الکریم، قال تعالی: (قالَ هِیَ راوَدَتْنِی عَنْ نَفْسِی وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ کانَ قَمِیصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْکاذِبِینَ* وَ إِنْ کانَ قَمِیصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَکَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِینَ* فَلَمَّا رَأی قَمِیصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ کَیْدِکُنَّ إِنَّ کَیْدَکُنَّ عَظِیمٌ) [یوسف: ۲۶- ۲۸]. الفرق الرابع: ورد فی روایة العهد

القديم أن الزوج استشاط غضبا على يوسف- أى أنه صدق امرأته- و أودع يوسف السجن، و هذا لا يتناسب مع ما جاء فى الرواية نفسها من الحديث عن ثقة الرجل المطلقة بيوسف حتى ترك له كل شىء. و فى

(_____ ۱) الظاهرة القرآنية ۲۵۰. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۱۱ القرآن الكريم أن العزيز صدق يوسف و اتجه إلى زوجته بالاتهام بعد ما قام الدليل أمامه على ذلك فقال كما ذكره القرآن: (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ). و الذى يفصل فى هذا هو علم العزيز بأخلاق يوسف و ثقته فيه، و هذا ظاهر جدا فى سائر النصوص، كما أنه استند إلى شهادة رجل من أهلها و كان رجلا منصفا ألهمه اللّه الحق فشهد بما رآه فى القميص الذى كان مقطوعا من الخلف فاستنتج من ذلك أن قريبته هى التى جرت وراءه و شدته فقدّ القميص، حينئذ اتجه العزيز إلى يوسف بقوله: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا). و اتجه إلى زوجته بقوله: (وَ اسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ) و ذلك فى تكتم و هدوء حرصا على هيبة الملك من النيل و القيل و القال. لكن لما تسرّب الخبر و لاكته الألسنة كان لا مفر أمام العزيز من التضحية بيوسف فسجنه.

۸- و دخل معه السجن فتيان:

۸- و دخل معه السجن فتيان: جاء فى رواية العهد القديم ":و كان بعد هذه الأمور أن ساقى ملك مصر و الخباز أجرما إلى سيدهما ملك مصر، فسخط فرعون على كلا خصييه: رئيس السقاة و رئيس الخبازين، و جعلهما فى حبس رئيس الشرطة فى الحصن حيث كان يوسف مسجونا، فوكل رئيس الشرطة بهما يوسف فاهتم بهما و أقاما مدة فى السجن، فرأيا حلما كلاهما فى ليلة واحدة. كل واحد حلمه، و لحلم كلّ تعبير بحسبه، ساقى ملك مصر و خبازه المسجونان فى الحصن «۱»، فدخل يوسف عليهما بالغداة فإذا هما قلقان، فسأل خصيى فرعون اللذين معه فى سجن بيت مولاه «۲». فقالا له: رأينا حلما و ليس لنا من يعبره، فقال لهما يوسف: أ ليس أن للّه التعبير؟ قصا علىّ. فقص رئيس السقاة حلمه على يوسف و قال له: رأيت كأن جفنه كرم بين يدىّ، و فى الجفنة ثلاثة قضبان، و كأنى بها أفرغت و صارت عنبا، و كانت كأس

(_____ ۱) فى هذه العبارة زيادة و حشو يؤدى إلى الركاكة و الاضطراب. (۲) كان يقوم مقام هذه الجملة الممطوطة قوله: فسألهما؛ لأن السؤال لذات الشخصين اللذين سبق حديثه عنهما، و يبدو من هذا الأسلوب أن مترجم نصوص العهد القديم إلى العربية ليست له صلة بالعربية الفصيحة و لا المستقيمة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۱۲ فرعون فى يدى، فأخذت العنب و عصرته فى كأس فرعون و ناولت الكأس لفرعون. فقال له يوسف: هذا تعبيره ثلاثة القضبان هى ثلاثة أيام، بعد ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك و يردك إلى منزلتك و يتناول فرعون كأسه كالعادة الأولى حين كنت ساقيه. إنما إذا جاء أمرك فاذكرنى فى نفسك و اصنع إلىّ رحمة و أجر ذكرى لدى فرعون و أخرجنى من هذا البيت لأنى قد خطفت من أرض العبرانيين، و هاهنا أيضا طرحونى فى هذا الجب من غير أن أفعل شيئا. و لما رأى رئيس الخبازين أنه قد عبّر له بخير قال ليوسف: رأيت أنا أيضا فى حلم كأن ثلاث سلال على رأسى، و فى السلة العليا من جميع طعام فرعون مما يصنعه الخباز و الطير تأكله من السلة فوق رأسى. فأجاب يوسف و قال له: هذا تعبيره الثلاث السلال هى ثلاثة أيام، بعد ثلاثة أيام ينزع فرعون رأسك عن بدنك و يعلقك على خشبة فتأكل الطير لحمك. فكان فى اليوم الثالث يوم مولد فرعون أنه صنع مأدبة لكل عبيده، فرفع رأس رئيس السقاة و رأس رئيس الخبازين بين عبيده، فرد رئيس السقاة إلى سقايته فناول فرعون الكأس، و أما رئيس الخبازين فعلقه حسب تعبير يوسف لهما، و نسى رئيس السقاة يوسف و لم يذكره. "و على ما فى هذه الرواية من ركاكة و تكرار يبعث على التبرّم و يحتاج إلى صبر فى متابعته فإنه يخلو من أهم ما ورد فى النص القرآنى بشأن هذه القصة عند ما توجه يوسف لصاحبيه بعد أن استمع إلى رؤيا كل منهما يقول كما يحكيه القرآن (قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ

يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ* وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ* يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ* ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۱۳ لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [يوسف: ۳۷- ۴۰]. ثم يلى ذلك تعبير رؤيا كل منهما تعبيرا موجزا. و المهم أن النص القرآنى يكتسى بملامح ظاهرة تدل على أنه الوحى المنزل من عند اللّه؛ إذ يذكر ما لا يوجد فى رواية العهد القديم من حدث مهم يتسق مع نبوة يوسف عليه السلام، فبعد أن قصّ عليه صاحباه ما رأيا وجدها فرصة و هم فى قمة اليقظة و الترقب و الاستشراف ليبثّ لهما دعوة التوحيد إلى اللّه سبحانه و يقدم لهذا بمعجزة مبهرة تضمن السيطرة على حواسهما و الاستمالة الفكرية إلى دعوته فلا يملكان بعدها إلا التصديق و الإيمان، تلك المعجزة هى أنه لن يدخل عليهما طعام قبل أن يعبر لهما رؤياهما، و كان ما أخبر به. إن وجود هذا الموقف فى القصة القرآنية يضفى مصداقية عليها كنص مقدس منزل من عند اللّه لدلالته على أن قصص القرآن ليس على طريقة قصص البشر الذى يهدف إلى التسلية على النحو الذى رأينا فى نصوص العهد القديم إذ تخلو من دعوة يوسف صاحبيه إلى وحدانية اللّه سبحانه مع أنها الغاية الأساسية من أى نص مقدس منزل من عند اللّه سبحانه. و لا عجب فى هذا فقد ثبت تاريخيا أن النص الأصلى للتوراة تعرض للتحريف عند كتابة الأسفار المختلفة كسفر التكوين و الخروج و غيرهما من أسفار العهد القديم بعد عصر موسى عليه السلام بستة قرون أو يزيد، ثم تعرض للزيادة و النقصان تحت تأثير الأهواء المختلفة عند الترجمة من العبرية إلى اليونانية ثم إلى اللاتينية فضلا عن الترجمات الأخرى إلى غيرها من اللغات «۱»، فلا عجب أن ينظر إليه باعتباره نصا مقدسا من عند اللّه سبحانه و إنما يبدو واضحا لكل منصف ذى بصيرة غلبة الصبغة البشرية على مبانيه و معانيه.

(_____۱) راجع الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام من ۱۷ إلى ۲۲ د. على عبد الواحد وافى، دار نهضة مصر بالقاهرة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۱۴ و أكتفى بهذا القدر من سورة يوسف و ما ذكرته من موازنة يكفى للخروج بالنتائج التالية: ۱- وضوح الطابع الإلهى على نصوص القرآن فى مبناها و فى معناها، و افتقاد العهد القديم إلى هذا، بل يغلب عليه الطابع البشرى فى مبانيه و أكثر معانيه. ۲- افتقاد نصوص العهد القديم إلى أهم ما يميز رسالة مقدسة و هو الدعوة إلى توحيد الخالق و ذكر ما يدل على قدرته و نعمته على عباده، و الحديث عن اليوم الآخر، بينما يحفل النص القرآنى بهذا فى سائر أغراضه و قصصه بحيث تشكل عنصرا أساسيا من عناصر القصص سواء فى جوهر أحداثها أم فى الحوار الذى يدور بين شخصياتها و خصوصا ما يجرى على لسان النبى من وحى منزل من عند اللّه. ۳- فى نصوص العهد القديم كثير من الثرثرة و الحشو الممل و الأحداث غير المنطقية، و فى مقابل هذا نجد الوحى القرآنى متميزا بالجلال و القوة و التناسق بين معانيه، و يغلب عليه الإيجاز حتى لو قلت: إن القرآن كله مبنى على الإيجاز لما بعدت، و سبب هذا أن القرآن كتاب آخر الرسالات و هو للناس كافة على اختلاف ألوانهم و طباعهم و بيئاتهم، و لو جاء مفصلا بما فيه من تشريع و وعظ و قصص و ترغيب و ترهيب و الدنيا و الآخرة و قدرة اللّه فى خلقه لاتسعت نصوصه و كان أضعاف أضعاف ما بين أيدينا و لم يكن فى الإمكان حفظه أو حمله، لهذا اقتضت حكمة اللّه تعالى أن تكون نصوص القرآن موجزة بحيث تحمل أقل الألفاظ أكثر المعانى، و هو مع هذا فى غاية البيان، و اجتماع منتهى الإيجاز مع منتهى البيان و الوفاء بالمقصود من الإعجاز الظاهر الذى لا ينكر. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۱۵

المبحث الخامس دور الموازنة فى الكشف عن محاولات التحريف فى القرآن

اشارة

المبحث الخامس دور الموازنة فى الكشف عن محاولات التحريف فى القرآن من المعروف أن القرآن الكريم تعرض لمحاولات من التحريف من أعداء هذا الدين قديما و حديثا، و قد ثبت هذا بالنصوص القاطعة و بما أثبته التاريخ، و سواء كان هذا من أصحاب الملل الأخرى أم كان من أصحاب المذاهب و الاتجاهات المنحرفة من داخل هذه الأمة، و تحريف هؤلاء أخطر أنواع التحريف؛ لأن معارضة الكفار قديما كانت متهافتة ساذجة، و تحريف أهل الكتاب كان مكشوفا ساقطا، لكن الخطورة الحقيقية تكمن فى معارضة من ينسبون إلى الإسلام، و جرى القرآن على ألسنتهم أياما و ليالى، و لهم ألسن فصيحة يستطيعون بها أن يأتوا بكلام ملفق و يزعمون أنه من القرآن الذى أحرقه عثمان رضى اللّه عنه، و ما هى إلا تلفيقات بين جمل من سور شتى يدخلون فيها من عندهم جملا أخرى لتأييد أفكارهم و اتجاهاتهم المنحرفة.

أولا: التحريف عند بعض الفرق الإسلامية:

أولا: التحريف عند بعض الفرق الإسلامية: هذا ما فعله فريق من الشيعة المغالية و لا شك أن الموازنة هى أجدى الوسائل للكشف عن تهافت تلك المحاولات و ضعف تلك المعارضات و التحريفات و ذلك بإثبات أنها دون مستوى النظم القرآنى المعجز، لأن الفروق قائمة شاسعة تثبت بالدليل القاطع بقاء القرآن المعجز كما وعد اللّه سبحانه محفوظا مصونا من كل محاولات التحريف. و الحق أنه لم يكن فى خطتى أن أنبش هذا الموضوع حرصا على تجنب إثارة الحزازات المذهبية، و حرصا على وحدة الصف المسلم، لكن ما ذا نفعل لجماعات من الشيعة المغالية ينشطون، و يعمدون إلى الانتشار للتشكيك فى مسلمات جمهور هذه الأمة و معتقدات أهل السنة و الجماعة، كالتشكيك فى أسس بناء الدولة الإسلامية بداية من الخلافة الأولى، و التشكيك فى نوايا بعض أعلام الصحابة رضوان اللّه عليهم كاتهامهم عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بالتآمر لانتزاع إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۱۶ الخلافة من على كرم اللّه وجهه و تحويلها لأبى بكر رضى اللّه عنه، و اتهامهم عثمان رضى اللّه عنه بأنه عمد إلى إحراق المصاحف لإتلاف سور كانت فى فضل على و أهل بيته «۱» و اتهامهم معاوية بما لا حصر له من الاتهامات و وصفه بابن آكلة الأكباد على سبيل تعييره بأمه، ثم ثم اتهامهم علماء الأمة بالتواطؤ من أجل الحكام، كاتهام الإمام البخارى بأنه تجاهل أحاديث كثيرة من مرويات على بن أبى طالب إرضاء للأمويين، و فى هذا طعن فى أمانته يمتد إلى التشكيك فى صحيحه الذى بذل فيه حياته و أجمعت الأمة على صحته. و كانت بداية التحريف عند غلاة الشيعة أنهم فسروا القرآن تفسيرات بعيدة عجيبة توافق معتقداتهم المنحرفة. يقول القرضاوى ":و من فرق الشيعة من غلا فى دينه و مذهبه و نحا نحو الباطنية فى التحريف و سوء التأويل حتى فسروا القرآن بأنواع لا يقضى منها العالم عجبه، كقول بعضهم فى تفسير (تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ) [المسد: ۱] هما أبو بكر و عمر. و فى قوله تعالى: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) [الزمر: ۶۵] أى أشركت بين أبى بكر و عمر و على فى الخلافة. و فى قوله: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) [البقرة: ۶۷] هى عائشة. و فى: (فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ) [التوبة: ۱۲] طلحة و الزبير. و فى: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ) [الرحمن: ۱۹] هما علىّ و فاطمة. و فى: (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ) [الرحمن: ۲۲] الحسن و الحسين. و فى: (وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ) [يس: ۱۲] فى على بن أبى طالب. و فى: (عَمَّ يَتَساءَلُونَ* عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ) [النبأ: ۱، ۲] على بن أبى طالب «۲». و مما يزيد الطين بلة أن تصل تصورات بعضهم إلى الاعتقاد بأن القرآن الذى بين أيدينا قد وقع فيه كثير من التحريف بالزيادة أو النقصان، و عند ما يسأل بعض علماء الشيعة ممن يظن فيهم الاعتدال فإنه يتجنب الإجابة و يعمد إلى اللف

(_____ ۱) راجع "الشيعة و القرآن "۱۹ إحسان ظاهر لاهور باكستان. (۲) كيف نتعامل مع القرآن العظيم ۳۴۴ مؤسسة الرسالة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۱۷ و الدوران مع الاختفاء وراء شعارات مكررة مثل الحرص على وحدة الأمة أمام الأخطار الخارجية، ثم إن غلاتهم لا يكفون بعد ذلك عن نشر تلك الأفكار الباطلة و التى يسكت عن تخطيئها المعتدلون منهم «۱». و قد ثبتت دعوى التحريف فى كتاب ":فصل

الخطاب فى إثبات تحريف كتاب رب الأرباب "للنورى الطبرسى نقلا عن كتاب ":بستان المذاهب "بالصورة الفوتوغرافية للصفحتين ۱۸۰، ۱۸۱ «۲»، و اللتين تجد فيهما زعمهم بأن سورا كانت موجودة من القرآن فى فضل آل البيت و الزعم بأن عثمان رضى اللّه عنه أحرقها مثل سورة النورين أو سورة الولاية و قبل أن أورد هذه السورة المدعاة أذكر أن الرد على هذا الزعم إجمالا فى غاية اليسر، و هو أن اللّه سبحانه قد وعد بحفظ كتابه، و إذا وعد اللّه فإنه لا يخلف وعده. و لا أظن أن هناك مسلما حقيقيا مهما كان مذهبه يجرؤ على ادعاء تلك الدعوى إلا إذا كان مشبوها أو مدسوسا أو زنديقا. و هذا الرد الإجمالى لا يغنى عن الرد العلمى الذى يسعى لإثبات أن تلك السورة المدعاة ليست من القرآن و لا على طريقة نظمه و نسجه و روح تراكيبه و أن الوضع البشرى ظاهر عليها، و ذلك لا يكون إلا بالموازنة و المقارنة التى تبرز الفروق البينة. و إليك هذه السورة المدعاة و المسماة بالنورين «۳». (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتى و يحذرانكم عذاب يوم عظيم. نوران بعضهما من بعض و أنا السميع العليم. إن الذين يوفون بعهد اللّه و رسوله فى آيات لهم جنات النعيم. و الذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم و ما عاهدهم الرسول عليه يقذفون فى الجحيم. ظلموا أنفسهم و عصوا الوصى الرسول أولئك يسقون من حميم. إن اللّه الذى نوّر السماوات و الأرض بما شاء

(_____ ۱) راجع تجربة الشيخ إحسان ظاهر معهم فى مقدمة كتابه ":الشيعة و القرآن "ففيه تأكيد على هذه المعانى. (۲) راجع من ص ۱۹ إلى ص ۲۳ المرجع نفسه. (۳) و المقصود عندهم بالنورين محمد صلى اللّه عليه و سلم و على كرم اللّه وجهه، لأنهم يعتقدون أن محمدا نور من اللّه سبحانه، و أن عليا نور من نور محمد كما تنور الشمعة من الشمعة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۱۸ و اصطفى من الملائكة و جعل من المؤمنين أولئك فى خلقه يفعل اللّه ما يشاء لا- إله إلا هو الرحمن الرحيم. يا أيها الرسول بلغ إنذارى فسوف يعلمون. قد خسر الذين كانوا عن آياتى و حكمى معرضون مثل الذين يوفون بعهدك إنى جزيتهم جنات النعيم إن اللّه لذو مغفرة و أجر عظيم. و إن عليا من المتقين. و إنا لنوفيه حقه يوم الدين. و ما نحن عن ظلمه بغافلين و كرمناه على أهلك أجمعين. فإنه و ذريته لصابرون و إن عدوهم إمام المجرمين قل للذين كفروا بعد ما آمنوا طلبتم زينة الحياة الدنيا و استعجلتم بها و نسيتم ما وعد اللّه و رسوله و نقضتم العهود بعد توكيدها و قد ضربنا لكم الأمثال لعلكم تهتدون) إلخ .. و بمراجعة الصورة الفوتوغرافية لهذه السورة وجدت ناسخها الذى كان يتحرى الحقيقة يقول: ظاهر كلامه أى صاحب كتاب "بستان المذاهب "أنه أخذها من كتب الشيعة التى تزعم أن عثمان أحرقها ضمن سور أخرى فى فضائل آل البيت، و لم أجد لها أثرا فيها غير أن الشيخ محمد بن على بن شهراشوب المازندرانى ذكر فى كتاب المثالب أنهم- أى الذين جمعوا القرآن- أسقطوا من القرآن تمام سورة الولاية و لعلها هذه السورة و اللّه العالم "انتهى كلام صاحب كتاب "فصل الخطاب. "و مهما كان الاسم الذى سموا به تلك السورة "الولاية "أو النورين فإن مؤلفيها قد تعبوا تعبا كبيرا و اجتهدوا اجتهادا عظيما حتى تكون على طريقة القرآن لكن ذكاءهم خانهم حين خانوا إيمانهم؛ إذ ظهرت علامات الوضع دالة بوضوح على أثر النفس البشرية فى تكوين هذه السورة الغريبة، و لو أنهم رجعوا إلى إيمانهم، و تذكروا قول اللّه تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۱۹ بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) [الإسراء: ۸۸] لما أتعبوا أنفسهم فى تجميع هذا النظم المتهافت، و لعلموا يقينا أن فعلتهم هذه مكشوفة. و لا ينكر عاقل أنه لا يكفى الطعن الإجمالى فيما ألفوه و لفقوه، بل لا بد من إثبات ذلك بالدليل العلمى القاطع، و لا تجد طريقا لهذا غير المقارنة بين معانى و أسلوب تلك السورة المؤلفة و بين معانى القرآن و نظمه. أولا: من جهة المعانى: تدل مضامين تلك السورة على بصمات الوضع البشرى لغلاة الشيعة فقد حملوها أهم الأسس الفكرية لمذهبهم و التى تتلخص فى: ۱- أن عليا كرم اللّه وجهه مثل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى كونه نورا من اللّه و أنه من أجل ذلك يتحمل معه مسئولية تبليغ الناس و تحذيرهم، و هذا واضح بداية من قولهم: "يا أيها الذين آمنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتى و يحذرانكم عذاب يوم عظيم "و اعتقاد أن عليا شريك لمحمد صلّى اللّه عليه و سلّم فى بعثهما للتبليغ و الإنذار أمر خطير، لكنه من عقيدة غلاة الشيعة، و يزيد الطين بلة أنهم يرتكبون لنشر هذا المعتقد الفاسد

ما هو أفظع منه و أشنع إذ يدعون نقص القرآن الموجود بين أيدينا من سورة النورين التى أثبتوا فيها و فى غيرها ما أثبتوه، فقد ذكر ما يسمى بالعلامة المحقق حبيب اللّه الهاشمى فى كتابه منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة ۲/ ۲۱۷ و كذلك العلامة المجلسى فى كتابه تذكرة الأئمة ۱۹، ۲۰ منشورات مولانا- إيران- أن من المحذوف فى القرآن ":يا أيها الذين آمنوا بالنبى و الولى اللذين بعثناهما يهديانكم إلى صراط مستقيم. نبى و ولى بعضهما من بعض و أنا العليم الخبير. "۲- و من المعانى التى تضمنتها تلك السورة أن الرسول صلى اللّه عليه و سلم أوصى بالخلافة من بعده لعلى، و عاهد على ذلك الصحابة، و أنهم نقضوا ذلك العهد بعد وفاته صلى اللّه عليه و سلم، و أن عمر بن الخطاب يتولى كبر هذا النقض كما يزعمون، و لذلك حكموا على مجموع الصحابة الذين يظنونهم إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۲۰ نقضوا العهد بالكفر و الارتداد عن الإيمان و أن مصيرهم جهنم، و هذا واضح من قولهم ": إن الذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم و ما عاهدهم الرسول يقذفون فى الجحيم، ظلموا أنفسهم و عصوا الوصى الرسول أولئك يسقون من حميم ... "إلخ. ۳- أن الشيعة هم الذين تمسكوا بذلك العهد و أنهم هم المؤمنون الذين يدخلون الجنة جزاء لهم لوفائهم "مثل الذين يوفون بعهدك إنى جزيتهم جنات النعيم. "۴- أن عليا يصل إلى مرتبة الأنبياء، فقد تحدثوا عنه على طريقة حديث القرآن عن الأنبياء كقولهم ":و إن عليا من المتقين، و إنا لنوفيه حقه يوم على طريقة قوله تعالى عن يونس عليه السلام ":و إن يونس لمن المرسلين) الصافات ۱۳۹- و هذه مجرد نماذج للمعانى الفاسدة التى تتضمنها تلك السورة المدعاة.

ثانيا: الأسلوب و الطريقة:

ثانيا: الأسلوب و الطريقة: حاول مؤلفو تلك السورة "النورين "أن ينسجوا على منوال الآيات القرآنية فجاءوا بخليط من جمل قرآنية مجموعة من سياقات من سور شتى مثل قولهم ":يا أيها الذين آمنوا آمنوا "فهذه الجملة من آية ۱۳۶ فى سورة النساء. و قولهم ":و يتلوان عليكم آياتى "تحريف لجملة قرآنية فى قوله تعالى: (يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِى) من الآية ۳۵ سورة الأعراف، أو من قوله تعالى: (أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ) .. الآية ۷۱ من سورة الزمر. و قولهم ":نوران بعضهما من بعض و أنا السميع العليم "تحريف لقوله تعالى: (ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [آل عمران: ۳۴] و قولهم ":إن الذين يوفون بعهد اللّه و رسوله "محرف من قوله تعالى فى الآية ۲۰ من سورة الرعد (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ) و هكذا فعلوا ما يمكن تسميته بالاقتباس المحرف بل هو أقرب إلى التلفيق و التخليط بين جمل من سور و آيات شتى فى القرآن الكريم. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۲۳ و بفعلهم هذا انحلت العروة الوثقى التى تجمع فى الآيات القرآنية بين ألفاظ متلائمة و جمل مترابطة، حتى زال عنها بذلك التفكيك أهم خصوصيات الإعجاز و هو النظم على هيآت خاصة ثم إن لكل سورة من سور القرآن روحا خاصة بها تسرى فى تراكيبها و سائر جملها، فلو انتزعنا جملة قرآنية و عزلناها عن سياقها زالت عنها تلك الروح التى كانت تسرى فيها من سياق سورتها، و هؤلاء عند ما اقتطعوا جملا من سور شتى و حاولوا التلفيق بينها و الإضافة إليها لم يعلموا أنهم بذلك مزقوا الأواصر و أزهقوا أرواح الجمل التى كانت تسرى فيها عند ما كانت فى مواضعها من آياتها و سورها. و مثلهم فى ذلك كمثل من سولت له نفسه أن يقتطع أجزاء من أجسام شتى لتكوين جسم جديد مما أدى على إزهاق أرواح تلك الأجزاء و عدم استطاعة تكوين كلّ جديد حى منسجم. و على نفس المستوى من تحريف الألفاظ و النظم ما نجده من تحريف المضمون حين قالوا ":يتلوان عليكم آياتى "من قوله تعالى: (أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِى) الأعراف ۳۵ أو قوله تعالى: (أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ) الزمر ۷۱، و المقصود القرآنى هو تقرير الأقوام يوم القيامة بأن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم إليهم ليكون فى الإقرار حجة عليهم يستوجبون بها العقاب، لكن الملفقين حرفوه إلى ":يتلوان عليكم آياتى "و قصدوا بالتثنية محمد صلى اللّه عليه و سلم و على كرم اللّه وجهه، و ذلك يشير على معنى مضمر دسّوه و هو أن عليا يرقى إلى مقام النبوة، و أنه يشترك مع رسول اللّه

صلى اللّه عليه و سلم فى التبليغ للناس و التلاوة لهم!! و قوله تعالى: (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لا- يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ) [الرعد: ۲۰]، المقصود بعهد اللّه: الوحدانية، أو كل تكاليف اللّه، أو العهد القديم الذى أخذه اللّه على عباده فى قوله تعالى: (أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا) ... الآية ۱۷۲ الأعراف «۱». لكن الملفقين قالوا ":إن الذين يوفون بعهد اللّه و رسوله "فحرفوا اللفظ و حملوه مضمونا آخر هو ما يعتقدونه من عهد قطعه الصحابة على أنفسهم

(_____ ۱) راجع فتح القدير ۱/ ۱۱۲۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۲۴ باستخلاف علىّ (كرم اللّه وجهه) بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى قولهم": و الذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم و ما عاهدهم الرسول عليه يقذفون فى الجحيم. "و بهذا يتبين شناعة ما فعلوا من أجل الترويج لأفكارهم المذهبية التى أوهمهم بها الشيطان حتى تجرءوا على كتاب اللّه فزادوا فيه و لفقوا و جاءوا بأشتات من كلمات و جمل القرآن، و ركبوا بعضها على بعض حتى مزقوا أواصر الروابط القرآنية بين الكلمات و الجمل فيما زادوه، و لكن لا يخفى على أولى الأبصار حجم الهوة السحيقة بين الأشتات التى سلخوها و لفقوها و بين النظم القرآنى المحكم، و قبل طىّ هذه الصفحة أود التأكيد على أمرين: الأمر الأول: أن هذه الأفكار المتطرفة لا تمثل فكر جمهرة علماء الشيعة المعتدلين و إنما تمثل فكر قلة مغالية و كان لا بدّ من التحذير من فكرها لا سيما و أنها قد جاءت معلنة فى كتب منشورة. و قد قرأت مقالا للدكتور العلامة محمد عمارة فى جريدة صوت الأزهر «۱» يعرض هذا الموضوع، و فيه ينسب تلك الأفكار المنحرفة للاخباريين من الشيعة الذين يلتقطون روايات ضعيفة ساقطة مثل ما ورد فى كتاب "فصل الخطاب فى تحريف كتاب رب الأرباب "لمؤلفه الميرزا حسين النورى، و عنوانه يدل على مضمونه الذى سبق تفصيله. و الإشكال فى أن الزنادقة روّجوا لهذه الأفكار المنحرفة، و أكدوا على سوء نيتهم عند ما أغفلوا ما قام به علماء الشيعة الإمامية من نقد و تفنيد كل تلك الروايات التى وردت فى تراث هؤلاء المتطرفين، و من الكتب التى تنقد و تفند تلك الروايات كتاب "الكافى "للعلامة الكلينى و قد طبعته الحكومة الإيرانية فى طهران و فيه يؤكد على أن عليا بن أبى طالب كرم اللّه وجه أيّد جمع عثمان للمصحف الذى اتفقت عليه الأمة، و فى هذا الكتاب شهادات جمهرة علماء الشيعة التى تنفى وقوع أى تحريف فى القرآن الكريم (_____ ۱) جريدة صوت الأزهر عند الجمعة الخامس من شهر جمادى الآخر ۱۴۲۷ ه- ۳۰ من شهر يونيو ۲۰۰۶ م. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۲۵ الأمر الثانى: أن مناقشة تلك الأفكار المنحرفة يهدف إلى مجرد التحذير منها بعد أن تبجّح مروّجوها فنشروها على عين كل قارئ، و لا ينبغى أن يؤدى ذلك إلى أى حزازة أو خصومة بين أبناء هذه الأمة؛ لأنهم أمة واحدة تلتقى على أسس هذا الدين الحنيف، و نحن فى تلك الفترة العصيبة التى تداعت فيها علينا الأمم أشد ما نكون حاجة إلى الاستعصام بحبل اللّه المتين، و أن نتعاون فيما اتفقنا عليه، و أن يعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا حوله، و أن نتآزر لتفويت الفرصة على إثارة النعرات الطائفية و المذهبية التى تهب رياحها الخفية من الغرب علينا مع أوائل قرن الحرب على الإسلام (القرن ۲۱).

ثانيا: معارضات القرآن فى العصر الحديث:

اشارة

ثانيا: معارضات القرآن فى العصر الحديث: ظهرت فى العصر الحديث و مع مطلع القرن العشرين محاولات عدة للنيل من القرآن و تحريفه و التشويش على معانيه و يجمع بينها توخى سبيل المعارضة و التقليد ابتداء من التقسيم لسور تضم آيات تبدأ بالبسملة مع التقمص المفتعل لنظم القرآن، ثم تضمين هذا معانى كتبهم التى حرفوها، و لعل أبرز تلك المحاولات معارضات ثلاثة هى: .

۱- سيرة المسيح بلسان عربى فصيح:

۱- سیرة المسیح بلسان عربی فصیح: و قد نبه إلی تلک المحاولة الشیخ أحمد دیدات فی سیاق حدیثه عن تحدی القرآن للبشریة جمعاء عبر تاریخها الطویل منذ فجر الدعوة إلی قیام الساعة أن یأتوا بمثله، فشهد التاریخ بعجزهم، و أثبت أن القرآن معجزة المعجزات الشامخة التی تتکسر علی سفحها کل ادعاءات البشر و محاولات التضلیل التی لم تلق إلا السخریة و الإشفاق، مثلها فی ذلک مثل عبث الأطفال و صیاحهم ابتداء من مسیلمة الکذاب إلی أحدث ما ظهر فی أسواق النشر من طبعة عربیة جدیدة للإنجیل باسم "سیرة المسیح بلسان عربی فصیح "حاول کاتبوها أن یقلدوا ألفاظ القرآن و عباراته، و لم ینسوا افتتاح کل جزء بعبارة "بسم اللّه الرحمن الرحیم "و تقلید شکل السور و الآیات بالمصحف «"۱».

(_____ ۱) القرآن معجزة المعجزات أحمد دیدات ۷۵، ۷۶ نقله للعربیة د. نبیل عبد السلام هارون. مکتبة القرآن للطبع و النشر و التوزیع. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۲۶ فانظر إلی ذلک الذی نسجوه علی طریقة القرآن فی الإنجیل الجدید: بسم اللّه الرحمن الرحیم «۱» قل یا أیها الذین آمنوا إن کنتم تؤمنون باللّه حقا فآمنوا بی و لا تخافوا إن لکم عند اللّه جنات نزلا (۲) فلأسبقنکم إلی اللّه لأعدها لکم ثم لآتینکم نزلة أخری (۳) و إنکم لتعرفون السبیل إلی قبلتی العلیا فقال توما الحواری مولانا إنا لا نملک من ذلک علما (۴) فقال له عیسی أنا هو الصراط إلی اللّه حقا و من دونی لا تستطیعون إلیه سبیلا (۵) إلخ ... و من یقرأ هذه الکلمات لا یخفی علیه تدنی مستوی الأسلوب فیها فضلا عن أن یحاکی القرآن، و من العجب أن تستفتح بالبسملة للتأکید علی قدرتهم المجیء بمثل القرآن أو للإیحاء ابتداء بأنه هو. و من عجب أیضا أنک لا تجد فی القرآن (قل یا أیها الذین آمنوا) لا تجدها أبدا فی القرآن و إنما تجد فی القرآن: (قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ* لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ) ... ۱، ۲ سورة الکافرون. و تجد فی القرآن: (قُلْ یا أَیُّهَا الَّذِینَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّکُمْ أَوْلِیاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ) [الجمعة: ۶]. أی أن (قُلْ) لم تسبق إلا نداء الکافرین و الیهود فی القرآن، أما المؤمنون فإن اللّه ینادیهم مباشرة من غیر (قُلْ) لأنهم آمنوا باللّه و عبدوه و أحبوه، لذلک فإن اللّه سبحانه هو الذی ینادیهم و یقربهم و یطلب منهم، أما الکافرون و الیهود فإنهم بعیدون من رضوان اللّه و لذلک فإنه سبحانه لا ینادیهم و لکن یطلب من رسول صلّی اللّه علیه و سلّم أن ینادیهم لیقیم الحجة علیهم «۱». و من المؤکد أن اللجنة التی اجتمعت سنوات لتألیف "سیرة المسیح بلسان عربی فصیح "کانوا عارفین باللغة العربیة و یعرفون الفرق بین النداء بعد (قُلْ)

(_____ ۱) لم ینادِ اللّه سبحانه الذین کفروا فی القرآن إلا مرة واحدة یوم القیامة علی سبیل الحکایة لما یکون، قال سبحانه (یا أَیُّهَا الَّذِینَ کَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْیَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [التحریم: ۷]. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۲۷ و النداء من غیرها، فتکون بدایة "باب السکینة" ب (قل یا أیها الذین آمنوا) تحریف مقصود و قد أرادوا من ورائه التقلید و المحاکاة مع التشویش فی الوقت نفسه. و علی کل حال فإن تهافت هذا الإنجیل الجدید ظاهر، و بعده عن معانی القرآن و أسلوبه واضح لذی عینین و إن حاولوا أن یکون علی طریقته، و لا أظن أن ذلک العجز البیّن کان یخفی عن مؤلفیه و لکنهم ساروا فی هذا الطریق و مضوا فی نسجهم الممض بقصد التشویش علی القرآن الکریم، أو أنهم أرادوا أن یوهموا ذویهم أنهم قبلوا التحدی و أتوا بمثل القرآن و ذلک بالنظر إلی قوله سبحانه (أَمْ یَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا یُؤْمِنُونَ* فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ إِنْ کانُوا صادِقِینَ) [الطور: ۳۴]. و لکن هیهات لهم ذلک، و إذا کانوا قد فلحوا فی إدخال التحریف و التغییر و التبدیل فی کتبهم المقدسة فإنهم لن یستطیعوا ذلک للقرآن الذی ضمن اللّه عز و جل حفظه فقال سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) [الحجر: ۹]

۲- حسن الإیجاز فی إبطال الإعجاز:

۲- حسن الإيجاز فى إبطال الإعجاز: صدر هذا الكتاب فى مطلع القرن العشرين عن المطبعة الإنجليزية الأمريكانية ببولاق بمصر سنة ۱۹۱۲، و قد ألف الشيخ أبو القاسم الموسوى كتيبا للرد عليه بعنوان "نفحات الإعجاز فى رد الكتاب المسمى ":حسن الإيجاز " ..و يبدو أن هذه المحاولة قد طوتها يد النسيان و لم تجد من الناس إلا إهمالا و استهجانا حتى لا نجد لها أثرا و لم يبق لها ذكر إلا فى الكتب التى صنفت للرد عليها كما وجدنا فى "نفحات الإعجاز. "و لقد تعددت الشبهات و المعارضات التى وردت فى ذلك الكتاب المتهافت المسمى "حسن الإيجاز، "فمنها ما يتعلق باللغة و النحو و منها ما يتعلق بالفصاحة و البلاغة و منها ما يتعلق بالتناسب الأسلوبى ناهيك عما فيه من معارضات ساقطة يتناولها صاحب "نفحات الإعجاز "بالتفنيد. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۲۸ فمن الشبهات اللغوية "توهم اللحن بنصب المرفوع فى قوله تعالى: (وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ) ... [البقرة: من الآية ۱۷۷]. و الجواب: إن النصب على المدح شائع معروف فى اللغة العربية .. و ترجيح (الصَّابِرِينَ) فى الآية على (وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ) من جهة أن الوفاء بالعهد- مع كونه حسنا- يعم جميع أصناف الرجال مع اختلافهم من حيث النقص و الكمال، و أما الصبر المذكور فى الآية فلا يتصف به إلا من كان فى أعلى مراتب العقل و الإيمان. و منه تعرف سقوط اعتراضه على نصب (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) سورة المسد ۴، مع أن النصب على الذم يساوق النصب على المدح عند البلغاء فى فوائده. و كذا قوله ":إذ (امْرَأَتُهُ) أولى بذلك النصب من (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) إذ لم يشعر أن الذم فى نفس الوصف لا فى كونها امرأته. و منه ما توهم من رفع المنصوب فى قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى) ... [المائدة: من الآية ۶۹]. و الجواب: إن عطف المرفوع على منصوب (إن) مما لا يمكن إنكاره إذا كان يقتضيه البلاغة لنكته، و النكتة فى الآية هى الإشارة إلى أن الصابئين و إن كانوا أشد بعدا من التوحيد الحقيقى إلا أنهم مشتركون مع اليهود و النصارى فى أن من آمن منهم و عمل صالحا فهو آمن «"۱». و من الشبهات التى أثارها كتاب "حسن الإيجاز "و تعود إلى الفصاحة و البلاغة ما ادّعى من التنافر فى المفرد و المركب فى قوله تعالى: (الْحَاقَّةُ* مَا الْحَاقَّةُ) و فى قوله تعالى: (أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) .. [يس: من الآية ۴۷]، و فى قوله تعالى: (أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ) .. [يس: من الآية ۶۰ (_____]. ۱) نفحات الإعجاز فى رد الكتاب المسمى "حسن الإيجاز ۳۱ دار المؤرخ العربى بيروت ط ۳ ۱۴۱۱ ه- ۱۹۹۰ م. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۲۹ و ليت شعرى لما ذا اقتصر هذا المدعى على هذا المقدار؟ بل إن أكثر الكلمات العربية تثقل على لسان غير العربى- كالزنجى و الأوربى و نحوهما ممن لا يحسن النطق بالثاء و الجيم و الحاء و الذال و الصاد و الضاد و الطاء و الظاء و العين و الغين و القاف و الكاف و الهاء، فكيف إذا اجتمع فى الكلمة من هذه الحروف حرفان أو ثلاثة؟! فكان على هذا المدّعى أن يقول: إن اللغة العربية و القرآن جلها متنافرة على نوع الزنجى و الأوربى و نحوهما، فتقر عينه بهذه الدعوى «۱» و منه ما ادعى من الغرابة فى لفظة "الكوثر "مع غفلته عن أنه بمعناه اللغوى لم يكن مجهولا لمعاصرى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و إنما فسره عليه الصلاة و السلام باعتبار المعنى الكلى. و منه ما توهم من الكراهة فى السمع فى لفظه "ضيزى «"۲» و لا يخفى على من له بصر بلغة العرب أنها كلمة مألوفة «۳» و منه ما توهم من مخالفة القياس فى قوله تعالى: (وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً) [نوح: ۱۷]، قال ":القياس إنباتا "لتوهمه أن المراد النبات المصدر، و غفلته عن أن المراد اسم العين لمساواة أحوال الإنسان لأحوال النبات فى نموه و أطواره فى البهجة و الذبول، و فى هذا التعبير من الفائدة التى يقتضيها الحال ما لا يكون بلفظ الإنبات "نفحات الإعجاز. "و كذا توهمه "أن ما بعد (الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ) فى سورة الفاتحة- حشو و تحصيل حاصل "و قد غفل عن أن السلوك فى هذا الصراط الفاضل هو روح الحياة الحقيقة و جامع السعادة بالنعم، و شأن الحكيم أن يرغّب إليه و ينشّط طالبيه بإيضاح مجده و قبح ضده. "و من معارضات كتاب "حسن الإيجاز "معارضة قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) [الفاتحة: ۱ ، ۲]. (_____ ۱) نفسه ۲۱. (۲) من قوله تعالى فى سورة النجم آية ۲۲ (تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى). (۳) و فى هذه الكلمة من الدلالة الصوتية ما يناسب السياق المفعم باستهجان دعوى

المشركين أن لهم الذكور و للّه البنات سبحانه، فقال: (أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى* تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى) ۲۱، ۲۲ النجم. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۳۰ بقوله ":الحمد للرحمن. رب الأكوان "إذ لم يشعر بأن لفظة "اللّه "علم للذات المقدسة الجامعة لصفات الجمال و الجلال، و أن اللّه بيّن أنه رب العوالم بأسرها دلالة على تعددها كما هى متعددة فى مراتبها، فضلا عن تعددها من حيث المادية و الروحية، و لا يصلح لفظ الأكوان لشيء من ذلك. و كذا معارضته لقوله تعالى: (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: ۴، ۵] بقوله ":الملك الديّان. لك العبادة و بك المستعان "فإنه غفل عن أنه ليس المقصود فى البيان مجرد أن اللّه ملك ديان، بل المقصود ذكر يوم الدين و تثبيت المعرفة به و الرهبة من نكاله و الرغبة فى جزائه، و بيان عظمة ملكوت اللّه، و إحاطة سلطانه القاهر بشئون يوم الدين. كما أنه ليس المقصود مجرد بيان أن له العبادة و به المستعان، بل المقصود تلقين المؤمن بأن يخضع للّه بالعمل و الاعتراف بالطاعة للّه دون غيره و يستكين له بالاستعانة و الالتجاء إليه وحده. و كذا معارضته لقوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة: ۶] بقوله ": اهدنا صراط الإيمان "مع جهله بأن ليس المقصود هو مجرد الهداية إلى الإيمان، بل الصراط الممجّد باستقامته فى الإيمان و العلم و الأخلاق و العبادات و المعاملات و السياسة و الرئاسة و الكلام و الكتابة و التأليف و جميع لوازم الإنسان و ما يقوم بنعمته فى حياته الأولى و معاده. و ليس أدل على غروره و سقوطه من عجبه بقولهم ":إن أعطيناك الجواهر. فصل لربك و جاهر. و لا تعتمد قول ساحر. "و كذا عجبه بقول بعض الشيوخ ":يا أيها الذى غوى. و هام فى ليل الهوى. ألّفت ما و هى. فرأيته معجز القوى. فسر فى صبح الهدى. "و فى هذا الكلام الساقط طعن فى الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و وصفه بالغواية و طعن فى القرآن بأن واه من تأليف محمد .. و إنى أحكّم فيه كل مستشرق عالم حر و أسأله: إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۳۱ هل القرآن واه فى معارفه و أدبه و أخلاقه و سياسته و تشريعه و أسلوبه و بلاغته فى الكلام العربى أم أنه الحق الذى أعمى صاحبه «۱».

۳- الفرقان الحق:

۳- الفرقان الحق: مؤلفه هو الدكتور أنيس شورش الذى رمز لنفسه باسم الصفى و المهدى، ولد بفلسطين و درس بأمريكا و حصل فيها على الدكتوراة و عمل قسيسا لمدة أربعين سنة ما بين إسرائيل و أمريكا و عمل منصرا فى بلدان إفريقية متعددة. و له مناظرة معروفة مع أحمد ديدات الداعية المعروف كانت بعنوان "القرآن و الإنجيل أيهما كلام اللّه "و قد أفحمه ديدات و أحرجه أمام الآلاف. و له تاريخ طويل فى الهجوم على الإسلام و القرآن، و قد استغرق تأليف كتابه "الفرقان "سبع سنوات «۲»، و كان يهدف من وراء هذا الكتاب إلى إبطال تحدى القرآن أن يأتى أحد بمثله، فتوهم أنه بتأليف الفرقان قد جاء بمثل القرآن، و ينفى حسب زعمه أسطورة تحدى القرآن للعالم منذ (۱۴۰۰ سنة). و من الواضح أن ما سمى بالفرقان الحق جاء لمعارضة القرآن، لكنها معارضة ساقطة هى أقرب إلى السطو المشوش، إذ يعمد مؤلفه إلى تقليد بناء القرآن فى التقسيم إلى عدة سور و كل سورة تبدأ بالبسملة و تشتمل على عدد من الآيات، و إمعانا فى التشويش و الإضلال استعار بعض أسماء سور القرآن مثل الفاتحة و النور و التوبة و النساء و المائدة، و أضاف إليها سور بأسماء أخرى مثل الإيمان و التوحد و المسيح و الصلب و الروح و الثالوث و الموعظة و الحواريون و الإعجاز و الأضحى و الجنة و البهتان و اليسر و الوحى و الصلاح و الزواج و الزنا و القتل و الجزية و الإفك و الضالين ... إلخ. و تبلغ هذه السور سبعا و سبعين تتضمن تشويه مبادئ الإسلام و الطعن فيها، و تشويه صورة الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و الصحابة، و تمجيد الفرقان و الإنجيل، و إنكار أسماء اللّه (_____ ۱)

يراجع "نفحات الإعجاز "۲۴، ۲۵. (۲) يراجع القرآن الأمريكى أضحوكة القرن الحادى و العشرين إعداد محمد السيد عبد الرازق ص ۵۸ نشر دار الرضوان. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۳۲ الحسنى، و إثارة الشبهات حول تشريعات الإسلام فى الزواج و الطلاق و التعدد، و التشكيك فى العبادات بشكل عام و تحريم القتال و تعطيل القصاص و الجهاد، و الدعوة إلى التنصير و

الردة عن الإسلام. و كتاب الفرقان منشور على شبكة الانترنت و متاح لكل من يود الاطلاع عليه. و على الرغم من حرص مؤلفه على التفاصح و نقض معانى القرآن فإن فيه كثيرا من السذاجة و الضحالة بما يدل على ضعف مستوى التفكير لدى مؤلفه، و مع ذلك فإنه يتبجح بأنه وحى يوحى إليه. و أول مظاهر الضحالة فيه كثرة التناقضات حتى تجد الأفكار يدفع بعضها بعضا فى الفقرة الواحدة، فمثلا يقول فى مقدمته ":إلى الأمة العربية خاصة و إلى العالم الإسلامى عامة، سلام لكم و رحمة من اللّه القادر " ..فيجعل خطاب الفرقان لجنس خاص هم العرب و دين معين هو الإسلام مهما كان مكانه، لكنه ينقص نفسه فى الفقرة ذاتها بقوله ":إن خالق البشرية يقدم هذه البركات السماوية لكل إنسان «"۱». و بينما يزعم أنه بوحى من اللّه "أوحى الصفى و ترجم معانيه المهدى "نراه فى الفقرة نفسها يثبته إلى نفسه و أنه استغرق منه سبع سنوات فقط حيث بدأ العمل به فى عام ۱۹۹۹ «"۲». و لا تجد فى القرآن الكريم أثرا لمثل هذه التناقضات و إنما تجده على اتساع معانيه و تعدد سوره فى غاية الاتساق و التناسب، و خذ مثلا فيما يتصل بالوحى قوله تعالى: (الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [إبراهيم: ۱]، و قوله سبحانه يؤكد على هذا فى الآية الأخيرة من سورة الكهف: (قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ ...) [الكهف: من الآية ۱۱۰].

(_____

۱) الفرقان ۶۷. (۲) يراجع المرجع نفسه ۶۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۳۳ فسورة إبراهيم تثبت أن القرآن كتاب أنزله اللّه إلى رسوله محمد صلى اللّه عليه و سلم، و سورة الكهف تقرر أن هذا الرسول يوحى إليه، فتلحظ منتهى التوافق بين المعنيين على رغم التباعد بين السورتين. بينما تجد التناقض هناك فى الفرقان المزعوم بين معنيين فى فقرة واحدة فمعنى يثبت أنه وحى، و معنى يثبت أنه من وضع و تأليف شورش إذ يقول ":إن قرآن محمد نبى المسلمين استغرق (۲۳) سنة من الوحى، أما أنا فلم أستغرق أكثر من سبع سنوات لإصدار القرآن الجديد حيث بدأت العمل به فعليا فى عام ۱۹۹۹. "فكيف يتفق هذا مع الزعم بأنه وحى أوحى به إلى الصفى؟ و من يقرأ هذا الكتاب يجد أمارات الضعف و دلائل السقوط تتكاثر عليه فلا يدرى أيهما يسجل و كيف يرتب بينها على حد قول الشاعر: تكاثرت الظباء على خراش فلا يدرى خراش ما يصيد و أبرز شناعات ذلك المؤلف ادعاؤه أنه يعارض أسلوب القرآن بمثله، و يقدم معانى الإنجيل بأسلوب القرآن، و هذه دعوى كاذبة، لأن الأصل فى المعارضة أن تكون احتذاء لقوالب التعبير و النسج على منوالها و ليست أخذا لنفس القوالب و نفس التعبيرات، لكن المؤلف سطا على كلمات القرآن و تعبيراته و أضاف إليها كلمات أخرى حتى خرج مزيج عجيب فى قوالب معوجة ليست هى قوالب القرآن و لا- نظير لها. و من الجراءة المستغربة أن يدعى بعد ذلك أن هذا الفرقان أول تحدّ قائم لمحاكاة و معارضة أسلوب القرآن بمثله، فلا- هو أول معارضة لأسلوب القرآن، و لا- هو معارضة بالمعنى المعروف للمعارضة. و لقد سطا صاحب الفرقان فى كثير من شبهاته و تشكيكاته التى ضمنها كتابه- على كتاب آخر سبقه فى هذا المضمار و هو ":حسن الإيجاز فى إبطال الإعجاز "و قد سبق الحديث عنه و أنه قد طوته يد النسيان و صار فى مزبلة التاريخ سوى أن إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۳۴ مؤلف الفرقان أبى إلا أن يسطو على كثير من شبهاته و تشكيكاته فى معانى القرآن و مبادئ الإسلام. و هذه الشبهات تدل على جهل بلغة العرب و طرائقهم فى التعبير، و تدل على جهل بالدلالات السياقية التى تحل كثيرا من الأمور الملتبسة على الأفهام. على أن مؤلف الفرقان وقع فى أخطاء لغوية و نحوية و إملائية لا يقع فيها المبتدءون، و هى وحدها كافية لإبطال زعمه بأن الفرقان وحى من اللّه، ناهيك عما وقع فيه من تناقضات تبطل هذا الزعم و من ذلك: ۱- ادعاء أن الفرقان نزل للعرب خاصة و لسائر المسلمين عامة ثم يناقض هذا بأنه للإنسانية جمعاء و قد سبق نصه فى هذا. ۲- زعمه أنه وحى أوحى به إلى الصفى المهدى يقصد نفسه و هذا يتضمن الزعم بأنه نبى يوحى إليه، و لم نعرف نبيا سارقا ملفقا، ثم إن هذا لا يتفق مع عقيدته بعدم وجود نبى بعد عيسى عليه السلام. ۳- و الزعم بأن الفرقان وحى من اللّه أوحى به إليه لا يتفق مع ما ذكره من أنه استغرق سبع سنوات فى تأليفه، و لقد كان يتباهى بقصر المدة التى أنجز فيها ذلك الفرقان فى مقابل المدة التى طال فيها نزول القرآن و هى (۲۳) سنة. ۴- و من التناقضات الساذجة ادعاؤه أن القرآن باطل و أن الفرقان الذى ألفه هو الحق، مع أن أكثر كلمات و جمل الفرقان

منتحلة من القرآن، حتى كلمة (الفرقان) هى من القرآن، فكيف يكون القرآن باطلا حسب زعمه ثم يعتمد عليه فى فرقانه؟

السمات الأسلوبية للفرقان:

اشارة

السمات الأسلوبية للفرقان: ۱- الاتكاء على آيات القرآن و أسلوبه مع تبديل و تحريف بعض الكلمات أو زيادة كلمة أو جملة يكمن فيها تكذيب معانى القرآن و إثبات معان أخر مفتراة، مع ما يترتب على هذا التحريف من تصدع بناء المعانى و من خلل فى نظوم التأليف، إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۳۵ و من ذلك قول المؤلف ":و الذين آمنوا بالإنجيل الحق و عملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. و الذين كفروا و آمنوا بالشيطان و رسله أولئك هم شر البرية "الإخاء ۸. فهذا تحريف لما جاء فى القرآن من قوله تعالى فى سورة البينة: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) [۶، ۷ سورة البينة]. ۲- و كثيرا ما ينادى كتاب الفرقان مؤمنى هذه الأمة بالذين ضلوا مع زعم أنه نداء اللّه لهم، و على طريقته يخلط كلامه بآيات من القرآن مثل قوله ":يا أيها الذين ضلوا من عبادنا هل ندلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم: تحابوا و لا تباغضوا و أحبوا و لا تكرهوا أعداءكم فالمحبة سنتنا، و صراطنا المستقيم، و سكوا سيوفكم سككا و رماحكم مناجل و من جنى أيديكم تأكلون "۹۴ القرآن الأمريكى. فهذا تحريف لآيات القرآن فى سورة الصف: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [الصف: ۱۰، ۱۱]. و إذا كانت هاتان الآيتان تحثان على الجهاد المرتبط بالإيمان الحق على تعدد مجالاته فإن مؤلف كتاب الفرقان ينقلهما إلى سياق آخر هو التحريض على محبة الأعداء و ترك جهادهم، و هذا من أخبث الاقتباس، لأنه أخذ بعض الكلام و تغيير بعضه تغييرا يقلب المعنى و يموع الغرض منه. و على هذه الطريقة فى التحريف المضلل يقول ":و كم من فئة قليلة مؤمنة غلبت فئة كثيرة كافرة بالمحبة و الرحمة و السلام. "يزور و يحرف قول اللّه تعالى فى القرآن الكريم (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [البقرة: من الآية ۲۴۹] إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۳۶ ۳- و حين ينادى مؤلف الفرقان إخوانه من أهل الكتاب يناديهم بالذين آمنوا يقول على طريقته فى الاقتباس من القرآن مع التحريف المضلل ":يا أيها الذين آمنوا من عبادنا ها أنتم أولاء تحبون الذين يعادونكم و هم لا يحبونكم، و إذا لقوكم قالوا آمنا بما آمنتم، و إذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، و إن تمسسكم حسنة تسؤهم و إن تصبكم سيئة يفرحوا بها، و إن تصبروا و تتقوا لا يضركم كيدهم شيئا و لا يضرون إلا أنفسهم و ما يشعرون "سورة الخاتم. و هذا تحريف لقول اللّه تعالى فى وصف المنافقين و تحذير المؤمنين منهم: (ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لا يُحِبُّونَكُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ* إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) [آل عمران: ۱۱۹، ۱۲۰]. ۴- و بعض آيات الفرقان تقوم على النقض و الرد و التكذيب لما فى القرآن الكريم من توجيهات، فقول المؤلف فى كتاب الفرقان ":و زعمتم بأننا قلنا: قاتلوا فى سبيل اللّه و حرضوا المؤمنين على القتال إن ذلك إلا تحريض شيطان رجيم لقوم مجرمين "الموعظة- ۲-. نقض و تكذيب لقول اللّه تعالى فى القرآن الكريم: (وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: ۲۴۴]، و قوله سبحانه: (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ) .. [الأنفال: من الآية ۶۵]. و قول مؤلف الفرقان ":و افتروا على لساننا الكذب بأنا اشترينا من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيلنا و عدا علينا حقا فى الإنجيل ألا إن المفترين كاذبون) الطاغوت ۸. نقض و تكذيب لقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ

الْقُرْآنِ) .. [التوبة: من الآية ۱۱۱] إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۳۷ و هذا من التكذيب الذى يحركه حقد دفين مرتبط بخلفيات تاريخية و حروب صليبية ذاقوا ويلاتها و هم يعلمون أنهم لا طاقة لهم بقتال المسلمين عند ما يقاتلون فى سبيل اللّه و تحت راية الإسلام لهذا يعمد مؤلف الفرقان إلى نقض معانى القرآن التى تحث على القتال فى سبيل اللّه ابتداء بقوله: افتروا كذا و كذا حتى إذا جاء لنهاية عبارة القرآن التى يكذبها زاد جملة تؤكد ذلك النقض و التكذيب مثل قوله ": ألا إن المفترين كاذبون." و هى تدل على منهج ذلك المؤلف الحريص على تقليد فواصل القرآن، و لكنه التقليد الغبى؛ لأن تلك النهاية عندهم (أ لا إن المفترين كاذبون) تكرار سقيم للبداية "و افتروا على لساننا كذبا. "و ليست فواصل القرآن تكرارا كهذا و لكنها تكميل أو تتميم أو تعليل أو تقرير للمضمون يتضمن زيادة فى الفائدة. خلاصة أهم سمات الفرقان: مما سبق يتبين أن أهم سمات الأسلوب الذى توخاه مؤلف الفرقان:

۱- التفكيك و التلفيق و التوليف:

۱- التفكيك و التلفيق و التوليف: حيث يسطو على جمل و عبارات من سور عدة فى القرآن يفككها من سياقاتها و يلفق بينها و يضعها جنبا إلى جنب حتى تجد خليطا من جمل متباينة فى الروح و النظم و المعانى لأن لكل سورة من القرآن سياقا و روحا و نظما و إيقاعا خاصا بها. و هذا التلفيق و التوليف يؤدى إلى تمزيق أواصر الصلات و المناسبات القرآنية و بعثرة و تفكيك حبات العقد الذى كان منظوما على أبدع ما يكون و تأليف نظام آخر ينفر بعضه من بعض.

۲- الانتزاع:

۲- الانتزاع: حيث ينتزع الكلمة و الجملة القرآنية من سياقها ليضعها فى سياق آخر و يحرفها من مقصود إلى مقصود آخر و ما يترتب على هذا من انطفاء شعاع الإعجاز التركيبى. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۳۸

۴- إجهاض الفواصل:

۴- إجهاض الفواصل: حيث ينقل كثيرا من فواصل القرآن من أماكنها التى كانت قارة متمكنة فيها لتوظيفها فى أماكن أخرى غريبة عنها مما يؤدى إلى إفراغها من مضمونها و إطفاء شعاعها و تمويع إيحائها و إيقاعها الذى كان متسقا فى سياقه، و فى ذلك إجهاض للفواصل القرآنية. خذ مثلا ما سماه بسورة الفرقان يقول فيها: باسم الأب الكلمة الروح الإله الواحد الأوحد: ۱- فرقان حق لا ريب فيه يهدى للتى هى أقوم فاتبعوه و اتقوا لعلكم ترحمون. ۲- إن هو إلا نور الحق يهدى الضالين و يفضح الإفك و ما يكتم الظالمون. ۳- أنزلناه بالحق مصدقا لدين الحق لنظهره على الدين كله و لو كره الكافرون. فهذا نموذج من نماذج كثيرة لمنهج مؤلف الفرقان فى التفكيك و التلفيق و التوليف و الانتزاع و إجهاض الفواصل، فالفقرة الأولى مثلا تكونت بعد تفكيك جمل من آيات فى سور قرآنية تفكيكا يمزق أواصر صلاتها و يبعثر نظوم تأليفها. فالجملة الأولى ":فرقان حق لا ريب فيه "من قوله تعالى فى صدر سورة البقرة: (ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) [البقرة: من الآية ۲]. و الجملة الثانية ":يهدى للتى هى أقوم "من قوله تعالى فى سورة الإسراء: (إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ..) [الإسراء: من الآية ۹]. و الجملة الثالثة: (فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) من قوله تعالى فى سورة الأنعام: (وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [الأنعام: ۱۵۵] ثم بعد ذلك التفكيك يلفق بين تلك الجمل المنتزعة من ثلاث سور على اختلاف سياقاتها، فيعمد إلى التلفيق بينها لينقل أوصافا للقرآن و يخلعها على فرقانه الذى يزعم بأنه حق. و على الطريقة نفسها يسير فى تأليف سائر فقراته، و فى الفقرة الثالثة نموذج لإجهاض الفاصلة إذ ينتزع فاصلة من

فواصل سورة الصف (آية ٨) إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ٢٣٩ ليجعلها تتمة لخرافاته و أوهامه، فيشوه بذلك معناها و ينقلها من مجال إلى مجال و من معنى إلى معنى و من نظم إلى نظم آخر مما يؤدى إلى تباين النظوم و تفكك التأليف القرآنى المعجز. و كثيرا ما يسعى بتفكيكه و تلفيقه إلى قلب الحقائق و ذلك بتحميل مؤمنى هذه الأمة الصفات المذمومة التى وصف بها القرآن اليهود و النصارى و غيرهم من المعرضين عن الدين الحق، على حد قول العرب فى المثل: رمتنى بدائها و انسلّت. و مثال ذلك أيضا قوله فيما سماه بسورة النور، الفقرة الخامسة ":و الذين جعلوا أصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا كلمة الحق فهم المغضوب عليهم و هم الضالون. فقوله ":جعلوا أصابعهم فى آذانهم "مأخوذ من وصف القرآن الذى حكاه نوح عليه السلام لقومه: (وَ إِنِّی کُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِی آذانِهِمْ ..) [نوح: من الآية ٧]. لكن ذلك المفكك الملفق ينتزعه من هناك ليجعله وصفا للمؤمنين من أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و هذا هو عين ما فعله عند ما نقل المغضوب عليهم و الضالين من كون أحدهما وصفا للنصارى و الثانى وصفا لليهود فى سورة الفاتحة (غَیْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ وَ لَا الضَّالِّینَ) [الفاتحة: من الآية ٧] فجعلها وصفين للمؤمنين من هذه الأمة. و هذا ينم عن دوافع الغيظ و الحقد و الرغبة فى النيل و الشتم فهى التى حركته لقلب تلك الأوصاف عن طريق التلفيق و التفكيك و الانتزاع. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ٢٤١

الفصل الرابع أهم أسباب الإعجاز

اشارة

الفصل الرابع أهم أسباب الإعجاز أولا: خصوصية المعانى القرآنية ثانيا: خصوصية المعنى القرآنى سبب خصوصية النظم. ثالثا: نظم المعانى القرآنية و النمط العالى. رابعا: خصوصية حلقات الوصل فى القرآن. خامسا: خصوصية الفواصل القرآنية. سادسا: خصوصية بناء السورة القرآنية. سابعا: خصوصية الطابع الإلهى. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ٢٤٣ الفصل الرابع أهم أسباب الإعجاز «١» بعد التطواف مع تلك الموازنات التى كان القرآن الكريم طرفا فيها، و التى كانت تسعى للخروج بأهم ما يتميز به أسلوب القرآن و يدخل فى صميم الإعجاز، فلقد غيرت تلك الموازنات بعض الأفكار، و رسّخت أفكارا أخرى كانت عالقة بحواف العقل و هوامش التفكير، لكن الموازنات دفعت بها دفعا إلى بؤرة التفكير و عمق العقل. ثم إن تلك الموازنات اهتدت إلى جوانب أخرى لم يذكرها إلا الأفراد من العلماء و كان مزوية فى زحمة الأسباب المتعددة التى ردوا الإعجاز إليها، كل هذا يتبين فى أثناء بلورة أهم أسباب الإعجاز التى نبهت إليها تلك الموازنات و التى تتمثل إجمالا فى: أولا: خصوصية المعانى القرآنية ثانيا: خصوصية المعنى القرآنى سبب خصوصية النظم. ثالثا: نظم المعانى القرآنية و النمط العالى. رابعا: خصوصية حلقات الوصل فى القرآن. خامسا: خصوصية الفواصل القرآنية. سادسا: خصوصية بناء السورة القرآنية. سابعا: خصوصية الطابع الإلهى. (_____ ١) كنت على أن انتهى من هذا المؤلف بانتهاء الفصول الثلاثة التى سبقت، لو لا سؤال قفز فجأة يلح عن ثمرة الموازنات التطبيقية، و أين المصب الذى تتجه إليه روافد تلك الفصول الثلاثة؟ كان ذلك فى لحظة من لحظات الشرود تفكيرا فى هذا الموضوع فى أثناء انتظار إقامة صلاة العشاء فى بيت اللّه الحرام على بعد خطوات من الكعبة المشرفة ليلة الخميس الرابع و العشرين من شهر رجب ١۴٢۵ ه فحمدا للّه سبحانه على نعمه التى لا تعد و لا تحصى. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ٢۴۴

أولا: خصوصية المعانى القرآنية:

أولا: خصوصية المعانى القرآنية: عند ما نراجع أقوال العلماء التى تنبه إلى إعجاز القرآن بمعانيه نجد اهتماما واضحا للخطابى بمعانى

القرآن المعجزة فی إطار منظومة متکاملة من الألفاظ و المعانی و النظوم التی تأتلفها، و هذا ظاهر فی عبارته المشهورة ":و اعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فی أحسن نظوم التألیف مضمنا أصح المعانی «"۱». و کانت هذه نظرة متکاملة ما یلبث أن یؤکدها و هو یعدد ضروبا من أصح المعانی فی قوله ":من توحید اللّه عزت قدرته و تنزیه له فی صفاته، و دعاء إلی طاعته و بیان منهاج عبادته " ...حتی یصل إلی التأکید علی أن هذه المعانی المعجزة مرتبطة بوضعها فی نظمها و سیاقها الخاص یقول ":واضعا کل شیء موضعه الذی لا یری شیء أولی منه، و لا یری فی صورة العقل أمر الیق منه "۲۸ نفسه. علی أنه لا ینبغی أن یغیب عنا أن مجیء القرآن بمعان لا قبل للعرب بها و لا عهد لهم بمثلها هو فی ذاته من الإعجاز، لذلک نجد الخطابی یستدرک إلی هذا ببیان أنه معلوم، یقول ":و معلوم أن الإتیان بمثل هذه الأمور- المعانی القرآنیة- و الجمع بین شتاتها حتی تنتظم و تتسق أمر تعجز عنه قوی البشر "۲۸ نفسه. هذا ما أردت التأکید علیه، و هو أن الإتیان بهذه المعانی القرآنیة فی ذاتها إعجاز لأنه لا عهد للعرب بمثلها، ثم إن الجمع بین شتاتها- علی کثرتها و غزارتها- حتی تنتظم و تتسق إعجاز آخر. لقد کانت هذه الوقفة ضروریة لا سیما و قد شاع أن القرآن معجز بنظمه، و هی قولة حق، و لکن فهم کثیرون منها أن الإعجاز محصور فی کیفیات التألیف و النظم دون نظر للمعانی التی یضمها النظم و التی هی فی حد ذاتها إعجاز آخر،

(_____ ۱) ثلاث رسائل فی إعجاز القرآن

۲۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۴۵ مع أن الحق أن المعانی و نظمها إعجاز فی إعجاز یعنی إعجاز المعانی فی إعجاز النظم، و العبارة المختصرة التی تؤدی هذا هو إعجاز نظم المعانی القرآنیة. و قد نبه عبد القاهر إلی نحو هذا و هو یتحدث عن مفهوم النظم بقوله ":لیس الغرض بنظم الکلم أن توالت ألفاظها فی النطق، بل أن تناسقت دلالاتها و تلاقت معانیها علی الوجه الذی اقتضاه العقل «"۱» فالنظم عنده نظم معان و تنسیق دلالات، و لیس نظم ألفاظ و نطق حروف. بل کان یری أن المعانی هی التی تتخلق أولا علی نسق یؤدی إلی ترتیب ألفاظها الدالة علیها فی النظم، یقول ":إن الألفاظ إذا کانت أوعیة للمعانی، فإنها لا محالة تتبع المعانی فی مواقعها، فإذا وجب لمعنی أن یکون أولا فی النفس وجب للفظ الدال علیه أن یکون مثله أولا فی النطق. "و ینفی عبد القاهر أن تکون الألفاظ سابقة أو أن تکون لاحقة فی مرحلة منفصلة عن مرحلة تکوّن المعانی، بل یؤکد علی أن المعانی إذا تخلقت فی الفکر تلبست بالألفاظ الدالة علیها علی نسقها و ترتیبها، فلیست هناک لحظتان: أولی لتخلیق المعانی، و ثانیة لتولید الألفاظ الدالة، و لکنها مرحلة واحدة، یقول ":فأما أن تتصور فی الألفاظ أن تکون قبل المعانی بالنظم و الترتیب، و أن یکون الفکر فی النظم الذی یتواضعه البلغاء فکرا فی نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتیب المعانی إلی فکر تستأنفه لأن تجئ بالألفاظ علی نسقها فباطل من الظن «"۲». کل هذا یرشح لما أحرص علیه من القول فی مجال الدراسة القرآنیة عن الإعجاز "إعجاز نظم المعانی "بدل القول الشائع إعجاز النظم؛ لما یتبادر إلی الأذهان من أن المقصود هو نظم الألفاظ و ضم الکلمات، و کم عانی عبد القاهر و هو ینفی هذا المفهوم المتبادر الذی کان سائدا، یقول ":و مما یلبس علی الناظر فی هذا الموضع و یغلطه أن یستبعد أن یقال: هذا کلام قد نظمت معانیه، فالعرف کأنه لم یجر بذلک، إلا أنهم و إن لم یستعملوا النظم فی المعانی فإنهم قد استعملوا فیها ما

(_____ ۱) دلائل الإعجاز ۵۰. (۲) دلائل الإعجاز ۵۲. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۴۶ هو نظیر له، و ذلک قولهم: إنه یرتب المعانی فی نفسه و ینزلها و یبنی بعضها علی بعض «"۱». کل هذا یصب فی نهایة واحدة هی أن النظم القرآنی المعجز نظم معان لا نظم ألفاظ. و الذی لا شک فیه أن هذا الرجل الفذ الذی ألف "دلائل الإعجاز "لیقدم مفاتیح الکشف عن إعجاز القرآن کان یستهدی تجربته تلک من رؤیته للمعانی القرآنیة التی تمثل حجر الزاویة فی الإعجاز، و أن جدة المعانی القرآنیة فی ذاتها إعجاز، ثم إن خصوصیة تلک المعانی استدعت نظما متفردا معجزا هو نظم المعانی القرآنیة. هذا هو المعنی الذی أردت التنبیه إلیه و التر کیز علیه، و الذی ألمح إلیه علماؤنا الأفذاذ، فلعل اللّه سبحانه یقید لهذه الفکرة من ینشرح بها صدره فیعمل علی إذاعتها و نشرها و تفصیلها و التطبیق علیها. و ثمة أمر

آخر يلح على الفكر و له صلة بهذا السياق هو الإعجاز الغيبى الذى لم تتفق كلمة العلماء قديما فى عده وجها من وجوه الإعجاز، على الرغم من أهميته فى الدلالة على نبوة محمد صلى اللّه عليه و سلّم و صدق رسالته، و كذا الإعجاز التشريعى الذى نبه إليه القدماء و لقى اهتماما بالغا فى العصر الحديث فى مجال الدراسات المقارنة بين التشريع الإلهى و القوانين الوضعية، ناهيك عن الإعجاز العلمى الذى راج فى هذا العصر و كان له دور كبير فى خطاب الآخرين و تحديهم فيما برعوا فيه عن طريق بيان سبق القرآن لما وصلوا إليه بقرون طويلة، فلا يكون القرآن إلا من عند اللّه سبحانه، فكل هذه الوجوه "الغيبية و التشريعية و العلمية "تدخل فى سلك واحد هو إعجاز المعانى القرآنية التى استدعت نظما معجزا. (_____ ۱) نفسه ۵۳. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۴۷

ثانيا: خصوصية المعنى القرآنى سبب خصوصية النظم و التصوير:

اشارة

ثانيا: خصوصية المعنى القرآنى سبب خصوصية النظم و التصوير: إن خصوصية النظم و التصوير فى القرآن الكريم مستمد من خصوصية المعانى القرآنية التى لا- ترد بخواطر بشر إلا مع قراءة القرآن، و من قصور الحديث فى الإعجاز أن نبحث فى خصوصية النظم أو التصوير القرآنى دون أن نربط هذا بخصوصية المعانى القرآنية؛ لأن هذه هى التى تستدعى تلك. و أحيلك فى هذا على الموازنات التطبيقية فى الفصل الثالث، و أختصر بعض الشواهد التى سيقت هناك مما ترى فيه خصوصية التصوير القرآنى مستمد من خصوصية المعنى، فمن ذلك قوله تعالى: (وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) [يونس: ۲۷]. اقتفى ابن الرومى هذه الصورة و هو يصف وجه رجل بالقبح فيقول: كأنما تأوى إليه الدجا إذا هى انفضت عن الفجر و قول شريح القاضى لرجل مسلم غفل عن حجته مع ظهورها و هو يخاصم رجلا- كافرا، قال له ":قم عنى فإنى أرى ظلمة الكفر على وجه هذا أظهر من نور الإسلام على وجهك «"۱». فعند المقارنة «۲» نجد التشبيه القرآنى ينفرد بخصوصيات عدة لا توجد فى غير منها: ۱- أنه جاء تصويرا لآثار الكرب و الذلة على وجه الكافرين يوم القيامة، فهو يتناول معنى فريدا لا عهد للعرب به، و لهذا جاء التشبيه فريدا فى بابه، فجدة الصورة من جدة المعنى الذى يصوره التشبيه (_____ ۱) هذان الشاهدان من كتاب "الجمان فى تشبيهات القرآن "۸۸. (۲) يتجه البعض إلى التفريق بين الموازنة و المقارنة تفريقا غير مستمد من خصوصية الدلالة اللغوية فى كل منهما و إنما يعتمد على مجرد الاصطلاح فالموازنة بين الآداب المحلية و المقارنة بين الآداب العالمية و هو تفريق غير ملزم فى مجال الدراسة لقرآنية لأن القرآن ليس نصا أدبيا و لكنه تنزيل معجز. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۴۸ ۲- أن ذلك المعنى عنصر فى نظم المقابلة التى تبرز منتهى التنافى بين الحال الراضية المستبشرة للمؤمنين و الحال الساخطة التعسة للكافرين يوم القيامة، فالذين أحسنوا لهم الحسنى و زيادة، و لا يرهق وجوههم قتر و لا ذلة، و الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة مثلها و ترهقهم ذلة ... كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما، لكن تصوير سود الوجوه فى الشعر و النثر مقصود لذاته، مستقل بنفسه، فكون الجزء الذى لا يستقل بنفسه- فى الآية- يأتى بصورة نادرة جديدة تفوق تصوير المستقل بنفسه فى الشعر و النثر دليل على إعجاز الصورة القرآنية. ۳- و مع أن ابن الرومى بدأ المشبه به بالأداة (كأنما) كما بدأ بها القرآن، و جعل الدجى كأنها تأوى إلى وجه ذلك الشخص ليجارى ما فى الآية من قطع الليل المظلم التى غشت وجوه الكافرين، لكن ذلك عنده بسبب القبح، لكنه فى القرآن بسبب الذلة، و هى معنى نفسى يظهر أثره فى الوجوه حلكة و قتامة، فالصورة القرآنية تربط بن المشاعر

الداخليـة و الآثـار الحسـية المترتبـة عليهـا ربطا طبيعيا يفتقـده تشبيه ابن الرومى الـذى يصور قبحا محسوسا بظلام محسوس، فلا بـد أن يكون المشبه به أقوى، و هـذا مـا ألجأه إلى المبالغـة فى المشبه به إذ جعل الـدجا هى التى تأوى إلى ذلك الوجه. و لم تكن الصورة القرآنية بحاجة إلى تلك المبالغة؛ لأن المعانى النفسية تتلمس من المحسوسات ما يصورها تصويرا كاشفا و هى قانعة بهذا دون حاجة إلى مبالغة. ۴- تفتقد الصورة الشعرية إلى ما يوحى به ذكر الليل فى الصورة القرآنية، فلقد كان الليل عند العرب مخوفا مرهوبا، و هذا هو السبب فى أن التعبير القرآنى لم يكتف بأن يقول مثلا: كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الظلام، و لكن قال: (قطعا من الليل مظلما) ليمتلئ الحس بالليل المرهوب الـذى يتجزأ ظلامه إلى قطع تغشى وجوه الظالمين و تكسوها ظلاما و كل هـذه الميزات مما تفتقـدها صـورة شـريح كـذلك. إعجـاز القرآن و منهـج البحـث عـن التميز، النص، ص: ۲۴۹ و مـن هـذه الموازنـة يتبين أن الفرق يكمـن فى خصوصـية المعنى القرآنى، و أن النظم القرآنى و مـا فيه من تصوير إنما جاء استجابة لتحقيق أغراض دينيـة و معان قرآنيـة جديـدة لا عهـد للعرب بهـا، فالنظم القرآنى معجز لإعجاز ما يتضـمنه من معان، و لا ريب فى أن أهم وجوه الإعجاز القرآنى كان فيما تجـدد من معان لم يعهدها العرب و لا قدرة لهم عليها، و أن خصوصية تلك المعانى هى التى أدت إلى خصوصيات النظم و التصوير، و لعل هذا هو خلاصة ما شرق حوله عبد القاهر و غرب فى كتابه "دلائل الإعجاز."

إعجاز المعانى مقدم على إعجاز النظوم و الألفاظ:

إعجاز المعانى مقـدم على إعجاز النظوم و الألفاظ: إذا كانت ألفاظ القرآن و نظومه محصورة فى آيات القرآن و سوره و لا تزيـد عما بين دفتى ذلـك المصـحف الشـريف فـإن معـانيه بحر بل بحور متسـعة ليس لها نهايـة؛ لأن لآيات القرآن معانى ظاهرة و وراء المعانى الظـاهرة معـان ثوان، و وراء المعـانى الثوانى معـان أخر لا- تنتهى، و لا- يمكن أن يقف على منتهى مراد اللّه تعـالى من كلامـه إلا- اللّه سبحانه، أما البشـر، فكل يقف عند حدود ما هداه اللّه إليه، و العطاء يتجدد بتجدد المتأملين و لا ينتهى، يقول رسول اللّه صلى اللّه عليه و سـلم من خطبـة له و هو يذكر القرآن ":و هو الفصل ليس بالهزل، له ظهر و بطن، فظاهره حكم و باطنه علم، عميق بحره، لا تحصـى عجائبه و لا يشبع منه العلماء «"۱». و إذا دار الإعجاز بين المعانى و بين نظومها و ألفاظها، فإن الإعجاز يكون بالأصالـة لغير المحـدود الذى لا ينتهى عده و لا يمكن حصـره و هو المعانى، فذلك مقدم فى الإعجاز على ما نحيط به عدا و حصـرا و هو الألفاظ و النظوم. و لا يغرنك أن البعض حصـر الإعجاز فى نظوم التأليف دون المعانى اعتمادا على قوله تعالى: (قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ) .. الآية ۱۳ من سـورة هود (_____. ۱) حياة الصحابة محمـد يوسف الكاندهلوى. دار القلم بيروت ۱/ ۲۱۸ عن كنز العمـال. إعجاز القرآن و منهـج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۵۰ فإن هذا قول من يحدق فى جملة من القرآن دون نظر فى سائر السـياق، و عد إلى الجملة السابقة لتجد قبلها قوله سبحانه: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْـرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ) .. فهذا من طرق الاستدراج الذى يسلم للخصم بادعائه استدراجا حتى يعقب بالحجة الملجمة، فلقد كانوا يقولون عن القرآن: افتراه محمـد و جاء به من عنـده لا من عنـد اللّه، فقال لهم اللّه سـبحانه: هب أنه افتراه و ادعاه و أنتم فصـحاء فأتوا بعشـر سور مثله مفتريات، فهـذا الطلب على سبيل الجدل مجاراة للخصم، و اللّه سـبحانه يعلم أنهم حتى مع هذا لن يسـتطيعوا، فلا ينبغى أن يسـتنتج من هـذا أن القرآن معجز بلفظه و نظمه لا- بمعانيه، لأن الأمر ليس مقصودا على الحقيقـة و إنما على سبيل الجـدل و الاستدراج ليعلم الخصم خطأ دعواه.

تكاثر المعانى القرآنية:

تكـاثر المعـانى القرآنيـة: من خصوصـيات المعـانى القرآنيـة غزارتهـا و امتـدادها و تكـاثر دلالاتهـا و مع أن الكلام العربى لا يخلو من الإيجاز، و مع أن رسول الله صـلى اللّه عليه و سـلم أوتى جوامع الكلم فإن التفاوت يبـدو جليا فى نسـبة الإيجاز و مداه و كيفيات النظم

الذى تؤدى إليه، فالإيجاز فى القرآن يصل إلى مدى لا يبلغه أى كلام بشرى، و يتأتى بطرق من النظم لا نظير لها فى أى نتاج بشرى. و غزارة المعانى القرآنيـة أو تكاثر دلالاتها يأتى من نواح عـدة و كيفيات متنوعـة ذكرت طرفا منها فى "غرائب الإعجاز و النكات فى مقامات أسباب النزول، "فليراجع الباب الثانى، لكنى هنا أضيف لمحة خفيفة هى أن حيز الأسلوب القرآنى و نظومه تتسع لما لا يتسع له أى أسلوب بشرى و ذلك بحكمة اللّه تعالى و لطيف قدرته، فسورة الفاتحة مثلا، و التى لا تزيد عن سبع آيات قصيرة تتسع لمعان ليس لها نهايـة، و مع أن المسلم يجب أن يتأملها و هو يتلوها، فإن الوقت المحدد لقراءتها فى الصلاة لا يسمح لالتقاط كل دلالاتها، لـذلك لم يكن من العبث إعادة قراءتها فى كل ركعة ليتجدد التأمل فى معانيها مع كل قراءة، و لعل من أسرار تعدد ركعات صلاة الوقت الواحد مع ترديد الفاتحة ركعة بعد ركعة هو علم المشرع سبحانه بقصور الطاقة الفكرية للبشر عن استيعاب معانى تلك السورة فى قراءة المرة الواحدة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۵۱ و غزارة الدلالات القرآنية بالتضمن و التولد و التنامى و التلاقى أمره عجب و يحتاج إلى درس متخصص مستقل و لعل هذا التكاثر المتدفق كان من دواعى روعته التى تستحوذ على الأفئدة عند أولى الألباب و كان من مظاهر هذا التكاثر و التنامى تعدد التفسيرات و تجددها دون تدافع بينها أو تصادم، حتى يرد الآية الواحدة اللغوى و البلاغى و الفقيه و المشتغل بالعلوم كونية أو فلكية فيجد كل ما يفيده و يروى ظمأه، فسبحان من أحكم آياته و فصلها بحكمة و خبرة و تقدير. و يحضرنى فى هذا السياق نص لابن الجوزى يتحدث فيه عن فضل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و سلم) عمن سواه من الأنبياء، و هذا النص يرتقى فى سلم البلاغة درجات كبيرة لا- بما فيه من وسائل البيان و التلوين البلاغى أو الإيقاع النغمى و البديعى، و لكن بما فيه من توظيف المعانى القرآنية ذات الدلالات الغزيرة بالرمز و التلميح و الإيماء بحيث يحتاج المتابع لهذا النص إلى وقفات عدة يطيل فيها التأمل و الاستحضار لأنه لا- يقتبس و لكنه يرمز و يومئ، يقول ":و لقد شارك الأنبياء فى فضائلهم و زاد، أين سطوة (لا تذر) من علم "اهد قومى؟ "أين انشقاق البحر من انشقاق القمر؟ أين انفجار الحجر من نبع الماء من بين الأصابع؟ أين التكليم عند الطور من "قاب قوسين؟ "أين تسبيح الجبال فى أماكنها من تقديس الحصى فى الكف؟ أين علو سليمان بالريح من ليلة المعراج؟ أين إحياء عيسى الأموات من تكليم الزراع؟ كل الأنبياء ذهبت معجزاتهم بموتهم و معجزة نبينا الأكبر قائمة على منار (لأنذركم به و من بلغ) تنادى (فأتوا بسورة من مثله «")۱». فإن قيمة هذا النص مستمدة من استحضار المعانى القرآنية الغزيرة مع المواقف المعجزة و الرمز إليها بكلمة أو جملة من القرآن بحيث لا يدرك مغزى الرمز إلا من له بالقرآن صلة، و هذه طريقة نادرة فى توظيف النصوص الأخرى و استحضارها، فلا تجدها عند توظيف نصوص بشرية مهما كانت طريقة التوظيف: اقتباسا أو تضمينا أو رمزا أو كما يسمونه حديثا بالتناص، و ذلك إنما

(_____ ۱) المدهش لأبى الفرج جمال الدين بن الجوزى- دار الكتب العلمية. بيروت ص ۱۲۵. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۵۲ كان لخصوصية المعانى القرآنية ذات الدلالات الثرية المتكاثرة و التى يرتقى بها أى نص يستدعيها بالرمز أو الإيماء و التلميح.

ثالثا: نظم المعانى القرآنية و النمط العالى:

اشارة

ثالثا: نظم المعانى القرآنية و النمط العالى: لا نستطيع أن نفصل بين المعانى و نظمها، و إنما قصدت التأكيد مسبقا على أن معانى القرآن فى ذاتها إعجاز، ثم إن نظمها بأسلوب خاص إعجاز آخر، و قد قصدت بهذا العنوان التركيز على ظاهرتين بارزتين فى نظم المعانى القرآنية، و هما معا مأخوذتان من كلام عبد القاهر فى دلائل الإعجاز:

الأولى: اتحاد أجزاء النظم و دقة صنعه حتى يدخل فى النمط العالى و الأعلى.

الأولى: اتحاد أجزاء النظم و دقة صنعه حتى يدخل فى النمط العالى و الأعلى.

الثانية: غزارة مزايا النظم لتعدد متصرفات عناصر النظم.

الثانيـة: غزارة مزايا النظم لتعـدد متصـرفات عناصـر النظم. أما المزية الأولى فنص عبد القاهر فيها قوله ":و اعلم أن مما هو أصل فى أن يدق النظر و يغمض المسلك فى توخى المعانى التى عرفت أن تتحد أجزاء الكلام و يدخل بعضها فى بعض، و يشتد ارتباط ثان منها بأول «"...۱» و يستشهد لها من الشعر من نحو قول البحترى يزاوج بين معنيين فى الشرط و الجزاء معا: إذا ما نهى الناهى فلجّ بى الهوى أصـاخت إلى الواشـى فلـجّ بهـا الهجر و قوله: إذا احتربت يومـا ففـاضت دماؤهـا تـذكرت القربى ففاضت دموعها و نوع آخر منه قول سليمان القضاعى: فبينا المرء فى علياء أهوى و منحط أتيـح له اعتلاء و بينا نعمة إذ حال بؤس و بؤس إذ تعقبه ثراء و نوع ثالث و هو ما كـان كقول كثير: و إنى و تهيـامى بعزة بعـد مـا تخليت ممـا بيننـا و تخلت لكـالمرتجى ظـل الغمامـة كلما تبوأ منها للمقيل اضـمحلّت

(_____ ۱) دلائل الإعجاز ۹۳. إعجاز القرآن و منهـج البحـث عن التميز، النص، ص: ۲۵۳ و اللافت فى جملـة هـذه الشواهـد أن مفاتيـح النظم فيها أدوات تشد ما وراءها إليها شدّا وثيقا لارتباط المعانى بها و تواليها و بناء بعضـها على بعض حتى كأنها وضعت وضعا واحدا لأنها دفقة معنوية واحدة جاء على حذوها فى النطق دفقة من الكلمات التى انتظمت دفعة واحدة، و هذا ما عناه عبد القاهر باتحاد الوضع. و إذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها فقد ذكر عبـد القاهر نوعا من النظم مقابلا لـذلك، و هو على حد قوله ":ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضـعه إلى فكر و روية حتى انتظم، بل ترى سبيله فى ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمـد إل لآل فخرطها فى سـلك لا يبغى أكثر من أن يمنعها التفرق و ذاك إذا كـان معنـاك معنى لا- تحتـاج أن تصـنع فيه شـيئا غير أن تعطف لفظا على مثله كقول الجاحظ ": جنّبك اللّه الشـبهة، و عصـمك من الحيرة، و جعل بينك و بين المعرفة نسبا و بين الصـدق سببا، و حبب إليك التثبت و زين فى عينك الإنصاف "...إلخ. و الفرق بين هـذين النمطين من النظم أن الأول تتلاحق أجزاؤه فى اتصـال و ارتباط حتى كأنها وضـعت وضـعا واحـدا و هو من النوع ذى الجمل الطويلة التى تتفاعـل فيهـا الأجزاء حتى كأنها صبت فى قالب واحـد من شـدة التفاعل و التلاحم. أما النوع الثانى فإنه من نوع الجمل القصـيرة التى عطف بعضـها على بعض، و التى لا تجد لها مفتاحا يربط بينها و يشدها إليه بحيث يمكنك أن تعيد ترتيب تلك الجمل أو أن تحـذف شـيئا منها دون ما تأثير على معنى ما تبقى. - الصـلات بين أجزاء النوع الأول من النظم صـلات معنوية هى عين المعانى النحويـة، و هى دلالات المواقع الإعرابية للكلمات، و الصـلات بين أجزاء النظم فى النوع الثانى صـلات ظاهرة فى أدوات العطف التى تجعل الجمل القصـيرة كأنها كيانات مستقلة. إعجاز القرآن و منهـج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۵۴ النوع الأول يحتاج نظمه إلى تـدبر و رويـة و الثانى لا رويـة فيه و لا تـدبر و لا فضل فيه إلا بمعناه أو بمتون ألفاظه دون نظمه و تأليفه "،و ذلك لأنه لا فضـيلة حتى ترى فى الأمر مصـنعا، و حتى ترى إلى التخير سبيلا «"۱». و يسـتوقفنا أن عبد القاهر عند ما استشهد للنوع الأول اقتصر على شواهد من الشـعر، و للنوع الثانى بشواهد من النثر الفنى مما يشـير إلى أن مجال النوع الأول هو الشعر، و مجال النوع الثانى هو النثر الذى لا يحتاج إلى عناء الشـعر و تدفق معانيه و صبها فى قالب إلا الأبيات المشطرة كما يستوقفنا أنه على الرغم من أن عبد القاهر قصد بكتابه "دلائل الإعجاز "أن يضع أسـس البحث فى الإعجاز و يقدم أدواته، فإنه مع هذا لم يستشـهد فى هذا السـياق من القرآن، و لم يشر إشارة إلى أن النوع الأول الـذى يتحـد فيه الوضع مما يتميز به النظم القرآنى أو مما يتفوق فيه، غير أن هذا لا ينبغى أن يصـرفنا عن وقفة تأمل لما يمكن أن نستنبطه من مغزى عبد القاهر من هذا الباب و المرمى البعيد الذى كان يرمى إليه، فلعله كان يقصد أن النوع الأول من النظم الذى يتحد فى الوضع و يدق فى الصنع و الذى وصفه بالنمط العالى و الباب الأعظم إنما يكمل و يطرد فى القرآن الكريم، فربما وجد فى بعض الأشـعار لكنه لا- يطرد فيهـا كلها بـدليل أن الأبيات التى استشـهد بها منتقاة بعنايـة، و لا يختلف أحـد على علو كعبها فى فن الشـعر، و ليس كل الشعر كذلك، أما القرآن الكريم فلا تجده كله إلا من ذلك النوع، و يكون إعجازه فى هذا النوع من جهة التفوق

و الاطراد. و خذ ما شئت من آی القرآن فلن تجد إلا نظما قد اتحدت أجزاؤه و اتصلت معانیه و اشتد ارتباط ثان منها بأول حتی السور القصار، فإنها علی الرغم من قصر آیاتها و قرب فواصلها حتی تجد صوت الإیقاع عالیا عند ما یجتمع حسن تقسیم الآیات و توزیعها مع توافق الفواصل، فإنک علی الرغم من هذا تجد النوع الأول من النظم هو المائل أمام عینیک فی أرقی صوره.

(_____ ۱) دلائل الإعجاز ۹۸. إعجاز القرآن

و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۵۵ خذ مثلا سورة الشمس لتجد أن مفتاح النظم الذی یشد جمیع الأجزاء إلیه هو القسم، فلن تجد السورة سوی مقسم به و ما عطف علیه، و مقسم علیه و ما عطف علیه، فالسورة کلها أسلوب واحد و جملة واحدة کبیرة تعدد أجزاؤها فی اتصال شدید و ارتباط وثیق و إن کانت تلک الأجزاء عبارة عن آیات قصیرة متوافقة الفواصل. ثم إنک تجد الأجزاء المعطوفة لکل من شقی القسم یتلو بعضها بعضا فی تناسق و تداع بما لا یدع مجالا للحکم علیها کالحکم علی النوع الثانی من النظم الذی لا تتحد و لا تتصل أجزاؤه، و إنما تجد القسم ب: (وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها) یتلوها (وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها) ثم تأتی آیتین فی جملتین مشدودتین إلی السابقتین فی نوع من الربط یسمی باللف و النشر المرتب و الدال علی آثار قدرة اللّه سبحانه و رحمته (وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها* وَ اللَّیْلِ إِذا یَغْشاها) [۳، ۴ الشمس]، فالنهار مرتبط بالشمس و ضحاها، و اللیل مرتبط بالقمر إذا تلاها، .. ثم إن الشمس و القمر مجالهما السماء و آثارهما (نهارا و لیلا) فی الأرض، فلما کان للمتأمل وقفة مع مجال الشمس و القمر و مجال النهار و اللیل قال سبحانه بعدهما، (وَ السَّماءِ وَ ما بَناها* وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها) [الشمس: ۵، ۶]. ثم نبه سبحانه إلی أن خلق السماوات و الأرض أکبر من خلق النفس الإنسانیة و ذلک بتأخیرها بعدهما فی قوله: (وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها) .. إلخ و هکذا نجد تلاحقا فی أجزاء النظم و توالیا مرتبطا بتوالی المعانی و تلاحقها یتلو بعضها بعضا و یشتد ارتباط ثان منها بأول. و لا تخلو سورة من السور القصیرة مهما قصرت آیاتها من اعتمادها علی هذا النوع من النظم الذی تتحد أجزاؤه، و إنما قصرت السور و قصرت آیاتها و توافقت فواصلها و تقاربت لمناسبة أوائل النزول المکی؛ لیکون اللفت بذلک الإیقاع الجدید قویا و لکی یکون الجذب إلی ذلک النمط الفرید عتیا حتی لا یجد فصحاء العرب أمامهم سبیلا سوی الاعتراف بخصوصیة أسلوب القرآن، و أنه نمط فرید غیر الذی عرفوه من أجناس الکلام. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۵۶ و إذا کان هذا النوع الموصوف بالنمط العالی و الباب الأعظم موجودا فی السور القصار فما باله فی السور الطویلة؟ إنه یکون أظهر و أوضح سواء بدئت الآیات بمفاتیح النظم التی تشد ما بعدها نحوها شدا وثیقا أم لم تبدأ بها. فمن الأول الآیات التی تبدأ بأدوات الشرط و الظروف و إن و أخواتها إذا طالت جملها، بل إن هذه الأدوات تدل علی الموجود فی الکلام و علی المقدر الذی طوی تحاشیا لطول الأجزاء کقوله تعالی: (وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُیِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ کُلِّمَ بِهِ الْمَوْتی) .. [الرعد: من الآیة ۳۱]، فالتقدیر کما ذکر المفسرون: لکان هذا القرآن، فطوی لفهمه، و تعجیلا بذکر العبرة التی علیها مناط الکلام (بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِیعاً). و من شواهد هذا النظم الذی لا یبدأ بأدوات شد الکلام قوله تعالی: (مَثَلُهُمْ کَمَثَلِ الَّذِی اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَکَهُمْ فِی ظُلُماتٍ لا یُبْصِرُونَ) [البقرة: ۱۷] حتی یصل إلی قوله تعالی: (وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ) [البقرة: من الآیة ۲۰] فهذه أربع آیات فی حکم جملة واحدة لاتصال أجزاء النظم و معانیها اتصالا شدیدا و تلاحقها کتلاحق الأضواء التی لا تستطیع أن تجد لها أجزاء. و قد تجد من هذا النوع جملة طویلة هی فی حکم التابع لمفرد فی الجملة التی سبقتها مما یدل علی خصوصیة النمط المعجز الذی لیس له نظیر فی تلاحق معانیه و شدة اتصالها کما فی صدر سورة البقرة (ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ هُدیً لِلْمُتَّقِینَ* الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِالْغَیْبِ وَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ* وَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ یُوقِنُونَ* أُولئِکَ عَلی هُدیً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [البقرة: ۲، ۳، ۴، ۵] فإن قوله: (الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِالْغَیْبِ) ... و ما عطف علیه سبع جمل کلها تابعة للمتقین علی سبیل البدل و البیان. و مثل هذا قوله تعالی: (وَ سارِعُوا إِلی مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِینَ) [آل عمران: ۱۳۳]، فقد جاءت عقب هذا ثلاث إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۵۷ آیات علی سبیل التبعیة للمتقین، و إذا کانت ثلاث آیات جاءت تابعة لمفرد و هی

فی غایـة الاتصـال و التماسـک، فمـا بالـک بالآیـات التی تملـک زمـام المعانی. إن المنصف لا یملک سوی التسلیم بخصوصـیة نظم المعانی القرآنیة فی هذه الظاهرة التی سماها عبد القاهر باتحاد الوضع و النمط العالی و الباب الأعظم، بل أن نظم المعانی القرآنیة یبلغ فی هذا الذروة التی لا نظیر لرقیها. و یرتبط بهذه المزیة مزیة ثانیة هی أن غزارة مزایا النظم ناتج عن تعدد متصـرفات عناصـر النظم من تقـدیم و تأخیر و تعریف و تنکیر و حـذف و ذکر و تأکید و قصـر مع تعدد وسائل التعریف و ضـروب الحذف و طرق القصـر حسـب مقتضـیات السـباقات، و أهم من ذلـک مـا نجـده فی نظم القرآن من وفرة العـدول عن الأصـل و الخروج عن المعهود عنـد العرب فی ترتیب و تألیف عناصـر الجملـة فـذلک هو نفسه متصـرفات النظم التی یترتب علیها غزارة مزایا النظم، و قد أجاد علماء التفسـیر البیانی تتبع تلک المتصـرفات و اجتهدوا فی اسـتنباط مزایاها و أسرارها، و من شاء فلیراجع تفسیر سورة الفاتحة عند الزمخشری و أبی السعود و الرازی و الألوسـی. و أصل الفکرة عنـد عبـد القاهر عنـد ما أتی بأبیات للبحتری و عقب علیها قائلا "فإذا رأیتها قد راقتک و کثرت عندک و وجدت لها اهتزازا فی نفسک فعد فانظر فی السبب و استقص النظر فإنک تعلم ضرورة أن لیس إلا أنه قدم و أخر و عرف و نکر و حـذف و أضـمر و أعاد و کرر " ...۸۵ دلائل الإعجاز، فهـذه هی متصـرفات النظم و فیها مزایا مرتبطـة بها و هی إن وجدت فی الشـعر فإنهـا علی قلـة و لکنهـا فی القرآن مطردة و علی أرقی ما یکون. النمط العالی بین البیان القرآنی و البیان النبوی: سـبق أن النمط العـالی من النظم یوجـد فی القرآن باطراد و علی أرقی ما یکون أما فی البیان النبوی فإن منسوب النظم یمتـد نحو النمط العالی تارة، و یقف عنـد النوع الآـخر تـارة أخری، و قـد یجتمعـان فی خطبـة واحـدة، مثال ذلک: ورد فی إعجاز القرآن و منهـج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۵۸ کتاب حیاة الصـحابة: أخرج ابن جریر (ج ۲ ص ۱۱۵) عن سـعید بن عبد الرحمن الجمحی أنه بلغه عن خطبة رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم فی أول جمعة صلاها بالمدینة فی بنی سالم بن عوف "الحمد اللّه، أحمده و أستعینه و أستغفره و أستهدیه و أومن به و لا أکفره و أعادی من یکفره، و أشـهد أن لا إله إلا اللّه وحـده لا شـریک له و أن محمـدا عبـده و رسوله، أرسـله بالهدی و النور و الموعظـة علی فترة من الرسـل و قلـة من العلم و ضـلالة من الناس و انقطاع من الزمان و دنو من الساعـة و قرب من الأجل، من یطع اللّه و رسوله فقد رشد، و من یعصـهما فقد غوی و فرط و ضل ضـلالا بعیدا، و أوصـیکم بتقوی اللّه، فإنه خیر ما أوصی به المسلم المسـلم أن یحضه علی الآـخرة، و أن یـأمره بتقوی اللّه، فاحـذروا مـا حـذرکم اللّه نفسه، و لا أفضل من ذلک نصـیحة، و لا أفضل من ذلک ذکرا، و إن تقوی اللّه لمن عمل به علی و جل و مخافة من ربه عون صدق علی ما تبغون من أمر الآخرة، و من یصـلح الذی بینه و بین اللّه من أمره فی السـر و العلانیـة لا ـ ینوی بـذلک إلا ـ وجه اللّه یکن له ذکرا فی عاجـل أمره و ذخرا فیما بعـد الموت حین یفتقر المرء إلی ما قـدم، و ما کان من سوی ذلک یود لو أن بینه و بینه أمـدا بعیدا، و یحذرکم اللّه نفسه و اللّه رءوف بالعباد، و الذی صدق قوله و أنجز وعـده لا ـ خلف لـذلک، فـإنه یقول عز و جـل: (ما یُبَـدَّلُ الْقَوْلُ لَـدَیَّ وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِیـدِ) [ق: ۲۹] فـاتقوا اللّه فی عاجل أمرکم و آجله فی السـر و العلانیـة؛ فإن من یتق اللّه یکفر عنه سـیئاته و یعظم له أجرا، و من یتق اللّه فقد فاز فوزا عظیما، إن تقوی اللّه یوقی نقمته، و یوقی عقوبته، و یوقی سـخطه، و إن تقوی اللّه یبیّض الوجوه و یرضـی الرب و یرفع الدرجـة، خذوا بحظکم و لا تفرطوا فی جنب اللّه، قـد علمکم اللّه کتـابه، و نهـج لکم سبیله لیعلم الـذین صـدقوا و یعلم الکاذبین، فأحسـنوا کما أحسن اللّه إلیکم و عادوا أعداءه، و جاهدوا فی اللّه حق جهاده هو اجتباکم و سماکم المسلمین لیهلک من هلک عن بینه، و یحیی من حیّ عن بینة و لا حول و لا ـ قـوة إلا ـ بـاللّه، فـأکثروا ذکر اللّـه، و اعملـوا لمـا بعـد الیـوم؛ فـإنه مـن یصـلح مـا بینه و بین اللّه یکفه اللّه مـا بینه و بین النـاس «"۱».

(_____ ۱) حیاة الصـحابة ۳/ ۳۹۶ دار القلم بیروت. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۵۹ و إذا کانت هذه أول خطبة فی المدینة کما ذکر راوی الحدیث فإن الرسول صـلّی اللّه علیه و سـلّم أسس فیها بإلهام من اللّه الشکل العام للخطبة فی الإسلام من البدء بالحمد و الاستغفار و الشهادتین، ثم التوصـیة بتقوی اللّه عز و جـل مع تضـمین الخطبـة وصایـا عـدة قبیـل نهایتها حسب الحاجـة و المقام. أما ما بین الشـهادتین و التوصـیة بالتقوی فمن توابع الشـهادة الثانیـة، و أما ما بین الأمر بالتقوی و الوصایا قبیل النهایـة فمن توابع الأمر بالتقوی الذی کان یتردد مشـفوعا

بالتعليل المؤكد لأنه صلب موضوع الخطبة. و أكثر معانى و بناء هذه الخطبة يعتمد على الاقتباس من القرآن الكريم الذى يصب جمل القرآن و آياته فى أثناء كلامه صلّى اللّه عليه و سلّم دون نص أو إشارة إلى أنه يستشهد مما يدل على قمة التوازن و الانسجام بين النص المقتبس و بين سياقه كقوله ":فاتقوا اللّه فى عاجل أمركم و آجله فى السر و العلانية؛ فإنه (مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً) «۱» و من يتق اللّه (فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً) .. «۲» إلخ و كقوله صلّى اللّه عليه و سلّم ":قد علمكم اللّه كتابه، و نهج لكم سبيله (فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ) «۳». و قد ترد آية فى سياق الخطبة على سبيل الاستشهاد لا الاقتباس كقوله ": يقول اللّه عز و جل: (ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) «۴». و الذى يعنينا هنا هو طريقة بناء الخطبة، و الفروق بين البيان النبوى و البيان القرآنى من الزاوية التى تشغلنا فى ذلك السياق و هى مدى ترابط المعانى و مدى اتحاد وضعها و اتصال أجزاء النظم فيها. و بالنظر فى تلك الخطبة نجدها تتوزع بين مستويين من النظم: الأول: هو النظم الذى اتصلت أجزاؤه و ارتبط ثان منها بأول، فلا نستطيع أن نقف عند جزء (_____ ۱) جزء من آية (۵) سورة الطلاق، و قد وردت الواو محذوفة فى (وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ) لأن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم يقتبس و لا يستشهد. (۲) جزء من آية (۷۱) الأحزاب. (۳) جزء من آية (۳) سورة العنكبوت. (۴) آية (۲۹) من سورة ق. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۶۰ منه دون وصله بما بعده كما لا نستطيع أن نخلّ بترتيب تلك الأجزاء، و ذلك من بداية الخطبة حتى نهاية الأمر بالتقوى، و ما قد نظنه فواصل بين أركان الخطبة إنما هو من توابع تلك الأركان التى يتصل الفرع منها بالأصل كاتصال موجات التوابع «۱» جملا حالية تتولد منها جمل أخرى من مكملات المعنى الأساسى كقوله صلّى اللّه عليه و سلّم ":و أن محمدا عبده و رسوله أرسله اللّه بالهدى و النور و الموعظة على فترة من الرسل و قلة من العلم و ضلالة من الناس، "أم كانت تابعة على سبيل الترتيب و التعليل كما نجد عقب الأمر بالتقوى ":و أوصيكم بتقوى اللّه فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم " ..إلخ ثم إتباع هذا بجمل مرتبة على سبيل التحذير تارة و الترغيب تارة أخرى، ثم العودة للأمر بالتقوى مرة ثانية بالأسلوب نفسه الذى يأمر و يعلل و يحذر و يرغب بالجمل المعطوف بعضها على بعض بالفاء تارة و الواو تارة فى اتصال و ترابط شديدين. المستوى الثانى: هو النظم الأقل من مستوى النوع الأول، و هو ما نجده من معان جاءت قبيل نهاية الخطبة فى جمل قصيرة معطوف بعضها على بعض تتناول معانى عدة متنوعة كالأمر بالإحسان، و معاداة أعداء اللّه و الجهاد، و الأمر بذكر اللّه كثيرا، و العمل لما بعد اليوم، فكل هذا جاء فى جمل متجاورة متعددة المعانى لا توالد بينها و لا ترتيب فهى كمن عمد إلى لآل فخرطها فى سلك لا يبغى أكثر من أن يمنعها من التفرق على حد تعبير عبد القاهر، و ليس أدل على هذا من إمكان تقديم بعضها على بعض، و لو حذف أحدها لم يؤثر على معنى ما تبقّى، و إنما يجمع بينها أنها مجموعة من الوصايا التى تنفع المسلم فى دنياه و آخرته. إن تلك الخطبة التى تمثل وحدة كاملة من وحدات البيان النبوى قد اجتمع فيها نموذجا للنمط العالى من النظم و نموذجا آخر للنمط الثانى. فإذا عدنا إلى سورة قرآنية كنموذج للوحدة الكاملة من البيان القرآنى وجدنا النمط العالى بل الأعلى مطردا فيها كاطراده فى سائر السور القرآنية لا يتخلف أبدا، ثم إن السورة مهما تعددت أغراضها و معانيها نجدها دائما منجذبة إلى (_____ ۱) هذا من التوسع فى مفهوم التبعية عند النحاة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۶۱ الموضوع المحورى للسورة الذى يطل بين حين و آخر، و هذا من أهم عوامل اتصال معانى السورة و ارتباط وحداتها ارتباطا عضويا فضلا عن خصوصية نظم المعانى القرآنية و بلوغه مستوى من الترابط و التواصل لا يبلغه أى نظم آخر، و لو حاولنا إسقاط كلمة أو تبديلها بكلمة أخرى لاختل البناء، و تغيّرت صورة المعنى. و على الرغم من وجود هذا النمط العالى من النظم فى شق من البيان النبوى فإنه لا يرقى رقية فى البيان القرآنى المعجز. خذ سورة من القرآن تبدأ بالأمر بالتقوى و انظر فى نظمها ثم انظر فى نظم التوصية بالتقوى فى الخطبة النبوية لتجد أنه رغم دخول النظمين فى النمط العالى المتصل الأجزاء فإنه فى القرآن يتميز بميزات و خصوصيات تجعله أرقى و أعلى. و لنأخذ سورة الحج لا لنقف على كل ما فيها من كيفيات الاتصال بين المعانى و لكن لنستشهد بما يدل على تلك الفكرة. فسورة الحج تبدأ بالنداء الذى

يعقبه الأمر، و هذه سمة غالبة لخطاب اللّه تعالى الناس فى القرآن، يناديهم ليأمرهم بما يدل على القوة و العلو و الإلزام و هذا يتسق مع المتكلم ذى القوة و الجلال، بخلاف البيان النبوى الذى يغلب عليه التودد و التلطف كما يبدو فى التوصية بتقوى اللّه فى قوله من بداية الخطبة ":أوصيكم بتقوى اللّه " ..بما يعكس الطابع النبوى البشرى. و فرق آخر ظاهر هو أن البيان النبوى يربط التعليل بما قبله بواسطة الفاء فى قوله عقب التوصية بالتقوى ":فاحذروا ما حذركم اللّه نفسه، "لكن التعليل فى الآية جاء بغير أداة مطلقا، و إنما جاء بالاستئناف البيانى المعلل، و هذه طريقة معروفة عند العرب الخلص و سماها عبد القاهر بالقطع و الاستئناف؛ لأن المتحدث يقطع كلامه قطعا يدعو إلى استنفار فكر المخاطب و إثارة فضوله و ترقبه و استشرافه لما بعده، فيأتى الاستئناف بعد ترقب له و انتظار فيتمكن أفضل تمكن، و القطع فى الآية فى قوله: (اتَّقُوا رَبَّكُمْ) و أما الاستئناف ففى قوله عقبة: (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) و مضمون الاستئناف و أصوات ألفاظه تهز النفس هزا عميقا إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۶۲ و تشير إلى جدارة هذا الكلام بالقطع و الاستئناف الذى لا يكون إلا فى مضمون له قيمة عالية. ثم تجد الآيات بعد ذلك هى من امتدادات الموجة الأولى متعلقة بها على أشد ما يكون التعلق ابتداء بظرف تلك الزلزلة و أحوال الناس فيها و جدالهم فى الدنيا حول صدق وقوعها و تصعيد ذلك الجدال حتى يصل إلى وجود القادر سبحانه، و تحذير هؤلاء المجادلين مع تقديم البراهين الساطعة النابعة من أنفسهم و التى تقطع بقدرته سبحانه على ما يجادلون بشأنه، حتى تقترب نهاية السورة فيرد عجز الكلام على صدره فى قوله سبحانه: (وَ إِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ) [الحج: ۶۸] و يدعو المؤمنين فى نهاية السورة إلى النجاة بأنفسهم من هذا المستنقع بالإيمان باللّه و الاعتصام به سبحانه: (وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ) [الحج: من الآية ۷۸]. الفرق الجوهرى الذى نعول عليه فى هذا السياق إذن بين البيان القرآنى و بين البيان النبوى هو اطراد النمط العالى من النظم فى البيان القرآنى، و عدم اطراده فى البيان النبوى، و مع هذا فقد نجد فى أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حديثا كله من هذا النمط مثل حديث "مثل ما بعثنى اللّه به من الهدى و العلم " ..و حديث ": الحلال بيّن و الحرام بيّن .. "و قد نجد حديثا آخر كله من النوع الثانى الأقل فى اتصال أجزاء نظمه كقوله صلّى اللّه عليه و سلّم ":من حديث أبى ذر قال ":سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: يقول ":من أتى ثلاث فقد أوتى مثل ما أوتى داود عليه السلام: خشية اللّه فى السر و العلانية، و العدل فى الغضب و الرضا، و القصد فى الفقر و الغنى" «۱» و لهذا نظائر من أحاديث أخرى جاءت بأسلوب التوشيع «۲». أقرب الصحابة شبها بالبيان النبوى: أقرب الصحابة شبها فى بيانه بالبيان النبوى هو على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه، و ذلك راجع إلى أنه توفر لعلى ما لم يتوفر لغيره من الصحابة قرابة

(_____ ۱) الحديث فى كتاب "حياة الصحابة "۳/ ۴۱۷. (۲) فى هذا الأسلوب تشويق و جذب نفسى لأنه يبدأ بالعدد مجملا ثم يفصله كما فى حديث أبى ذر السالف. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۶۳ و مصاهرة و مخالطة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى تشبع بأدبه و فكره و بيانه و أتيح له ما لم يتح لغيره من الصحابة فى هذا الأمر. و من يراجع خطب على رضى اللّه عنه و أقواله يلحظ هذا و يلحظ وجوها من الشبه أبرزها كثرة الاقتباس من هدى القرآن سواء كان هذا باللفظ و المعنى أم كان بالمعنى فقط. كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقتبس من هدى القرآن و يضيف معانى لا تخرج عن إطار الوحى بحسب ما تقتضيه المواقف، و كان ما يضيفه أقرب إلى التوليد و استنباط معنى من معنى و ذلك لا يكون إلا عند تشبع بالمعانى المقتبس منها و قدرة على التوليد منها معانى أخرى من بطن المعانى المسترفدة و من أحشائها. و لقد كان على رضى اللّه عنه يقتبس من هدى القرآن و من هدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مع التوليد منهما، و قد كانت له قدرة على هذا التوليد، و ذلك كقوله من خطبة له من على منبر الكوفة ":يا أيها الناس لا تكونوا ممن يرجو الآخرة بغير عمل، و يؤخر التوبة بطول الأمل، و يقول فى الدنيا قول الزاهدين، و يعمل فيها عمل الراغبين "إلخ .. «۱» فصدر الخطبة اقتباس من معنى القرآن، لكنه يتبعه بالتوليد فالجملة الأولى "لا تكونوا ممن يرجو الآخرة بغير عمل "من قوله تعالى: (فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) [الكهف: من الآية ۱۱۰]. و قوله ":يقول فى الدنيا قول الزاهدين، و

يعمل فيها عمل الراغبين "مولّد من قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ) [الصف: ۲] و يولد قوله ":إن أعطى منها لم يشبع " ..من حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ":اثنان لا يشبعان: طالب علم و طالب مال. "و كذلك قوله من خطبة له بعد حمد اللّه و الثناء عليه ":أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصى و لم ينههم الربانيون و الأحبار، ألا فمروا بالمعروف و انهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم الذى نزل بهم "فهذا من اقتباس

(_____ ۱) حياة الصحابة ۳ / ۴۷۰. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۶۴ معانى القرآن الكريم و معانى الهدى النبوى، لكنه يتبعه بالتوليد فى قوله ":و اعلموا أن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر لا يقطع رزقا و لا يقرب أجلا «"۱». و ذلك التوليد ناشئ من تشبع بالمعانى المقتبسة مضموما إليه استيعاب ما طرأ فى الناس من أحوال و تفريط و تعللات، فيكون هذا من تطويع المعانى و التوليد فيها بما يتناسب مع المواقف و الأحوال. و يبقى فرق مهم بين بيان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و بين بيان علىّ كرم اللّه وجهه، فبيان النبى كان يجمع بين النمط العالى من النظم و بين النمط الأقل «۲» لكن بيان علىّ كانت تكثر فيه الجمل القصيرة بشكل لافت حتى لا نجد اللحمة التى تشد أواصر تلك الجمل و ذلك على الرغم من علو كعب الإمام فى معانيه المولدة فى بعض تعليلات الوصايا عنده لحسن التشبع بهدى القرآن و هدى النبوة، خذ مثلا قوله من خطبته له ":و أوصيكم بتقوى اللّه؛ فإن أفضل ما توسل به العبد الإيمان و الجهاد فى سبيله، و كلمة الإخلاص فإنها الفطرة و صلة الرحم؛ فإنها مثراة فى المال، منسأة فى الأجل، محبة فى الأهل، و صدقة السر فإنها تكفر الخطيئة، و تطفئ غضب الرب، و صنع المعروف فإنه يدفع الميتة السوء و يقى مصارع الهول، أفيضوا فى ذكر اللّه فإنه أحسن الذكر، و ارغبوا فيما وعد المتقون؛ فإن وعد اللّه أصدق الوعد، و اقتدوا بهدى نبيكم صلّى اللّه عليه و سلّم؛ فإنه أفضل الهدى، و استسنوا بسنته؛ فإنها أفضل السنن، و تعلموا كتاب اللّه فإنه أفضل الحديث، و تفقهوا فى الدين فإنه ربيع القلوب " ..إلخ. و تأثر على كرم اللّه وجهه هنا بالهدى النبوى واضح، لكن الذى أريد التركيز عليه هنا هو خاصية امتداد الجمل و ترابطها و ما يدخل منها فى النمط العالى من النظم و ما لا يدخل، فنظم علىّ كرم اللّه وجهه فى هذه الناحية أقل من نظم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و خذ مثلا الأمر بالتقوى و ما عطف عليه من وصايا، و انظر (_____ ۱) من المصدر السابق ۳/ ۴۷۱. (۲) لا يعنى النمط الأقل نقصانه فى الفصاحة و لكنه دون النمط العالى فى قوة اتصال أجزاء النظم و ارتباط ثان بأول. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۶۵ فى خطبة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لتجد امتدادات الجمل و تفرع بعضها عن بعض كالموجات المتواصلة من غير انقطاع تحذيرا و ترغيبا و توضيحا و ترديدا للمعنى نفسه و للوصية نفسها، بينهما تجد التوصية بالتقوى فى خطبة على رضى اللّه عنه فى جملة واحدة مقرونة بتعليلها تليها توصية أخرى معطوفة بالواو، و وصية ثالثة و رابعة .. إلخ و على الرغم من العطف بينها و الاشتراك فى كونها جميعا وصايا فإن التشابك و التلاحم بينها لا يقوى قوته فى الجمل المتفرعة عن التوصية بالتقوى هناك فى خطبة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بدليل أننا فى خطبة على رضى اللّه عنه يمكن أن نقدم بعض الوصايا على بعض و بعض الجمل على بعض دون أن يختل بناء الكلام أو يتأثر فنقدم صنع المعروف على صلة الرحم أو أن نقدم الأمر بذكر اللّه عليها و لا يتأثر كل معنى فى ذاته لقيامه بجملته المستقلة، أما فى سلسلة الجمل التى اتحد وضعها و تماسكت أجزاؤها و تفرع بعضها عن بعض فلا يمكن فيها تقديم و لا تأخير كما فى الوصية بالتقوى و ما تفرع عنها فى خطبة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و على ضوء هذا يمكننا أن نستنبط موقف بيان على من البيان القرآنى و نسبته من تلك الزاوية، فالنظم القرآنى تطرد فيه ظاهرة اتحاد وضع الجمل و تلاحم أجزائها و شدة اتصالها، بخلاف بيان على الذى يكاد يطرد اعتماده على الجمل القصيرة التى لا يتوفر لها ذلك التلاحم على الرغم من أن القرآن كان من مصادر المعانى عند علىّ استهداء و اقتباسا و توليدا و لكنا نتحدث عن طريقة بناء الكلام من جهة هذه الظاهرة التى سماها عبد القاهر باتحاد الوضع و شدة اتصال أجزاء الكلام و وصفها بالنمط العالى و الباب الأعظم، فبناء كلام علىّ رضى اللّه عنه لم يكن بهذه الطريقة من النظم لكثرة اعتماده على الجمل القصيرة التى يعطف

بعضها على بعض و التى يستقل بعضها عن بعض، و هذا لا يقلل من فصاحة على ابن أبى طالب الذى كان متميزا بفصاحة و توليدات معانيه و ابتكاراته رضى اللّه عنه التى أدى إليها ما جدّ من مواقف التفرق و التمرد و التخاذل. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۶۶

رابعا: خصوصية حلقات الوصل فى القرآن:

رابعا: خصوصية حلقات الوصل فى القرآن: هذه الميزة ليست خاصة بالكلمة المفردة و لا بدلالة الجملة أو التركيب و لا بالمعانى عموما، و لكنها تتعلق بالانتقال بين الكلمات، فحلقة الوصل بين كلمتين هى الحرفان المتجاوران من نهاية كلمة و بداية كلمة تالية، و من مجموع ذلك تكون حلقات الوصل بين الكلمات فى التراكيب، و هى سمة صوتية ناشئة من نظم الكلمات على نحو خاص، و الرمانى هو أول من لفت فى رسالته للإعجاز إلى هذه الخصوصية فى القرآن الكريم و هو يوازن بين قوله تعالى: (وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ) و المثل العربى "القتل أنفى للقتل "و انتهى إلى خصوصيات تتميز بها الآية و منها "الحسن بتأليف الحروف المتلائمة "و يرى أن هذه سمة صوتية محسوسة بالأذن لأنها موجودة فى اللفظ "فهو مدرك بالحسّ و موجود فى اللفظ؛ فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام، و كذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام «"۱». فهذه العبارة توازن بين حلقات الوصل فى الكلمات المتجاورة و تخرج بنتيجة مهمة هى أن الانتقال من كلمة إلى أخرى فى الآية أيسر، و أسلس من الانتقال من كلمة إلى أخرى فى المثل، و هذه البذرة القيمة التى وضعها الرمانى لم أعثر على من ينمّيها و يطورها عند العلماء اللاحقين على كثرة ما أخذوا من الرمانى، و ربما كان إعراضهم عن تلك الميزة لتعلقها بالجانب اللفظى أو الصوتى، مع أن كل ميزة صوتية تلفت إلى المعانى و تعطف النفوس إليها. و فى العصر الحديث وجدنا الرافعى فى كتابه "إعجاز القرآن "يعتد بالجانب الصوتى فى القرآن و يهتم به اهتماما بالغا حتى عدّه من أهم جوانب الإعجاز اللافتة لغير العرب الذين لا يعرفون العربية، فإن الخصوصية الصوتية للقرآن و ما فيه من توقيعات خاصة تستحوذ عليهم و تستهويهم و لا يجدونها فى كلام آخر، و يتلخص تعليله لهذه الميزة فى أن توزيع الحروف ذات المخارج الخاصة على نسب معينة يؤدى إلى أداء نغمى متوازن بالإضافة إلى الأثر الصوتى الناشئ عن (_____ ۱) رسالة النكت فى الإعجاز للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز ۷۸، و أعدل بمعنى أسهل و أنسب. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۶۷ الالتزام بقواعد التلاوة و التجويد من مدّ و غنّ و إظهار و إدغام و إخفاء و ما يترتب عليه من إيقاع نغمى يتميز به القرآن الكريم، و مع هذا فإن الرافعى لم يلتفت إلى فكرة الرمانى على قيمتها و أهميتها؛ لدخولها فى صميم الأداء الصوتى المعجز، فإن خصوصية حلقات الوصل بين الكلمات القرآنية من أهم أسباب سلاسة النظم القرآنى و خفته على اللسان و حلاوته فى الآذان «۱». و إذا بحثنا عن سر سلاسة حلقات الوصل بين كلمات القرآن وجدناه ربما يكمن فى مخرج الحرفين المتجاورين من نهاية كلمة و بداية كلمة تليها، و قد نبه الرمانى إلى هذا عند ما علل تعليلا واحدا مختصرا فى قوله ":فإن الخروج من الفاء إلى اللام [فى القصاص] أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة (القتل أنفى) لبعد الهمزة من اللام "۷۸ النكت انتهى كلامه. و عند البحث عن سبب البعد بين هذين الحرفين "اللام و الهمزة "و هما حلقة الوصل الأولى فى المثل تجدهما مختلفين فى الصفة؛ لأن اللام رخوة يجرى معها الصوت، و الهمزة شديدة ينحبس معها الصوت، و هما مختلفان فى المخرج؛ لأن الهمزة من الحلق، و اللام من حافة اللسان الأمامية مع ما يحاذيها من الأسنان «۲». أما حلقة الوصل المقابلة فى الآية و هى الانتقال من الفاء إلى اللام «۳» (فِي الْقِصاصِ) فهما متفقان فى صفتين هما الرخاوة و الاستفال، و يقتربان مخرجا؛ لأن الفاء شفوية من الشفة السفلى عند التصاقها برءوس الثنايا العليا، و اللام من حافة اللسان الأمامية مع ما يحاذيها من الأسنان، و معنى هذا أن سهولة حلقة الوصل بين الكلمتين لا يستلزم الاتفاق التام بين الحرفين" المنقول عنه و المنقول إليه "فى كل الصفات بل يكفى الاتفاق فى أكثر الصفات، و لا يشترط فيهما الاتفاق التام فى

(_____ ۱) راجع "البلاغة الصوتية فى القرآن "للمؤلف، و قد سجلت هنالك هذه الميزة دون تفسير لها، و بقى الاهتمام بتفسيرها يراودنى بين حين و حين حتى وفق اللّه سبحانه إلى ما سجلته فى هذا المؤلف. (۲) راجع مخرج و صفات هذين الحرفين فى التجويد الميسر لأبى عاصم القارى مؤسسة الرسالة ص: ۲۰، ۲۲، ۲۷. (۳) العبرة فى ذلك بالنطق الذى لا تظهر فيه ياء المد و لا همزة الوصل. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۶۸ المخرج، بل إن تقارب المخرجين يكون أيسر للنطق من اتفاقهما تماما أو تباعدهما تماما كما يفهم من كلام العلماء. أما حلقة الوصل الثانية فإن الانتقال من الصاد إلى الحاء فى (الْقِصاصِ حَياةٌ) أعدل و أيسر من الانتقال من الألف إلى اللام فى (أنفى للقتل) و ذلك لأن الانتقال الأول من رخو مهموس و هو "الصاد "إلى مثله "الحاء "و لا يختلفان إلا فى الاستعلاء و الاستفال، فالصاد حرف مستعل مفخم، و الحاء حرف مستفل مرقق، أى أن الصفات المشتركة بينهما أكثر من المختلفة، و هذا كاف لتحقق سلاسة الانتقال و يسره بينهما، و لهذا لم يتأثر ذلك اليسر ببعد المخرج لأن الصاد من رأس اللسان مع أصول الثنايا العليا و الحاء حلقية. و هذا بخلاف الحلقة الأخيرة فى المثل، فالانتقال من الألف المقصورة إلى اللام فى (أنفى للقتل) ليس كيسر و سهولة الانتقال فى حلقة الوصل المقابلة فى الآية، و ذلك لأن الصوت الممدود مع الألف فى (أنفى) ليس له حدود فهو مفتوح ممتد، و لذلك فإنه يفاجأ بلامين متواليين فى (للقتل) حتى يشعر الناطق بأن لسانه يحمل ثقلا كبيرا. و قد تتبعت حلقات الوصل فى بعض آيات من الذكر الحكيم و فى بعض فقرات من النثر و أبيات من الشعر فوجدت من الصعب الخروج بنظام محدد يكون له قوة القاعدة بحيث يضبط أسباب سلاسة حلقات الوصل بين الكلمات و أسباب يسر الانتقال و لينه من كلمة لأخرى، و أن تفسير هذا من جهة قرب صفات الحروف أو قرب مخارجها لا يطرد رغم أن الإحساس بالظاهرة نفسها فى القرآن مطرد ظاهر لا يتخلف أبدا. ثم حاولت تفسير تلك الظاهرة من جهة حركات و سكنات الحروف فوجدت أن نهاية كلمة و بداية كلمة تليها لا يخرج عن ثلاثة أنواع: الأول: انتقال من متحرك إلى ساكن. الثانى: انتقال من متحرك إلى متحرك. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۶۹ الثالث: انتقال من ساكن إلى متحرك. و النوع الأول أخف فى النقلة يليه الثانى، أما النوع الثالث فهو أقل خفة، و ربما شعرت فيه بثقل ما إذا توالت نقلاته بين الكلمات، و من عجب أن هذا النوع الثالث هو الذى بانت فيه جهات التميز و التفرد فى القرآن لأن أكثر أحكام التجويد تكمن فيه «۱» و الظاهر أن ما فيه من ثقل عند توالیه بين الكلمات هو الذى استدعى تخفيفه بقواعد التلاوة و ما فيها من مد و غن و إخفاء و إدغام ... إلخ و ذلك بعلم اللّه سبحانه و حكمته و تيسيره. و على ذلك فإن هناك ميزة ظاهرة لحلقات الوصل فى القرآن الكريم هى ما يترتب على الالتزام بأحكام التلاوة و التجويد من إظهار أو إدغام أو قلب أو إخفاء أو غنّ ... إلخ و هى ظواهر صوتية تضفى على الأداء خفة و توقيعا حلوا و نغما عذبا و لا تخلو من ارتباطها بالمعنى، و هذه السمة مطردة سواء نشأ من التقاء الحرفين فى حلقة الوصل حكما تجويديا أم لم ينشأ، و لكن عند ما يكون الانتقال من النوع الثالث أى الانتقال من ساكن فى نهاية كلمة إلى متحرك فى بداية كلمة تالية فإن من الحتمى أن ينشأ عنه حكم تجويدى يخفف من ثقله و يؤدى إلى خفته و عذوبته. خذ مثلا قوله تعالى: (اعْلَمُوا (۳) أَنَّمَا (۱) الْحَياةُ (۱) الدُّنْيا (۳) لَعِبٌ (۳) وَ لَهْوٌ (۳) وَ زِينَةٌ (۳) وَ تَفاخُرٌ (۳) بَيْنَكُمْ (۳) وَ تَكاثُرٌ (۳) فِي (۱) الْأَمْوالِ (۲) وَ الْأَوْلادِ (۲) كَمَثَلِ (۲) غَيْثٍ (۳) أَعْجَبَ (۱) الْكُفَّارَ (۲) نَباتُهُ (۲) ثُمَّ (۲) يَهِيجُ (۲) فَتَراهُ (۲) مُصْفَرًّا (۳) ثُمَّ (۲) يَكُونُ (۲) حُطاماً (۳) وَ فِي (۱) الْآخِرَةِ (۲) عَذابٌ (۳) شَدِيدٌ (۳) وَ مَغْفِرَةٌ (۳) مِنَ (۱) اللَّهِ (۲) وَ رِضْوانٌ (۳) وَ مَا (۱) الْحَياةُ (۱) الدُّنْيا (۳) إِلَّا (۳) مَتاعُ (۱) الْغُرُورِ) [الحديد: ۲۰]. رمز للنوع الأول و هو الانتقال من متحرك لساكن برقم (۱)- و مجموعه فى الآية ۹ و للنوع الثانى و هو الانتقال من متحرك لمتحرك برقم (۲)- و مجموعه ۱۲

(_____ ۱) يدخل فيه إذا كان آخر الكلمة ساكنا أو منونا؛ لأن التنوين آخره ساكن، و هنا نتذكر أحكام النون الساكنة و التنوين. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۷۰ و للنوع الثالث و هو الانتقال من ساكن لمتحرك برقم (۳)- و مجموعه ۱۷ و يتضح من هذه الرموز و الأرقام أن أكثر

حلقات الوصل فی هـذه الآیـة من النوع الثالث الـذی ینتقل من ساکن إلی متحرک فقد بلغ فی الآیة سبع عشـرة حلقة یلیه النوع الثانی (اثنتا عشـرة حلقة) ثم النوع الثالث (تسع حلقات). و من الواضح أن الظواهر الصوتیة الناشـئة عن الالتزام بأحکام التلاوة و التجوید إنما تنحصر فی هذا النوع الغالب من الحلقات لحاجته إلی تلک الأحکام حتی یتحول ما فیها من ثقل إلی خفة و عذوبة فی الأداء، و ذلک کالإدغـام بغنـة فی ثلاث حلقات متوالیـة فی قوله تعالی: (لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِینَةٌ وَ تَفاخُرٌ) و هو صوت لذیـذ یشـعر بالاسـتغراق فی حلاوة الـدنیا لعبا و لهوا و زینة و تفاخرا، و کذا الإقلاب فی (وَ تَفاخُرٌ بَیْنَکُمْ) و هو إقلاب نون التنوین میما هی الأنسب للباء بعدها لأنهما معا من مخرج واحد هو الشـفة فکأننا ننطق حرفا واحد بما یقلل من جهد أعضاء النطق، و ییسـر أداء الصوت، و ینقله للأذن حلوا مقبولا، و حرکة الشـفتین مع الإقلاب تشـعر بالتکبر الملابس للتفاخر ناهیک عن الإخفاء فی (وَ تَکاثُرٌ فِی الْأَمْوالِ)، و الإظهار فی: (غَیْثٍ أَعْجَبَ) و لاـ یخفی ارتبـاط المعنی بطریقـة الأداء هنا أیضا. إن الانتقال فی حلقـة الوصل من متحرک إلی متحرک أو من متحرک إلی ساکن سهـل میسور، و هو موجود فی القرآن الکریم و فی کلام العرب، و إذا وجـد المتحرکان أیسـر فی کلام عن کلام آخر، فـذلک یعود إلی نوع الحرکـة أو نوع الحرف المتحرک و طبیعته، و هـذا ما لاحظناه فی جانب من موازنة الرمانی، فالانتقال من الصاد إلی الحاء فی (الْقِصـاصِ حَیاةٌ) أعـدل و أیسـر من الانتقال من اللام إلی الهمزة فی (القتل أنفی) مع أن هـذین متحرکان و هـذین متحرکان، فالفرق راجع لنوع الحرکـة و هی الکسـر مع الصاد، فالانتقال منها إلی الحاء یکون أیسـر و أرق مما لو کانت الصاد مضـمومة أو مفتوحة، لأن فی الکسـر ترقیق یناسب همس الحاء، بخلاف الضم و الفتح ففیهما تفخیم لا یناسب تلک الحاء، هذا فضـلا عما سبق من قرب صفات الحرفیـن و قرب مخرجیهمـا. إعجـاز القرآن و منهـج البحـث عـن التمیز، النص، ص: ۲۷۱ أمـا الانتقال من السـکون إلی الحرکـة فعلیه المعول أکثر فی تمیز الانتقالات القرآنیـة بین الکلمات لما یحـدث فیهما من ظواهر صوتیـة تتصل بالتجویـد مما یؤدی إلی التخفیف و الجمـال الأـدائی، و الإیقـاع النغمی الناشـئ عن الغن و الإدغـام و الإخفـاء ... إلـخ. و هـذا لاـ وجود له مطلقـا فی کلاـم العرب فهو من الإعجاز الظاهر فی الأداء الصوتی الجاذب للمعانی. شواهـد دالـة علی دور التجوید فی تیسیر الأداء و تجمیله: أقرب أنواع الإدغام إلی التمیز المعجز: ۱) إدغام المثلین فی حال الغن: أی إدغام الحرفین المتماثلین فی نهایة کلمة و بدایة أخری، و هو یوجد فی کلام الناس للتخفیف لکن یمیزه فی القرآن الغنـة التی تؤدی إلی جمال الأداء و حلاوته مثل قوله تعالی: (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِیدَکُمْ إِلَّا عَذاباً) [النبأ: ۳۰] و قوله تعالی: (وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِیطٌ) [البروج: ۲۰]. فلو تصورنا (فَلَنْ نَزِیـدَکُمْ) أو (وَرائِهِمْ مُحِیطٌ) فی غیر القرآن مثلا لکان الإدغام موجودا کذلک و لکن من غیر غنة، أما فی القرآن فهی من شروط التلاوة الصحیحة التی تحسن الأداء و تجمله. ۲) إدغام المتجانسین: و هما کل حرفین اتفقا مخرجا و اختلفا صـفة کالدال و الطاء و التاء و الذال و الثاء و الظاء «۱». و لأن الحدیث عن حلقات الوصل بین الکلمات فی القرآن فإن الحـدیث یخص هذه الحروف عند ما یقع أحدها بعد الآخر فی کلمتین متجاورتین و ما یترتب علیه من إدغام لیصـیر الحرفان واحـدا مشددا هو الثانی منهما، مثل قوله تعالی: (وَ ما أَرْسَـلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِیُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَـهُمْ جاؤُکَ) .. [النساء: من الآیة ۶۴] و قوله تعالی: (قَدْ تَبَیَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَیِّ) .. [البقرة: من الآیة ۲۵۶] و قوله تعالی: (أَوْ تَتْرُکْهُ یَلْهَثْ ذلِکَ مَثَـــــــــــلُ الْقَـــــــــــوْمِ الَّذِیـــــــــــنَ کَـــــــــــذَّبُوا) .. [الأـــــــــــعراف: ۱۷۶]

(_____ ۱) أسـس هـذه الأحکـام مفادة من" الوسـیلة لترتیل القرآن "ملحق بالمصـحف المعلم، دار الوسیلة للنشر و التوزیع جدة ۱۴۲۱ ه. إعجاز القرآن و منهـج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۷۲ فإدغام المتجانسـین فی الشواهـد السابقـة یؤدی إلی نطق أیسـر مما لو ترک الحرفین من غیر إدغام، لأن هـذا یکلف الأعضـاء نطـق حرفین، لکن الإدغـام یـؤدی إلی نطق حرف واحـد و هـذا أیسـر للسـان و أخف علی الآـذان و أقبـل للنفس. ۳) إدغام المتقاربین: و ذلک یحـدث فی بعض الحروف التی تتقارب صـفة و مخرجا أو فی أحدهما، کاللام مع الراء فی قوله تعالی: (وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِی عِلْماً) [طه: من الآیة ۱۱۴] فاللام تدغم فی الراء. و مثله إدغام النون فی الراء کقوله تعالی: (جَزاءً مِنْ رَبِّکَ) النبأ، و إدغام التنوین فی الراء کقوله تعـالی: (عَطاءً حِساباً رَبِّ السَّماواتِ) النبأ، فنحن بواسـطة الإدغام نریـح جهاز النطق من رهق حرفین متقاربین إذ یـدغم

الأول منهما فى الثانى إدغاما يفترض التماثل بينهما فيشدد الثانى و نجدنا قد انتقلنا نطقا من الميم إلى الراء المشددة فى (مِنْ رَبِّكَ) كما انتقلنا من الباء إلى الراء فى (حِساباً رَبِّ)، و فى هذا تيسير على اللسان و تخفيف على الآذان و تجميل للأداء، و هو من إعجاز الأداء الصوتى الذى لا نجد له نظيرا فى غير القرآن. و من إدغام المتقاربين نوع يسمى بالإدغام الناقص كإدغام الطاء مع التاء فى كلمة مع بقاء صفة الإطباق كما فى قوله تعالى: (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ) .. [المائدة: من الآية ۲۸] و قوله: (أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ) [النمل: من الآية ۲۲]، و قوله: (وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ) [يوسف: من الآية ۸۰]، و قوله: (يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ) [الزمر: من الآية ۵۶]. فقد أدغمت الطاء فى التاء فى كل هذا و بقيت من الطاء صفة الإطباق، و لذا يشعر الناطق كأنه ينطق الطاء مشددة مع أنها هى المدغمة لأن الأصل أن يدغم الأول الساكن فى الثانى المتحرك. و هنا تلفتنا فوائد جمة لهذا الإدغام منها: تخفيف الأداء تخفيفا ملحوظا، و شتان ما بين الأداء السهل مع الإدغام و الأداء الصعب على اللسان بدونه؛ لأننا بدون الإدغام ننطق بالطاء و التاء معا فنشعر كأننا نهبط من علو إلى سفل فجأة كما ننتقل من جهر إلى همس و من تفخيم إلى ترقيق و هذا أمر ثقيل، و منها: ارتباط هذا الإدغام بالمعنى؛ لأن إدغام الطاء مع بقاء صفتها إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۷۳ و هى الأطباق يؤدى على قوة الأداء و تفخيمه و هذا يتناسب مع ما فى شواهده من تعظيم و تهويل و تفخيم ملحوظ من حال المحكى عنهم فى تلك الشواهد: (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي) قالها الأخ المسالم فى موقف الاستعظام لتهديد أخيه. (وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ) و يا له من تفريط عظيم (أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ) قالها الهدهد لسليمان عليه السلام اعتدادا و تفخيما (يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) يقولها المفرط من عظم الحسرة و الندم. فالأداء المفخم الذى يؤديه الإدغام مع الإطباق يساعد على الإشعار بما فى هذه المعانى من تفخيم و تعظيم، فسبحان من كان هذا الكلام كلامه. - و هناك إدغام متميز آخر ينشأ عند ما يقع بعد النون الساكنة أو التنوين أحد الحروف التالية (ى، ر، م، ل، و، ن) و سواء كان هذا الإدغام بغنة مع (الياء و النون و الميم و الواو) أو من غير غنة مع الراء و اللام، فإنه عموما من خصوصيات القرآن التى تؤدى إلى خفة الأداء على اللسان و يسره فى الآذان و عذوبته للنفوس و الجنان. فمثال الأول (لِمَنْ يَخْشى)، (خُلِقَ مِنْ ماءٍ)، (وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ). و مثال الثانى: (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)، (جَزاءً مِنْ رَبِّكَ) و من الواضح أن الأداء مع الإدغام بغنة يكون أكثر عذوبة بسبب الغنة. و من قواعد الترتيل المؤدية إلى خفة النطق و حلاوته: الإقلاب عند ما يلى النون الساكنة أو التنوين باء فتقلب النون ميما كقوله تعالى: (وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ) [۱۰۴ الإسراء] و قوله: (لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ...) [۱۵ العلق]. و هذا يؤدى إلى أن يكون الحرف المنطوق هو الميم مع الباء و هما معا من مخرج واحد هو الشفتان فيكون نطقهما كنطق حرف واحد و هذا اقتصاد فى حركة أعضاء النطق و تيسير فى الأداء و راحة فيه. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۷۴ و الإخفاء كذلك صورة من صور التخفيف فى الأداء و تقليل الجهد العضلى لجهاز النطق؛ لأن النون أو التنوين مع الإخفاء لا ينطقان نطقا كاملا، و لا يتحرك طرف اللسان بهما ليلتصق مع أصول الثنايا العليا كما هو الأصل عند النطق بهما، و إنما يبقى اللسان فى مكانه مكتفيا بغنة خفيفة يخرج معها الهواء من الخيشوم فى سبيل الوصول إلى الحرف التالى الذى كان سبب الإخفاء و جرب هذا مع قوله تعالى: (أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى) و قوله (عَنْ صَلاتِهِمْ). و استشعر الفرق بين نطق النون مع الصاد بلا إخفاء نطقا يستدعى تحريك عضوين و أداء جهدين، و بين نطقهما بعد إخفاء النون إخفاء يؤدى إلى تحريك عضو واحد بما يؤدى إلى يسر النطق و خفة و عذوبة الأداء المرتبط بالغن عند الإخفاء و ربما يلحظ لهذا الإخفاء ارتباط بالمعنى لأنه يشعر بأن الساهى فى صلاته كأنه فى بعد و جفاء و خفاء عن صلاته، و فى قوله تعالى (عَبَسَ وَ تَوَلَّى* أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى) ربما يشعر الإخفاء فى (أَنْ جاءَهُ) بهمس الآتى و هو يسعى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كما هو شأن الأعمى و هو يتلمس طريقه. أما الإظهار فهو ضرورة ليتحقق تمام إبانة النون و التنوين مع الحروف الحلقية، فبدون الإظهار يضيع الحرف بدون دليل عليه. ناهيك عن التفخيم و الترقيق و القلقلة و المد و القصر ... إلخ، فكلها من خصوصيات الأداء الصوتى المعجز للقرآن الكريم. و أخلص من هذا إلى أن حلقات الوصل فى القرآن من مظاهر إعجازه لتميزها بميزات خاصة فى سلاسة الأداء و خفته و عذوبته و لا سيما النوع الثالث من الحلقات الذى تظهر فيه قواعد التلاوة و التجويد.

خامسا: خصوصیة الفواصل القرآنیة:

اشارة

خامسا: خصوصیة الفواصل القرآنیة: اتجه العلماء إلی تعریف الفاصلة بأنها "کلمة آخر الآیة کقافیة الشعر و قرینة السجع «"۱» لکنهم عند الدرس و الاستشهاد یتجهون إلی أن الفاصلة جملة قصیرة تفید

(۱) الاتقان فی علوم القرآن للسیوطی مطبعة الحلبی ص ۹۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۷۵ فائدة تامة فی نهایة الآیة مثل: (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ)، (أَنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ)، (وَ اللَّهُ لا یُحِبُّ الظَّالِمِینَ) و عند ما تکون تلک الجملة طویلة فإنهم لا یجدون مفرا من عد الکلمة الأخیرة منها هی الفاصلة مثل کلمة (شهیدا) من قوله تعالی (فَکَیْفَ إِذا جِئْنا مِنْ کُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِیدٍ وَ جِئْنا بِکَ عَلی هؤُلاءِ شَهِیداً) [النساء: ۴۱]. و قد لاحظوا أن الفاصلة القرآنیة "متمکنة فی مکانها مستقرة فی قرارها، مطمئنة فی مواضعها، متعلقة معناها بمعنی الکلام کله تعلقا تاما بحیث لو طرحت لاختل المعنی و اضطرب الفهم، و بحیث لو سکت عنها کمله السامع بطبعه «۱». و لیس من غایة البحث هنا تتبع خصوصیات الفواصل و ظواهرها علی سبیل الاستقصاء؛ لأن هذا یحتاج إلی تتبع سور القرآن و استقصاء خصوصیات الفواصل فی کل سورة، لا سیما و أن تلک السور منها المکی و المدنی و الطویل و القصیر و المفصل فهذا یحتاج إلی دراسة مستقلة، و إنما أسعی فی هذا السیاق للوقوف علی أهم خصوصیات الفاصلة التی تمیزها عن قوافی الشعر و قرائن السجع، و من ذلک:

۱- تحقیق التوازن بین الغایة الصوتیة و الغایة المعنویة:

۱- تحقیق التوازن بین الغایة الصوتیة و الغایة المعنویة: الفواصل القرآنیة لیست لمجرد تحقیق التوازن الصوتی و وحدة النغم من توافق نهایات الآیات، و یدل علی هذا أن کثیرا من سور القرآن لا تلتزم وحدة الفواصل دائما، بل قد تجد فی السورة الواحدة ضروبا من الفواصل، و لا یغرنک تفسیر بعضهم بعض الظواهر البلاغیة بأنها لمراعاة السجع کالتقدیم و الحذف ... إلخ و إنما تأتی تلک الظواهر لغایة معنویة مع ما فی ضمنها من رعایة الفاصلة، فلا یمکن إغفال الجانب اللفظی لکن فی ضمن الغایة المعنویة الأساس بحیث تحدث المیزتان (اللفظیة و المعنویة) ضربة واحدة. و إنما تعددت الأقوال حول أیهما هو المقصود الأهم تبعا لتفاوت الاهتمامات و تعدد روایا الرؤی، فمن یستغرق فی المعنی و یکون هو شاغله الأکبر یری أن

(۱) نفسه؟؟؟. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التمیز، النص، ص: ۲۷۶ الغایة المعنویة للفواصل القرآنیة مقدمة علی الغایة اللفظیة کما یفهم من اتجاه الرمانی فی النکت، و من یستهویه الأداء الصوتی حتی یکون استغراق حواسه مع الأداء الصوتی أکبر من استغراق فکره فی المعانی یحکم تلقائیا بتقدم الغایة اللفظیة للفواصل علی الغایة المعنویة کما یفهم من اتجاه ابن الأثیر، أما من یتوازن انشغاله بالمعانی مع إحساسه بالجانب الصوتی فإنه یری تساوی الأمرین فی الأهمیة، و هو اتجاه بعض المفسرین کأبی السعود الذی یفسر التقدیم فی قوله تعالی: (إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ) بأنه للتخصیص مع ما فی ضمنه من رعایة الفاصلة، و هذا تفسیر الذی یری تساوی الجانب المعنوی مع الجانب اللفظی فی الأهمیة، و أن هذا فی ضمن ذاک، و هذا هو الاتجاه الموفق. أما القوافی فی الشعر و قرائن السجع فی النثر فنادرا ما تجد هذا التوازن متحققا؛ لأن الجانب اللفظی هو الغایة الأصیلة فیهما، و لیس أدل علی هذا من أن وحدة القافیة من مقومات الشعر فی القصیدة و أن هذا ما یمیز الشعر عن النثر مما یقطع بأن القافیة فی الشعر ذات غایة شکلیة فی المقام الأول، و أنها إن جاءت ذات دلالة مکملة للمعنی فی البیت، فإن هذه غایة ثانویة تالیة للغایة اللفظیة. و لیس کذلک الأمر فی الفواصل القرآنیة، فلیس الجانب اللفظی و التوافق الصوتی هو الغایة الأساس فیها بدلیل بعض سور القرآن التی لم تعتمد توافق الفواصل مثل سورة (ق) التی تتنوع فواصلها من کلمات

تنتهى تارة بحرف الدال و تارة بحرف الباء و تارة بالجيم، و تارة أخرى بحرف الظاء. و يترتب على هذا الفرق ظاهرة موجودة فى الشعر و لا وجود لها فى الفواصل القرآنية هى الاجتلاب، فلما كانت الغاية الصوتية هى الأساس فى وحدة القوافى ترتب على هذا أن بعض الشعراء يضطر إلى اجتلاب قافية لا حاجة للمعنى إليها لمجرد اتفاق القوافى، و لا تجد فى القرآن الكريم فاصلة واحدة جاءت لمجرد توافق الفواصل، و إنما تجد الفاصلة دائما متمكنة فى مكانها مستقرة فى قرارها متعلقة معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما كما ورد فى عبارة السيوطى التى سبقت. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۷۷ و ما قيل عن الشعر ينسحب على النثر المسجوع و إن لم يكن السجع شرطا لإقامة النثر الفنى، لكن الدرس الموضوعى المتتبع لنماذج نثرية مسجوعة مهما كان مستواها من القوة يجد الجانب اللفظى له الصوت الأعلى و الغاية المقدمة، كما لا يخلو من الاجتلاب الذى نجده فى الشعر.

۲- إطراد التناسب المعنوى بين الفاصلة القرآنية و بين آيتها:

۲- إطراد التناسب المعنوى بين الفاصلة القرآنية و بين آيتها: لا تخلو فاصلة قرآنية من مناسبتها لمعنى آيتها، و تعلق معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما، و المتتبع للآية القرآنية يجد سائر معناها يتدفق بقوة نحو الفاصلة ليدل عليها و يومئ بها و يجعل المستمع إن أحسن المتابعة يتوقع الفاصلة و يهجس بها خاطرة، بل قد تجرى على لسانه قبل الاستماع إليها، و قد وقع هذا مع الصحابة رضوان اللّه عليهم إذ يروى عن زيد بن ثابت رضى اللّه عنه قال "أملى علىّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الآيات عند ما نزلت: (وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ) [المؤمنون: ۱۲- ۱۴ "]. فقال معاذ بن جبل و كان جالسا: (فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ) فضحك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فقال معاذ: ممّ ضحكت يا رسول اللّه؟ قال: بها ختمت «"۱»». و لعل حسن المتابعة للفواصل السابقة للآية و حسن متابعة معنى الآية مما يساعد على توقع الفاصلة اللاحقة، و هذا يذكّر بما اطمأنت إليه النفس فى درس الإرصاد من تحقق مفهومه فى سائر الآيات القرآنية «۲» و قد عرفوا الإرصاد بأنه أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروى كقوله تعالى: (ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [العنكبوت: من الآية ۴۰]. و قول زهير:

(_____ ۱) الإتقان ۱۰۱. (۲) راجع من وجوه تحسين الأساليب فى ضوء بديع القرآن "للمؤلف ۱۳۶. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۷۸ سئمت تكاليف الحياة و من يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم «۱» و قد علق الخطيب استنتاج العجز- من فاصلة و غيرها- على معرفة روى فواصل الآيات السابقة أو روى قوافى الأبيات السابقة و لم يكتف بوجود ما يدل على العجز من نفس البيت أو الآية. و سعد الدين التفتازانى يعلل هذا و هو يتحدث عن الإرصاد فى قوله تعالى: (وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [يونس: ۱۹]. يقول "فإنه لو لم يعرف أن حرف الروى هو النون لربما توهم أن العجز هاهنا فيما هم فيه اختلفوا أو فيما اختلفوا فيه «"۲»». يعنى مع وجود لفظ فى صدر الآية يدل على ما ذا تكون الفاصلة فإن معرفة روى الآيات السابقة ضرورى حتى تعرف صيغة الفاصلة بالتحديد، و أنها (يَخْتَلِفُونَ) و ليست (اختلفوا) مثلا. و قد اكتفى الخطيب و السعد فى الإرصاد بما كانت دلالته على الفاصلة لفظية، و أضاف السيوطى نوعا آخر يميز الإرصاد عن التصدير "رد الأعجاز على الصدور "و هو ما كانت دلالته على الفاصلة معنوية كقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ) [آل عمران: ۳۳]. فإن الاصطفاء يدل على أن الفاصلة (الْعالَمِينَ) لا باللفظ لأن لفظ (العاملين) غير لفظ (اصطفى) و لكن بالمعنى؛ لأنه يعلم من جهته أن من لوازم اصطفاء شىء أن يكون مختارا على جنسه، و جنس هؤلاء المصطفين (العالمون) «۳». و أكثر فواصل القرآن من هذا النوع الذى تجد المناسبة فيه معنوية فهى إضافة لها قيمتها و قد أفادها السيوطى من أبى هلال الذى يعرّف الأرصاد بأنه "أن يعرف السامع مقطع الكلام من معنى ما قبله لأن ذكره لم يجر فيما تقدم كقوله تعالى: (ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

[يونس: ۱۴ (_____]. ۱) الإيضاح بتعليق البغية ج ۴/ ۲۱. (۲) المطول دار الكتب العلمية، بيروت طبعة أولى ۱۴۲۲ ه/ ۲۰۰۱ م. (۳) شرح عقود الجمان للسيوطى ۱۱۰. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۷۹ فإذا وقف على قوله: (لننظر كيف) مع ما تقدم من قوله: (جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ) علم أن بعده (تعملون) أو تصنعون أو ما هو فى هذا المعنى، لأن سائر الفواصل القرآنية متمكنة فى مواقعها قارة فى أماكنها تناسب معنى آياتها حتى تجد معنى الآية يتجه إليها و ينبئ عنها إذا حسن التتبع. و ربما خفى التناسب حتى يعسر على المتابع استنباط الفاصلة قبل مجيئها حتى إذا أمعن النظر و وقف على الفاصلة وجدها تتفاعل مع معنى ما سبقها كقوله تعالى: (قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) [هود: ۸۷]، فكان مقتضى الظاهر أن تكون الفاصلة من نوع الاتهام الظاهر فى أهليته للرسالة بعد هذا الاستفهام الذى يحمل كثيرا من التهكم و الإنكار و الرفض، لكن الفاصلة اتجهت اتجاها آخر على خلاف التوقع: (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) فربما كان اتهاما مغلّفا من التعبير عن الشىء بضده على سبيل التهكم، و هذا ينسجم مع المقصود بالاستفهام، و ربما كان ظاهر الفاصلة مقصودا على سبيل الاستدراج و الاستمالة، و على أساس هذا خرّج السيوطى مناسبة الفاصلة، لما قبلها فقال "فإنه لما تقدم فى الآية ذكر العبادة و تلاه ذكر التصرف فى الأموال اقتضى ذلك ذكر الحلم و الرشد على الترتيب؛ لأن الحلم يناسبه العبادات و الرشد يناسبه الأموال. و مما جاءت الفاصلة على خلاف ظاهر ما قبلها و تحتاج إلى مزيد من التأمل قوله تعالى: (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [المائدة: ۱۱۸]، فكان الظاهر أن يقول: و إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، و لكن المعنى أعمق مما طمحت إليه أبصارنا، فإن الحديث عن الناس الذين اتخذوا عيسى و أمه إلهين، و كان عيسى عليه السلام يستشفع لهم على و جل، لأنهم ليسوا أهلا لذلك بعد ما أشركوا، و لذلك فإن الأنسب للفاصلة أن تلتفت إلى ما بدأت به الآية و هو العذاب الذى يناسبه العزة و القوة و الحكمة، و يحتمل التوجيه معنى آخر يلتفت إلى ما جاور الفاصلة من مغفرة "لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا عزيز لا يرد حكمه، حكيم يصنع الأمور فى نصابها. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۸۰ و هذه الشواهد على قلتها تدل دلالة صادقة على عموم تناسب الفواصل مع آياتها سواء فى ذلك ما قرب من أفهامنا فاتضح لنا أم ما غمض على مداركنا فاحتاج إلى مزيد من التأنى و التأمل، و لا توجد فى القرآن الكريم فاصلة واحدة مجتلبة لأن القرآن كتاب دعوة و تشريع، و بلاغة الأداء فيه وسيلة لتحقيق الغايات الدينية مع أنه بلغ فى تلك البلاغة إلى الذروة حتى كان معجزا. و هذا بخلاف قوافى الشعر و قرائن النثر فإنها لا تقرب من ذلك المستوى، و لا تخلو من الاجتلاب و التذبذب فى المستوى. و إذا أردنا الوثوق من هذا فلنأخذ نموذجا من النثر الفصيح الذى ظن الناس أنه معارضة للقرآن لنرى ما فيه، و ليكن من الفصول و الغايات لأبى العلاء «۱». و هذا المؤلف تتباين فقراته و يتذبذب مستوى فصوله و غاياته ما بين الجيد و غيره، فممّا حسنت أصواته و تفككت معانيه قوله "أحلف بسيف هبّار و فرس ضبّار، يدأب فى طاعة الجبار، و بركة غيث مدرار ترك البسيطة حسنة الحبار، لقد خاب مضيّع الليل و النهار فى استماع القينة و شرب العقار، أصلح قلبك بالأذكار، صلاح النخلة بالإبار «"۲». فتبدو البداية دالة على عدم قصد المعارضة و إثبات التأدب مع القرآن بمخالفة طريقة فى القسم فلا يقول و السيف الهبار مثلا- على طريقة قسم القرآن، و إنما يقسم بطريقة ليس لها وجود فى القرآن هى "أحلف "ثم إن هناك فرقا آخر هو أن فواصل القرآن سهلة ميسّرة المعانى لا- غرابة فيها، و لكن أسجاع أبى العلاء فى أكثر الأحيان غريبة بما يدل على أنها لم تكن ميسورة له بالألفاظ المألوفة، فلم يجد بدّا من البحث فى قاموس الكلمات الغريبة، و هذا دأبه فى كثير من رسائله (_____ ۱) نفى محققها الأستاذ محمود حسن زناتى تلك المعارضة و يقول "أما القول بأنه قصد مجاراة القرآن الكريم أو معارضته، فذلك من قول حساده، و كيف يريد ذلك و هو يمجد اللّه فيه أحسن تمجيد و أروعه و يقر له بالعبودية و العجز "ص ۷. (۲) الفصول و الغايات فى تمجيد اللّه و المواعظ للمعرى تحقيق محمود زناتى. الهيئة العامة ۱۹۷۷ م. ص ۱۱. و الهبار: القاطع، الضبار: الذى إذا وثبت وقعت يداه مجتمعتين، الحبار: الأثر و

الهيئة، و الإبار: إصلاح النخل و الزرع. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۸۱ و فصوله، ثم إن معانى الجمل المسجوعة فى الفقرة السالفة تفتقد التناسق أحيانا، فلا تجد مثلا صلة متينة بين أجزاء المقسم به كالسيف الهبار و الغيث المدرار ثم لا تجد صلة بين المقسم به و المقسم عليه كما تجدها فى القرآن الذى لا- يقسم إلا إذا كانت هناك صلة و مناسبة بين المقسم به و المقسم عليه. ثم إنك ترى فى كثير من فصوله تعمد الصنعة و إظهار البراعة الفنية و من مظاهره الإفراط فى البديع الذى لا يأتى عفوا بحسب حاجة المعانى، و إنما يتعسفه أبو العلاء تعسفا، من ذلك قوله يجمع بين الجناس و السجع "اللهم اجعل ذكرك عذبا على عذبة لسانى، و مخلّدا طول حياتى فى خلدى، و نفسا عند الكربة لنفسى، و منبطا للحكمة فى قليب قلبى «"۱»». و الحق أن أبا العلاء كان فى نثره أقل منه بكثير فى شعره، فلنأخذ نموذجا من شعره لننظر فى مدى تمكن القوافى و مدى تحقق التوازن بين الغاية اللفظية و المعنوية، يقول فى الرثاء: غير مجد فى ملتى و اعتقادى نوح باك و لا ترنّم شادى و شبيه صوت النعىّ إذا قى س بصوت البشير فى كل نادى أبكت تلكم الحمامة أم غ نّت على فرع غصنها الميادصاح هذه قبورنا تملأ الرح ب فأين القبور من عهد عاد خفف الوطء ما أظن أديم ال أرض إلا من هذه الأجساد و قبيح بنا و إن قدم العهد هوان الآباء و الأجداد سر إن استطعت فى الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العباد رب لحد قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد و دفين على بقايا دفين فى طويل الأزمان و الآباد فاسأل الفرقدين عمن أحسّ ا من قبيل و آنسا من بلاد كم أقاما على زوال نهار و أنارا لمدلج فى سواد

(_____ ۱) الفصول و الغايات ۲۲۳، و عذبة اللسان: طرفه، و الخلد: النفس، منبطا: مستخرجا. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۸۲ تعب كلها الحياة فما أع جب إلا من راغب فى ازدياد إن حزنا فى ساعة الموت أضعا ف سرور فى ساعة الميلاد خلق الناس للبقاء فضلّت أمة يحسبونهم للنفاد إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد ضجعة الموت رقدة يستريح ال جسم فيها و العيش مثل السهاد «۱» فهذه القصيدة من عيون الشعر العربى و مع ذلك لم تخل مما يشى بمحدودية الإبداع البشرى، و حسبنا فى هذا السياق أن نقف على بيت واحد ذى قافية مجتلبة ليكون دالا على وقوع هذا العيب عند كبار الشعراء و دالا على أن الغاية اللفظية هى الأساس فى قوافى الشعر، ذلك قوله: و دفين على بقايا دفين فى طويل الأزمان و الآباد فقد اكتمل المعنى عند قوله "الأزمان "فلما أراد تكملة القافية لم يجد بدّا من اجتلاب لفظ لا يزيد فى المعنى و لا يضيف جديدا هو "الآباد "و هذا يدل عموما على أن قوافى الشعر لغاية صوتية موسيقية بالدرجة الأولى بخلاف فواصل القرآن، فإنها تأتى لغايات معنوية تتوازن مع الغايات الصوتية، و لا تجد فاصلة قرآنية إلا و هى قارة فى موقعها مرتبطة بمعنى آيتها و سياقها (_____ ۱) سقط الزند لأبى العلاء، دار بيروت، للطباعة و النشر، ۱۴۰۰ ه- ۱۹۸۰ م. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۸۳

سادسا: خصوصية بناء السورة القرآنية:

اشارة

سادسا: خصوصية بناء السورة القرآنية: السورة القرآنية وحدة من وحدات الكيان النصى الكلى للقرآن الكريم، و هى تتميّز فى بنائها عن بناء أى وحدة نصية مكتملة من كلام البشر سواء كان ذلك قصيدة أم رسالة أم خطبة .. أم غير ذلك من أجناس الكلام المعروفة، و لا- يخفى هذا على ذوى البصيرة بأجناس الكلام الفصيح من نقاد الأدب. و لكن أصحاب المناهج العلمية لا يكتفون بالإدراك البدهى حتى يثبت ذلك عندهم بالدرس الموضوعى، و لعل أول من تناول وحدة كاملة من القرآن تتمثل فى السورة، و وحدة كاملة من الإبداع البشرى يتمثل فى القصيدة كان هو الباقلانى فى محاولة انفرادية لكل منهما بالتحليل الذى يسعى إلى هدف معين هو أن النتاج البشرى مهما سما لا يسلم من الضعف و القصور و عدم الاستواء، و أن كلام اللّه سبحانه لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من

خلفه، و أن السورة القرآنية مهما تعددت معانيها يجمع بينها رابط متين، و تتميز باستواء النسج و عدم تفاوت السبك، و قد تجنب الباقلانى كلمة موازنة، و لهذا ساغ له أن يتجاوز ما ينبغى فى الموازنة من أسس و اعتبارات كوحدة معانى النصّين أو تقاربهما على الأقل، و لم يكن من همه المقارنة بين جملة و جملة أو بين معنى و معنى، و لكن اقتضى هدفه المنحصر فى البحث عن مدى سلامة التعبير و النظم و مدى تكامل و ترابط البناء أن لا يضع النص إلى جانب النص، و كان تناول كل نص بمعزل عن النص الآخر. و بغض النظر عن المآخذ التى توجهت إليه للتعسف مع الشعر، و التعامل معه بفكره المجرد، فإننا لا ينبغى أن نهمل نقطة مضيئة فى منهجه و هى النظرة الكلية لبناء نصى مكتمل فى السورة القرآنية أو فى قصيدة كاملة. و من المفسرين من حاولوا فى أثناء تفسيرهم أن يقفوا على ترابط معانى السورة القرآنية و أن لكل سورة سياقا و مقاما و مقاصد معينة كالرازى، و كالبقاعى الذى ظهر اهتمامه كثيرا بهذه النواحى، لكن اهتمامه بترابط معانى السورة يمثل اهتماما جزئيا بترابط البناء فيها، لأن الكشف الكامل عن ترابط البناء إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۸۴ و خصوصياته يستلزم الوقوف على أهم ملامح البناء فى سائر السورة و أهم ملامح الإيقاع فيها، فضلا عن كيفيات ارتباط و اتصال المعانى. و مع ذلك فيمكن اعتماد أساس البحث عن بناء السورة القرآنية من واقع مقاييس البلاغيين فى حسن الابتداء و التخلص و الانتهاء، و الإرصاد و التصدير و أبرز خصوصيات النظم، مع البحث عن أهم خصوصيات الإيقاع المستمد من داخل بناء الآيات و فواصلها.

۱- فواتح السور:

۱- فواتح السور: جاءت فواتح سور القرآن بطريقة لا عهد للعرب بها فى ابتداءات كلامهم، كابتداء سور بالتسبيح (الأعلى و الإسراء و الحشر و الصف و الجمعة و التغابن) و ابتداء سور بالحمد (الكهف و الأنعام و سبأ و فاطر و الفاتحة)، و ابتداء سور بالتمجيد و التعظيم (الملك و الفرقان). و لم يكن لهذا مثيل عند العرب فى ابتداء قصائدهم و لا خطبهم، و ربما وجد شىء من هذا بعد نزول القرآن على سبيل التأثر و الاقتباس كابتداء خطب الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و خطب الصحابة بالحمد للّه رب العالمين. ناهيك عن خصوصية أخرى فى ابتداء كثير من السور لم توجد فى ابتداء أى كلام لهم لا قبل نزول القرآن و لا بعده، و ستظل شاهدا قائما على التحدى و الخصوصية، و هى الابتداء بحروف التهجى أو الحروف المقطعة، و سميت بهذا الاسم بالنظر إلى أن أكثرها ينطق كاملا بالطريقة المعروفة فى حروف التهجى ففى نحو: (الم)/ تنطق: ألف/ لام/ ميم (الر)/ تنطق: ألف/ لام/ را (المص)/ تنطق: ألف/ لام ميم/ صاد إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۸۵ و إذا وجد منها حروف ممدود فإنه يقصر تخفيفا كما ورد فى نطق الحواميم التى تبدأ ب (حم)، فإنها تنطق حا ميم. و (طس)/ تنطق: طا/ سين و (يس)/ تنطق: يا/ سين و قد تجد زيادة فى نطق الحرف عن نطقه المعروف فى حروف التهجى كما فى بداية مريم و الشورى: الأولى: كهيعص/ تنطق: كاف/ ها/ يا/ عاين/ صاد فالعين هو الحرف الوحيد الذى نطق بزيادة عن نطقه المعروف و السورة الوحيدة التى بدئت بآيتين من حروف التهجى هى سورة الشورى: (حم) آية و (عسق) آية، مع نطق العين بزيادة كالعين فى بداية سورة مريم. و بهذا يتبين أنه ليست هناك طريقة موحدة فى نطق جميع تلك الحروف، لكن نطقها الذى عرفناه كان بوحى تلقاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن جبريل، و نطقها الصحابة نقلا عن رسولهم، و تواتر هذا النطق حتى وصل إلينا بتلك الطريقة. و المهم أن بداية كثير من سور القرآن بهذه الحروف من شواهد التحدى و الإعجاز الظاهرة لعدم وجود نظير لها فى ابتداء كلام العرب. و قد سجل العلماء ابتداء بأبى هلال اهتمامهم بهذه الابتداءات القرآنية و عدوها من بديع القرآن أو من بدائعه «۱»، و اتفقوا على أن ابتداء بعض السور بها للإيقاظ و التنبيه لما بعدها، و لم يحفل بعضهم بالبحث عن سر تخصيص سورة بحروف معينة كأبى السعود الذى يقول "و تخصيص كل منها- أى هذه الحروف- بسورتها مما لا سبيل إلى المطالبة بوجهه «۲» لكن بعضهم التمس تلك المناسبة كالسيوطى الذى نقل عن صاحب البرهان قوله "و اختصاص كل واحدة بما بدئت به لمناسبتها إياه، فحق لكل سورة أن لا يناسبها غير الوارد فيها، فلو وضع (ق)

(_____ ۱) راجع الصناعتين ۴۵۷ و الإتقان للسيوطى ۱۰۵. (۲) إرشاد العقل السليم ۱/ ۱۷ إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۸۶ موضع (ن) لعدم التناسب مراعاته فى كلام اللّه، و سورة (ق) بدئت به لما تكرر فيها كثير من الكلمات بلفظ القاف من ذكر القرآن و الخلق و تكرير القول مرارا و القرب من ابن آدم و تلقى الملكين، و قول العتيد و الرقيب و السائق و الإلقاء فى جهنم، و قد تكرر فى سورة يونس من الكلمة الواقعة فى بدايتها (الر) مائتا كلمة أو أكثر، فلهذا افتتحت بها، و اشتملت سورة (ص) على خصوصيات متعددة، و (الم) جمعت المخارج الثلاثة- الحلق و اللسان و الشفتين- على ترتيبها، و ذلك إشارة إلى البداية التى هى بدء الخلق، و النهاية التى هى بدء الميعاد، و الوسط الذى هو المعاش الذى يحتاج إلى تشريع بالأوامر و النواهى «۱» و كل سورة افتتحت بها (الم) فهى مشتملة على الأمور الثلاثة. و سورة الأعراف زيد فيها الصاد على (الم) لما فيها من قصص و لما فيها من قوله: (فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ) «۲». و على قيمة هذا الكلام و دلالته على عمق التأمل و طوله، فإن كثيرا من العلماء آثروا الوقوف عند قول أبى بكر رضى اللّه عنه": إنها- أى هذه الحروف- سر القرآن "و قول الشعبى: إنها سر اللّه عز و جل فلا تطلبوه. "و أكد ابن كثير هذا بملاحظة أن مجموعة هذه الأحرف بعد حذف المكرر منها أربعة عشر حرفا يجمعها قولك ":نص حكيم قاطع له سر «"۳». و مع التسليم بهذا فإنه لا يعنى الكف عن البحث عن هذا السر، و الذى يعنينا فى هذا المجال أن بداية كثير من سور القرآن بهذه الأحرف من مظاهر الإعجاز لعدم وجود نظير له فى ابتداءات كلام العرب لا قديما و لا حديثا.

(_____ ۱) هذا يعكس اهتمام العلماء بمخارج تلك الحروف و دلالاتها فى سورها. (۲) الاتقان ۱۰۵. (۳) تفسير القرآن العظيم ۱/ ۳۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۸۷

۲- مدى التناسب بين الابتداء و سائر البناء:

۲- مدى التناسب بين الابتداء و سائر البناء: عند النظر إلى ابتداءات السور عموما نجد لكل سورة خصوصية فى ابتدائها، و أن هذا الابتداء يرتبط بما بعده مبنى و معنى بحيث يحتاج إلى دراسة موضوعية مستقصية، تتبع ابتداءات السور و كيفيات ارتباط هذه الابتداءات بما بعدها و تنوع هذه الروابط و مظاهرها. و على هذا فليس من الحكمة التعميم من خلال سورة واحدة، و ليس من الموضوعية أن يدرس الابتداء وحده بمعزل عن سائر أبنية السورة؛ لأنه جزء من كل متماسك ينفعل به و يتناسق معه و يعطيه و يأخذ منه. و اللافت أن من السمات التى يمكن أن تطرد فى هذا المجال: بداية السورة القرآنية بالمعنى المحورى الذى تدور حوله سائر معانى السورة، إذ يبدأ مجملا فى الآية الأولى وحدها أو فى عدة آيات فى الصدر، ثم يتفرع ذلك المحور تفريعات عدة، تتفرق لتتجمع مرة ثانية و ثالثة، بحيث يطل ذلك المعنى المحورى مرات متعددة و لا سيما عند ما تطول السورة، حتى تصب المعانى إليه فى النهاية، سواء كان هذا بشكل ظاهر صريح أم كان خفيا يحتاج إلى إمعان النظر، و اللافت أنه فى كل مرة يطل فيها ذلك المحور نجد معه فائدة جديدة مرتبطة بالسياق الجديد أو الغرض المتجدد، و ذلك على اعتبار أن السورة تتكون من أغراض عدة تدور فى إطار ذلك المعنى المحور أو أن السورة تتكون من عدة سياقات تدور فى إطار مقام عام. و هذه الخصوصية التى تتعلق بالمعنى المحورى لا تجدها فى أى جنس من الأجناس الأدبية فى الشعر أو النثر.

۳- عناصر البناء المكملة:

اشارة

۳- عناصر البناء المكملة: هناك عناصر مكملة للابتداء لا مفر من الوقوف معها حتى تتم دراسة بناء السورة ما أمكن، هذه العناصر- كما لاحت- هي: أ- خط سير المعاني و حلقات اتصالها و ليكن هذا في سورة طه. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۸۸ ب- عوامل تماسك البناء، و ليكن هذا من خلال سورة الأنبياء. ج- تفاوت وضوح الصلات بين المعاني، و ليكن هذا من نماذج في سور عدة. د- ظواهر الصياغة و الإيقاع اللافتة، و ليكن هذا في سورة (المؤمنون). و مع إمكان دراسة هذه الزوايا في سورة واحدة فإني آثرت تعديد مجالات التطبيق، ثم إن هذا هو ما تيسر بحسب الظهور الأقوى لكل زاوية، فالأولى ظهرت لي بشكل أبين في سورة طه، و الثانية ظهرت لي بشكل أبين في سورة الأنبياء، و هكذا ..

أ- حلقات اتصال المعاني في سورة طه:

اشارة

أ- حلقات اتصال المعاني في سورة طه: ما سماه علماء البلاغة بالتخلص من معنى إلى معنى أو الخروج و الانتقال يمكن تسميته بحلقات وصل المعاني، و حلقات وصل المعاني في القرآن أمرها عجب و يمكن تتبعها و توصيفها سورة سورة، و قد لاحظت و أنا أقرأ سورة (طه) و أتتبع خط سير المعاني فيها، أن السورة تنتقل من معنى إلى معنى بواسطة حلقات في غاية القوة بحيث لا يشعر معها المتابع بأي هوة أو انفصال و إنما يجد اتصالا مستويا متماسكا و أن هذه الحلقات تأتي على أنواع عدة منها:

- استمرار الخطاب:

- استمرار الخطاب: كما في قوله تعالى: (وَ هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى) [طه: ۹] فهذا انتقال من معان سبقت و فيها خطاب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من بداية السورة (طه [۱] ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى) [۲] إلى قوله: (وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى) [۷] فقد انتقل إلى قوله: (وَ هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى) و هو انتقال من أسلوب إلى أسلوب «۱» و من معنى إلى معنى، لكن حلقة الوصل ظاهرة بين المنقول عنه و المنقول إليه و هي ضمير الخطاب في الكلامين و الذي يعود لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بما يؤذن باستمرار الخطاب، فضلا عن الروابط الأخرى الممتدة في سلسلة المعاني اللاحقة و التي تجد

(_____ ۱) أي الانتقال من أسلوب خبري إلى أسلوب إنشائي. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۸۹ منها قوله تعالى لموسى الذي انتقل الخطاب إليه دون أن نشعر (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) [طه: ۱۴] و قد سبق في المنقول عنه قوله تعالى في خطاب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم (اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى) [طه: ۸]. بما يشير إلى أن ذلك خروج من تقرير حقيقة الوحدانية في الرسالة الخاتمة إلى ما كان مثلها في الرسالات السابقة، و فيه إشارة صريحة إلى أن جوهر الرسالات واحد و هو الدعوة إلى وحدانية الخالق سبحانه. و نجد حلقة وصل تالية بالطريقة نفسها و هي استمرار الخطاب، من قوله تعالى: (فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى) [طه: ۱۶] إلى قوله تعالى: (وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى [طه: ۱۷] فهذا انتقال من أسلوب إلى أسلوب «۱» و من معنى إلى معنى، و حلقة الوصل هي استمرار خطاب موسى عليه السلام، و انتقال من مقام النبوة و الوحي إلى مقام الرسالة و التبليغ، مع البداية في هذا المقام بالإعداد للتبليغ بما يزيل الهيبة و الرهبة.

۲- إعادة فعل سابق مع استئناف كلام جديد:

۲- إعادة فعل سابق مع استئناف كلام جديد: كقوله تعالى: (اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى* فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى) [طه: ۴۳، ۴۴]، بعد عدة آيات تبدأ بقوله: (اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى) [طه: ۲۴] فهذا الأمر لموسى عليه السلام الذى دعا ربه بعدة أشياء منها أن يشدّ أزره بهارون أخيه، فلما استجاب اللّه سبحانه له تطلب الموقف الجديد استئناف الأمر بالذهاب لهما معا مع توصيات إضافية.

۳- الاستطراد بواسطة الإبدال:

۳- الاستطراد بواسطة الإبدال: ذلك فى حلقة تالية من قوله تعالى: (قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى* قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى فِى كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّى وَ لا يَنْسى) [طه: ۵۱- ۵۲]، فقد انتهى جواب موسى عليه السلام عند هذا المعنى، لكن مهمة الرسول اقتضت أن ينتهز الفرصة إلى استطراد حسن يقتضيه الموقف و يستدعيه اللفت إلى نعم اللّه سبحانه، (_____۱) لأنه انتقال من النهى عن الغفلة عن الساعة إلى الاستفهام. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۹۰ و ذلك بواسطة الإبدال من (ربى) إلى قوله بعده (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى* كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِى النُّهى) [طه ۵۳، ۵۴]. ثم عاد إلى السياق الأصلى بقوله: (وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى) [طه: ۵۶]، و هذا كالاستطراد على لسان يوسف عليه السلام عند ما قصّ تأويل رؤياهما بقوله: (قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ) [يوسف: ۳۷]، حتى يصل إلى قوله: (يا صاحِبَىِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ) [يوسف: ۳۹]، ثم عاد إلى السياق الأصلى بقوله: (يا صاحِبَىِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْراً) ... [يوسف: ۴۱].

۴- الاستطراد داخل الاستطراد:

۴- الاستطراد داخل الاستطراد: فقد سبق أن قوله سبحانه: (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً) ... [طه: ۵۳] استطراد حسن بالإبدال يتضمن اللفت إلى قدرة اللّه سبحانه التى ينبع منها النعم (كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِى النُّهى) [طه: ۵۴] لكنه قبل أن يعود إلى السياق الأصلى استطرد داخل هذا الاستطراد إلى الاستدلال على البعث الذى ينكرونه بقوله: (مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى) [طه: ۵۵]، و قد ربط بين هذا الاستطراد "الثانى "و بين إطاره بواسطة ثلاثة ضمائر مجرورة (منها ... و فيها ... و منها) و كلها تعود إلى الأرض التى سبق ذكرها فى بداية الاستطراد الأول مما جعل ذلك البرهان العقلى إضافة منسجمة مع ما سبقها من آيات دالة على وجود الخالق سبحانه و قدرته و نعمة (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى) [طه: ۵۳]. و تفرّع الاستطراد من استطراد لم يمنع من ترابطهما حتى تجدهما قد؟؟؟ صبّ فى قالب واحد متفرع من السياق الأصلى الذى يشكل أساس البناء و هو الحوار المحتدم فى أول لقاء بين موسى عليه السلام و فرعون، ثم يعود إلى السياق إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۹۱ الأصلى الذى يلخص نتيجة ذلك اللقاء: (وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى) [طه: ۵۶]. و لا شك فى أن تعدد الاستطراد و توالية دون انفلات خيط المعنى و دون تأثير على بناء الكلام مما لا

تجده أبدا فى كلام بشر. و يتكرر الاستطراد حين تمضى قصة موسى مع فرعون حتى قول السحرة: (إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى) [طه: ۷۳]، فههنا انتهى كلام السحرة، لكنه استطرد منه استطرادا حسنا يقتضيه الموقف بمقابلة محكمة بين مصير مرهوب و مصير مرغوب، فى رمز لطيف إلى الفرق بين موقف فرعون و بين موقف السحرة الذين آمنوا بموسى، ذلك فى قوله تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى* وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى* جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى). ثم يعود إلى السياق الأصلى فى القصة بقوله: (وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِى ...) [طه: من الآية ۷۷]. هكذا كثيرا ما يتخلل الأسلوب الحكائى للأحداث تفريعات استطرادية بأسلوب الخطاب يقصد منها الإرشاد أو التنبيه أو التذكير أو التحذير أو بهذين معا كقوله تعالى بعد حكاية غرق فرعون و جنوده، و قبل استئناف قصة موسى عليه السلام، يقول سبحانه فى خطاب بنى إسرائيل على سبيل التذكير بنعمة ربهم حتى يشكروها و التحذير من الكفران و الطغيان: (يا بَنِى إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى* كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوى) [طه: ۸۰- ۸۱]. و لا نستطيع عدّ هذا من الاستطراد الخالص؛ لأن فى داخله جزءا من نسيج الأحداث التالية بعد النجاة من فرعون (وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنا إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۹۲ عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى* كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوى). فهذا من عجيب تفريعات القرآن التى يمتزج فيها الاستطراد لغرض ما بصلب البناء و صميم الأحداث، و هو من خصوصيات البناء القصصى فى القرآن التى تتبع من طبيعة القصص القرآنى، فليس هو مجرد سرد أحداث و ذكر تاريخ، و لكن يأتى ما يأتى منه لغايات و عبر، و لهذا فلا عجب أن تختلط فيه العبرة مع الحدث دون إخلال بتواصل الأحداث.

۵- الانتقال بواسطة "كذلك:"

۵- الانتقال بواسطة "كذلك: "من أبرز وسائل الانتقال من مضمون إلى مضمون كلمة ":كذلك "التى تشد فى رحابها كل ما سبقها من أحداث فى استدعاء مركّز سريع، مع التمهيد به لمضامين جديدة بينها و بين ما سبقها صلة حميمة كقوله تعالى بعد الانتهاء من حلقات قصة موسى عليه السلام فى سورة طه: (كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً) [طه: ۹۹ "]،أى كما قصصنا عليك قصة موسى و فرعون و بنى إسرائيل نقص عليك من أنباء الرسل و قد آتيناك من لدنا ذكرا أى قرآنا «"۱»». فقد ربطت هذه الأداة (كذلك) بين ثلاثة أشياء يمتن اللّه بها على رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم: الأولى ما سبق من قصة موسى و فرعون و بنى إسرائيل، و التى يعود إليها اسم الإشارة، الثانية: مثلها من أنباء الرسل فى سور أخرى، و هى التى قصد دخول الكاف عليها، الثالثة: (وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً) أى آتيناك بهذا القرآن علوا و شرفا، و يلى ذلك مباشرة (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً) [طه: ۱۰۰] فأنت ترى أنه بواسطة هذه اللفظة (كذلك) ربط بين كلام و كلام، بين غرض و غرض و قد امتن بعدها و سرّى و حذر، أى أن لها قدرة على الانتقال من (_____ ۱)

أيسر التفاسير للجزائرى ۹۰۱، مكتبة العلوم و الحكم، ۱۴۲۳ ه ۲۰۰۲ م. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۹۳ أجواء إلى أجواء و من موضوع إلى موضوع مع تماسك البناء و استوائه و دون أى إحساس بالفجوة أو التباين. و مثل التخلص السابق تخلص آخر يليه بعد أن استمر فى تفاصيل أهوال القيامة (آية ۱۰۰ إلى ۱۱۲) إذ ينتقل منه بواسطة "كذلك "فى قوله تعالى: (وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً) [طه: ۱۱۳]، و هو من أروع و أوسع التخلصات؛ لأنه فى هذه المرة لا يستدعى بكاف المماثلة و اسم الإشارة (كذلك) سياقا قريبا أو معانى مجاورة حسب، و إنما يستحضر فى سرعة

و تركيز كل المعانى السابقة فى السورة ابتداء من قوله فى صدرها: (ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى* إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى* تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى) [طه: ۴] حتى قوله بعد ما يزيد عن المائة آية (وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً) [طه: ۱۱۳]. ۶- و من إشكالات التناسب فى انتقالات هذه السورة ما تجده فى قوله تعالى عقب الآية السابقة: (فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً* وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) [طه: ۱۱۴، ۱۱۵]. فلا- تبدو فى ظاهر الأمر مناسبة لموقع النهى (وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ) وصلته بما قبله أو بعده، سوى أنه لما قال قبله: (وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً) و كان من المحتمل أن يكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد تعجل تكرار ما سمعه من أمين الوحى حينئذ خشية تفلّته أو نسيانه، فقيل له (وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) أو أنه عليه الصلاة و السلام هاله ذلك التعظيم و التنزيه فى (فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) فتعجل سببه، فقال سبحانه عقبه (وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ..) الخ. و ربما يرجح الاحتمال الأول قوله تعالى فى سورة القيامة: (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ) [القيامة: ۱۶، ۱۷]، فذلك يعنى أن إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۹۴ سبب العجلة هو خشية أن يتفلّت منه شىء كما ذكر المفسرون، فيكون هذا النهى قد جاء لمناسبة موقف خاص عند نزول الوحى بهذه الآيات و اللّه أعلم. أما صلة قوله بعده (وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) [طه: ۱۱۵]، بما قبله: (وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ..) [من الآية ۱۳: طه]، فإن الآية (۱۱۵) تتضمن تعليلا لتصريف الوعيد فى القرآن أى تجديده و تعديده فى سور متعددة، فسببه نسيان الناس و حاجتهم للتذكير وقتا بعد وقت، و هو النسيان الذى ورثوه من أبيهم آدم (وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ). و هذا من التخلص الخفى، و له نظائر فى القرآن كثيرة تحتاج إلى تأمل قبل التسرع فى الحكم. و هكذا تمضى المعانى حتى نهاية السورة كالنهر المتدفق الذى تتفرع جداوله دون أن يمنع ذلك من امتداده، و دون أن يمنع ذلك من اتصال الجداول بالنهر الممتد فى اتصال و عطاء مستمرين. و قبل أن أطوى هذه الصفحة ألفت إلى ظاهرة لافتة فى سورة طه و هى من عوامل تماسك بناء كل سورة على حدة، هذه الظاهرة هى ترديد لفظ معين أو أكثر فى مواضع شتّى من السورة، و هذا مرتبط بترديد المعانى المحورية. خذ مثلا قوله تعالى فى آية (۳) من سورة طه (إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى)، و قوله فى آية (۹۹) (وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً)، و فى آية (۱۱۳) (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً)، و فى آية (۱۲۴) (وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً) .. و الترديد ضرب من ضروب البديع، و قد استشهد له الدارسون بالجملة و البيت الشعرى، لكنه فى القرآن له طريقة خاصة هى الانتشار على امتداد السورة مهما طالت امتدادا يسهم ضمن عوامل أخرى كثيرة فى تماسك بناء المعانى؛ لأن هذه الألفاظ ما ترددت إلا تبعا لترديد معنى معين ربما كان من المعانى المحورية أو الأغراض الأساسية فى السورة. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۹۵ و مما لفتنى كذلك وجود التصدير أو ما يسمى برد الإعجاز على الصدور بطريقة لا نظير لها فى كلام العرب، فقد استشهدوا له بالجملة من النثر و بالبيت من الشعر و بالآية أو بنصف الآية، لكن من يتأمل كثيرا من سور القرآن يجد الأعجاز مردوده على الصدور و البدايات حتى تستغرق المسافة الفاصلة بين العجز و الصدر سائر السورة أو معظمها، و قد رأينا آية ۱۱۳ من سورة طه (وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا) مردوده على آية ۳ و هى قوله (تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى) و أظهر منه رد آخر سورة (المؤمنون) و هو قوله تعالى: (إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ) على أولها (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)، و لا شك فى أن هذه الظواهر تسهم فى تماسك بناء السورة القرآنية مهما طالت بحيث لا يشعر من يتابع السورة بأى فجوة فى بنائها أو تفاوت فى نظم آياتها، بل إن لكل سورة إيقاعا خاص ناشئا من تشابه وحدات النظم و طرائقه، و توافق الفواصل أو تقاربها، و ترديد الضمائر الواحدة منفصلة و متصلة فى مساحات متقاربة أو متجاورة.

ب- من عوامل تماسك البناء فى السورة القرآنية:

اشارة

ب- من عوامل تماسک البناء فی السورة القرآنیة: من أهم عوامل تماسک البناء فی السورة القرآنیة ترديد معان أساس و إن شئت فقل رءوس معانی السورة حتی تجد هذه المعانی المرددة هی العصب الذی يمسک بناء السورة، و هی الأقطاب التی تدور سائر المعانی حولها و تتفرع عنها. و عند ما ننظر فی سورة الأنبياء مثلا نجد أقطاب المعانی فيها:

۱- الإنذار بقرب الساعة:

۱- الإنذار بقرب الساعة: ففی بداية السورة يخبر باقتراب الحساب و الناس فی غفلة: (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَ هُمْ فِی غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) [الأنبياء: ۱] و فی وسطها يخبر بالإعداد لهذا الحساب الدقيق (وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ ..) [الأنبياء: من الآية ۴۷]. و قرب نهايته السورة يعود للمعنی مع تصوير الفزع و الندم (وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِیَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِی غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ) [الأنبياء: ۹۷]. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۹۶

۲- الوحدانية جوهر الرسالات:

۲- الوحدانية جوهر الرسالات: قال تعالی فی بدايات السورة: (وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِی إِلَيْهِمْ ..) [الأنبياء: ۷] أی بوحدانية الخالق. و قال تعالی فی صلبها: (وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِی إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء: ۲۵]. و يقول قرب نهايتها (قُلْ إِنَّما يُوحی إِلَیَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [الأنبياء: ۱۰۸].

۳- امتدادات القصص و فحواه:

۳- امتدادات القصص و فحواه: كل ما ورد من قصص الأنبياء فی هذه السورة هو بيان لقوله تعالی علی لسان رسوله محمد صلّی اللّه عليه و سلّم: (قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِیَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِی ..) من الآية ۷۴: الأنبياء. و هذه القصص تدور بين الابتلاء بالنعمة كما فی قصة داود و سليمان عليها السلام، و الابتلاء بالشدة كما فی قصة إبراهيم و أيوب و "ذا النون "عليهم السلام، و فی كل الأحوال عبر و دروس ما بين شكر و تضرع و إجابة و إكرام، و إنما فصلت قصة إبراهيم عليه السلام من بين قصص هذه السورة التی يغلب عليها الإجمال ذلك للخروج منها بالعبرة التی تتطلبها الظروف التی كانت تمر بها الرسالة فی مكة، فقد صدع إبراهيم بكلمة الحق (أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ) [الأنبياء: ۶۷]، بعد أن كسر أصنامهم، و لم يعبأ بتهديدهم ثقة فی اللّه عز و جل، و كانت النتيجة هی نجاته و الإنعام عليه بذرية صالحة ورثت النبوة كما تدل الآيات ۶۹ إلی ۷۳ من هذه السورة.

۴- غلبة أسلوب الملاينة و الإقناع بالبراهين:

۴- غلبة أسلوب الملاينة و الإقناع بالبراهين: نجد هذا يسير ممتزجا فی بناء معانی السورة و فی سائر مراحلها: عند ما طلبوا آية حسية كآيات السابقين، فرد عليهم ردا منطقيا يلمح إلی الرحمة بهم: إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۹۷ (فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ* ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ) [الأنبياء: ۵، ۶]. فهذا رد منطقی لعدم إجابتهم إلی ما كانوا

يطلبون من تحويل جبال مكة ذهبا أو تفجير الأنهار من تحتهم ليزرعوا و غير ذلك، لعلمه سبحانه أنها إذا جاءتهم لن يؤمنوا و حينئذ تتحقق فيهم سنة اللّه فى الهالكين بالعذاب من قبلهم عند ما كانوا يجابون إلى ما يطلبون فلا يؤمنون، فكأن عدم إجابة كفار قريش إلى ما يطلبون هو من باب الرحمة بهم أو بمن يؤمن منهم فيما بعد أو بمن يخرج من أصلابهم مؤمنا، و هو برهان يعتمد على الملاينة و الاستدراج و الاستمالة. و من أساليب الإقناع و الملاينة قوله تعالى: (لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ) [الأنبياء: ۱۰]. يعنى حسبكم ما هو أفضل لكم من تلك الآيات الوقتية، فقد أنزلنا إليكم ما هو برهان و ذكر لكم و شرف، و يحركهم للتفكير فى هذا فى فاصلة الآية. و من وسائل استمالتهم للتفكير سؤالهم عن آلهتهم التى يعبدونها و هل هى قادرة على خلقهم و إعادتهم و بعثهم كقدرته سبحانه (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ) [الأنبياء: ۲۱]. ثم تقديم أقوى برهان على انفراد الخالق سبحانه بالملك و الألوهية فى قوله: (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) [الأنبياء: ۲۲]. ثم يطالبهم فى المقابل بتقديم برهانهم على صحة ما اتخذوه من دونه من آلهة: (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ ..) [الأنبياء: من الآية ۲۴]. و هكذا تتوالى البراهين «۱» و تمضى خطوة خطوة فى ملاينة رفيقة نحو التسلل إلى بقية تفكير عندهم، بحيث لا- يملكون- إن هم فكروا- سوى التسليم بوحدانية الخالق سبحانه و انفراده بالألوهية و القدرة و كان من ثمرات الملاينة الرفيقة أن نجد فى نهايات السورة (وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ) [الأنبياء: ۱۰۷]، و كان من

(۱) راجع آية ۴۲، ۴۳ الأنبياء إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۹۸ ثمرات البرهنة المقنعة قوله تعالى يطالبهم بالتسليم: (قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [الأنبياء: ۱۰۸]. و إذا كان الشىء بالشىء يذكر فإن كثيرا من ضروب البديع القرآنى المعجز هى من عوامل تماسك البناء فى السورة القرآنية، و قد سبقت الإشارة إلى دور الترديد فى تماسك بناء المعانى فى سورة (طه) و التصدير الذى يجمع بين طرفى سورة (المؤمنون) و أعجب من هذا ما تجده فى سورة الواقعة فلقد بنيت كلها تقريبا على لون بديعى معروف هو الجمع و التقسيم و التفريق، حيث جمع فى صدر السورة بين أصحاب الشمال و السابقين المقربين مجرد جمع فى البداية بينها على سبيل التعظيم و التفظيع مع التشويق لذكر المصائر آية ۸، ۹، ۱۰ الواقعة ثم انتقل فقسّم و فصل فى مصير كل و ما يتعلق به من ضروب النعيم أو العذاب من آية ۱۱ إلى ۵۶ و بعد ما التفت إلى التقرير بقدرته و نعمته سبحانه فى الخلق و المعيشة و عظم من شأن القرآن و أقسم سبحانه على أنه تنزيل منه سبحانه و حذر من التكذيب عاد إلى تلك الأقسام الثلاثة ففرق بينها ابتداء بالمقربين ثم أصحاب اليمين ثم المكذبين الضالين، قارنا بين كل فريق و مصيره من ۸۸ إلى ۹۳. و أنتهى من هذا إلى أن البلاغة القرآنية تحتاج إلى قراءة ثانية باعتبارها بلاغة معجزة تتدخل فى التشكيل و البناء و فى حفظ تماسك هذا البناء، و ذلك فى صورة فريدة لا نظير لها فى بلاغة العرب.

ج- درجات الصلات بين معانى السورة القرآنية:

ج- درجات الصلات بين معانى السورة القرآنية: لا ريب فى أن الصلات بين معانى السورة و أغراضها المتعددة ليست على درجة واحدة فى الظهور، و هذا يرجع لطبيعة المعانى و كيفيات امتدادها و تنقلاتها و التى قد تدق أحيانا، و الناس ليسوا على درجة واحدة فى التأمل و المتابعة، و لعل من الأمور المساعدة على التوفيق فى هذا الأمر المعايشة الطويلة لنصوص التنزيل فهما و استبطانا و بحثا عن خط سير المعانى فى السورة، و كيف تبدأ و تمتد و تتفرع و تستطرد و تعود إلى خط سيرها الأصلى ثم تتفرع مرة ثانية، و ألا يتعجل الباحث عن المقاصد و الغايات، لأن هذا النوع من البحث يحتاج إلى صبر و طول إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۲۹۹ أناة و معاناة حتى يستقيم له السبيل و يعرف مواضع الأقدام، و هو فى كل الأحوال لا بدّ أن يستلهم إشراقات الفتوح و يسترفد عطاءات التوفيق من اللّه سبحانه. و مع هذا فإن اللّه قد اقتضت حكمته ألا يفضى النص القرآنى بكل ما فيه، و مهما أعطى فعطاؤه لا

ينفد، و الصلات و المناسبات بين الآيات و الأغراض داخلة فى صميم مرادات القرآن و غاياته، فقد تستنبط معنى و حكما لا من متن ألفاظ الآية و لا من صياغاتها و لكن من صلتها بآية أخرى مجاورة لها ملاصقة، أو قريبة منها من غير جوار و لا لصوق و أصحاب المعايشات الطويلة للقرآن يعرفون هذا، و يقرون بأنه قد يدق وجه لصلة و يغمض بين آية و جارتها كما سبق فى قوله تعالى: (وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) [طه: من الآية ۱۱۴] و صلته بما قبله و ما بعده. و كقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) [الحج: ۳۸]، فقد جاءت هذه الآية بعد سياق الحديث عن الحج و تعظيم شعائر اللّه مع التركيز على الذبح باسم اللّه تقربا إليه حتى يصل إلى قوله تعالى: (لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) [الحج: ۳۷]، فما صلة هذا بقوله بعده (إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) .. يقول أبو السعود ":كلام مستأنف مسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان أن اللّه تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج ليتفرغوا لأداء مناسكه «"۱». و هذا ربط جيد يأخذ بمفهوم و ظروف الكلام السابق و استشعار صلته بالكلام اللاحق، فمناسك الحج تحتاج إلى إحساس بالأمن عند أدائها، فكان قوله بعدها (إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا.) على سبيل الطمأنة، لكن اللافت أنه كان لا يركز فى حديثه السابق على تفاصيل المناسك و كيفيات أدائها، و إنما كان يحرص على روح تلك العبادة و يسعى لتحقيق تقوى القلوب و استحضارها عظمة اللّه و خشيته، حتى

(_____ ۱) إرشاد العقل السليم ۴/ ۱۳. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۰۰ نرى قوله تعالى: (ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) [الحج: ۳۲]، و قوله: (فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ* الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ) [الحج: من الآية ۳۴- ۳۵]، و قوله فى السياق نفسه: (لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) [الحج: ۳۷]. و على هذا فمجيء قوله: (إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ..) بعد ما سبق يدل على أن المؤمنين فى أمن من مكر أعدائهم بتقواهم ربهم و تعظيم حرماته و مناسكه و شعائره، ثم إن مناسك الحج و أداء شعائره صورة من صور الجهاد تحتاج إلى صبر و إلى مكابدة النفس و مغالبتها و قهر الشيطان و التضحية، لهذا جاء بعده (إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) .. و (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [الحج: ۳۹]. و من أجل هذا نجد الحج و العمرة قد جاءت فى موضعين من سورة البقرة (آية ۱۵۸ ثم من آية ۱۹۶ إلى ۲۰۰) و كل مرة نجدها مسبوقة بذكر القتال فى سبيل اللّه، و وجوب رد الاعتداء. و هنا فى سورة الحج جاء الإذن بالقتال بعد (وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) .. و بهذا يتبين أن الأجدى فى البحث عن المناسبة بين الآيات هو النظر إلى روح المعانى و مقاصدها، فهى التى تسفر عن تلك المناسبات و الصلات و لا سيما إذا دق وجه الصلة. و من ذلك مثال فى سورة (المؤمنون) حيث ذكر سبحانه ضروبا من نعمه على عباده المقرونة بآياته الدالة على قدرته حتى يصل إلى قوله: (وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ* وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) [المؤمنون: ۲۱- ۲۲]، فى عقب هذا يأتى قوله تعالى: (وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ) [المؤمنون: ۲۳]. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۰۱ فالمناسبة بين هذه الآية و ما قبلها غير ظاهرة، إذ يا ترى ما ذا تكون الصلة بين إرسال نوح إلى قومه و بين نعمة اللّه فى الأنعام التى تتعدد منافعها و فى كل منفعة عبرة، و نحمل عليها و على الفلك أثقالنا؟. و نجد المفسرين الذى يعنون بمثل هذه المناسبات يجتهدون اجتهادات تصب عند الشوكانى الذى أحسن تجميعها و إيجازها فى قوله ":لما ذكر الفلك أى فى قوله (وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) أتبعه بذكر نوح لأنه أول من صنعه، و ذكر ما صنعه قوم نوح معه بسبب إهمالهم للتفكر فى مخلوقات اللّه سبحانه و التذكر لنعمه عليهم فقال: (وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ) .. و فى ذلك تعزية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و تسلية له ببيان أن قوم غيره من الأنبياء كانوا يصنعون مع أنبيائهم ما يصنعه قومه معه «"۱».

ظواهر الصياغة و الإيقاع اللافتة فى سورة (المؤمنون):

اشارة

ظواهر الصياغة و الإيقاع اللافتة فى سورة (المؤمنون): سورة (المؤمنون) مكية نزلت فى أواخر العهد المكى بعد سورة الأنبياء التى نزلت بعد الإسراء و قبيل الهجرة، و ذلك بعد أن تكررت الدعوة إلى التوحيد و قد بلغ الصراع أشده بين المؤمنين و الكافرين فى هذه الفترة، حينئذ نزلت سورة (المؤمنون) تشد من أزر المؤمنين و تبشرهم بالفلاح إن هم حققوا إيمانهم بالخشوع فى صلاتهم، و كانوا عن اللغو معرضين و للزكاة فاعلون و لفروجهم حافظون .. إلخ يعنى وثّقوا صلتهم باللّه عن طريق الإحسان فيما فرضه اللّه عليهم، و صانوا ألسنتهم و فروجهم، و ذلك ضمانا لطهارة المجتمع المسلم و نظافته، و سعيا إلى حسن العاقبة فى الآخرة: (أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ) [المؤمنون: ۱۰- ۱۱]. و لما كان هذا يعنى الإقرار بالبعث و الحساب و الجزاء، و كان هذا موضع شك و جدل كبير من الكفار برهن عليه بقدرته سبحانه على خلقهم ابتداء مع التفصيل فى مراحل خلق الجنين بما يؤكد على قدرته سبحانه (_____. ۱) فتح القدير، ۲/ ۲۱۳. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۰۲ و تمضى السورة مرورا بحلقات متعددة من المعانى هى من التفريع أو التوليد أو الاستطراد، و يلفتنا فى بناء هذه السورة عدة ظواهر منها: ۱- البداية بآيات قصيرة مشدودة بعضها إلى بعض على سبيل التبعية للآية الأم التى تتكون من جملة واحدة مما يؤدى إلى حسن الإيقاع الناشئ من تقارب الفواصل مع تماسك المعانى و شدة ارتباط أجزائها المتوالية على سبيل التبعية: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ* وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ* وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ* وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ .. الخ) [المؤمنون من ۱: ۵] و فى داخل هذه الجمل يلحظ نوعين من التصرف فى النظم، كل تصرف يؤدى إلى ميزة أو أكثر، التصرف الأول: تقديم الجار و المجرور (فِى صَلاتِهِمْ) على الخبر (خاشِعُونَ) تقديما يفيد العناية بالصلاة لأدائها على الوجه المطلوب، مع ما يؤدى إليه هذا التقديم من توافق الفواصل و حسن الإيقاع، ثم إن صيغة الاسم (خاشِعُونَ) تدل على ثبوت هذا الوصف و استمراره حتى أصبح ديدنهم الذى يلزمونه فى كل صلاة و فى أى جزء من الصلاة. التصرف الثانى: إظهار ضمير المتحدث عنهم مفصولا (هم) إذ كان يمكن أن يأتى التعبير عن المعنى صحيحا من غير إظهاره كأن يقول: الذين يخشعون فى صلاتهم، أو الذين فى صلاتهم يخشعون أو خاشعون، لكن المعنى هنا يتجاوز الصحة إلى إفادة خصوصيات و مزايا جديدة منها تخصيص هذه الصفة بالمؤمنين الذين أفلحوا، و كذا فيما عطف عليه، و هذا يعنى اختصاص الخشوع بالمؤمنين الذين كتب لهم الفلاح، فمن حرم من الفوز و الفلاح لا تجده يخشع فتكون صلاته كلا صلاة. و هناك ميزة صوتية مرتبة على إظهار ذلك الضمير و هى التوافق النغمى مع نفس الضمير فى (صلاتهم) و هو توافق ناشئ عن الترديد المتجاور، و هو يشعر بتوازن الأداء فى الصلاة، فلا ريب أن تناسق الأداء الصوتى يتسق مع الأداء الحركى المتزن الخاشع فى الصلاة، و يؤكده أن الإعراض عن اللغو و إيتاء إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۰۳ الزكاة لم يتردد فى داخل كل جملة منها هذا الضمير (وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ* وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ) [المؤمنون: ۳- ۴]. لكن مجرد انفصال الضمير فى هاتين- و إن لم يتردد فى داخل كلّ على حدة- يفيد نوعا من التنويه و الثناء على الموصوفين باختصاص هذه الصفات بهم و انحصارها فيهم ثم تجد الآية الرابعة و قد انفصل الضمير فيها و تردد (وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ) ثم تردد ثلاث مرات من غير انفصال فى الآية الخامسة (إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) و فيما تلا هذا من آيات، و ترديد الضمير منفصلا و متصلا مرات متعددة فى تلك المساحات المتقاربة يحقق نوعا من الإيقاع المشعر بالتوازن و الانسجام فى حياة المؤمن الذى بلغ درجة الإحسان فى طاعته للّه فعلا و تركا. و تنتهى تلك الصفات بقوله تعالى: (وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ) فى إشارة إلى مزيد من العناية بالصلاة إذ بدأ بها و بها انتهى

و ليست تكرارا، لكنها فى الأولى تنص على الخشوع فى أداء الصلاة و فى معانيها و فى المرة الثانية تنص على المحافظة عليها فى مواقيتها الخمسة المعروفة، و لهذا جمع الصلاة هنا باعتبار تعدد الصلوات، و عبر بالمضارع فى (يُحافِظُونَ) لتجدد المحافظة بتجدد الأوقات مع الاستمرار على هذا، و هو ما يسمونه بالاستمرار التجددى. و حاصل هذا أن هذه السورة بدأت بعدد من الآيات القصيرة التى تتبع الآية الأولى فى اتصال و توال و ترابط، مع التصرف فى النظم تصرفا يؤدى إلى فوائد معنوية، مع تحقيق نوعين من التوافق النغمى فى الوقت نفسه: أحدهما فى الفواصل، و الثانى فى داخل الآية نتيجة ترديد ضمائر واحدة فى مساحات متقاربة مما يؤدى إلى الشعور القوى بحركة الإيقاع و التوازن. و كل حسن صوتى هو من أجل المعنى، و كلما ازدادت درجة الإحساس بالإيقاع و النغم كان هذا دليلا على أهمية المعنى، و يكون المقصود مزيدا من جذب النفوس إليه، و ما أعظم ما أثنى اللّه به على المؤمنين الذين أفلحوا عند ما حققوا إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۰۴ إيمانهم تحقيقا عمليا بتلك الصفات التى تحتاج إلى عزيمة و همة، و قد أسهم ذلك الإيقاع السريع المتوازن فى تحريك العزائم و الهمم. ۲- و صوت التوازن الإيقاعى فى سورة "المؤمنون "عال على كل حال حتى تجد فواصل السورة كلها على نهاية واحدة هى النون المسبوقة بحرف اللين الممدود واو أو ياء ما عدا أربع آيات متفرقات تنتهى بحرف الميم المسبوق بحرف اللين (الياء) و لا يشعر المستمع بفرق كبير، و هذه الآيات هى ۵۱، ۷۳، ۸۶، ۱۱۶، و العجيب أنها تنتهى جميعا بأسماء للّه تعالى مثل (عليم)، و (عظيم) و (كريم) و هذا أى اتفاق فواصل السورة الواحدة بهذا الطول أمر نادر فى سور القرآن، و لا يوجد إلا لدواع قوية، و هو على كل حال يسهم فى تحقيق التوازن الصوتى الملحوظ بشكل لافت فى هذه السورة، و لا تزيد نسبة الإحساس لهذا التوازن إلا إذا قصد اللفت إلى معان خطيرة، و لا عجب فى هذا، ففى سورة (المؤمنون) معان لم تتردد فى سورة أخرى، مثل الجمع بين تلك الصفات التى تحقق فلاح المؤمنين، و الحديث المفصل عن مراحل تكوين الجنين مما يدخل فى الإعجاز العلمى الذى لفت كثيرا من المشتغلين بالعلوم التجريبية، فضلا عن الإعجاز البيانى الذى أدى تلك الأفكار العلمية. و من تلك المعانى التى لا نجدها فى سورة أخرى تصحيح الأفكار المقلوبة فى عقول الكفار لأنهم يتوهمون أن ما هم فيه من زيادة فى الأموال و الأولاد و الحضارة المادية عموما، يتوهمونه دليلا على خيريتهم و أفضليتهم فقال سبحانه فى هذه السورة: (أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ* نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ) [المؤمنون: ۵۵- ۵۶]، ثم النص على الجديرين بالخيرية و الأفضلية فى قوله: (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) [المؤمنون: ۵۷] إلى الآية ۶۲ و غير ذلك من المعانى التى تختص بها هذه السورة و التى كانت على قدر من الأهمية بحيث اقتضت توافق جميع فواصلها تقريبا و علو منسوب التوازن الصوتى فيها. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۰۵ و هناك ظواهر لافتة جدا فى سائر السورة منها: ۱- تنويع الصياغات حسب طبائع المعانى و حاجاتها، فمن ذلك:

أ- التبعية بالجمل المتعددة

أ- التبعية بالجمل المتعددة عند ما تكون هذه الجمل فى حكم صفات متعددة لموصوف واحد، حتى يشعر المتابع لها أنها صبت فى قالب واحد و إن قسمت إلى آيات قصيرة متوافقة الصياغة و الإيقاع و الفواصل حتى تسيطر بأدائها الصوتى على حس المستمع و مشاعره ليحسن تلقى ما فيها من معان كبيرة كالآيات العشر الأولى من أول قوله: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) إلى قوله (أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ ...) و شبيه بهذا إلى حد كبير قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ* وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ* وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ. وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ* أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ) [المؤمنون: ۵۷- ۶۱]. فهذه الآيات تلتقى مع الآيات الأولى من السورة فى التقسيم و الإيقاع و طريقة الصياغة، و ترابط المعانى و تسلسلها و اتصالها و كل هذا يؤكد الوحدة الأسلوبية السورة القرآنية.

ب- تكثيف العطف بثم و الفاء

ب- تكثيف العطف بثم و الفاء فى سياق خاص على غير المألوف فى السورة حتى لقد بلغ العطف بهما فى أربع آيات متوالية ما لم يبلغه فى سائر السورة التى تصل إلى (۱۱۸) آية، و ذلك لحاجة المعانى إلى هاتين الأداتين فى تلك الآيات الأربع، و ذلك فى قوله تعالى: (وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ) [المؤمنون: ۱۲- ۱۶]. و من المعروف أن الفاء تفيد الترتيب مع التعقيب، و أن (ثم) تفيد الترتيب على التراخى، و أن تراخى كل شىء بحسبه بمعنى أن طول المسافة الزمنية بين المعطوف و المعطوف عليه نسبى بحسب طبيعة تلك الأشياء، فقد يكون الطول إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۰۶ شهرا و قد يكون سنة و قد يكون عمرا و قد يكون دهرا كاملا كما فى قوله (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ). فإذا بدأنا مع تلك المعانى وجدنا العطف بثم جاء بداية للدلالة على أن المدة الزمنية بين اكتمال خلق آدم من طين و بين إنجاب ذريته كانت سنين بعد خلق حواء و إبداع آدم نطفته فى قرار منها مكين، و هذه أولى مراحل نمو الجنين. و تجئ (ثم) عاطفة للمرحلة الثانية و هى (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً) و قد حدثنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أن النطفة تستغرق فى طريق تحولها إلى علقة أربعين يوما، و هذه وفق حساباتنا مدة ليست قصيرة، لذلك عطف بثم، و الخلق هنا خلق تحويل و تصيير، لكن لما كانت المرحلة التالية مختلفة عن الأولى صارت كأنها خلق جديد، و لهذا قال: (ثُمَّ خَلَقْنَا) و لم يقل حولنا أو صيرنا. و عند الانتقال للمرحلة الثالثة و هى المضغة التى تستغرق أربعين يوما كذلك حتى تصير بمقدار ما يمضغ عطف بالفاء (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً) و هذا عجيب، يقول أبو السعود "و اختلاف العواطف للدلالة على تفاوت الاستحالات «۱» يعنى عطف بثم تارة و بالفاء تارة مع أن المدة الزمنية الفاصلة واحدة فى الحالين للدلالة على الاختلاف الكبير بين تحويل و تحويل، فالتحويل من النطفة إلى العلقة غير التحويل من العلقة إلى المضغة، و هذا قريب من التعليل الذى علل به العودة إلى (ثم) فى قوله: (ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ) يقول "و ثم لكمال التفاوت بين الخلقين «۲». لكن الظاهر- و اللّه أعلم- أن تفاوت المراحل قد دل عليه بإعادة الفعل (خَلَقْنَا) حتى قوله: (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً) و كأن كل مرحلة من النطفة إلى تكوين العظام خلق قائم بذاته، ففى هذا لفت على التأمل فى كل مرحلة على حد للوقوف على قدرة اللّه فيها، و قال بعد هذا (فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً) فعطف بالفاء للإشارة إلى أنه رغم أهمية هذه المرحلة فإنها كالمكملة لما قبلها (_____. ۱) ۴/ ۲۶ إرشاد العقل السليم و يقصد بالاستحالات: التحولات و المراحل. (۲) ۴/ ۲۶ إرشاد العقل السليم، و الخلق الآخر هو اكتمال صورة البدن بعد نفخ الروح. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۰۷ و على هذا فتغيير أداة العطف من ثم إلى الفاء و العكس لم يراع فيه التعقيب أو التراخى الزمنى كمراعاته فى سورة الحج فى قوله تعالى: (فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا) ... [الحج: من الآية ۵]. إنه فى سورة (المؤمنون) لا يراعى عند العطف ثم أو الفاء تعقيبا أو تراخيا زمنيا، و لكنه يتجه إلى اعتبار آخر روعى فيه شعور الإنسان بالزمن، و لا ريب فى أن إحساسنا بالزمن يتفاوت بتفاوت مواقفنا مما يحدث فيه استبطاء أو تعجلا أو ترقبا أو ذهولا أو غفلة، و الإحساس بالزمن يختلف بطء أو سرعة من حال إلى حال، و قد تنوعت الأداة المعطوفة على هذا الأساس و اللّه أعلم. ففى بداية التكوين فى رحم الأم يكون الترقب شديدا و يكون إحساس الأبوين بالوقت بطيئا و يكون اليوم أياما و الشهر شهورا حتى إذا بدت أمارات الحمل قل القلق و خف الانتظار و الترقب حتى تدخل المرحلة الأخيرة، و لهذا تجاوز المراحل الوسطى سريعا بالفاء مراعاة لهذا فى قوله: (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً) (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً) (فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً) حتى إذا أحس الأبوان بقرب الولادة عاد القلق و بدأ الترقب و الانتظار و عد

الأيام و الليالى، و قد روعى هذا الإحساس بالزمن فعبر بثم فى المرحلة الأخيرة (ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ). و يمكن الاستئناس فى هذا بقوله تعالى: (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) [الأعراف: ۱۸۹] فقد ركز هنا على تلك المرحلتين اللتين يكون الترقب فيهما شديدا و القلق عظيما، المرحلة الأولى: (حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ). إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۰۸ و المرحلة الأخيرة: (فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما ...) إن المرحلة الأولى فاصلة حاسمة فى التفريق بين المرأة الولود، و المرأة العقيم أو بين الاستعداد للحمل من عدمه فهى مرحلة خطيرة، و العطف فيها بثم مناسب إما لحال الإنسان المستبطئ و إما لاستيقاف الإنسان و تنبيهه إلى قدرة الخالق سبحانه و نعمته و ما تستوجبه من حمد و شكر للدخول فى قوله تعالى: (يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ) [الشورى: من الآية ۴۹]، و الاطمئنان للخروج من قوله: (وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) [الشورى: من الآية ۵۰]. أما المرحلة الأخيرة فإنها كذلك حاسمة خطيرة؛ لأنها المرحلة التى تكتمل فيها الصورة الآدمية (ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ) فالعطف فيها بثم هو الأنسب لحال الإنسان المترقب المستبطئ و القلق على سلامة ذلك الاكتمال، أو هو الأنسب لاستيقاف الإنسان للتفكر فى القدرة و النعمة التى تستوجب الشكر الحاضر لا الوعد بالشكر كما حكى سبحانه عن الأبوين فى سورة الأعراف (لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) ۱۸۹ الأعراف، و كان ذلك فى سياق اللوم و التأنيب.

ج- تكثيف الاستفهام الإنكارى:

ج- تكثيف الاستفهام الإنكارى: من الظواهر الأسلوبية اللافتة توالى الاستفهام الإنكارى و تعاقبه فى مجموعة من الآيات بطريقة لا تتكرر فى هذه السورة حتى تجد خمسة استفهامات إنكارية متوالية بما يساوى نصف ما ورد فى السورة كلها، و ذلك فى قوله تعالى: (أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ* أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ* أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ* وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ* أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [المؤمنون: ۶۸- ۷۲]. فقد اقتضت تلك المعانى أسلوب الاستفهام الإنكارى المتتابع، و لا سيما السياق الذى وردت فيه، و الذى يتحدث عن عذاب ينزل بالمكذبين فيصرخون إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۰۹ مستغيثين دون فائدة، و هنا يذكّرهم بأنهم لا عذر لهم، فقد كانت آيات اللّه تتلى عليهم فلا يستمعون، و كانوا ينكصون على أعقابهم فرارا و استكبارا، و كانوا يتخذون حلقات السمار لصرف الناس عن القرآن و هجره، لهذا فإنه يوبخهم و يقبح ما كان منهم من تفريط، فلما تعددت قبائحهم تعدد توبيخهم و تأنيبهم بتلك الاستفهامات التى تشدد النكير عليهم و تنبههم لأخطائهم، و هذه الأشياء المنكرة: ۱- أنهم لم يعطوا لأنفسهم فرصة للاستماع للقرآن و تدبره حتى يكون حكمهم عليه صحيحا، و لكنهم رفضوه رفضا أحمق دون تفكير (أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ). ۲- أنهم لم يأتهم بدع من الرسالات، فقد نزل نظيره فى الدعوة إلى عبادة اللّه وحده على آبائهم الأولين (أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ). ۳- أن رسولهم الذى جاءهم بهذا القرآن يعرفونه و يعرفون صدقه و أمانته: (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ). ۴- أنهم لم يكتفوا بالرفض و لكنهم تجاوزوه إلى الشتم و الإيذاء: (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ) [المؤمنون: ۷۰]. ۵- أنه قد ثبت لهم نصحه و أنه لا يسعى لمصلحة شخصية فلا يطالبهم بخرج أو أجر و لكنه يبلغ رسالة ربه: (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [المؤمنون: ۷۲]. و هكذا تعددت تلك الاستفهامات الإنكارية و توالت لتوالى ما يستوجبها من تلك الأفعال و المواقف المستقبحة و التى استدعت تأنيبا بعد تأنيب و توبيخا بعد توبيخ. و تخير الأداة (أم) المنقطعة و الدالة على معنى الإضراب و الانتقال من استفهام إلى استفهام و من توبيخ إلى توبيخ يدل على أنه يترقى فى التوبيخ، و أن التالى أشد فى الإنكار من السابق، و لذا نجد إنكار اتهامهم

للرسول صلى اللّه عليه و سلم بالجنون يأتى رابع هذه الأمور المنكرة؛ لأنه ليس رفضا فحسب و لكنه مع إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۱۰ هذا إيذاء و إيلام لصاحب الرسالة و تحريض للسفهاء على النيل منه، بل و تحريض سائر الناس على الابتعاد عنه. د- تكثيف الاستفهام التقريرى فى السياق الذى يتطلب هذا التكثيف حتى تجد عددا من هذا النوع يتوالى و يزيد عن بقية ما جاء فى سائر السورة كقوله تعالى: (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ* قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ* قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) [المؤمنون: ۸۴- ۸۹] «۱». هذه الآيات تعد منهجا فى دعوة المعاندين الذين إذا كانت لهم وقفة تذكير و تقرير عادوا إلى أنفسهم و انتزعوا الحق منها، و كان الخطاب هنا للرسول صلى اللّه عليه و سلم ليسألهم سؤال تقرير عن مالك الأرض التى يعيشون عليها، و رب السماوات التى تظلهم و يتطلعون إليها و رب العرش العظيم، و من يملك الكون كله، لا شك أن هذه الأسئلة التى تقع فى نفس المعاند من فطرته و توقع الهيبة فى نفسه تجعله فى مراجعة لتلك النفس لا يملك بعدها سوى الاعتراف، و العليم الخبير الذى خلق الإنسان و يعلم ما توسوس به نفسه يخبرنا مقدما عما ذا ستكون إجاباتهم، و لن تكون سوى الاعتراف: سيقولون للّه. إن تتابع هذه الاستفهامات التقريرية مع الترقى فيها إنما كان بقصد الالتفاف على الفطرة السوية و إيقاع الهيبة فى نفس المعاند حتى لا يملك سوى الإجابة كما أخبر العليم الخبير، و قد عقب على الاعتراف فى كل سؤال من هذه الأسئلة بسؤال آخر مرتب على ذلك الاعتراف (قُلْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ). فلما ترقى فى السؤال الثانى إلى ما يوقع الخشية قال بعده: (أَ فَلا تَتَّقُونَ) فلما ترقى إلى ما هو أشمل من ذلك كله و هو السؤال عن مالك الكون كله، عقب على

(_____ ۱) يجير: يغيث، لا يجار عليه: لا يغيث أحد أحدا من عذاب اللّه كما ذهب الفراء و الزجاج و نقله الشوكانى ۲/ ۲۲۷. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۱۱ اعترافهم بقوله: (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) أى إذا كان هذا هو اعترافكم فأين غاب عنكم الحق الظاهر حين أنكرتم و كأنكم وقتها قد سحرتم. و هكذا يتبع كل سؤال بالإقرار المتوقع فيعقب عليه بسؤال آخر هو من باب الترغيب و الحث كما ذهب الشوكانى و ليس للإنكار كما ذهب أبو السعود «۱».

ه: توالى تقديم المسند إليه:

ه: توالى تقديم المسند إليه: و المقصود بالمسند إليه هنا الضمير المنفصل الذى يعود إلى رب العزة سبحانه، و هو من التقديم الذى يفيد الاختصاص لحاجة المعنى إليه كقوله تعالى: (وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ* وَ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ* وَ هُوَ الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ) [المؤمنون: ۷۸، ۷۹، ۸۰] و هذه من المعانى التى تجمع بين القدرة و النعمة فى أشياء يختص بها اللّه سبحانه و تعالى، و تقديم المسند إليه فيها يفيد تأكيد إسنادها إليه عز و جل، و أن أحدا غيره لا يقدر على شىء منها، كما يفيد اجتماع هذه الضمائر و توليها مع التقديم عموم القوة و شمول القدرة و النعمة، كما يقطع باستحقاق الخالق أن يعبد وحده و أن يشكر و لا يكفر، و تسعى هذه الآيات إلى دفع المنكرين بالبعث إلى العدول عن إنكارهم. فالآية الأولى امتنان بأهم النعم التى يعتمد عليها الإنسان فى النظر و السمع و التدبر مع التعريض بتعطيلها لعدم شكرها (قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ) و عبر بالقلة للاستدراج، أو لعلها طريقة عربية فى كلامهم عند قصد النفى مطلقا كما نبه الشوكانى. و الآية الثانية امتنان آخر بالبث فى الأرض و التفرق فيها و ذلك كالبرهان على البعث، و أن الذى خلق ابتداء قادر على الإعادة، و لهذا قال: (وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (_____). ۱) راجع فتح القدير ۲/ ۲۷۷ و إرشاد العقل السليم ۴/ ۴۰. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۱۲ و الآية الثالثة برهان آخر فى

ضمن القدرة المطلقة على الإحياء و الإماتة، و يعطف عليه برهان ثالث (وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ) و تعاقبهما على رغم اختلافهما بما يشير إلى إمكان تعاقب الحياة و الموت على رغم اختلافهما، ففيه دليل خفى على البعث، و لهذا قال بعده على سبيل التعجيب من إنكارهم: (بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ* قالُوا أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) [المؤمنون: ۸۱- ۸۲]. و أخلص من هذا إلى أن توالى تقديم المسند إليه و هو الضمير الذى يعود إلى رب العزة سبحانه فى آيات متتابعة لا يفيد مجرد الاختصاص، و إنما يفيد مع هذا تأكيد القدرة المطلقة، و تأكيد الإنعام المطلق، و محاصرة المفكرين للتفكير فى الإله الواحد المنفرد بالقدرة و الإنعام و أنه سبحانه حقيق بأن يعبد و أن يحمد وحده لا شريك له. فالقادر وحده و المنعم وحده حقيق بأن يعبد وحده و أن يحمد وحده.

(و): توحد صياغة المعنى:

(و): توحد صياغة المعنى: فقد جاء على لسان نوح عليه السلام (اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ) [المؤمنون: من الآية ۲۳]، و جاء على لسان غيره: (اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ) [المؤمنون: من الآية ۳۲]، و غيره هذا غير محدد لقوله تعالى: (ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ* فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ) [المؤمنون: ۳۱، ۳۲] و مع أن المفسرين يتجهون إلى أن المقصود بالرسول هو (هود) أو (صالح) عليهما السلام، فإن الأولى هو التعميم المفهوم من الآية و الذى يدل التنكير عليه، و لأنه يشير إلى أن دعوة الأنبياء واحدة و جوهر الرسالات واحد و هو عبادة اللّه وحده (قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ) و أن منطق الأقوام فى التكذيب واحد و إن اختلفوا فى طريقة التكذيب بالحجج الواهية. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۱۳

سابعا: خصوصية الطابع الإلهى:

سابعا: خصوصية الطابع الإلهى: يستطيع كل متابع منصف للقرآن أن يجد تلك الخصوصية فى كل سوره و آياته ابتداء من أول المصحف ترتيبا أو تنزيلا، فأول المصحف ترتيبا قوله سبحانه: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ... إلخ سور الفاتحة. فإنك لو فتشت فى سائر كلام البشر لن تجد هذه الروح الدالة على القوة و الهيمنة و التى نستشعرها و نحن نتأمل تلك الآيات الدالة على الكمال و الجلال؛ إذ لا يكون الحمد كل الحمد ابتداء و انتهاء إلا للّه الخالق المالك المسيطر، و لهذا عرف الحمد فأفاد فائدتين: الأولى هى الاستغراق، و الثانية الاختصاص، أى الحمد كل الحمد للّه وحده، فضلا عن الفائدة الثالثة المفادة من دلالة متن الحمد على "الثناء باللسان من صميم القلب مع موافقة الجوارح «"۱». و فى كل من الحمد و الشكر ثناء لكن الحمد رأس الشكر «۲»، و إذا كان العبد يشكر ربه على نعم خاصة ينعم بها عليه فإنه يحمده لذاته المستحقة للحمد و الثناء لأنه القادر المنعم بالنعم العظيمة على سائر الخلق، و لعظم الحمد أتبعه بما يدل على استحقاق الخالق له فهو (رَبِّ الْعالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ). الصفة الأولى: تعنى شمول الملك و الهيمنة و التدبير و التصريف؛ لأن العالمين كل ما سوى اللّه، و الرب هو المالك السيد المدبر- و ذلك فى الحياة الأولى- و الرحمن رحمن الدنيا و الآخرة للمؤمنين و الكافرين، و الرحيم رحيم الآخرة للمؤمنين خاصة.

(_____ ۱) فتح القدير ۱ / ۱۶ دار الكتاب العربى. (۲) ورد عن عمر بن العاص أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم قال: الحمد رأس الشكر، و ما شكر اللّه عبد لم يحمده "راجع المصدر نفسه ۱/ ۱۸. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۱۴ و الصفة الثالثة (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) خاصة بالآخرة يوم الدين و الحساب و الجزاء فهل يكون هذا الكلام الدال على استحقاق الخالق للحمد إلا من الخالق سبحانه؟ و هل يمكن أن يصدر من

مخلوق؟ و (الْحَمْدُ لِلَّهِ) لا ترد فى القرآن إلا متبوعة بما يدل على استحقاقه سبحانه للحمد للقدرة و الملك: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [سبأ: ۱]. أو للقدرة و الخلق: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ أول سورة الأنعام. أو للنعمة المرتبطة بالقدرة: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ) أول سورة الكهف، و قوله (سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ ...) أول سورة الإسراء. فهل يصدر مثل ذلك من مخلوق إلا إذا كان اقتباسا من القرآن أو تمثلا لهدى التنزيل كما فى بدايات الخطب بالحمد للّه رب العالمين بنصّ ها أو باقتباس جزئى فى الشعر كقول النابغة الجعدى: الحمد للّه لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما الخافض الرافع السماء على ال أرض و لم يبن تحتها دعما فلا يخفى على كل ذى طبع سليم الفرق بين أسلوب الجعدى و أسلوب القرآن، فمع بداية الجعدى قصيدته بما بدأت به سورة الفاتحة (الْحَمْدُ لِلَّهِ) إلا أنه أتبعه بقوله: (لا شَرِيكَ لَهُ)، و لا تجد فى القرآن "الحمد للّه لا شريك له "لأن (الْحَمْدُ لِلَّهِ) قول عظيم يحتاج إلى ما يتبعه من البرهان و الدليل، و قد جاء فى سورة الفاتحة ثلاث آيات تقوم مقام البرهان هى: (رَبِّ الْعالَمِينَ، الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) فإنه سبحانه الخالق المدبر أمر العالمين، ينشر رحمته فى الدنيا لكل الناس، و رحمته فى الآخرة لعباده المؤمنين، و هو المالك ليوم الحساب، فذلك هو البرهان على أنه وحده حقيق بمطلق الحمد و عظيم الثناء. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۱۵ و إذا كنت تجد الطابع البشرى فى قول الجعدى: الخافض الرافع السماء على ال أرض و لم يبن تحتها دعما فإنك تجد الأثر الإلهى و تجد القوة و العظمة كلها فى قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها) ... [الرعد: من الآية ۲] و شتان ما بين الأسلوبين فى متانة التركيب و إحكام ترتيب أجزائه و فخامة نظمه و غزارة معانيه، فالآية القرآنية على وجازتها قد دلت على أضعاف ما دل البيت عليه، و حسبك الوقوف على لفظ الجلالة و ما يولده فى النفوس من مهابة، و دلالة تقديمه على اختصاص رفع السماء باللّه القادر، و دلالة الفعل المضارع (تَرَوْنَها) على منهج القرآن فى الحث على أن يكون النظر العقلى مرتبطا بالنظر البصرى و الرؤية المشاهدة لتنطبع الصورة الدالة على القدرة فى الأذهان و ترتسم فى الخيال لا- تفارقه. ناهيك عن سلامة الآية من الحشو الموجود فى البيت إذ جاء الجار و المجرور "على الأرض "لتكملة الوزن و لا حاجة للمعنى إليه. و ليس هذا مجال الموازنة الدقيقة بين المعانى و طريقة نظمها، و لكن حسبنا فى هذا السياق أن ندرك الفرق بين الأسلوبين و أن نستشعر القوة الإلهية و العظمة الربانية فى أسلوب القرآن مما لا نجد له أثرا فى كلام البشر. ثم نجد خصائص أسلوبية أخرى فى القرآن دالة على القوة و الربوبية عند ما نوازن مثلا بين قوله تعالى: (وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ) من آية ۷۴ البقرة. و قول بعض المولدين ممن اقتفوا أثر القرآن: يا شبيه البدر فى الحسن و فى بعد المنال جده فقد تنفجر الصخرة بالماء الزلال و قوله: لا تعجبا للجلد يبكى فربما تفطّر من عين الماء جلمد إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۱۶ فوازن إن شئت بين التأكيد الواثق فى الآية «۱» و الدال على علم المتكلم سبحانه و عظمته عز و جل، و بين قول الشاعر أولا: فقد تنفجر الصخرة بالماء الزلال، و قوله ثانيا: فربما .. تفطر من عين الماء جلمد. فعبر بقد مع المضارع تارة و ربما تارة أخرى، و هما معا من الأدوات الدالة على القلة و الاحتمال، فشتان ما بين تعبير الخالق العليم بمخلوقاته فيؤكد، و تعبير المخلوق الذى لا علم عنده بما يحدث مستقبلا، فيقف عند حدود علمه قائلا: قد يحدث، و ربما. فمثل هذه الاستعمالات تدلنا على الفرق بين أسلوب يظهر فيه أثر الربوبية و أسلوب يظهر فيه طابع العبودية و البشرية. و كل سياقات القرآن تظهر فيها تلك الروح القوية و التى هى أثر من آثار الربوبية، و لكن إحساس الناس بها يتفاوت بحسب استعدادات التلقى و أحوال الصفاء و التجلى، لكن هناك سياقات لا يخطئها حسّ ما، و يحضرنى من شواهد هذا قصة الوليد أو النضر عند ما جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يساومه فى أمر الرسالة، فتلا عليه الرسول من أول سورة فصلت: (حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) حتى بلغ قوله تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ) الآية ۱۳ فصلت، فلم يقدر الرجل على أن يستمر فى الاستماع، و قام لفوره لأنه استشعر روحا قوية مستحوذة، و كأن صاعقة تنزل به. و ما ذكره العلماء قديما من صنيع القرآن فى القلوب و تأثيره فى النفوس، و ما ذكروه من روعة القرآن و مهابته هو أثر من آثار تلك الخصوصية، و أثر من أثار الربوبية. و ما ذكروه حديثا

من روح التراكيب القرآنية هو أثر من آثار تلك القوة الخفية المستحوذة على النفوس عند الإصغاء للقرآن و التى تكون أظهر ما تكون (_____ ۱) بواسطة (إن) و اللام المؤكدة، و تقديم الخبر فى (وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ). إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۱۷ فى سياقات التهديد بالعذاب للمنكرين، و ذلك كقوله سبحانه فى خطاب المنكرين للبعث: (أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) [سبأ: ۹]، فمن يملك أن يقول هذا و يقدر عليه إلا القوى المهيمن المتفرد بالملك و الألوهية. و من الشواهد التى ترى فيها أثر العلم الإلهى المطلق التى لا يحد بمكان أو زمان قوله تعالى فى سياق تصوير بطلان أعمال الكفار و بقائهم فى حيرة مدلهمة: (أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ) [النور: ۴۰]. فإن عناصر هذه الصورة لا توجد فى بيئات البلاد الحارة، و لم يشاهد العرب البحور ذات الظلمات الناتجة عن تدافع و تراكم الأمواج بعضها فوق بعض بفعل الأعاصير و إنما يوجد هذا فى بلاد الشمال أو فى الشرق الأقصى، فمن يعلم هذا و يخبر به سوى العليم الخبير سبحانه. و أذكر فى هذا السياق أن مالك بن نبى استشهد بهذه الآية فى كتابه "الظاهرة القرآنية "على صدق ما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلّم بوحى من ربه لا من عند نفسه؛ لأنه لم يطلع على تلك الظلمات و لم يشاهد تراكب الأمواج ذات الظلمات المضاعفة و التى يعلو بعضها فوق بعض، و أن ذلك لا يكون إلا فى بيئات خاصة بعيدة عن البيئة العربية. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۱۸ و أذكر أيضا أن الأستاذ محمود شاكر ذكر فى مقدمته لهذا الكتاب أن هذا مما لا يدخل فى صميم الإعجاز. لكنى أرى أن هذا تضييق لمفهوم الإعجاز؛ لأنه لا يقتصر فقط على الأسلوب المعجز أو النظم الذى لا يستطيعه بشر، و لكن يتسع ليتناول المعانى المعجزة التى تخرج عن طاقة البشر و خصوصا صاحب الرسالة و الذى يزعم الجاحدون أن القرآن من عنده أو من أحد من الناس يساعده: (إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) [المدّثر: ۲۵]، (إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) [النحل: من الآية ۱۰۳]. إن مفهوم الإعجاز يتسع ليتناول كل المعانى القرآنية التى تخرج عن طاقة البشر. و كل مواضع القرآن و سياقاته و سوره و آياته تحمل فى ظاهرها و باطنها ما يدل على خصوصية الأسلوب القرآنى، و تسرى فيها روح القوة و الهيمنة التى هى أثر من آثار الألوهية المهيمنة لأن القرآن كلام اللّه عز و جل. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۱۹

المصادر و المراجع بعد القرآن الكريم

المصادر و المراجع بعد القرآن الكريم ۱- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى. مطبعة الحلبى ط أولى. ۲- إرشاد العقل السليم "تفسير" لأبى السعود. مطبعة الحلبى ط ۱، ۱۹۵۱ م. ۳- الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام د. على عبد الواحد وافى- دار نهضة مصر. ۴- إعجاز القرآن للباقلانى. تحقيق أحمد صقر. دار المعارف. ۵- إعجاز القرآن للرافعى ط ۸- المكتبة التجارية بمصر ۱۳۸۴ ه- ۱۹۶۵ م. ۶- أعلام النبوة للماوردى- دار النفائس ط ۱- ۱۴۱۴ ه- ۱۹۹۴ م. ۷- بديع القرآن لابن أبى الإصبع تحقيق حفنى شرف- مكتبة نهضة مصر- طبعة ۱- ۱۹۵۷ م. ۸- التصوير الفنى فى القرآن- سيد قطب. دار الشروق. ۹- ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن- تحقيق محمد خلف اللّه و زغلول سلام- دار المعارف. ۱۰- الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا- تحقيق الداية و زرزور- طبعة الكويت ۱۳۸۷ ه- ۱۹۶۸ م. ۱۱- حياة الصحابة- محمد يوسف الكاندهلوى- دار القلم بيروت. ۱۲- دلائل الإعجاز لعبد القاهر- تحقيق محمود شاكر- مكتبة الخانجى بالقاهرة. ۱۳- شرح ديوان عنترة للتبريزى- دار الكتاب العربى- بيروت ۱۴۱۲ ه- ۱۹۹۲ م. ۱۴- الشيعة و القرآن. إحسان ظاهر. طبعة لاهور باكستان. ۱۵- الظاهرة القرآنية. مالك بن نبى- دار الفكر المعاصر- بيروت ط ۴- ۱۴۰۷ ه- ۱۹۸۷ م. إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۲۰ ۱۶- فتح القدير للشوكانى. دار الكتب العلمية. بيروت. ۱۷- الفصول و الغايات للمعرى- تحقيق محمود زناتى- الهيئة العامة للكتاب ۱۹۷۷ م. ۱۸- القرآن الأمريكى المسمى بالفرقان الحق- محمد السيد

عبد الرازق- نشر دار الرضوان. ۱۹- القرآن معجزة المعجزات- أحمد ديدات- ترجمة نبيل عبد السلام هارون- مكتبة القرآن للطبع و النشر و التوزيع، و ترجمة أخرى لعلى عثمان المختار الإسلامى للنشر و التوزيع. ۲۰- كيف نتعامل مع القرآن العظيم د. يوسف القرضاوى- مؤسسة الرسالة. ۲۱- مختار الأحاديث النبوية أحمد الهاشمى- دار الفكر بيروت ۱۴۱۴ ه- ۱۹۹۴ م. ۲۲- المدهش لأبى الفرج جمال الدين الجوزى- دار الكتب العلمية- بيروت. ۲۳- نفحات الإعجاز فى رد الكتاب المسمى بحسن الإيجاز- دار المؤرخ العربى- بيروت ۱۴۱۱ ه- ۱۹۹۰ م. ۲۴- الوسيلة لترتيل القرآن "ملحق بالمصحف المعلم "دار الوسيلة للنشر و التوزيع جدة ۱۴۲۱ ه.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات الموضوع رقم الصفحة تقديم أ تمهيد د الفصل الأول: بذور الموازنة عند القدماء المبحث الأول: بذور الموازنة عند الرمانى ۱ - أسس الموازنة التطبيقية ۳ - فروق الموازنات التطبيقية ۶ - التميز الناشئ عن الموازنة ۸ - إعجاز الإيقاع عند الرمانى ۱۰ المبحث الثانى: جذور البحث عن التميز عند الخطابى ۱۲ - بين الرمانى و الخطابى ۱۲ - أفكار الخطابى فى منهج البحث عن التميز ۱۷ - الموازنة عند الخطابى ۱۹ - وجه أخير للإعجاز ۲۱ المبحث الثالث: جهات تميز القرآن عند الباقلانى ۲۳ - مدخل ضروب البلاغة فى الإعجاز ۲۷ - الموازنة عند الباقلانى ۲۸ - بين منهج الرمانى و منهج الباقلانى ۳۰ - تقويم منهج الباقلانى ۳۱ المبحث الرابع: البحث عن التميز عند عبد القاهر ۳۴ - أدوات البحث عن الإعجاز ۳۵ - النص على الموازنة ۳۶ - منهج عبد القاهر فى الكشف عن الإعجاز ۳۸ - الموازنة عند ابن ناقيا البغدادى ۴۱ الفصل الثانى: ثمرات الموازنات عند المحدثين فى الإعجاز المبحث الأول: إعجاز القرآن للرافعى ۷۶ - إعجاز النظم عند الرافعى ۷۹ - إعجاز النظام الصوتى ۸۰ - إعجاز التميز بالموازنة ۸۹ - إعجاز الكلمة ۹۱ إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۲۲ الموضوع رقم الصفحة- روح التراكيب ۹۲ - غرابة الأوضاع التركيبية ۹۳ المبحث الثانى: الإعجاز و منهج البحث عن التميز عند الشيخ عبد اللّه دراز ۹۶- خصائص الإعجاز عند دراز ۹۷ - إقناع العقل و إمتاع الوجدان ۱۰۰ المبحث الثالث: منهج سيد قطب فى البحث عن التميز و نظرية التصوير الفنى ۱۰۵- مكانة التصوير فى الإعجاز عند سيد قطب ۱۰۶ - وقفات نقدية ۱۰۸ - عناصر التصوير ۱۱۳ - التناسق الفنى ۱۱۴ المبحث الرابع: الموازنة بين محمود شاكر و مالك بن نبى: ۱۲۱- البحث عن التميز عند مالك بن نبى ۱۲۴ المبحث الخامس: الإعجاز و منهج البحث عن التميز عند أحمد ديدات. ۱۲۹ - منهج البحث عن الإعجاز عند أحمد ديدات ۱۳۲ - بين النص القرآنى و النص النبوى ۱۳۵ الفصل الثالث: موازنات تطبيقية للفصل فى قضايا شائكة: المبحث الأول: موازنات فى ضوء إشارات ابن ناقيا ۱۳۹ - الموازنة بين صور المعانى ۱۳۹ - موقع المعنى و تشكيله فى إطار الصورة ۱۴۶ - خصوصية المعنى و أثره على كيفية التصوير ۱۴۹ - خصوصية المعنى و أثره على كيفيات الصياغة ۱۵۴ - وجه دلالة الاقتباس على الإعجاز ۱۶۰ - من أوجه تصرف الشعر فى الصورة القرآنية ۱۶۲ المبحث الثانى: موازنات بين القرآن الكريم و الشعر: ۱۶۷- تصوير الخيل العاديات فى القرآن و الشعر الجاهلى ۱۶۷ - الموازنة فى التصوير و الصياغة و سياق الفكرة. ۱۷۲ - الموازنة فى النظم ۱۷۷ - خصوصية الأداء الصوتى ۱۸۱ المبحث الثالث: بين القرآن الكريم و البيان النبوى ۱۸۳ المبحث الرابع: قصة يوسف بين القرآن الكريم و الكتاب المقدس ۱۹۴ المبحث الخامس: دور الموازنة فى الكشف عن محاولات التحريف فى القرآن: ۲۰۹ إعجاز القرآن و منهج البحث عن التميز، النص، ص: ۳۲۳ الموضوع رقم الصفحة أولا: التحريف عند بعض الفرق الإسلامية ۲۰۹ ثانيا: معارضات القرآن فى العصر الحديث ۲۱۷ ۱- سيرة المسيح بلسان عربى فصيح ۲۱۷ ۲- حسن الإيجاز فى إبطال الإعجاز ۲۱۹ ۳- الفرقان الحق ۲۲۳ - السمات الأسلوبية ۲۲۶ - التفكيك و التلفيق و الانتزاع ۲۲۹ الفصل الرابع: أهم أسباب الإعجاز: أولا: خصوصية المعانى القرآنية ۲۳۳ ثانيا: خصوصية المعنى القرآنى سبب خصوصية النظم و التصوير ۲۳۶ - إعجاز المعانى مقدم على إعجاز النظوم و الألفاظ ۲۳۸ - تكاثر المعانى القرآنية ۲۳۹ ثالثا: نظم المعانى القرآنية و النمط العالى ۲۴۱ - اتحاد أجزاء النظم و دقة صنعه ۲۴۱ -

غزارة مزايا النظم لتعدد متصرفات عناصر النظم ۲۴۳ – النمط العالى بين البيان القرآنى و البيان النبوى ۲۴۶ – أقرب الصحابة شبها بالبيان النبوى ۲۵۱ رابعا: خصوصيات حلقات الوصل فى القرآن: ۲۵۵ خامسا: دور التجويد فى تيسير الأداء و تجميله ۲۶۰– قواعد الترتيل المؤدية إلى خفة النطق و حلاوته. ۲۶۲ – تحقيق التوازن بين الغاية الصوتية و الغاية المعنوية ۲۶۴ – اطراد التناسب المعنوى بين الفاصلة القرآنية و آياتها ۲۶۶ سادسا: خصوصية بناء السورة القرآنية ۲۷۲– فواتح السور ۲۷۳ – مدى التناسب بين الابتداء و سائر البناء ۲۷۳ – عناصر البناء المكملة ۲۷۶ – حلقات اتصال المعانى فى سورة طه ۲۷۷ – من عوامل تماسك البناء فى السورة القرآنية ۲۸۴ – درجات الصلات بين معانى السورة القرآنية ۲۸۷ – ظواهر الصياغة و الإيقاع اللافتة فى سورة (المؤمنون) ۲۹۰ سابعا: خصوصية الطابع الإلهى ۳۰۲

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علىّ ُبنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائميّة "الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم. مركز "القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ– بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلى التَّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة –فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت– عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و... – مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَى. – من الأنشطة الواسعة للمركز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و... د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ أُخرَ ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَةِ المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان"

ومُفترَق"وفائى/"بنايـة"القائميّة "تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريـة القمريّة) رقـم التسـجيل: ۲۳۷۳ الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقــع: www.ghaemiyeh.com البريــد الالـكترونى: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانـترنتى: www.eslamshop.com الهــاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفــاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مكتــب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التِّجاريّة و المَبيعـات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المسـتخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظـة هامّـة: الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شـَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمـام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايـد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلـك، يرجو مِن جـانب سـماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعـالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكـلَّ توفيقـاً متزائـداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة اصفهان للبحوث والدراسات الکمبیوتریة
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹